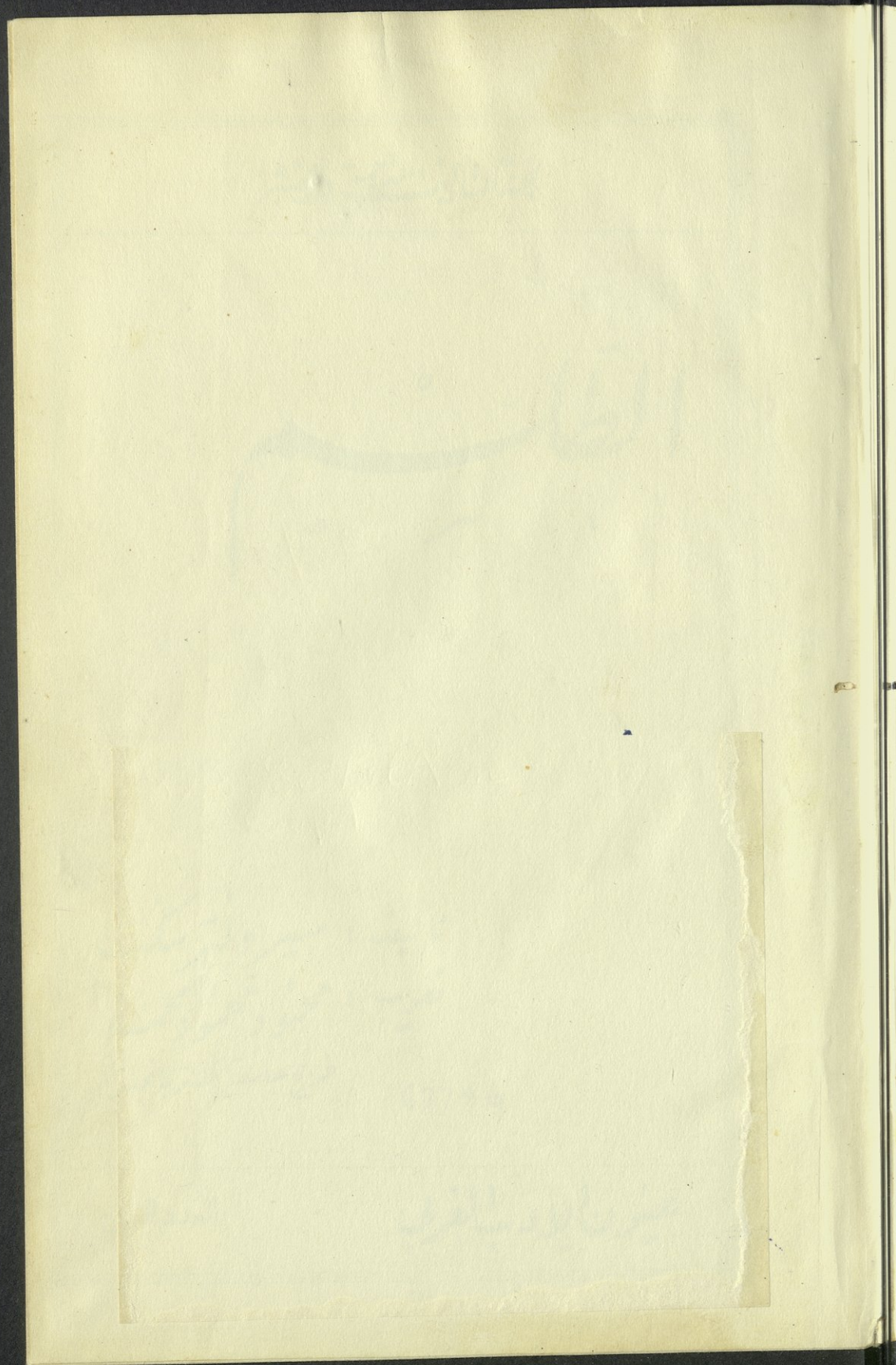


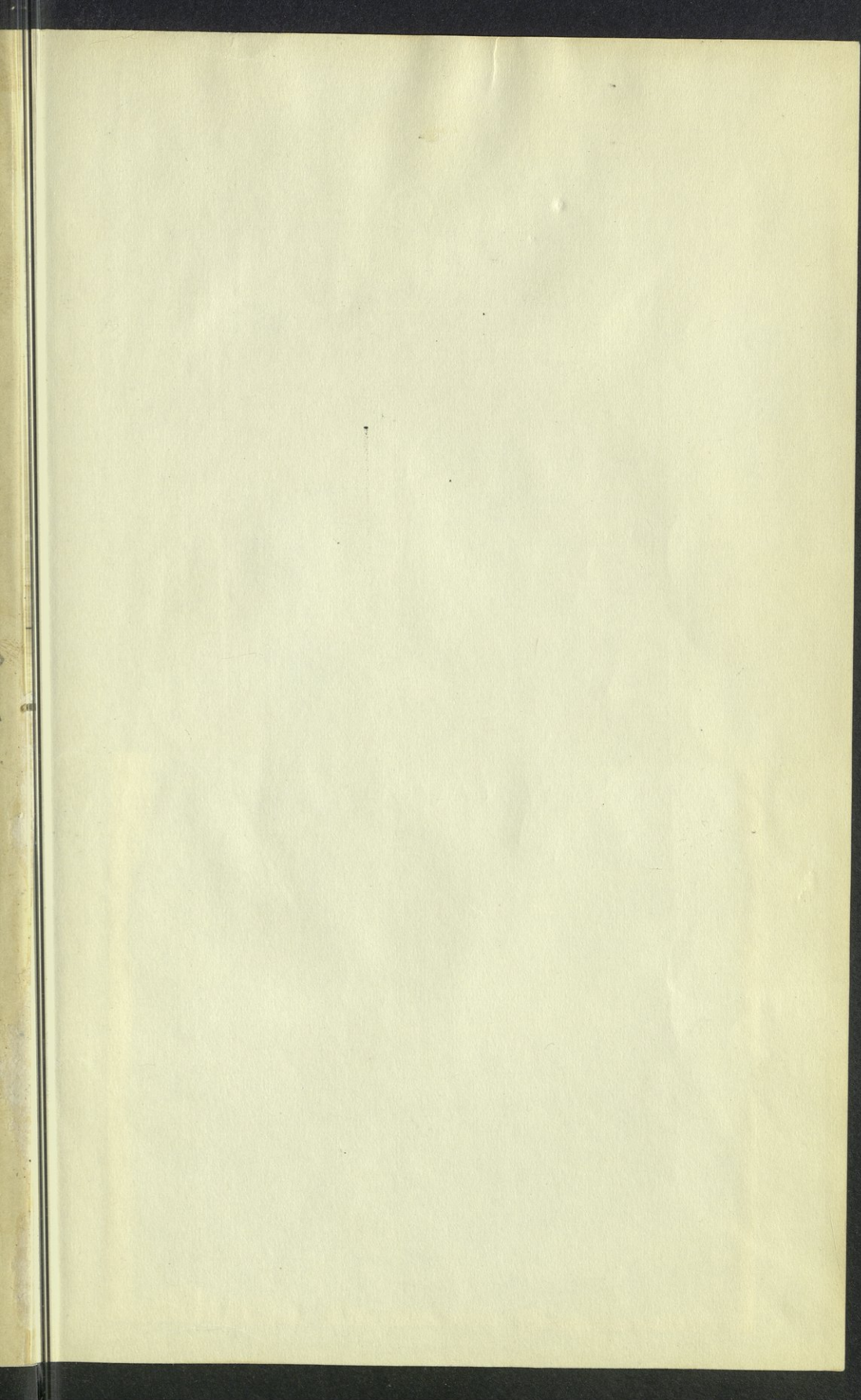
82

1

823
Sc 43
C

تجلید صالح الدقر
تلفون ۲۲۹۷۷





بجته التأليف والترجمة والنشر

الطاسم

تأليف : سير ولتر سكوت
تقريب : محمود محمود محمد
فخرج جامعة أكستر بإنجلترا

67746

العدد الثاني

عيون الأدب العربي

East. Dept. 1948



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

نقد المصرب

كان من أثر الثورة الفرنسية أن تحرر الفكر الأوربي ، وانطلق من قيوده ، وظهرت الحركة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، وأخذ أتباع هذا المذهب الجديد ينادون بحرية اللفظ وإطلاق الخيال من أسر التقليد .

ومن زعماء هذه الحركة في الأدب الانجليزي « السير والتر سكوت » Sir Walter Scott صاحب هذه الرواية التي نحن بصدد نقلها إلى قراء العربية . بدأ حياته الأدبية بكتابة الأغاني الشعبية ، التي سرعان ما ترددت على كل لسان ، وزاعت بين الناس جميعاً ؛ وكان يسوق في هذه الأغاني طرفاً من القصص التاريخي القديم ، مشيداً بذكر الأبطال الأقدمين ، وما وقع في سالف الأيام ؛ ولكنه لم يلتزم الصدق والدقة في رواية التاريخ ، بل كثيراً ما كان يطلق لخياله العنان ، فيخلق شخصاً من العدم ، ويذكر أحداثاً لم تقع ؛ وكانت أحب فترات التاريخ إلى نفسه العصور الوسطى . كان يستهويه منها روح الفروسية ، وميولها العسكرية وحروبها التي لم تنقطع .

وظل سكوت في أعين الجمهور زعيم الشعراء ، حتى ظهر اللورد بيرن ، وبزّه ، واجتذب منه كثيراً من المعجبين بأناشيده الشعبية ، فانصرف سكوت من الشعر إلى النثر ، وهجر الأغاني إلى الرواية ؛ وكان في قصصه الروائي — كما كان في شعره — يعمد إلى إحياء التاريخ الأوسط ، ويرى فيه مجالاً واسعاً لإرسال الخيال وابتداع القصص ؛ ومن بين القصص التاريخية العديدة التي كتب قصة « الطلسم » التي نقدمها اليوم إلى القراء الناطقين بالضاد ، وقد وقع اختيارنا عليها دون غيرها لأن موضوعها يتصل بالقارىء الشرقى ، ويتناول موقفاً من المواقف المشهورة في الحروب الصليبية بين رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا

وصلاح الدين الأيوبي ؛ والقصة تبسط لنا كثيراً من مميزات العصور الوسطى ،
وتبين كيف كان أبناء الغرب من المسيحيين ينظرون إلى أهل الشرق من المسلمين ،
كما تبين الروح العسكرية السائدة في تلك العصور ، والاستماتة في الدفاع عن الدين ،
والاعتقاد في الخرافة والسحر ، وطرفاً من حياة الرهبان المسيحيين وقسوتهم على
أنفسهم في أسلوب توبتهم إلى الله وتكفيرهم عن ذنوبهم .

وترى في الرواية كذلك لونين متباينين من الحب : لوناً شهوانياً مجرداً يعزوه
« سكت » إلى أهل الشرق عامة ، وآخر أفلاطونياً عذرياً ، ويعزوه إلى الغربيين
في ذلك الزمان ، وهو حب لا يمس العاشق فيه معشوقته ، ويكاد يسجد لها من
دون الله .

ولعل أدق ما ترويه لنا الرواية تحليلاً مفصلاً لشخصي رتشارد وصلاح الدين .
يعرض لنا « سكت » « رتشارد » رجلاً قوى البنية ، غليظ الطبع ، شديد النفوذ
على أتباع الصليب جميعاً ، سريع الغضب ، سليم الطوية ، صريح العبارة ، لا يعرف
إلى الإدارة أو التواء المقصد سبيلاً . أما صلاح الدين فيمثل المكر والدهاء ، والصبر
وطول الأناة ؛ يمرضه لنا المؤلف في مستهل القصة متخفياً في شخص مقاتل من
المقاتلين المسلمين ، مقداماً شجاعاً ، لا يتهيب ولا يخاف ، ثم يخلع عنه زى المحارب ،
ويأتى لنا به ثانية متنكراً في لباس الطبيب أو « الحكيم » ، كما يجب سكت أن
يسميه عامداً ، لأنه يريد أن يوصل إلى أن العرب كانت تخلط بين « حكمة »
الطب و « حكمة » الفلسفة ورواية الحكم والأمثال ؛ وفي مختتم القصة ينزع
صلاح الدين كل معالم التنكر ويبرز لنا في شخصه الحر الكريم ، جواداً ، سياسياً
حنكاً ، وحكماً عادلاً بين الصليبيين .

وكما أن « سكت » يعتذر لنا في مقدمة الرواية عن مسخه لحقائق التاريخ
وتغييره وتبديله فيها ، ويقول إن في ذلك الفارق بين القصص التاريخي وعلم
التاريخ ؛ فنحن نعتذر إلى القارئ المسلم عما قد يجد في القصة مما يسيئه ونلتمس

لسكت المَعذرة في ذلك ، لأنه يكتب عن حرب دينية بين الصليب والهِلال وعن
عصر كان التعصب الديني فيه على أشده ، فمن الطبيعي أن يسخر المسيحي من دين
المسلم وأن يهزأ المسلم بعقيدة المسيحي .

والآن أنتقل بالقارىء إلى ما كتب سَكْتُ ، آملاً أن يجد في القصة لذة
ومتعة ؛ وأن يتسامح في شرود المؤلف وهفوات العرب .

المهرب

نوفمبر سنة ١٩٣٧

مقدمة المؤلف

لم ترق قصة « المخطوبة » كثيراً لصديق أو صديقين ، وظننا أنها لا تتلاءم كل الملاءمة وما أخرجنا أخيراً من قصص تحت عنوان « الصليبيين » ، وأكداً على أن هذا العنوان : « قصص الصليبيين »^(١) دون الإشارة المباشرة إلى أخلاق قبائل الشرق ، وإلى الخصومات الخيالية في ذلك العهد ، يكون بمثابة اللوحة تعلن عن مأساة « هاملت » ولا تذكر شخصية أمير الدنمارك^(٢) . ولكنى ، من ناحية أخرى ، أدركت المشقة في رسم صورة حية لجزء من العالم أجهله كل الجهل ، وليس لدى عنه إلا ذكريات باكرة لقصص ألف ليلة وليلة ؛ ولست أعانى من قصور الجهل فحسب ، ذلك الجهل الذى أحاطت به غيومه كثيفة فيما يتعلق بأخلاق الشرق ، كما تحيط الغيوم بالمصرى ، ولكن هناك كثيراً من معاصري على بينة من الموضوع كأنهم من أهل أرض « جوشن » المكربة ، فلقد تغفل حب الأسفار بين جميع الطبقات ، ودفع بأبناء بريطانيا إلى أنحاء العالم طرا ، وتطلعت عيون البريطانيين في العهد الأخير إلى بلاد اليونان ، التى تجذب النظر بما فيها من آثار الفنون ، وبجهادها في سبيل الحرية في وجه حاكم مسلم طاغية ، بل وباسمها ذاته ، حيث لسكل عين أسطورتها القديمة ، كما تطلعت إلى فلسطين التى تجلبها إلى الخيال ذكريات أكثر من هذه قداسة ، والى وصفها الرحالة في العصر الحديث . ولذا فإننى لو حاولت هذا العمل الشاق : وهو أن أبذل بأساليب من بنات خيالى أزياء الشرق الحقيقية ، فإن كل رحالة ألاق ممن ضربوا في الأسفار إلى وراء ما كان يعرف قديماً « بالرحلة العظمى » ، يحق له بشهادة العين أن يأخذ على

(١) هى مجموعة قصص أخرجها «سكت» كلها يدور حول الحروب الصليبية ومنها قصة

«الطلمس» هذه وقصة المخطوبة التى يشير إليها هنا .

(٢) إحدى شخصيات رواية (هاملت) لشكسبير .

ما زعمت لنفسى ، وكل عضو من أعضاء « نادى الرحالة » يزعم أنه وطأ بقدميه أرض « آدم » له أن يقف منى موقف الناقد الشرعى ويراجعنى فيما أقول . ولما كان مؤلف « أناستاسيوس » ، وكاتب « الحاج بابا » ، قد وصفا عادات الأمم الشرقية ورذائلها وصفاً صادقاً صحيحاً ، تمازجه فكاهة « لى ساچ » ومقدرة « فيلدنج » على إثارة الضحك ، فقد عنى أن رجلاً كهتلى ، الموضوعُ غريب عنه كل الغرابة ، لن يصدر ، وهو راغم ، إلا عما يباينهما مباينة غير مستساغة ؛ أضف إلى هذا أن شاعر البلاط فى قصته الفاتنة « ثلّبا » قد بين لنا كيف أن رجلاً عليماً موهوباً مثله يستطيع أن يبلغ فى بحثه بطريقة الاستقراء وحدها شأواً بعيداً فى معرفة العقائد القديمة — وتاريخ الشرق وعاداته ، وبلاد الشرق هى المجال الذى ينبغى لنا أن نبحث فيه عن مهد الإنسان . وسار « مور » على الدرب عينه موقفاً فى كتابه « للاً روح » كما سار « بيرون » وضم تجاربه مشاهداته إلى واسع اطلاعه ؛ وكتب بعضاً من قصائده الخلافة الفاتنة . وقصارى الكلام إن موضوعات الشرق قد عاجلها من قبل علاجاً ناجحاً أناس أقرّ لهم بالبراعة فى هذا الفن ، فبت أستحى من المحاولة فى هذه السبيل .

كانت هذه العقبات شديدة علىّ ، ولما أمسيت أفكر فى الأمر جاداً لم تقتر ولم تهن ؛ ولكنى قهرتها فى نهاية الأمر ؛ وما أملت أن أبارى من ذكرت من المعاصرين ، ولكنى رأيت ، من ناحية أخرى ، أن أخلص من الأمر الذى شغل خاطرى زمناً ، دون أن أدخل مع أحد فى ميدان المنافسة .

واستقر بى الرأى أخيراً على تلك الفترة التى تتصل بالحروب الصليبية اتصالاً وثيقاً ، والتى التقي فيها صلاح الدين برتشارد الأول ، ذلك الملك المقاتل ، ذلك الرجل الساذج الكريم ، ذلك المثال الصادق للفروسية بكل ما فيها من إسراف الفضائل ، وما فيها من رذائل لا تقل عنها إسرافاً ؛ وقد أظهر الملك المسيحى الأنجليزى كل قسوة وعنف ، وهما من صفات السلطان الشرقى ، بينما أبان صلاح الدين عن الحكمة والسياسة البعيدة ، وهما من مميزات الملك الأوروبى ؛

وتباريا أيهما يفضل الآخر في صفات الفروسية والشجاعة والكرم . هذا التباين الفريد بين الرجلين أمد المؤلف ، كما يظن ، بالمادة التي ينسج منها قصة خيالية لها لذة فائقة ؛ وكان من الشخصيات الثانوية التي أدخلت على الرواية فتاة زعموا أنها من ذوات قربي رتشارد قلب الأسد ، فكان في ذلك مسخ لحقائق التاريخ استاء له المستر « ملز » مؤلف « تاريخ الفروسية والحروب الصليبية » ، وما نحسب إلا أنه لا يدرى أن القصص الخيالي له ، بطبيعة الحال ، أن يبتدع مثل هذا الابتداع ، وإنها حقاً لضرورة من ضرورات الفن .

وضمت قصتي كذلك الأمير « داود الاسكتلندي » الذي التحق بالجيش فعلاً ، والذي لعب دور البطولة في بعض المغامرات الخيالية وهو في طريق العودة إلى وطنه ، وقد جعلت منه شخصية من شخصيات الرواية .

وحقا لقد أُنزلت من قبل قلب الأسد إلى ميدان القصص ، ولكنني عرضت فيما مضى لصفاته الخاصة أكثر مما عرضت هنا في « الطلسم » . كان في القصص السالفة فارساً متنكراً ، أما هنا فهو بصفته الصريحة ، صفة الملك الغازي ؛ ولذا فما تسرّب إلى الشك في أن اسماً كاسم الملك رتشارد الأول ، عزيزاً على الانجليز ، ربما عمل على إدخال السرور إلى نفوسهم أكثر من مرة .

وعالجت كل ما كان يمتدد القدماء ، من صدق ومن خرافة ، بشأن هذا المقاتل العظيم الذي كان أكبر نحر لأوروبا وفرسانها ، والذي ألف العرب — حسب ما يقول مؤرخ من بلادهم — أن يسبوا خيولهم إذا ذعرت باسمه المخوف ، فكانوا يقولون « هل تحسبين أن الملك رتشارد في طريقك فتحيدن عنها أبدة ! » . وأعجب سجل لتاريخ رتشارد الملك قصة خيالية قديمة ترجمت عن أصل نورماندي ، وقد كانت أول أمرها أقرب ما تكون إلى رواية عمل من أعمال الفروسية ، ولكنها حُشيت فيما بعد بأعجب الأساطير وأشدّها فزعاً ، وربما لم تتوارد على الأيام قصة خيالية منظومة يختلط فيها التاريخ الحق العجيب بحداثات أكثر من هذه مبالغة

وأشد عبثاً ؛ ولقد سقنا في ملحق هذه المقدمة عبارة القصة التي يظهر فيها رتشارد بمظهر الغول يأكل بالفعل لحم البشر .

ومن الأحداث الهامة بالقصة ذلك الحدث الذي استمددنا منه العنوان ، ولربما كان الفرس من بين جميع الأمم التي عاشت أكثرها شهرة بعقيدتهم التي لا تنزع عن كواكب خاصة ، وكانت لها قدرة طبية فائقة ، كما كانت الوسيلة التي تسيطر على حدود الرجال ؛ وكثيراً ما ترددت في غرب اسكتلندا أقصوصة من هذا الضرب ، تتعلق بمحارب صليبي من المحاربين المبرزين ، وما يزال الطلسم الذي يشار إليه موجوداً ، بل وما يزال له احترام وتقديس .

وكان السر « سَيْمُونُ لُكْهَارْتُ » صاحب « لى » و « كلارتلاند » ، شخصية لها وزنها أيام حكم « روبرت بروس » وابنه « داود » ، وكان أحد زعماء تلك العصابة الاسكتلندية من الفرسان التي صحبت « جيمس » أو اللورد « دوجلاس » الطيب ، في حملته على الأرض المقدسة مؤيداً من الملك « روبرت بروس » ، وكان « دوجلاس » يتعجل الفتك بالعرب ، فاشتبك في حرب مع أهل أسبانيا ولاقي حتفه هناك ، أما « لُكْهَارْتُ » فقد استأنف مسيره إلى الأرض المقدسة مع من نجا من الفرسان الاسكتلنديين مما أصاب قائدهم ، واشترك مدة من الزمن في الحروب المشتعلة ضد العرب .

وتواتر الخبر على أنه اشتبك في المعامرة التالية : أُسرَ يوماً في الحرب أميراً ذا ثروة طائلة ونفوذ كبير ، فأنت إلى معسكر المسيحيين أم الأسير المعجوز كي تخلص ابنها من أسره ، وحدد « لكهارت » ، كما قيل ، قدراً مالفداء السجين ، فأخرجت السيدة كيساً كبيراً مطرزاً وشرعت تعد نقد الفدية ، كأمٍ لا تقيم للذهب إلى حرية ابنها وزناً ، وإذ هي كذلك ، سقط من الكيس حجر موثوق بقطعة من النقد ، يقال إنه من العالم السفلي ، فأظهرت الأم العربية عجلة شديدة في التقاطه ، مما جعل الفارس الاسكتلندي يعتقد في نفاسته وعلو قيمته ، إذا

قيس بالذهب أو بالفضة ، فقال : « إني لن أرضى باطلاق سراح ابنك إلا إن ضمنت إلى فديته هذا الحرز » ، فقبلت السيدة ، بل وشرحت للسر « سيمن لكهارت » فضائل التيمة وطريقة استخدامها ، وقالت إنها إذا غمست في ماء استحال الماء دواءً يوقف نزيف الدم ، ويخفف الحمى ، وأصبحت له خصائص أخرى كثيرة كتيسة طبية .

وبعدما اختبر السر « سيمن لكهارت » العجائب الكثيرة التي تفعلها هذه التيمة ، أتى بها إلى بلده ، وتركها لورثته ، فمزوها ، هم وأبناء « كليدزديل » عامة ، وما يزالون يميزونها باسم « لي پني » نسبة إلى وطنه « لي » .

وربما كان أعجب فصل في تاريخها أنها نجت خاصة من النعمة ، حينما أرادت الكنيسة في اسكتلندا أن تصب سخطها على كثير غيرها من أسباب العلاج ، التي كانت لها صفة الإعجاز وفعل السحر ، وأنكرت الكنيسة على الناس الالتجاء إليها جميعاً « ما خلا التيمة المعروفة باسم « لي پني » فقد أراد الله أن يخصها ببعض فضائل الشفاء التي لا ترغم تحريمها الكنيسة » ، وهي ، كما قيل ، مازال موجودة ، ويلوذ بسلطانها الناس أحياناً ؛ وأخيراً انحصر فعلها خاصة في علاج من يعضه كلب مسعور ؛ ولما كان المرض في مثل هذه الأحوال كثيراً ما ينشأ عن الوهم ، فليس ثمت ما يدعو إلى الشك في أن الماء بعد أن يصب على « لي پني » ، تصير له قوة العلاج الناجع .

هذا ما تواترت به الأخبار عن التيمة (أو الطلسم) ، وقد استباح المؤلف لنفسه الحرية في تحويره ، وهو يستخدمه في أغراضه الخاصة .

واستبحنا لأنفسنا كذلك كثيراً من الحرية في حقائق التاريخ فيما يخص حياة « كنراد منتسرا » ومماته ؛ أما أن « كنراد » كان عدواً لرتشارد فهو ما يتفق عليه التاريخ وقصص الخيال . وتستطيع أن تقدر العقيدة التي سادت بين الناس بشأن ما كان بينهما من صلة ، من الاقتراح الذي تقوم به العرب ، وذلك أن يُولَّى « مركز منتسرا » على أنحاء معينة من سوريا تنازلوا عنها للمسيحيين ، ولكن

رتشارد ، كما جاء في القصة الخيالية التي تحمل اسمه « لم يستطع بعد هذا أن يكتم غضبه ، فقال إن المركيز خائن اغتصب من فرسان « الاسبتارية » ستين ألف دينار ، وهي عطية من أبيه هنرى ، وقال إنه مرتد ، نجم عن غدره ضياع « عكا » ، وختم حديثه بيمين غليظة أقسمها ليمزقنه إربا إربا بالخيول الآبدة ، لو أنه اجتراً يوماً على تدنيس معسكر المسيحيين بمثوله هناك ؛ وحاول « فيليب » أن يتوسط لجانب « المركيز » فرمى بقفازه وقدم نفسه رهينة لإخلاقه للمسيحيين ، ولكن هذا العرض لم ينل قبولا ، واضطر « فيليب » إلى أن يخلى السبيل لرتشارد وسورته « — من « تاريخ الفروسية » .

و « كتراد منتسرا » شخصية هامة في هذه الحروب ، وقد ألحق به الموت في آخر الأمر ، واحد من أتباع « الشيخ » ، رجل الجبل العجوز ، ولكن رتشارد لم يخل من ريبة الناس في الإيعاز إليه بالقتل .

ويمكننا على الجملة أن نقول إن أكثر الحوادث المساقة في القصة التالية هي من خلق الخيال ، وأن الحقيقة ، حيثما توجد ؛ لا أثر لها إلا في أشخاص الرواية .

أول يوليو سنة ١٨٣٢

ملحون بالمقدمة

أصيب رتشارد بالحمل وهو يحارب في الأرض المقدسة ، وعجز خير أطباء
المعسكر عن وصف الدواء الناجع لعلته ، بل لقد كان دعاء الجيش له أنجمع علاجاً
فنهقه من مرضه ، وكانت أولى علامته شفائه رغبة شديدة في أكل الخنزير ،
ولكن لحم الخنزير لم يكن من الميسور أن يتوفر في بلد أهله بمقتونه .

« (١) ولو استمات رجاله لم يجدوا في هذا البلد لحم الخنزير ولو وجدوه لشروه
بالذهب والفضة والمال ، ولحلوه إلى رتشارد الملك ، فياً كل منه ما تيسر ؛
وكان يقيم مع رتشارد فارس عجوز ، لما نما إليه هذا الخبر ، وعرف أن رغبة
الملك لم يجب ، قال للحاجب سرا ، لقد اشتد المرض بمولانا الملك ، وأنا أعلم أنه
يتوق إلى لحم الخنزير ، ولكنك لن تجده هنا فتشريه ، وليس من بين الرجال
من تبلغ به الشجاعة أن يخبره بهذا ، ولئن فعل ، لكان في قوله حتفه ، والآن
ينبغي لكم أن تفعلوا كما أقول لكم ، ولكن بركم لا تجربوه بشيء منه : خذوا
عربياً شاباً سمينا ، وتمجلوا بقتله ، وافتحوا جوفه ، واسلخوا جلده ، واسلقوه
بأسره سريعا بالديق والتوابل ، وبالزعفران الزاهي ، فإذا ما اشتم الملك
نكهته فستزول عنه الحمل ويثوب إلى رشده ، وإذا ما استساغ الطعام وأكل
أكلة طيبة وتعشى بالحساء ثم استغرق في النوم وابتل بالعرق ، فإنه بعون الله ،
وبمشورتى ، سوف ينتعش عما قريب ويشفى ؛ وإليك صدق ما تم في موجز من
اللفظ : قُتل الكافر الزنيم ، ثم سلق وحجى به إلى المليك ، وقال له رجاله ، مولانا ،
لقد آتيناك بلحم الخنزير ، فكل واطعم من حلو الحساء ، وبفضل الله وبركته
ليكون لك فيه الشفاء ، وقبل أن يشرع رتشارد الملك ، شرّح اللحم فارساً ،
وأخذ يلتهمه التهاماً ، وأكل الملك اللحم ، وقرض العظام ، ثم أدمن في الشراب

(١) هذه قصة خيالية عن رتشارد بشأن هذا الحادث ، والأصل منظوم بالانجليزية القديمة .

ساعة ، وبعدما تناول ما أشبعه ، خلفه قومه ، وأخذوا يتضاحكون ، ثم استلقى
ساكنا ، وجذب إليه ذراعه ، ولفه حاجبه وأدفأه ، ثم رقد ونام ، وتصيب منه
العرق ، ودبت فيه الصحة والعافية ، ثم ارتدى ملبسه ، وهب من مرقدته ، وأخذ
يمشى هنا وهناك فيما جاوره » اه .

ودحر رتشارد بنفسه جماعة من الأعراب أتوا مهاجمين ، وتروى لنا الأسطر
التالية ما انتهت إليه المعركة :

« (١) استراح الملك قليلا ، ثم شرع أحد الفرسان ينزع عنه أسلحته ،
كى يريحه ويلهيه ، ثم جىء له بنقيع النبيذ ، وأمر طاهيه قائلا : هات لى رأس
ذلك الخنزير عينه الذى أكلت منه ! فأنى ضعيف واهن مجنون ، وإنى الآن
لنى خوف من آثامى . قدم لى ذلك الرأس مع طعام العشاء ! ، فقال الطاهى :
« ليس عندى هذا الرأس » فقال الملك ، رحماك اللهم ! إنى أرى رأس ذلك
الخنزير ، فهاته وإلا فتالله لتفقدن رأسك ! » . ولم ير الطاهى من مطلب
المليك مهربا فأعد الرأس ، وقدمه إليه ، فخر على ركبتيه وصاح « هيا ، هيا ! هذا
هو الرأس ! رحماك رباه ! » .

ولا مرأى فى أن الطاهى كان له بعض المذرة فى خوفه من سيده يصعق ذعرا
لو عرف حقيقة الأكلة المروعة التى يدين لها بشفائه ، ولكن سرعان
ما تقشعت مخاوفه .

« (٢) ولما رأى الملك الوجه الأسود ، ولحيته السوداء ، وأسنانه البيض ،
وكيف تجهم وانفرجت شفتاه صاح « أى شيطان هذا ؟ » وشرع يضحك كعادته
ثم قال : « ماذا ! هل لحم الأعراب لذيذ هكذا ؟ والله ما عرفت من قبل هذا !
أقسم بقضاء الله وقدره إنا لن نموت قط جوعا ، ما دمنا كلما هجمنا استطعنا أن
نقتل العرب ، ونأخذ لحهم ؛ ونطهيه ونشويه ، ونجففه ونقرض لحمه حتى العظام !

(١) هذه القطعة منظومة فى الأصل .

(٢) هذه الأسطر منظومة فى الأصل .

والآن وقد جربته مرة فلا تكن وقوى منه مزيدا ، ونسد رمق الجوع قبل أن يقتلنا ! » .

وتقدم المحاصرون يسلمون ويشرطون تأمين أهل البلاد ، وقدموا للظافرين ثروة الجمهور بأسرها ، والآلات الحربية والأسلحة ، وفدية قيمتها مائة ألف بيزنط ؛ وبعد التسليم وقع الحادث الغريب الذي نرويهِ فيما يلي ، وسوف نسوقه إليك في أسلوب « جورج أليس » الفكه المحبوب ، وهو جامع هذه القصص الخرافية وناشرها .

« أخلصت الحامية في تنفيذ شروط الاتفاق جميعا ، إلا أنها عجزت عن رد الصليب ، إذ أنه لم يكن بجيازتها ، فأغلظ لها المسيحيون في المعاملة ، ونمت إلى صلاح الدين الأنباء كل يوم عما يكابد مقاتلوه ؛ ولما كان الكثير منهم رجلا ذوى مكانة عالية ، فقد بعث ملكهم ، نزولا عند رجاأ أصدقائهم ، بالرسل إلى الملك رتشارد ، ومعهم جليل الهدايا التي قدمها فداء للأسرى ؛ وكان السفراء رجلا ذوى هنية ووقار ، سنا ومرتبة وفصاحة ، فبلغوا رسالتهم بكل آيات الخضوع ، ولم يتهموا عدالة الظافر في معاملته الخشنة لبنى جلدتهم ، وإنما اكتفوا بالتوسل إليه كي يحدد لهذه الشدة أجلا ، ووضعوا لدى قدميه الكنوز التي كانت أمانة في أعناقهم ، وقدموا أنفسهم وزعيمهم رهائن لأى مبلغ آخر يريده الملك ثمنا لرحمته .

» (١) فقال الملك رتشارد بعذب اللفظ : كيف لى أن آخذ الذهب ؟ رحماك اللهم ! قسموا بينكم كل ما حلتكم ، فلقد أتيت معى فى السفن والمراكب بذهب وفضة أكثر مما يملك زعيمكم وثلاثة من أمثاله . ما بى إلى كنوزة حاجة ! ولكنى أمركم حبا لى أن تقيموا معى زمنا ، ثم أخبركم بعد هذا نبأ ، وأجيكم برأى سديد ، وأقول لكم بأية رسالة تعودون إلى مولاكم .

(١) هذه الأسطر منظومة فى الأصل .

« فقبل الوفد الدعوة شاكرًا ، وأصدر رتشارد في ذات الوقت أمراً سرياً إلى قائده بأن يتوجه إلى السجن ، وينتقى عدداً محدوداً من خير الأسرى ، وبعد ما يسجل أسماءهم بعناية في سجل من الورق ، يأمر بحز رقابهم فوراً ، ثم تسلم رؤوسهم إلى الطاهى ، ويؤمر بأن يزيل شعورهم ، وبعد ما يغلى رؤوسهم في دست ، يوزعها على صحاف عديدة ، ويقدم لكل ضيف صحفة ، ويربط على جبين كل رأس قطعة من الورق تبين اسم صاحبه وقبيلته .

« وهات ^(١) لى قبلهم جميعاً رأساً حاراً ، كأنى دفعت له ثمناً عالياً ، ولأكلن منه التهاماً ، كأنه فرخ طرى ، ثم أرى ماذا يفعل الآخرون .

« ونفذ هذا الأمر المروع في حينه ، وفي منتصف النهار دعى الضيوف ليغتسلوا على أنغام الموسيقى يعزف بها الخدم ، ثم اتخذ الملك له مقعداً ، وتبعه كبار ضباط بلاطه ، عند المائدة العليا ، واصطف بقية الحشد لدى مائدة طويلة دونه ؛ وعلى كساء الموائد وضعت مقادير من الملح على الأبعاد المألوفة ، ولم يكن هناك خبز ولا نبيذ ولا ماء ، فدهش السفراء لهذا النقص ، ولكنهم ما برحوا من الخوف خليين ، ولبثوا يرتقبون في صمت تقديم الغداء ، وقد أعلنت مقدمه أصوات المزامير والأبواق والدفوف ، ولشد ما كان رعبهم وفزعهم حيناً رأوا وليمة غير معهودة يقدمها شيخ الحجاب وضباطه ، وغلبهم التشوف ، فثارت مشاعرهم بالتقرز والاشتمزاز ، كما لبثت مخاوفهم مكبوتة فترة من الزمن ، ووجهوا نحو الملك أبصارهم ، وما تغيرت ملامحه قيد شعرة وهو يتلع اللقمت متلهفاً ، كلما شرَّح الفارس قطعة وقدمها إليه .

« فتغاضى ^(١) الرجال وقالوا إن هذا إلا أخو الشيطان ، يقتل رجالنا ويأكلهم كما نرى ! .

« ثم وجهوا بعد هذا انتباههم مكرهين إلى الرؤوس التى قدمت إليهم ، وقد

(١) هذه الأسطر منظومة بالإنجليزية .

تصاعد منها الدخان ؛ وأرادوا أن يتعرفوا من ملامح الوجوه المنتفخة المشوهة
علام الشبه بصديق لهم أو قريب حميم ، فعرفوا من العبارات التي كانت تصحب
الأطباق ما أكد لهم أن هذا الشبه لم يكن وهما ولا خيالا ، فعرتهم الكآبة وجلسوا
في صمت وجمود يترقبون قضاءهم ، كما قضى على بنى وطنهم من قبل ، بينما كان
مضيفهم الضاري ، والغضب ملء عينيه ، والظرف على شفتيه ، يسئ إليهم
بالإلحاح في دعوتهم إلى اللغو والمرح ؛ وبعد لآي ، أزيل هذا السباط الأول ، وجرى
مكانه بلحم الغزال والكراكي ، وغيرها مما لذ وطاب ، مصحوبا بأطيب الخمر ،
واعتذر لهم الملك عما فات ، وعزاه إلى جهله بدوقهم ، وأكد لهم احترامه الديني
لأشخاصهم كسفراء ، واستعداده لأن يمدّهم بمشرد يهديهم في عودتهم وهم آمنون ،
وكانت هذه المنحة هي كل ما رغبوا إذ ذاك في طلبه .

« ثم قال ^(١) الملك رتشارد إلى رجل عجوز ، امض نحو بلدك إلى سلطانك
وخفف من أحزانه ، وقل له إنك جئتنا متأخرا ، وإنك أخطأت تقدير الزمن
فأبطأت ، وإنا ، قبل أن تأتينا ، كنا قد طهينا اللحم ، وأعدّه الرجال ليقدموه لي
ولصحابي في منتصف النهار ؛ قل له أن ليس وراء مسعاه من جدوى ، حتى وإن
حبس عنا طعامنا من خبز وتمر وسمك ولحم وحث سليمان وثعابين البحر ، فإن
أحدنا لن يموت جوعا ما دمنا نستطيع أن نسير إلى الحروب ونقتل الأعراب
تقتيلا ، فنطهر لحومهم ، ونشوى رؤوسهم . إني بعربي واحد أستطيع أن أطعم
تسعة أو عشرة من خيار رجالى المسيحيين وأشبعهم . إن الملك رتشارد يشهد أن
ليس هناك لحم من حجل أو قطقاط أو مالك الحزين أو الأوز العراقى ، أو الأبقار
والثيرة ، أو الأغنام والخنازير ، أكثر تغذية للرجل الإنجليزى من رأس العربى ،
فإنه سمين طرى ، ورجالى هزيلون نحيلون . ما دام فوق سوريا هذه عربى واحد
حتى فإننا لن نفكر في اللحوم ، فعليه لتنقضن سريعا ، وكل يوم نأكل منه بقدر

(١) هذه المقطوعة منظومة في الأصل .

ما نستطيع ، ولن نعود إلى إنجلترا حتى نأكلهم جميعا واحداً بعد الآخر » .
من كتاب « أليس » — « أمثلة من القصص الخيالية الإنجليزية القديمة المنظومة » الجزء
الثاني ، صفحة ٢٣٦ .

وربما تشوق القارئ إلى معرفة الظروف التي أدت إلى أن يختلط هذا الخيال
الجامح — الذي يعزوا أكل اللحوم البشرية إلى ملك إنجلترا — بتاريخ الملك ،
ويظهر أن المستر « جيمس » ، الذي نحن مدينون له بالكثير مما هو عجيب
غريب ، قد وصل إلى أصل هذه الإشاعة العجيبة .

يقول هذا المؤلف « . . . وكان مع جيش الصليب كذلك جمهور من الرجال
لا عمل لهم إلا الإفلاس ، يسرون حفاة ولا يحملون سلاحاً ، بل ويسبقون دواب
الحمل في المسير ، ويمشون على الجذور والأعشاب ، ويظهرون بمظهر تسمثر له
النفوس وتشفق منه .

« واعتزم رجل نورماندى كان — كما روى — شريف النسب ، ولكنه أضعاف
جواده فتابع المسير كجندى من المشاة ، أن يضع نفسه على رأس هذه الشرذمة من
المشردين الذين رضوا به ملكاً عليهم عن طواعية ، وبات هؤلاء الرجال يعرفون
بين الأعراب باسم « الظافرين » (وترجمها جويرت إلى Trudentes) ، وكانوا
ينظرون إليهم برعب شديد ، لأنهم كانوا جميعاً يميلون إلى الاعتقاد بأنهم يعيشون
على جثث أعدائهم ، وهو نبأ كان يتحقق حين بعد الآخر ، وكان ملك « الظافرين »
يعنى بتشجيعه ، وهذا الملك المبجل كثيراً ما تعود أن يصف أتباعه واحداً بعد
الآخر في خط واحد ضيق ، ثم يأمر بالبحث فيما يحملون بحثاً دقيقاً ، خشية أن
يكون بحيازتهم ولو قليل من المال ، فلا يجدر بهم أن يكونوا من رعيته ، وإذا ألقى
مع أحدهم دانقاً واحداً أبعدته في الحال عن مخالطة أبناء قبيله ، وأمره بازدراء أن
يشترى السلاح ويشارك في القتال .

« وهذه الكتيبة لم تكن بأية حال من عراقل الجيش ، بل لقد كانت خدماتها
لا تعد ، فهم يحملون الأثقال ، ويأتون بالكلاء والمؤونة والخراج ، ويسيرون

الآلات وقت الحصار ، وفوق كل هذا ، كانوا ينشرون الرعب بين الأتراك وكان هؤلاء يخشون الموت من رماح الفرسان أقل مما يخشون هذا الفناء الشامل تحت أسنان « الظافرين » (١) .

ومن اليسير أن نتصور أن منشداً جاهلاً يجد أذواق هذه الطائفة وضراوتها مسجلة في روايات تاريخ الحروب المقدسة فينسب أعمالها وزواتها إلى ملك إنجلترا الذي كانت شراسته من الموضوعات التي تجوز فيها المبالغة كما تجوز في شجاعته وإقدامه .

(١) من « تاريخ الفروسية » لجيمس ، ص ١٧٣ .

الفصل الأول

وأَوْوَاهُمْ كَذَلِكَ إِلَى الْفَقْرِ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا مُسْلِحِينَ^(١)
الفرديوس المردود

لم تكن الشمس المحرقة في سوريا قد بلغت كبد السماء ، حينما كان فارس من فرسان الصليب الأحمر — وقد ترك بلاده النائية في الشمال ، والتحق بجيعة الصليبيين في فلسطين — يسير الهويني في الصحراء الرملية التي تقع على ضفاف البحر الميت (أو بحيرة «أسفلت» كما يطلق عليه أحياناً) حيث تسدق أمواج الأردن في ذلك البحر الداخلي الذي ليس لهائه مخرج .

وفي الصباح الباكر كان هذا الحاج المجاهد يكافح الجروف والمنحدرات ، ثم لما تبين الضحى انطلق من هذه الأودية الصخرية الخطرة ، ودخل في ذلك السهل الفسيح ، حيث المدائن اللعينة التي أنزل الله عليها من عنده نقمة مروعة شديدة في سالف الأيام .

وتذكر مسافرنا تلك الطامة الكبرى التي نزلت بوادي «سدوم» اليانع الخصب ، الذي كانت تتخلله الأنهار كأنه جنة الخلد ، فأحاطته يابا بلقماً كثيفاً ، وصيرته أرضاً جرداء مجدبة لا زهر فيها ولا شجر ، وكأن الله قد أصابها بالاحمال أبد الأبد . تذكر ذلك فنتسى ما أصابه من إجهاد وعطش وما كان يحوطه من مخاطر الطريق .

ولما رأى المياه المظلمة يعج عجاجها ، وهي في لونها وطبيعتها تختلف عن مياه

(١) الإشارة هنا إلى قصة المسيح عليه السلام حينما خرج إلى البادية وحيداً وقضى بها أربعين يوماً .

البحيرات جميعاً ، رسم علامة الصليب على نفسه ، وانتابته رعدة حينما تذكر أن تحت تلك الأمواج التي تنكسر في هدوء ، تندثر مدن الوادى التي كانت تنبئ يوماً بعزها ، فأُنزل عليها ربك الصواعق من السماء ، ونفت فيها من باطن الأرض ناراً حامية فدكها دكا ، ولم تبق منها إلا أطلال طمرها هذا البحر الذى ليس فى جوفه سمك ولا على سطحه سفين ، ولا يجود — كما يجود غيره من البحار — بقطرة ماء على المحيطات ، كأن مياهه الكثيرة لن تستقر إلا فى قاعه الموحش . وكل ما جاوره من يابس « كبريت وملح ، أرض لا زرع فيها ولا ثمر ولا يكسوها عشب ^(١) » كما كانت فى عهد موسى . وتستطيع أن تسمى ذلك اليابس « ميتاً » كذلك ، كما تسمى البحر ، فهو لا ينبت زرعاً ولا شبه زرع ، والهواء ذاته يخلو من كل ذات جناح ، كأن الطيور قد نفرت من رائحة القار والكبريت ، التي كانت تبعثها الشمس المحرقة من مياه البحيرة ، فتنتشر فى سحب متكاثف كثيراً ما ينعقد على شكل الميازيب ، كما كانت كسف من المادة الكبريتية الغرينية ، التي تعرف بالنفط ، تطفو مسترخية فوق الأمواج الهادئة الموحشة ، وتمتد تلك السحب المتدفعة بأبحر جديدة ، فتشهد شهادة قوية على صدق قصة موسى .

على هذا المكان المهجور أشرق الشمس تتوهج توهجاً لا يكاد يحتمل ، وكأن كل كائن حي قد توارى عن أشعتها ، اللهم إلا ذلك الشبح الذى كان يسير وحده يشق الرمال السوانى بخطى وثيدة ، ويبدو كأنه المخلوق الفريد الذى يتنفس على سطح هذا الوادى الفسيح ؛ وكان لباس هذا الفارس الرابك ومعدات جواده لا تليق ألبتة بالمسافر فى مثل تلك البلاد . كان يرتدى سترة من حلق الحديد ، طويلة أكمامها ، وقفازا براقا ، وصدره من الحديد الصلب ؛ ولم يكنف بهذا التسليح ، بل كان يعلق كذلك على رقبته درعا ثلاثياً ، ويحمل على رأسه خوذة من قضبان الصلب . يغطيها بقلنسوة وبنّيقة من الحديد ، يلف بها حلقه وكتفيه ، وتشغل ما بين لباس رأسه وسترته ؛ وكان يستر أطرافه السفلى ، كما

(١) هذه العبارة من العهد القديم .

كان يستر جذعه ، بحلق من الحديد سهل الالتواء ، وهكذا كان يقي ساقيه ونخذه ، بينما كان يلبس على قدميه حذاء من المعدن اللامع ، ينسجم في شكله مع القفاز ، وعلى أحد جانبيه سيف طويل عريض . مستقيم ذو حدين ، له مقبض على هيئة الصليب ، يتسق وخنجرًا غليظًا على جنبه الآخر ؛ وكان هذا الفارس يحمل كذلك رمحًا طويلًا ، رأسه من الصلب ، يرتكز على سرجه ، ويستقر أحد طرفيه على ركابه ، وهذا الرمح هو سلاحه السديد ، يهزه إلى الخلف وهو ممتط صهوة الجواد ، فيعرض العلم الصغير المعلق بطرفه ، ويرفرف العلم مع النسيم العليل ، أو يتدلى في السكون الميت ؛ وفوق هذا الزى العسكري المعقد ، كان صاحبنا يرتدي عباءة من القماش المزركش ، نحل وبرها وبدت عليها آثار القدم ، ولكنها كانت مع ذلك عظيمة النفع ، إذ كانت تحمي سلاحه من أشعة الشمس ، ولولا ذلك لشق عليه حمل السلاح من حرارة الشمس ؛ وفي هذه العباءة كان الفارس يعلق هنا وهناك أسلحة تشوّه ظاهرها ، ومنها سلاح « النمر الرابض » وعليه هذا الشعار « إنني نائم فلا توقظني » ، وعلى الدرع آثار من هذه العبارة عينها ، ولكنها كادت تحمي من كثرة الطعان ؛ أما خوذته الاسطوانية الثقيلة فكان سطحها مستويا ، لا يجمّله زخرف أو ريش ، وكأن الصليبيين من أهل الشمال - باحفاظهم بهذا السلاح القوي يدفعون به عن أنفسهم - كانوا يتحدون طبيعة المناخ والإقليم الذي جاءوا ينشبون فيه القتال .

ولم تكن عدة الجواد أقل صلابة أو قوة من زى راكبه ، فلقد كان يحمل سرجًا ثقيلًا عليه طلاء من الصلب ، يلتقي في مقدمته بدرع من الحديد ، وفي مؤخرته سلاح يتق به ويستتر به خاصرته ؛ ويتعلق بالسرج شئ كالنأس أو المطرقة أو العصا ، والزام موثوق بما يشبه السلاسل ، ومقدمة العنان من الصلب المطلي ، وبه خروق يطل منها الجواد بعينه وأنفه ، وفي وسطه شوكة قصيرة حادة ، تبرز من جهة الجواد كقرن الثور الوحشي المعروف في قصص الخيال .

ولكن هذا الفارس وجواده المقدام كانا قد تمودا حمل هذا السلاح الثقيل ،

حتى أصبحت هذه العادة لها طبيعة ثانية . نعم إن عددا عديدا من المحاربين من أهل الغرب ، الذين خفّوا إلى فلسطين ، قد هلكوا قبل أن يعتادوا هذا الجو الملهب ، ولكن هناك قوما آخرين ، بات هذا الجو خفيفا عليهم ، مألّوفا لديهم ، ومن بين هذا العدد المحدود كان هذا الخيال ، الذى كان حينئذ يقطع حدود البحر الميت فريدا ، فإن الطبيعة التى صبت أعضاءه فى قالب من القوة غير مألّوف ، وأعدته لأن يرتدى تلك السترة المصنوعة من حلق الحديد دون عناء — وكأن عيونها قد حيكت من نسيج العنكبوت — قد جادت عليه كذلك ببنية قوية كأطرافه ، تتحدى كل تقلبات المناخ ، وتقف دون الكلال وشظف العيش على مختلف الضروب ؛ وكان له طبع يتصف بعض الشيء ببعض صفات هيكله الجثائى ، فكما أن جسمه قوة عظيمة وقدرة على الاحتمال ممزوجة بالقدرة على الإجهاد العنيف ، فإن فى طبعه — تحت ستار الهدوء والاستقرار — الشيء الكثير من الحرارة والحماسة لحب المجد ، وهما من أبرز صفات أبناء النورمان المعروفين ، التى جعلتهم ملوكاً فى كل زاوية من زوايا أوروبا شهروا فيها سيوفهم الباترة .

ولكن الجد لم يَجِدْ بمثل هذا الجزاء الوافر^(١) على كل أبناء هذا الجنس ، ولم يكن حظ فارسنا هذا الفريد إِبَّانِ السنتين اللتين قضاهما غازيا فى فلسطين غير ذكر فى هذه الدنيا ، ومزاياء روحية نشأ على الاعتقاد فيها ؛ وكان حظه الضئيل من المال فى ذلك الوقت قد تبدد ، ولكنه — رغم ذلك — لم يعمد إلى الوسائل التى كان يلجأ إليها غيره من أتباع الصليبيين ، الذين كانوا يعوضون ما نقص من أموالهم على حساب أهل فلسطين ، فلم يمتز العطايا من الأهالى البائسين كي يطمنئهم على أملاكهم حينما كانوا يشتبكون مع العرب فى الحروب ، ولم يحاول أن يقتنص الفرصة ويجمع الثروة بفرض الجزية على الأسرى . وكانت تتبعه حاشية ضئيلة من مواطنيه ، أخذت تتناقص شيئا فشيئا كلما قلت الموارد الضرورية للعيش ، ولم يبق له إلا خادم واحد ، كان إذا ذاك طريق الفراش ، لا يستطيع أن يقوم بخدمة سيده ، الذى كان

(١) يقصد مناصب الملكية فى أوروبا .

يسير - كما رأينا - وحيدا فريدا . ولكن فارسنا الصليبي لم يأبه لذلك كثيراً ، فلقد تعود أن يرى في مهنده الكريم خير حارس ، وفي عقيدته في الله خير رفيق .

ولكن للطبيعة ضروراتها ، فهي تتطلب الراحة والغذاء لكل جسم - حتى وإن كان من الحديد - ولكل طبع - حتى وإن صيغ من الصبر - كما صيغ هذا الفارس ، « فارس النمر الرابض » ؛ ففي الظهيرة ، والبحر الميت لما يزل بعيداً عن يمينه ، استبشر الفارس بمرأى نخلتين أو ثلاث نمت على حافة برّ أراد أن يتخذة محطاله في منتصف ذلك النهار ؛ وكذلك جواده الكريم ، بعد أن كان يسير قدماً بصبر وطيد كصبر صاحبه ، رفع الآن رأسه ، ومد أنفه ، وسارع في خبئه ، كأنه اشتم على بعدٍ ماء الحياة ، حيث الدعة والانتعاش ، ولكن الله قدر للجواد وراكبه أن يصيبهما بالعناء ، ويحوطهما بالمخاطر ، قبل أن يبلغا ذلك المكان الرغيب .

وذلك أن فارس النمر الرابض ، الذي لم يفتأ يحدق ، ويعير التفاته إلى جماعة النخل النائية ، بدا له كأن شبحاً يتحرك خلالها ؛ ثم انفصل ذلك الشبح النائي عن تلك الأشجار التي كانت تخفي مسيره بعض الخفاء ، وتقدم نحو الفارس مسارعا ، وتبدى عن خيال على ظهر الجواد ، ولما اقترب دلت عمامته وحرسته الطويلة وقفطانه الأخضر الذي يرفرف مع الريح ، على أنه فارس عربي ؛ ويقول المثل الشرقى : « لا يلاق الرجل صديقاً في الصحراء » ، ولم يأبه الصليبي ألبتة إن كان ذلك الكافر - وقد أقبل على حصان عداء ، كأنه ولد على جناح نسر - عدواً أو صديقاً ، بل لعله ، وهو بطل من الأبطال ، الذين أقسموا بمين الولاء للصليب ، ودّ لو أنه كان عدواً ، فاستل رحمه من مرجه وأمسكه بيمينه ولبت به ، وسمانه مرفوع إلى نصفه ؛ وجمع العنان بيساره ، واستحث همه الجواد بمهمازه ، واستعد للقاء هذا الغريب بنفس مطمئنة ، لا يملكها إلا رجل حذاء الظفر في كثير من المعارك .

وأقبل العربي يعدو ، كما يعدو الفرسان من بني جنسه ، ما لسا زمام جواده بأطرافه وبكل جسمه ، غير معتمد على العنان الذي أرسله مرتحيا في يسراه

بحيث يتسنى له أن يحرك درعه المستدير الرقيق المصنوع من جلد وحيد القرن المحلى بخيوط من الفضة ، الذى كان يحمله على ذراعه ويلوح به كأنه يريد أن يصد به ، على خفته ، ما قد يصوبه نحوه ذلك الفارس الغربى من طعنات مروعة . أما نصله الطويل فلم يكن مسدداً ولا مستقراً كنصل عدوه ، وإنما كان يقبض عليه من وسطه يمينه ، ويهز به فوق رأسه على قيد ذراع ؛ وهول هذا الفارس العربى نحو عدوه ، ولما دنا منه ، كان يرتقب من فارس النمر أن يهزم بجواده للنضال ، ولكن الفارس المسيحى ، وهو جدّ عليم بعادات جنود الشرق ، لم يرض أن ينهك جواده الكريم بعماء لا طائل تحته ، فوقف بفتة ، وهو على يقين أن فى سلاحه وفى عدة جواده القوى ما يكفل له الغلبة — دون أن يسارع فى عدوه — على العدو ، إن تقدم فعلاً للنضال ؛ وأحس الفارس العربى باحتمال هذه العاقبة ، وأدركها كما أدركها زميله ، فاقرب من المسيحى حتى لم يكن بينهما إلا قاب قوسين أو أدنى ، واستدار بجواده يساراً بمحذ لا يفوقه حذق ، ودار حول عدوه دورتين ، قالتف الفارس العربى وهو فى مكانه ، وجابه عدوه نخب رجاءه ، إذ كان يحاول أن يطمئه من الخلف ، وحينئذ ود العربى لو أنه دار بجواده ورجع القهقرى إلى بعد مائة ذراع ، ثم حاول الهجوم مرة أخرى وأقبل كالبازى على مالك الحزين ، واضطر للمرة الثانية أن يتقهقر دون سجال ؛ ثم اقترب ثالثة مهاجماً كما هاجم فى المرتين السابقتين ، فأمسك الفارس المسيحى توا بمطرقته المعلقة بسرجه ، وأراد أن ينتهى من هذه المراوغة التى قد ينهكه العدو فيها بحركاته ، فصوب المطرقة بيد من حديد ، وهدف لا يحد ، إلى رأس العدو الذى لم يخله إلا أميراً أو أرفع من أمير ، وأدرك العربى هذه الضربة المروعة التى قصد بها فرفع درعه الرقيق وحال بين المطرقة وبين رأسه ، ولكن الضربة كانت شديدة الوقع فهوت بالدرع على عمامته ، وقد خفت العامة من حدة الضربة ، ولكن الرجل سقط عن جواده مغلوباً ، وقبل أن ينتفع المسيحى من هذا الخذلان ، خفّ عدوه وهب من مصرعه وجذب جواده — وقد خف إلى جواره —

وامتطى صهوته دون أن يمس الركاب ، واسترد كل ميزة حاول فارس النمر أن يسلبه إياها ، ولكن الفارس كان بدوره قد تملك من مطرقته ثانية ، فحاول الرجل الشرق — وقد تذكر قوة عدوه وحذقه في إصابة هدفه — أن يأخذ لنفسه حذرهما ويظل بمنأى عن منال المطرقة التي أحس بوقعها منذ حين ، وأبان عن رغبته في المقاتلة عن بعد برمي السهام ، فذك نصله الطويل في الرمال بعيداً عن ساحة الوغى ، وشد بقوة قوساً قصيرة كانت إلى ظهره ، ثم ركض بجواده ودار به دورتين أو ثلاثاً أوسع مدى من دوراته السالفة ، وفي خلالها أطلق النشاب ستاً على المسيحي بمهارة لا تخطئ ، ولولا زى متين يق به المسيحي نفسه ما كان له أن ينجو من جراح ستة من طعن السهام ، ثم أطلق العربي سهماً سابعاً فصادف من لباس العدو مكاناً كان أقل من غيره صلابة ، فسقط المسيحي سقطة شديدة من فوق الجواد ، ولشد ما كانت دهشة العربي حينما نزل يتفرس حال صريعه فألقى نفسه على حين غرة في قبضة ذلك الأوروبي ، الذى ما لجأ إلى تلك الحيلة إلا لكي يأتى بعدوه تحت مناله ؛ ولكن العربي ، وهو فى هذه القبضة المميته ، استطاع أن ينجو بحفته وسرعة خاطره ، فخلص نطاق سيفه من قبضة فارس النمر وأفلت من تلك اليد القاضية ، وامتطى جواده الذى كان يرقب حركاته بكاء كذاء الإنسان ، ثم انصرف ؛ ولكنه فقد فى هذه المعركة الأخيرة سيفه وجعبة سهامه ، وكلاهما معلق بنطاقه الذى اضطر أن يخلّفه وراءه ، وفقد كذلك عمامته أثناء النضال ، فرغبت هذه الخسارة هذا الرجل المسلم فى المهادنة ، فقارب المسيحي ومد إليه يمينه مسالماً لا متهدداً .

وباللغة الفرنجية التى كانت تستخدم عادة للتفاهم مع الصليبيين قال العربي :
« إن بين أمتينا هدنة عن القتال ، فلماذا ينشب بينى وبينك النضال ، هلا عقدنا بيننا صلحاً ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال « لقد رضيت ، ولكن كيف تكفل لى رعايتك للهدنة حقها ؟ » .

فأجاب الأمير وقال : « نحن أتباع النبي لا نبحث في المهود ؛ إنما ينبغي لي أنا ، أيها النصراني الشجاع ، أن أطلب إليك الضمان ، غير أنني أعترف أن الخيانة والشجاعة قلما يجتمعان » .

فأحس الصليبي حينئذ بأن ثقة المسلم فيه قد أخجلته من الشكوك التي ساورتها .

وأمسك بمقبض سيفه وقال : « وحق هذا الصليب لأكون لك رفيقا مخلصا أيها العربي ما كتب علينا أن نبقي متلازمين » .

فأجاب عدوه قائلا : « أقسم بمحمد رسول الله وبرب محمد أن ليس لك في قلبي خيانة ، فهلم بنا إلى تلك العين ، فوق الراحة قد وجب ، وما كاد الماء يمس شفتي حتى اضطررت أن أنازلك حينما اقتربت » .

فأجاب فارس النمر الرابض توا بالرضا والقبول ، وسار المدوان جنبا إلى جنب ، قاصدين مكان النخيل ، لا يبدو عليهما غضب ، ولا تلمس فيهما أثرا من شك .

الفصل الثانی

كثيراً ما تتخلل الأزمان العصبية فترات يسود فيها الأمن وتصفو فيها النفوس ، ولقد كانت الحال كذلك بنوع خاص في عهود الأقطاع القديمة حينما كان السائد بين الناس أن الحرب يجب أن تكون للبشرية شغلها الشاغل وعملها المجيد ، فكان لفترات الصلح أو الهدنة لذة دونها أي لذة ، يستمتع بها على قلبها المحاربون في تلك العصور ؛ بل إن الظروف عينها إذ ذاك ، التي كانت تجعل هذه الفترات عرضاً زائلاً ، كانت تجلبها إلى النفوس ؛ وكان البطل يرى أن من بذل الوقت في غير طائل أن يكن في قلبه ضغينة لعدوه — وقد التقى به في القتال يوماً ، وقد يلتقي به في معركة حامية الوطيس في صبيحة اليوم التالي — وكان الرجال يعرفون أن في عهدهم ، وفي ظروفهم ، مجالا تنفجر فيه عواطفهم الملتبهة ، فكانوا يستمتعون بكل ما أوتوا من قوة ، بصحبة بعضهم بعضاً في الفترات القصيرة التي كانت تتيح لهم أن يتحادثوا آمنين ، على قدر ما تسمح لهم به تلك الأوقات العصبية ، اللهم إلا إذا احتدم النزاع بين الرجل وعدوه ، أو أثارت نفسيهما ذكرى إحن خاصة لا تتعلق بغيرها .

وكان يفل من حدة الفروق الدينية ، بل والعصبية الشديدة ، التي كانت تستفز أتباع الصليب وأتباع الهلال على السواء ، شعور سام ، هو من طبيعة أمثال هؤلاء المحاربين ، شعور كانت تلهيه وتقويه روح الفروسية حينذاك ؛ وهذا الدافع القوي أخذ يمتد أثره شيئاً فشيئاً من المسيحيين إلى أعدائهم الألداء من العرب من أهل أسبانيا أو فلسطين ، ولم يعد عرب فلسطين ، كما كانوا من قبل ، أولئك المتوحشين المتهوسين الذين هبوا من وسط صحراء العرب بالقرآن في اليمين ، والسيف في اليسار ، يعرضون للإسلام أو القتال ، أو الجزية والرق ، على كل من تحدّثه نفسه أن يقف

في وجه دين محمد نبي مكة^(١) ؛ وقد عرضوا ذلك على أهل الشام وأهل اليونان ، وهم قوم غير محاربين ؛ ولكنهم حينما التحموا بمسيحيي الغرب — الذين كانت قلوبهم تشتعل حماسة للدين ، لا تقل عن حماسة العرب أنفسهم ، والذين يتصفون بالإقدام والشجاعة التي لا تقهر ، والذين إذا طعنوا أصابوا — أخذوا عنهم شيئاً من أخلاقهم ، وحذوا حذوهم خاصة في تقاليد الفروسية الكريمة التي كانت متأصلة في النفوس تأصلاً استهوى عقول أولئك القوم الغزاة الشاخصين ؛ وهذا فضلاً عن أن العرب كان لهم سجالهم ، وكانت لهم ألعابهم في عرض الفروسية ، بل وكان منهم «الفوارس» أو ما يشبههم في علو المرتبة ، وكانوا إلى ذلك يراعون حدود دينهم مراعاة يحجل من دقتها أناس كأهل الغرب ، لا يخلّون بالهدنة إذا عقدوها بينهم وبين أمة غير أمتهم ، أو بين بعضهم وبعض ؛ وهكذا كانت الحرب — على أنها ربما كانت في ذاتها أعظم الشرور — تهيئ الفرصة لإظهار روح الإخلاص ، وكرم الخلق والرافة ، بل وتبادل الود بين القلوب ، مما لا يتوفر في فترات الهدوء ، حينما تكمن في الصدور زمناً إحن الرجال الذين لا قوا المهانة ، أو اشتبكوا في نزاع لم ينحسم في حينه وبلغ بهم نكد الطالع أن وقعوا فريسة لتلك الإحن .

أحسن المسيحي والعربي بهذه العواطف الرقيقة التي تخفف من وطأة الحروب ، وانطلقا بعد ما سعى كل منهما جهده كي يقضى على أخيه ، وسارا راكبين بخطى وثيدة نحو العين التي ينبت حولها النخيل ، والتي كان يقصدها فارس النمر الرابض حينما باغته في مسيره ذلك العدو ، الذي جاءه مسارعاً والشرر يتطاير من عينيه ، واسترمل كلاهما زمناً ، كل في تأملاته ، يتنفس الصعداء بعد نضال كاد أن يقضى على أحدهما أو كليهما ؛ وكأن جواديهما لم يكونا أقل منهما استمتاعاً بذلك الهدوء الذي ساد بينهما ، أما جواد العربي فلم تبد عليه علامات الأعياء كما بدت على جواد الفارس الأوروبي ، رغم أنه أجهد بالحركة إجهاداً أوسع مدى وأشد عنفاً ،

(١) يدل هذا القول وما بعده على أن المؤلف — كما حدث عن نفسه في مقدمة الرواية —

يجهل العالم العربي كل الجهل .

وتصيب العرق من أضلع جواد الفارس الغربى ، بينما كان جواد العربى الكريم قد جف عرقه أثناء مسيره فى تلك الفترة الهادئة ، ولم يبق منه إلا أثر ضئيل كان يبدو على عنانه وعدته ؛ وكانت الأرض التى وطئها الجوادان لينة ، فزاد جواد المسيحى شقاء على شقاء ، إذ أنه كان يئن تحت عبء عدته الثقيلة وعبء راحته ؛ فاضطر الفارس أن يقفز من فوقه ويقوده فى تلك الأرض المتربة التى يغطيها الغرين ، والتى أحرقها الشمس فصيرتها أشد ليناً من أدق الرمال ؛ وهكذا استرد الجواد نشاطه على حساب صاحبه ، لأن الفارس ، لكثرة ما عليه من لبس الحديد ، كان يتعثّر فى حذاءه الصلب فى كل خطوة ، وهو يمشى فوق تلك الأرض الرقيقة التى لا تتحمل المقاومة .

ومذ انقعدت الهدنة بين العربى والمسيحى لم ينس أحدهما بينت شفة حتى قال العربى لصاحبه : « نعم ما فعلت ، فإن جوادك القوى يستحق منك العناية ، ولكن ماذا أنت فاعل به فى الصحراء وهو يسيخ بأقدامه فى كل خطوة ، كأنه يريد أن يغرسها فى باطن الأرض كجذور النخيل ؟ »

فأجاب الفارس المسيحى ، وهو غير مطمئن إلى نعمة السخرية التى تحدث بها العربى عن جواده المحبوب ، وقال : « حقاً ما قلت أيها العربى ، ولقد أصبت بمقدار ما لديك من علم وملاحظة ، ولكن اعلم أن جوادى هذا قد حملنى قبل اليوم فى بلادى فوق بحيرة لا تقل سعة عن تلك التى خلفناها وراءنا ، ومع ذلك ، فلم تبتل منه شعرة واحدة فوق حوافره » .

فنظر إليه العربى مبدياً شيئاً من الدهشة على قدر ما يسمح به تأدبه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة خفيفة لم تكدهم شارب الكثيف العريض الذى كان يغطى شفته العليا ؛ ولكنه سرعان ما استرد نظرة الجد التى لم تفارقه ، ثم قال : « حقاً ما قيل ، إذا أصخت إلى الفرنجى لم تسمع إلا هراء » .

فأجاب الصليبي : « ليس هذا من حسن التدقيق فى شيء أيها المنافق ، أقتراب فى كلمة ينطق بها فارس نال مرتبة الشرف ؟ تالله لولا أنك تصدر عن جهل لا عن

سوء طوية ، لكنت هذه الآونة آخر ما بيننا من مهادة ، ولما يمض عليها إلا أمد قصير ؛ أفظن أننى أ كذبك إذ أقول لك إننى أحد خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ؛ قطعت بجوادى الفراسخ فوق ماء كالبور صلابة ، ولكنه أقل من البلور هشاشة عشر مرات ؟ » .

فأجاب المسلم قائلا : « ماذا تقول ؟ إن ذلك البحر انداخلى الذى تشير إليه له خصيصة عجيبة ، وذلك أن الله قد صب عليه جام غضبه ، فهو لا يحتمل جسما يفيض فى موجه ، إنما يقذفه بعيدا ويرمى به على شطآنه ؛ ومع ذلك فإن هذا البحر الميت عينه ، بل والمحيطات السبعة التى تحوط الأرض ، لا تحتمل وقع أقدام الخيل على سطحها أكثر مما احتمل البحر الأحمر مسير فرعون وجنوده » .

فأجاب الفارس المسيحى : « هذا هو الحق فيما تعلم أيها العربى ؛ ولكن صدقنى ، إننى لا أحدثك حديث خرافة ؛ فى مناخكم هذا تتحول الأرض بفعل الحرارة إلى شئ كالماء غير مستقر ؛ أما فى بلادنا فالبرودة كثيرا ما تحول الماء إلى جسم كالصخر فى صلابته ؛ ولكن دعنا من هذا ، فإن ذكر البحار فى الشتاء ، يهدوئها وصفائها ونقاء زرقها ، ليزيد من مفازع هذه الصحراء الحارة ، حيث يخيل لى أن الهواء الذى نستنشقه إن هو إلا بخار يتصاعد من أتون ، ماؤه يغلى كالجميم » .

فالتفت العربى حينئذ إلى صاحبه متنبها ، وكأنه يريد أن يستوضحه ما يعنى من قوله هذا ، الذى ما أخال إلا أنه قد نزل من نفسه منزل السر الغامض أو الخداع ؛ ولكنه اطمأن أخيرا إلى كلام رفيقه وعرف كيف يتلقاه فقال : « إنك من قوم يحبون الضحك ، تتحدثون بالاستحيل وبما لم يقع فى الحسبان ، مازحين مع بعضكم بعضا أو مع غيركم ؛ أنت أحد فرسان فرنسا الذين يتبارون فى الخيال وأعمال الجن لاهين لاعبين ، ولقد أخطأتُ يا صديق إذ عارضتك فى حديثك ، فإن الزهو بالباطل أقرب إلى طبيعة نفسك من رواية الحق » .

فأجاب الفارس وقال : « إنى من بلاد غير هذه البلاد ، ومن قوم غير هؤلاء

الذين يزهون — كما تقول — بما لا يستطيعون ، أو بما لا يتقنون إذا استطاعوا ، ولكننى ، أيها العربي الجسور ، فيما قلت لك ، كنت أحذو حذوهم في المزاح ، وأظننى ما كنت فى عينيك إلا رجلاً دعيًّا وأنا أحدثك بحديث لا تستطيع أن تدركه ، حتى حينما كنت أنطق عن صدق وسذاجة ، ولندا فلندعها تذهب .

وفى تلك الآونة بلغ صاحبانا مكان النخيل ، وبدأت العين فوارة يتألق ماؤها الغزير تحت ظليهما .

ويذكر القارىء أننا تحدثنا عن برهة سادت فيها الهدنة وسط القتال ؛ وكذلك كان هذا الموضع الذى بلغاه مكاناً جميلاً وسط صحراء مجدبة ، عزيزاً على النفس كالهدة ، ولم يكن المكان ليستوقف النظر لو أنه كان فى غير ذلك الموضع ، ولكنه كان هنا محلاً فريداً فى فضاء لا يبلغ مداه البصر ، يمد المسافر بالظل الظليل والماء النмир ، وهما من نعم الله ، لا يقدرهما المرء حق قدرهما إن توفرا ، ولكنهما هنا قد أحالا العين وما جاورها جنة صغيرة من جنات الخلد ؛ وقبل أن تبدأ أيام فلسطين المظلمة فى التاريخ ، امتدت يد محسنة كريمة إلى تلك العين فأقامت حولها سياجاً ، وفوقها سقيفة ، كي لا تبتلعها الأرض ، أو يفسد التراب ، الذى يثور فى سحب متدافعة تنطلق فى مسيرها ، كلما هبت نسمة من ريح ، فتغطى سطح الصحراء ؛ أما السقيفة فكانت إذ ذاك محطة ؛ وقد تهشم جانب منها ، ولكنها كانت مع ذلك تظلل العين وتحمى مياهها من وهج الشمس ، حتى إن الماء ليدو هادئاً مطمئناً يسر العين وال خاطر ؛ لا يمسح شعاع من شمس ، بينما كان كل ما حوله متألقاً وهاجاً ، وانسل صاحبانا من تحت السقيفة فقابلاً أول ما قابلاً إناء من المرمى شأنه الوجه ، ولكنه يجذب النظر ، لأنه يدل بهيئته تلك على أن المكان كان فى قديم الزمان محطاً ، وأن يد الإنسان قد لعبت هناك ، وأن المرء كان — ولو إلى حد — يرمى لنفسه حقها من الراحة والإيواء ؛ وكان المسافر العربى يلهث من الإعياء والعطش ، فلما رأى تلك الأمارات ، تذكر أن هناك غيره من الناس ممن تعرضوا لمثل ما تعرض له من مشاق فأووا حيث أوى ، ولا شك فى أنهم خلصوا بأنفسهم

آمنين إلى حيث الخصب والنماء ؛ وكان يتسرب من الإِناء تيار خفيف من الماء ، يكاد يحتجب عن الرأى ، ويفذى تلك الأشجار القليلة التى كانت تحوط العين ، وإذا ما غاص ذلك التيار تحت الثرى واختفى عن البصر ، دلّ على وجوده بساط من سندس أخضر يسرّ الناظرين .

فى هذا المكان اليانع حط المحاربان رحلهما ، ثم أخذ كل منهما — على نهجه الخاص — يخلص جواده من عبء السرج والعنان وطرف الزمام ، ويهيئ له السبيل إلى الشراب من الإِناء ، قبل أن يرتوى من العين التى كانت تتفجر تحت القباء ، ثم خليا سبيل جواديهما ، وكأُنهما على يقين أنهما لن يبعدا عن هذا الماء الصافى وذلك العشب الأخضر لحاجتهما إليهما ، ولما عهدا فيهما من طباع مستأنسة .

ثم جلس العربى والمسيحى فوق العشب ، وأخرج كل منهما زاده الضئيل الذى كان يحمله ليتبلغ به ، ولكنهما قبل أن يشرعا فى تناول هذا الطعام الزهيد ، تبادلّا النظر بطلعة ، أثارها فى نفسيهما ذلك الشجار الذى نشب بينهما من منذ حين ، وملأ قلبيهما شكا وريبة ؛ وكان كل منهما يود لو يستطيع أن يسبر غور غريمه المروع ، ويقدر خلقه ولو إلى حد ، وقد اضطر كل منهما أن يقر بأنه لو سقط مغلوبا فى ذلك النضال لكان ذلك بيد كريمة شريفة .

وكان الفارسان على طرفى نقيض فى شخصيهما وملاحظهما ، وكلاهما يصلح مثالا دقيقا لأُمته . كان الفرنجى رجلا قويا كالقوطة الأقدمين فى هيئته ، شعره أحمر اللون أدكنه ، بدا لما رفع خوذته عن رأسه مجمداً كثيفا غزيراً ، وقد لفحت وجهه حرارة الشمس فصيرته أشد سمرّة من بعض رقبتة التى لم تتعرض للفتحة الشمس ، ومما تَمَّ عنه عيناه الزرقاوان المنفرجتان ولون شعره وشاربه الذى كان يظلل شفته العليا ، ولم تكن له لحية على مثال النورمان ، أنفه إغريقى جميل الصورة ، وثغره واسع الانفراج يكشف عن أسنان ناصعة البياض ، متينة جميلة الترتيب ، له رأس صغير يرتكز فوق رقبتة فى أنفة وعظمة ، لا يزيد عن الثلاثين فى عمره ، ولكنك إذا حسبت للعناء والجد حسابهما ، علمت أنه قد ينقص عن ذلك

ثلاث سنوات أو أربع ، طويل القامة ، قوى البنية كأنه من هواة الرياضة البدنية ، يشبه أن يكون رجلا قد تقدمت به السن فلم يعد له سلطان على قوته ، بعد أن كانت تلك القوة ممزوجة بالخفة والنشاط ؛ خلع القفاز الحديدي فإذا يدان طويلتان بيضاوان في تناسق جميل ، وإذا عظام معصميه قوية كبيرة ، وذراعه مقتولتا العضلات جميلتا التكوين ، يتميز في كلامه وحركاته بعنف حربي واستهتار وصراحة في التعبير ، في صوته رنة الأمر لا ذلة الخاضع ، وكأنه تمود أن يعبر عن عواطفه بصوت مرتفع وبأس شديد كلما اقتضت الضرورة أن يفصح عنها .

أما الأمير العربي فكان على نقيض هذا الصليبي الغربي ؛ قامته فوق متوسط الرجال ، ولكنه كان أقصر من الفارس الأوروبي بما لا يقل عن ثلاث بوصات ، إذ كان هذا الأخير يقرب أن يكون عملاقا ؛ أطرافه دقيقة ، ويداه وذراعه طويلة رقيقة ، تنسق حجبا وجسمه ، وتناسب وطلعته ، ولكنها لاتدل لأول وهلة على القوة والليونة اللتين أظهرهما الأمير قبل ذلك بقليل ؛ ولكنك إن أمعنت في النظر ، رأيت ما بدا من أطرافه خفيفا لا يكسوه لحم ، وكأنه لم يبق منه إلا عظام وعضل مقتول وعروق ؛ رجل كأن الله قد أعد بهيئته هذه للعناء والإجهد ، ليس ألبته بالفارس البدن تتعادل قوته وحجمه مع وزنه وقد أنهكه الإعياء ؛ وكان هذا العربي بطبيعة الحال يشبه في طلعه إجمالا قبائل الشرق التي هو من أبنائها ، وما كان أبعد عن تلك المبالغات التي كان يرددها المغنون في ذلك العهد في وصف فرسان العرب ؛ وعن تلك الصورة الخيالية التي ما زال الفن الشقيق^(١) يعرضها على اللوحات على أنها تمثل رأس العربي ، كان دقيق الملامح ، جميل التكوين ، رقيقا ، تعلوه سمرة شديدة من أثر شمس الشرق المحرقة ، له لحية مرسله سوداء متموجة الشعر ، عني بتشذيب أطرافها ، وأنف مستو مستقيم ، وعينان حادتان ، سوداوان براقتان ؛ وأسنانه تنافس في جمالها وبياضها عاج الصحراء ؛ وقصارى الوصف ، كان العربي وهو يتمطى بجسمه فوق العشب ، إذا قيس بمنازله القوى البنية ،

(١) يقصد فن التصوير .

كمهنده البراق ذى الشكل الهلالى والحد الضيق الرقيق ، اللامع الدمشقى الباتر ، إذا قورن بالسيف الطويل القوطى الثقيل ، الذى خلمه صاحبه وألقاه فوق الأديم . وكان الأمير فى زهرة العمر ، ولولا ضيق جبهته ، ورقة ملامحه وحدتها — أو لعلها كانت كذلك من حيث تقدير الأوروبيين للجمال — لعد آية فى الجمال .

كان المحارب الشرقى فى معاملته جاداً متعالياً شديد المراعاة للتقاليد ، يدل بسلوكة من بعض النواحي على ما فطر عليه أولئك القوم — الذين عرفوا بحدة المزاج وحرارته — من حرص يستمسكون به كي يقوا أنفسهم مما جبلوا عليه من حدة الطبع ، كما يدل على إحساسه بكرامة كانت تضطر صاحبها إلى أن يرتبط فى مسلكه ببعض القيود .

هذا الشعور السامى بعلو النفس كان يحس به كذلك زميله الأوروبى ، ولكنه كان يختلف عنه فى مسلكه ، فبينما كان هذا الإحساس على الفارس المسيحى الجراءة والاقدام ، بل وعدم الاكتراث ، وكأنه لفرط إحساسه بعلو مكانته لا يأبه برأى غير رأيه ، كان يرسم للعربى نوعاً من المجاملة يجعله شديد المراعاة لآداب المعاشرة ؛ نعم لقد كان كل منهما يجامل الآخر ، ولكن مجاملة المسيحى كانت تصدر عن روح التفكه الطريف بما يجب عليه نحو غيره ، بينما كان المسلم فى مجاملته يصدر عن إحساس قوى بما كان غيره يرتقب منه .

وتبلغ الرجال بطعام خفيف ؛ ولكن طعام العربى كان جد زهيد ، فحفة من تمر ، ولقمة من خبز الشعير الخشن كانت تكفى لأن تسد رمق جوعه ، إذ أنه نشأ على تقشف الصحراء ، وذلك رغم أن بساطة العيش العربى كثيراً ما غلب عليها ، مذ فتح سوريا ، البذخ الوافر الذى ليس له حد ؛ ثم اختتم وجبته بقطرات قليلة من ماء العين الجميلة التى أوى وصاحبه إليها . أما طعام المسيحى فكان شهياً رغم خشوته ، وكان أهم ما يتألف منه لحم الخنزير المقدد ، الذى يحرمه المسلمون على أنفسهم ؛ ثم أخرج قنينة من الجلد وصب منها شراباً خيراً من الماء الصافى ،

وهكذا أخذ يتناول طعامه بنفس مقبلة ، ويستق وعليه أمارات الرضا ، ولا كذلك العربي الذى كان يرى أن ليس من اللياقة أن يتظاهر المرء وهو يقضى حاجة من حاجات الجسم الدنيئة ؛ ولا ريب أن كلا منهما كان فى دخيلة نفسه يهزأ من زميله كيف يتبع ديناً باطلاً ؛ وزاد من هذا الشعور ذلك الفارق الكبير بين مسلكيهما وطعاميهما ؛ ولكن اثنيهما قد أحسا كل بثقل ذراع صاحبه ، فكان من أثر ذلك النضال العنيف الذى نشب بينهما أن يتبادلا التقدير وأخفيا كل اعتبار دونه ، ولكن العربي مع ذلك لم يسعه إلا أن يشير بكلمة إلى ما لم يرقه من خلق المسيحى ومسلكه ، وبعد أن تطلع مدة — دون أن ينبس ببنت شفة — إلى شهية الفارس القوية التى مدت من وجبته طويلاً بعد أن فرغ هو من طعامه ، وجه إليه الخطاب وقال :

« أيها النصرانى الجسور ! هل يليق بالمرء يقاتل كالرجال أن يكون حين تناول الطعام كالكلاب أو الذئاب ؟ والله إنى لأظن أنه حتى اليهودى الكافر ليقتشر بدنه إذا رآك وأنت تأكل بشهية كأنك تتناول من ثمر أشجار الجنة » .
فالتفت المسيحى متعجباً من تلك التهمة التى أُلقيت عليه دون أن يترقبها ، ثم قال : « أيها العربي الجسور ! أعلم أنى إنما أستمتع بالحرية المسيحية ، وأن لى أن آتى ما لم يستطعه اليهود الذين يزحون تحت نير ملة موسى البالية ، ولتعلم أيها العربي أننا نخضع لشريعة سامية ؛ حياك الله يا مريم ! إنا لله شاكرون ! »
واختتم حديثه بعبارة لاتينية قصيرة ، ثم احتسى جرعة كبيرة من القنينة الجلدية كأنه يتحدث ما يساور زميله من وسواس .

فقال العربي : « أفهذا أيضاً فى اعتبارك جزء من حريتك ؟ إنك إذ تطعم كالوحوش الضواري ، وإذ تحتسى هذا الشراب السام ، الذى تأباه البهائم ، إنما تهبط بنفسك إلى حضيض الحيوان » .

فأجاب المسيحى دون تردد : « أعلم أيها العربي الغافل أنك إنما تلعن ما أسبغ الله علينا من نعم . إن عصير العنب حلال لمن كان حكيماً فى تناوله ، فهو ينعش القلب

بعد عناء العمل ، ويرطب فؤاد المرء في مرضه ، ويخفف عنه وطأة الحزن . من يستمتع بالخمر يحمده ربه على الكأس كما يحمده على قوت يومه ، ومن يدمن في الشراب فليس في إدمانه بأقل منك غفلة في تحريمك الخمر .

وأدرك العربي هذه السخرية فتطير الشرر من عينيه ، وامتدت يده إلى مقبض خنجره ، ولكنه لم يكن إلا خاطرا طارئا ، لم يلبث أن هدا ثأره لما ذكر قوة منازلها حينما بطش به ، واستوثق منه في قبضته ، ولم يبق له من أمل في الحياة ، تلك القبضة التي لم يزل أثرها ينبض في أطرافه وعروقه ، فاكثف العربي — إذ استعاد ذلك إلى ذاكرته — بأن يواصل النزاع شفاها ، فإن ذلك آمن له في ذلك الحين .

فقال : « والله أيها النصراني إن كلماتك هذه لتبعث الغضب ، لولا أنك بجهالتك تستثير الرحمة ؛ أفلا ترى — وكيف ترى وأنت أشد عمى من أولئك الذين يقفون بأبواب المساجد يسألون الصدقات — أن هذه الحرية التي تفخر بها لم تمتد إلى بيتك وإلى أنفس ما في سعادة الإنسان ، فإن شريعتكم — إذا اتبعتموها — فرضت على الرجل منكم أن لا ينكح غير زوجة واحدة ، يرتبط بها في صحتها وفي مرضها ، ولوداً كانت أو عاقراً ، وسواء فاضت على مأكله ومبितه بالدعة والسرور أو بالمنازعة والشحناء ؛ تالله إن هذا أيها النصراني إلا الرق عينه ، انظر إلى دين المسلمين ! لقد جاء النبي للمؤمنين في الأرض بملة أيينا إبراهيم القديمة وملة سليمان أحكم بني الإنسان فأحل لنا في الدنيا تعدد النساء الجميلات كيفما شئنا ، ووعدنا في الآخرة بالهور العين » .

فأجاب المسيحي وقال : « والذى أقدم في السماء فوق كل شيء ، وبألى أعبد في الأرض أكثر من كل شيء ، إن أنت إلا كافر عميت بصيرته وضل هداه — انظر إلى جوهرة هذا الخاتم الذى تلبس في إصبعك ؛ ألا تظن أن قيمتها تفوق كل تقدر ؟ » .

فأجاب العربي : « أجل ، وليس في البصرة أو بغداد ما يشبهها ، ولكن ما شأن هذه الجوهرة وما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الفرنجي : « شأنها كبير ، وستشهد بذلك أنت نفسك الآن . خذ فأسي هذه وهشم هذا الحجر الكريم إلى عشرين شظية ، ثم خبرني إن كنت تظن أن لكل شظية وحدها ما كان للجوهرة بأسرها من قيمة ، أو أن الشظايا كلها مجتمعة لها عشر ما كان لها من ثمن ؟ » .

فقال العربي : « هذا سؤال صياني . إن جزئيات هذا الحجر لن تعادل عشر معشار الجوهر سليما » .

فأجاب الفارس المسيحي : « كذلك ، أيها العربي ، الحب الذي يحمله الفارس الحق لامرأة واحدة جميلة مخلصه ، هو كهذه اللؤلؤة سليمة ، أما الحب الذي توزعه بين أزواجك اللأئي تستعبدهن ، وإمائك اللأئي تنظر إليهن كأنصاف أزواج ، فما هو إلا بمثابة تلك الشظايا المتفرقة من هذا الجوهر الحر » .

فقال الأمير : « ورب الكعبة المقدسة إنك لمننون ، لا تفرق بين الذهب والحديد ، أمعن في النظر تجد أن هذه الجوهرة الكبرى وسط تلك اللأئي الزرية هي التي تكسب الخاتم جلاله وتعطيه قيمته ، ولولاها لما كان له نصف جماله ؛ هذا الجوهر الأوسط هو الرجل في عزمه وكأله ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه ، وأما هذه الحلقة من الجواهر الدنيا فهي النساء تستمد بريقها من بريقه ، يرسله عليهن كما يشاء ويهوى ؛ انزع الحجر الأوسط من الخاتم يبق له قدره ويهبط ما دونه من اللأئي في قيمته ؛ وإنما هكذا يجب أن تفهم التشبيه الذي أتيت به . ولقد قال المنصور الشاعر ما معناه : « إنما جمال المرأة ورقمها من فضل الرجل ، فلو لا ضياء الشمس ما تألق في البحار ماء » .

فأجاب الصليبي قائلا : « أيها العربي ، إنك إنما تتكلم كرجل لم يقع بصره يوما على امرأة جذيرة بحب أبناء الحروب ، صدقتي أنك لو شهدت بنات أوروبا — اللأئي لهن علينا بعد الله حق الإخلاص والولاء — لما بقي في قلبك ذرة من حب

لهاتيك الشهويات المسكينات اللأى يتألف منهن « حريمك » . إن جمال نساءنا يدب حرا بنا ويحد سيفونا ؛ كلمتهن لنا شريعة ؛ وكما أن المصباح لا ينير إذا انطفأ لهيبه ، فكذلك الفارس إذا برز في القتال ولم تكن له فتاة يوليها حبه .

قال الأمير : « لقد نما إلى هذا الجبل الذى يعتمر فرسان الغرب ، وكنت دائما أعده عرضا من أعراض ذلك الجنون الذى يدفعكم إلى هذه البلاد كي تستولوا على قبر أجوف ، ولكنى — مع ذلك — من فرط ما سمعت من الفرنجة الذين التقيت بهم من الثناء يكيلونه كيلا على نساءهم ، أود لو رأيت بعيني رأسى أولئك الساحرات الفاتنات اللأى يجعلن من هؤلاء المحاربين أدوات لما يردن ، كي تطمئن نفسى ويرضى فؤادى » .

فأجاب الفارس : « أيها العربى الجسور ، والله لولا أنى أقصد الحج إلى القبر المقدس لكان نغرا لى أن أقودك آمنا إلى مخيم رتشارد ملك انجلترا ، الذى يعرف أكثر من كل من عداه كيف يعامل بالحسنى عدوا كريما ؛ وإنك قد ترانى مسكينا لا تكلا لى عين برعاية ، ولكنى مع ذلك قمين بأن أكفل لك ، ولأمثالك ، كل أمن وتقدير وإجلال . هنالك ترى كثيرا من آيات الجمال الفرنسى والإنجليزى مجتمعات فى حلقة صغيرة ، يشع منها نور يفوق فى بريقه ولعانه المناجم المترعة بمثل تلك الآلى التى تملك عشرة آلاف مرة » .

فقال العربى : « وركن الكعبة ، لو أنك بقيت على عهدك لألبين دعوتك طائعا ، كما وهبتنيها طائعا ، وصدقنى ، أيها النصرانى الجسور ، لقد كان خيرا لك أن تيمم جوادك شطر مخيم قومك ، فإن مسيرك إلى بيت المقدس بغير جواز إن هو إلا تعريض بحياتك لا مبرر له » .

فأخرج الفارس ورقة ثم قال : « ها هو ذا جوازى عليه توقيع من صلاح الدين بيده وخاتمه » .

فعرف العربى خاتم سلطان مصر وسوريا وخط يده ، ذلك الحاكم الذى طبق صيته الآفاق ، فأنحنى برأسه نحو الأرض ، ثم لثم الورقة بكل تبجيل ، ومس بها

جبينه ، ثم ردها إلى المسيحي قائلا : « أيها الفرنجي ، لقد اندفعت في تصرفك وأسأت إلى دمي ودمك ، إذ لم تطلعي على هذه الورقة حينما التقينا » .

فقال الفارس : « لقد آتيتني رافعا سنانك ، ولو أن ثلة من جنود الأعراب هاجمتني لكان من شرف النفس أن أظهر جواز السلطان ، أما وأنت رجل واحد فقد أبث كرامتي ذلك » .

فأجاب العربي بكبرياء وعظمة وقال : « ولكن رجلا واحدا قد استطاع أن يعترض سبيلك » .

فأجاب المسيحي : « صدقت أيها المسلم الجريء ، ولكن كم من الناس كمثلك؟ إن البزاة لا تطير في الأسراب ، وإذا أقبلت سربا لن تنقض جماعة على واحد مفرد » .

ولا ريب أن العربي قد سُرَّ من هذا الثناء ، بعد أن كان قد انجرح في عزته حينما كان الأوروبي يفخر بنفسه ويحقّر من شأن صاحبه تلميحا ، ثم قال : « هذا صواب وعدل ، وما كان لي أن أسيء إليك ؛ إنني كنت مجدودا حقا إذ لم أصبك بضربتي وشخصك في حمي ملك الملوك ، ولو أنني جندلتك لحقّت عليّ النعمة جزاء هذا الجرم ، ولأصابني حد السيف » .

فقال الفارس : « يسرنى أن أسمع أن الأمر قد انتهى بما ينفعني ، فلقد بلغني أن الطريق موبوء بالكثير من قطعائها الذين لا يترددون في السلب إذا تهيأت لهم فرصته » .

قال العربي : « لقد صدقتك فيما خبرتك به ، أيها المسيحي الجسور ، ولكنني أقسم لك بالنبي الكريم أنك لو سقطت في أيدي هؤلاء الأشرار لأخذتُ على نفسي الانتقام لك بخمسة آلاف جواد ، ولقتلتهم جميعا وأرسلت نساءهم أسيرات إلى مكان ناء ، ولن تسمع لتلك القبيلة بعد ذلك اسما يذكر في حدود خمسمائة فرسخ حول دمشق ، ولنشرتُ الموت في جذور بلادهم فلن ترى فيها كائنا حيا من بعد » .

فأجاب الفارس قائلا : « أيها الأمير النبيل ، ليت هذه المشقة التي تأخذها

على نفسك كانت في سبيل الانتقام لشخص آخر أعلى منى مكانة ، إنما أنا أمرى بيد الله ، إن أراد بي خيرا فخير ، وإن أراد بي شرا فشر ، وإننى لمدن لك حقا لهدايتك إياى الطريق إلى مكان أستريح فيه هذا المساء .

فقال العربى : « ستجد راحتك في خباء أبى تحت قبائه الأسود » .
فأجاب المسيحى : « إنما ينبغى لى أن أقضى هذا المساء مصليا مستغفرا مع رجل قدس اسمه تيودوريك « بعين جدة » يسكن هذا القفر ويقضى العمر في عبادة الله » .

فقال العربى : « لا أقل من أن أبلغك هذا المكان آمنا » .
فأجاب المسيحى : « نعم الحارس ، ولكن ألا تدرى أنه قد يكون في ذلك خطر على ذلك الأب الطيب في مستقبل سلامته ، فكم من مرة امتدت فيها أيدي قومك القساء إلى أتباع السيد المسيح ، وتلطخت بدمائهم ، ولذا فنحن لا نقصد هذه البلاد إلا مسلحين بالسيوف والحراب كي نفتح الطريق إلى القبر المقدس ، ونحمى القديسين الأخيار والرهبان الذين يقطنون هذه الأرض ، أرض الأمل والمعجزات » .
فأجاب المسلم وقال : « أيها النصراني ! ألا تعلم أن الروم وأهل الشام كثيرا ما حشثوا في عهودهم لنا ، ونحن إنما تتبع أبا بكر الصديق خليفة النبي ، وأول خليفة للمسلمين من بعده ، إذ قال لذلك القائد الدائع الصيت حينما بعث به كي يستخلص سوريا من أيدي الكفار^(١) : اذهب ورجالك يازيد بن سفيان ، وحاربوا كما تحارب الرجال في ساحة الوغى ، ولكن حذار أن تقتلوا الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولا تجربوا البلاد ، ولا تدمروا أشجار الفاكهة والقمح فهي من نعم الله ، وإذا عاهدتم فلتفوا باليهود — حتى وإن كانت في مضر تكم — وإذا صادقم رجالا قديسين يعملون بأيديهم ويعبدون الله في الصحراء ، فلا تمسوهم بأذى ولا تهدموا مساكنهم ؛ أما إن ألفيتموهم برؤوس حليقة ، فاعلموا أنهم من أتباع الشيطان واضربوهم بسيوفكم ، واقتلوهم ولا تأخذكم بهم رافة حتى يؤمنوا

(١) يلاحظ أن « سكت » لا يتحرى الدقة التاريخية — كما يشير في المقدمة — ولذا فإن هذه العبارة المنسوبة إلى أبى بكر رضى الله عنه قد لا يكون لها أصل عربى .

أو يدفعوا الجزية . هكذا أمرنا الخليفة رفيق النبي ، فأطعنا ، فعدلنا ، ولم نضرب إلا جنود الشيطان ، أما أولئك الرجال الأخيار أتباع عيسى بن مريم ، الذين لا يثيرون أمة على أمة وإنما يعبدون الله مخلصين له الدين ، فقد كنا لهم ظلًا وحمى . ولما كان صاحبك الذي تقصد رجلا من هؤلاء ، فإني لا أحمل له إلا المحبة والخير والتقدير وإن يكن نور النبي لم يبلغه » .

فقال الحاج المحارب : « لقد سمعت أن الراهب الذي أقصد ليس قسا ، ولكنه إن كان أحد أولئك الرجال المقدسين المباركين ، فتالله لأصذن عنه برحمتي هذا كل معتمد أثيم من الكفرة أبناء المسلمين ... » .

فاعترض العربي كلامه وقال : « أخى ! خيرلى ولك أن لا تتحدانى ولا أتحداك ، فإن كلينا يستطيع أن يجد من بنى قومه من يكفيه للضرب بسيفه وسنانه . إن تيودوريك — الذى حدثتني عنه — فى حمى الترك والعرب ، وله بين الحين والآخر أطوار عجيبة ، ولكنه على الجملة — كتابع من أتباع المسيح — يسلك سلوك الرجل الطيب ، ويستحق الحماية ممن بعث الله ... » .

وهنا قاطعه المسيحي متعجبا وقال : « قسا بمريم لو أنك لفظت فى نفس واحد اسم ذلك الحادى المكى مع ... » ^(١) .

وحينئذ تمشت فى حنايا الأمير رعدة من الغضب كتيار الكهرباء ، لم تلبث لحظة حتى انقضت ، وأجاب فى هدوء يخالجه الوقار والحكمة « لا تذكر بسوء من لا تعرف ، إنما نحن نقدر نبيكم ، ولكننا ننكر العقائد التى ينسجها قساوستكم حول الدين الذى أناكم به . سأدلك بنفسى إلى الكهف الذى ينزل به الناسك ، وأعلم أنه لولا معونتى لشق عليك أن تبلغه ؛ وإذا ما ضربنا فى طريقنا فلنخلل للشيوخ والرهبان الجدل فى الدين ، ولنتحدث فى أمور تليق بأبطال أحداث . لننتحدث بمواقع القتال وفتنة الحسان ، ولنتحدث بظباء السيف وبريق السلاح » .

(١) هكذا يشير الفارس المسيحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مما يدل على شدة تعصب الصليبيين وجهلهم بشؤون العرب فى ذلك الحين .

الفصل الثالث

استراح المحاربان قليلا ، وتناولوا طعاما خفيفا انتعشا بعده ، ثم هبا من مكانيهما وأخذ كل منهما يد المساعدة إلى أخيه — وهما يجهزان جواديهما بعديتهما ويحسبان الجهاز ، بعد أن تخلص الجوادان الأمينان من هذا العبء مدة من الزمن — وكان كلا الرجلين خبيرا بهذا العمل الذى كان فى ذلك العهد واجبا لا مندوحة عنه ولا غناء ؛ وكان الجوادان — وهما رفيقان ملازمان لصاحبيهما فى القتال والترحال — يوليانهما ثقتهما ومحبتهما على قدر ما بين الحيوان والإنسان العاقل من فرق فى إظهار مثل هذا الشعور . أما العربى فقد شب على هذه المودة وذلك الإلف ، ففى خيام القبائل الشرقية المحاربة كان حصان الجندى يلى فى أهميته زوجه وأهله ؛ أما الفارس الأوروبى ، فإن الظروف والحاجة قد رفعت جواده إلى مكانة لا تقل عن مكانة زميله فى الحرب ؛ ولذا فلم يشقّ على الجوادين كثيرا أن يبتعدا عن الطعام ، ويحرما الحرية ، بل لقد اقتربا من صاحبيهما وأخذا يصهلان جذلا ، بينما كان الرجلان يمدان عديتهما لاستئناف الرحيل ومواصلة العمل ، وكلاهما يعدّ نفسه ، أو يعاون زميله فى رفق ، وهو يتطلع إلى عدة رفيقه فى السفر ويلحظ طريقته فى تهيئة معدات الركوب .

وقبل أن يمتطيا جواديهما لمواصلة الرحيل ، بلّل الفارس المسيحى شفتيه ، وأغرق يديه فى ماء العين ، ثم قال للرجل الوثنى ^(١) زميله فى السفر : « وددت لو عرفتُ اسم هذه العين ذات الماء النмир ، حتى أحفظ لها جميل الذكر ، فوالله ما ارتويت حياتى بماء أشدّ عذوبة من مأها الذى أطفأت به نار العطش الذى أحسست به اليوم » .

(١) هكذا يشير « سكت » إلى الرجل العربى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان مجهول الإسلام والمسلمين .

فأجاب العربي : « اسمها درّة الصحراء » .

فقال المسيحي : « نَعَمْ الاسم . إن بالوادي الذي أتيت منه ألف عين ، ولكنني لن أحمل بعد هذا لأنها مثل هذه الذكرى العزيزة التي أحملها لهذه العين النائية ، التي تمد النفس بكنوزها السائلة ، فتسر القلب وتسد لبانة من لباناته التي ليس له عنها غنى » .

فقال العربي : « حقا ما قلت ، ولعنة الله على ذلك البحر الميت ، الذي لا يستقي منه — ولا من النهر الذي لا يفتأ يصب فيه ولا يملأ جوفه — إنسان أو حيوان حتى يخرج من هذه الصحراء الجافة » .

ركب صاحبانا واستأنفا المسير يقطعان أرضا رملية خلاء ، وقد تبدد وهج الظهيرة ، وأخذ يهب نسيم عليل ، يهون عليهما مشقة الصحراء ، ولكنه يحمل على جناحيه ترابا دقيقا لم يكن يأبه له العربي ، بينما كان رفيقه المثقل بالسلاح يضجر منه ، فخلع خوذته وعلقها بجانب سرجه ، واستبدل بها تقيّة ركوب خفيفة ، تشبه في شكلها الهاون ، ثم سارا معا برهة من الزمن صامتين لا يتحدثان ، والعربي يقوم بوظيفة المرشد أو القائد في السفر ، مستعينا بمشاهدة دقيق العلام ومواقع الصخور النائية التي كانا يسيران رويدا نحو حافتها ، وظل كذلك فترة قصيرة ، وكأنه لا يفكر إلا في هذا العمل ، كربان السفينة وهو يعبر قناة عسيرة ؛ ولكنه ولما يقطعا نصف فرسخ — استوثق من طريقه ، وأظهر الرغبة في فتح باب الحديث بصراحة غير معهودة بين بني قومه .

فقال : « لقد سألتني اسم عين ساكنة لها هيئة الكائن الحي ولكنها ليست بالكائن الحي ، فهل لي أن أسأل عن اسم الزميل الذي صادفته اليوم ورافقته في الضراء والسرائ ، وما أخل إلا أن هذا الاسم ذائع الصيت حتى هنا في صحراوات فلسطين » .

فقال المسيحي : « كلا ، إن هذا الاسم لم يحق له الذیوع بعد ، ولكن اعلم أن جنود الصليب يسمونني « كَنَثُ صاحب النمر الرابض » ، ولي في بلادی

ألقاب أخرى لا تستسيغ مسمعها أذن شرقية ؛ أيها العربي المقدام ! من أى قبائل العرب أنت وما اسمك ؟ »

فأجاب المسلم وقال : « يسرني أن اسمك هين على شفتي أن تنطقا به ياسير كنت ؛ أما أنا فلست بعربي ، وإنما أنا أنتمى إلى جماعة لا تقل عن العرب إقداما ولا حبا في القتال ؛ اعلم يا فارس النمر أننى شيركوه ، أسد الجبل ، وأن ليس بكردستان التى أنتسب إليها أسرة أشرف من أسرة سلجوق . »

فأجاب المسيحي : « لقد نما إلى أن سلطانكم العظيم يمت إلى هذه الأسرة بصلة الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ »

قال المسلم : « حمدا لرسول الله الذى شرف جبالنا بأن بعث من بطنها رجلا ، الظفر معقود بمنطقته . ما أنا إلا كالوددة الحقيمة أمام ملك مصر والشام ، ومع ذلك ، فإن لاسمى فى بلادى بعض المكانة — أيها الرجل الغريب ، خبرنى مع كم من الرجال أتيت إلى هذه الحرب ؟ »

قال السر كنت : « أقسم لك إننى — بكل ماقدم إلى أهلى وصحبي من معونة — لم أستطع أن أجمع عشرة من الرجال المدربين على حمل الحراب ، ونحوا من خمسين رجلا آخرين — ومنهم النبالون والخدم — إلا بعد جهد جهيد ؛ ومن هؤلاء من لم يرقه أن ينضم إلى لوائى التعس ، ومنهم من سقط فى القتال ، وكثير أهلكهم المرض — ومن بينهم رجل من حملة السلاح أثق فيه ، وهو الآن عليل طريق الفراش ، ومن أجله أتيت حابا إلى هنا . »

فقال شيركوه : « أيها المسيحي ، إن فى جعبتي خمسة سهام ، كلها مريشة بأجنحة النسور ، لو بعثت منها بواحدة إلى خيامى جاءنى ألف مقاتل على ظهور الخيل ، ولو بعثت بالأخرى هبت طائفة أخرى تعدل الأولى عددا ، فلو أنى أرسلتها جميعا لأصبح تحت إمرتى خمسة آلاف رجل ، وإذا أرسلت قوسى دب فى جوف الصحراء عشرة آلاف راكب ؛ وأنت على رأس خمسين من أتباعك أتيت تغزو بلاداً ، أنا من أقل أبنائها شأنا ! » .

فرد عليه الفارس الغربى وقال : « وحق الصليب ، أيها العربى ، لتعلمن — قبل أن تفخر بنفسك — أنا نستطيع بقفاز واحد من الحديد أن نقضى على حفنة من هذه الحشرات التى ذكرت » .

فقال العربى : « ولكن هذه اليد الحديدية ينبغى لها أن تمتلك هذه الحشرات فى قبضتها قبل القضاء عليها » وارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة كادت أن تودى بالحلف الذى عقدها بينهما حديثا ، لولا أنه حول مجرى الحديث وأردف قائلا : « وهل للشجاعة عند الأمراء المسيحيين مكانة عالية ، فتتعهد — كما وعدتني — وأنت لا سلاح لديك ولا رجال ، بحمايتى وسلامتى فى مخيم زملائك ؟ » . فأجاب المسيحى : « أما وقد سألتنى هذا ، فاعلم أيها العربى ، أن اسم الفارس ودم الرجل الكريم يخولان له أن يرفع نفسه إلى منزلة كبار الملوك فى كل أمر ، عدا ما يتمتعون به من سلطان ونفوذ ؛ ولو جرح رتشارد ملك إنجلترا نفسه عزة فارس مسكين كمثلى ، ما كان له — وفقا لقانون الفروسية — أن ينكر عليه حقه فى النزال » .

كان

فقال الأمير : « والله إنى لأحب أن أشهد مثل هذا المنظر العجيب ، حيث يستطيع الرجل الفقير بنطاق من الجلد ، ومهمازين ، أن يرتفع إلى مستوى أقوى الأقوياء » .

فأجاب المسيحى : « أضف إلى ذلك دما حرا ، وقلبا لا يرتاع ، يصدق قولك عن كرامة الفروسية » .

ثم سأله العربى : « وهل تخالطون نساء سادتكم وقادتكم بهذه المرأة عينا ؟ » . فأجاب فارس النمر : « إن أشد فرسان العالم المسيحى فقرا فى كل عمل نبيل يقوم به ، ولكنه يقف يده وسيفه وذكر أعماله وإخلاص قلبه الذى لا يحد لأجل من حلين جبينهن بتاج من أميرات » .

فقال العربى : « ألم تقل لى منذ حين إن الحب هو أعز ما يملك القلب ؟ فما أشك فى أنك قد وهبت قلبك لامرأة كريمة نبيلة » .

فأجاب المسيحي وقد علت وجنتيه حمرة الحجل : « أيها الغريب ، اعلم أننا لا نندفع في الكلام فتتحدث عن موضع حبنا الذي وهبناه أنفس ما نملك ، وكيفيك أن تعرف أن حبي — كما قلت — قد خصصت به امرأة نبيلة كريمة ، بل و غاية في النبل والكرم ؛ وإن كنت لم تسمع بالحب وتكسير النصال في سبيله فخطر بنفسك — على حد قولك — واذهب إلى معسكر الصليبيين ، وهناك تسمع بأذنيك ما يرضيك ، وتجد ليديك — إن أردت — مرانا . »

وهنا هب المقاتل الشرقي عن ركابه وهز برمحه إلى أعلى ، ثم أجاب قائلاً : « إنني أخشى أن لا أجد من أبناء الصليب من يبادلني النزال بالجريد . »

فأجاب الفارس : « إنني لا أعدك بذلك ، رغم أن بالمعسكر بعضاً من الأسبان ذوى المهارة الفائقة في هذا الفن الشرقي ، فن الضرب بالحراش . »
فانفجر العربي قائلاً : « هيه يا كلاب ويا أبناء الكلاب ! ما لهؤلاء الأسبان يأتون إلى هنا لمنازلة المؤمنين المخلصين ، وهم في بلادهم السادة وأصحاب الرأي ؟ إنني لن أنزل معهم في لهو الفرسان . »

فقال فارس النمر : « حذار أن يسمعك فرسان « ليدن » أو « أستورياس » وأنت تتحدث عنهم كذلك » ؛ ثم ابتسم إذ تذكر ما كان بينه وبين العربي من قتال صبيحة ذلك اليوم ، وأردف قائلاً : « لو أنك قبلت أن تستبدل القصب بالفؤوس لألفيت من المقاتلين أبناء الغرب من كيفيك لسد هذه اللجاجة في نفسك . »

فقال العربي وهو يتماثل للضحك : « ولحية أبي ، ياسيدي كنت ، إن هذا الضرب من اللعب لأشد عنفاً من أن يكون لهو المجرى — إنني لن أفر منهم في ميدان القتال ، ولكن عقلي (وهنا وضع يده على جبينه) لا يسمح لي أن أقصدهم للهو حتى حين . »
فرد عليه المقاتل الغربي وقال : « وددت لو أنك رأيت فأس الملك رتشارد ، تلك الفأس التي لو قيست بها فأسى المعلقة بسرعى لم ترد هذه الأخيرة عن وزن الريشة . »

فقال العربي : « إننا سمعنا الشيء الكثير عن هذا الملك الذى يحكم فى جزيرة ؛
خبرنى هل أنت من رعيته ؟ » .

فأجاب الفارس وقال : « أنا من أتباعه فى هذه الحملة ، وإلهما من خدمة
شريفة ؛ ولكننى لست من رعايا الملك مولداً ، وإن كنت من أهل الجزيرة التى
يسود فيها » .

فقال الجندى الشرقى : « ماذا تعنى ؟ أفيتسود عليكم ملكان فى جزيرة
واحدة فقيرة ؟ » .

فأجاب السركنت ، وهو اسكتلندى المولد : « هو كذلك كما تقول ، وكثيراً
ما يقتتل أهل الشمال مع أهل الجنوب فى تلك الجزيرة ، ولكن الأمة تستطيع
— كما ترى — أن تبعث إلى أقاصى البلاد بكتيبة من الرجال المسلحين تهز هذه
اليد الدنسة ، يد سيدكم ، التى تستولى على مدائن صهيون » .

« ولحية صلاح الدين ، أيها النصرانى ، إن هذه إلا غفلة صبيانية منكم ، ليس
فيها لمحة من سداد رأى ، وإننى ليضحكنى من سلطانكم العظيم سذاجته ، وإنى
لأعجب كيف عن له أن يطلب الظفر فى هذه الصحراوات وتلك الصخور ، وينازع
فى امتلاكها قوماً ، إن أرادوا جمعوا من الرجال عشرة أمثال رجاله ، ويخلف جزءاً
من جزيرته الضيقة — التى ولد فيها ملكا — إلى بلاد الصولة فيها لغيره ؛ ولكنى
أعتقد جزماً ، ياسير كنت ، أنك وغيرك من الرجال الطيبين من أهل بلدك قد
خضعتكم لنفوذ الملك رتشارد قبل أن ترحلوا عن وطنكم وتقوموا بهذه الحملة ، وقد
تركتكم بلادكم مقسمة بعضها فى وجه بعض » .

فأجابه كنت فى حدة ولهجة سريعة وقال : « كلا وضياء السماء المنير ! لو أن
ملك انجلترا لم يقيم بهذه الحرب الصليبية إلا بعد أن يتملك على اسكتلندا لما عبأت
— ولا عبأ كل اسكتلندى مخلص — بالهلال يتألق أبداً على أسوار صهيون » .
واسترسل الفارس فى حديثه إلى هذا الحد ، ثم استجمع ذاكرته وتمتم قائلا :

« أستغفر الله ، أستغفر الله ! مالى - وأنا جندى من جنود الصليب - وما لذكرى الحرب بين الأمم المسيحية ؟ » (١) .

هذا الشعور الفياض الذى أحس به المسيحى ، ثم كتبه بوحى الواجب ، لم يغب عن الرجل المسلم ، فهو - وإن لم يدرك كل ما دمدم به صاحبه - إلا أنه شاهد ما دل دلالة قاطعة على أن المسيحيين - كالمسلمين - لهم من المشاعر الخاصة ما قد يوخز ضمائرهم ، ولهم فى أوطانهم من المنازعات ما لا سبيل إلى حسمه ؛ ولكن العرب أمة مهذبة إلى أقصى حد يسمح به دينهم الذى يعتقدون ، وهم قادرون خاصة على التحلى بفضيلة المجاملة والتأدب ، وهكذا كان صاحبنا العربى ، فأبى على نفسه أن يتطلع إلى النزاع الذى قام بين السر كنت وبين مشاعره ، إذ كان كنت يجمع فى شخصه شخصين متناقضين : أحدهما الاسكتلندى والآخر الصليبي .

ثم ضرب صاحبنا فى المسير ، وأخذت المناظر حولها تتغير وتبديل ، وقد عرجاً إذ ذاك شرقاً ، وسارا حتى بلغا سلسلة من التلال جرداء ، شديدة الانحدار ، تمتد فى سهل قاحل ، وهى تباين بارتفاعها سطح البلاد ، ولكنها لا تختلف عنها فى إحاطتها . وبدت أمام المسافرين صخور ناتئة حادة ، وبعد فترة وجيزة ، أشرفا على منحدرات سحيقة ومرتفعات يرتفع لعلوها البصر ، وليس من اليسير أن يجتاز ممراتها الضيقة ، فكانت عقبة فى سبيلهما ، تختلف عن غيرها من العقبات التى كانا يغالبانها منذ حين ؛ وبينما هما يسيران ، بدت لهما على جانبى الطريق كهوف مظلمة ، وشقوق بين الصخور منفرجة مروعة . وهى تلك الغيران التى كثيراً ما يشار إليها فى الكتاب المقدس ؛ وهنا قال الأمير للفارس الاسكتلندى إن تلك الكهوف كثيراً ما تأوى إليها الوحوش الضارية ، أو يلجأ إليها رجال أشد من الوحوش شراسة ، تدفعهم إلى اليأس حروب لا تنقطع ، وجور يلحق بهم من جنود الصليب والهلل ، فينقلبون لصوفاً يهبون كل من يلاقون ، ولا يفلت منهم أحد ، رفيعاً كان أو وضعياً ، مؤمناً أو كافراً ، رجلاً أو نساء ، شياً أو شاباً .

(١) يقصد الحرب التى كانت قائمة بين إنجلترا واسكتلندا .

وأخذ الفارس الاسكتلندي يستمع ، غير آبه ، لما يُروى له عن أعمال النهب التي يرتكبها الوحش الضارى والإنسان الشرير ، إذ أحس في نفسه بالشجاعة وقوة البنية يطمئن إليهما ، ولكن لشد ما كان هلعه حينما مر بخاطره أنه كان إذ ذاك يسير في القفر الموحش الذى أمسك فيه المسيح أربعين يوماً عن الطعام والشراب ، وأن تحت بصره ذلك المكان الذى تسنى فيه للشيطان أن يهاجم المسيح ويسرف في إغرائه وإغوائه ، فانصرف بذهنه شيئاً فشيئاً عن ذلك الحديث الساذج ، حديث الدنيا الذى كان يتحدث به إليه المقاتل العربى ، وهو يسير إلى جانبه ؛ وأحس السر كنث أنه في تلك المجاهل الجافة الجرداء ، التي تهيم فيها الأرواح الخبيثة بعد أن تخرج من الأبدان التي كانت تحل فيها ، أحوج إلى مراقبة قس عارى القدمين منه إلى ذلك المسلم المرح المنافق ، مهما كان حبيباً إلى النفس بروحه الخفيفة ، وشجاعته النادرة ، التي قد تجعل منه زميلاً تستحب زمالته في أى مكان غير هذا المكان .

استولت على المسيحي هذه المشاعر فارتبك في نفسه ، وزاده ارتباكاً أنه كلما أمعن وصاحبه في المسير ، زاد العربى من مرحه وسروره ؛ وكلما توغلا في حنايا الجبال المظلمة ، استخف في حديثه ؛ ولما لم يفز من المسيحي بجواب على سؤال ، أخذ يتغنى ويرفع الصوت في الغناء ؛ وكان للسركنث من الإلمام باللغات الشرقية ما يكفي لأن يؤكد له أن العربى كان يتغنى بأناشيد الحب المليئة بكل معنى من معانى الثناء على الجمال ، التي يغرم شعراء الشرق بالإغراق فيها ، والتي كانت — من أجل ذلك — لا تليق ألبتة بالفكر يحلق في سماء الجد والإخلاص لله ، وهو ذلك الإحساس الذى ينبغى للمرء أن يحس به وهو في القفر الذى امتحن الشيطان فيه المسيح ؛ ولكن العربى لم يرع للمكان حرمة ، فأخذ يتغنى كذلك بما أثر الخمر ويشبهه بالياقوت كشعراء الفرس ؛ وهكذا استرسل العربى في نشوة السرور إلى حد لم يعد يطيعه السركنث — وقد استولى عليه إحساس غير هذا الإحساس ؛ ولولا أنه قطع على نفسه من قبل عهداً أن يُبقى على المودة التي تبادلها لما تردد في أن يطلب إلى العربى أن يضرب على وتر آخر ؛ وهكذا أحس الصليبي كأن إلى جانبه شيطاناً

خبثاً مستهتراً في اللهو ، يحاول أن يوقع روحه في جباله ، ويحرمه من غفران الله ، بما كان يتمسّدق به من ملذات الحياة الدنيا ، يلوث بها طهارة قلبه ، في وقت تناشده فيه عقيدته المسيحية ، وميثاقه كحاج ، أن يذكر الله مستغفراً جاداً ؛ فاشتدت حيرته وتردد ماذا يصنع ، وأخيراً شق سكون نفسه ، وفي لهجة الناظم الحادة اعترض العربي وهو يتغنى بالأنشودة الشهيرة التي يؤثّر فيها الشاعر الحال على صدر معشوقته على كنوز بخاري وسمرقند .

فقال الصليبي محتداً : « أيها العربي ! مهما أظلمت عيناك ، ومهما ضللتك مهامه شرعية خرقاء ، أفلا تدرك أن من بين بلاد الله بلاداً أكثر تقديساً ، وأن من بين الأماكن أما كن ، الشيطان فيها أشد سلطاناً على النفوس الأمارّة بالسوء ؟ إنني لن أخبرك بالسبب المروع الذي من أجله اتخذ الشيطان هذا المكان ، وهذه الصخور ، وهذه الكهوف ذات القباب المظلمة ، التي توهم الرائي أنها تؤدي إلى أغوار سحيقة ، مرتعا خاصا له ولجنوده ؛ وحسبك أن رجلاً قديسين حكماً ، يعلمون حق العلم خصائص هذا المكان الدنس ، قد حذروني منه منذ زمن بعيد ؛ فهل لك أيها العربي أن تفلح عن غيك ، وعن هذا الهزل الذي ليس هذا بجينه ، وأن تنصرف بفكرك إلى ما هو أليق بهذا المكان ، وإن تكن خير دعواتك ما هي — واحسرتاه ! — إلا إثم وكفران » .

وأصغى العربي لهذا الحديث بشيء من الدهشة ، ثم رد بروح من الدعابة والفكاهة لم يخفها إلا بمقدار ما تقتضيه المجاملة وقال : « إنك يا سر كنث رجل طيب ، ولكنك لم ترع لرفيقك حق الزمالة ، وإلا ، فأنت معشر الغرب لا تكثر ثون بأداب اللياقة . إنني لم أر أنك قد أسأت إلى حيناً أخذت تلتهم لحماً الخنزير وتشرب الخمر على مرأى مني ، بل لقد سمحت بنفسك لك أن تستمتع بطعام قلت إنه من حرية المسيحية ، ولم أعد أن أسفقت عليك في نفسى من متعتك الذميمة ، فلماذا إذن تضجر مني وتشكو ، وأنا إنما أسرى عنا — بكل ما وسعت من شعر جذل — هذه الطريق الموحشة ؟ ولقد قال الشاعر ما معناه : « إنما الغناء كقطر الندى يساقط

من السماء على صدر الصحراء فيجعل طريق المسافر بردا وسلاما .

فأجاب المسيح : « اسمع يا صاح ! أنا لا أكره الهواء أو الغناء ، بل إننا لنوليهما من قلوبنا مكانة عليا ، قد يكون أولى بها ما هو خير منهما ؛ ولكن الدعاء لله والأنشيد الدينية أليق بك من أغاني الحب وكؤوس الخمر ، وأنت تخرق هذا الوادي ، وادى ظل الموت ، المليء بالأبالسة والشياطين ، الذين أصابتهم دعوات القديسين فطردتهم من مساكن الانسان يهيمون في بلاد عليها وعليهم لعنة الله .

فأجاب العربي قائلا : « لا تتحدث عن الجن بمثل هذا أيها المسيحي ، واعلم أنك توجه الخطاب إلى رجل هو وأمته يرجعون بأصلهم إلى جنس مخلد ، تحشونه في مذهبكم ، وتستزلون عليه غضب الله .

فأجاب المسيح : أعلم أن أمتكم العمياء تنتسب إلى الشيطان الرجيم ، الذي مد إليكم يد المساعدة ، فككنكم من الاحتفاظ بهذه الأرض المكفرة ، أرض فلسطين ، فوقفتم في وجه عدد عديد من جنود الله الأبطال . إنني لا أتحدث عنك خاصة أيها العربي ، وإنما عن قومك عامة وعن دينك ، وليس العجيب أنكم تنتمون إلى الشيطان ، وإنما العجيب أنكم تفخرون بذلك .

فأجاب العربي : « نحن أشجع الشجعان ؛ بمن نفخر في كرم المحدث إن لم نفخر بأشد المخلوقات إقداما ؟ نحن الجبابرة المتكبرون ؛ إلى من نفتخى إن لم ننتم إلى إبليس ، الذي آثر أن يخرج من الجنة مدحورا على أن يسجد لآدم طائعا ؟ إن إبليس ذميم مكروه ، ولكنه مهيب الجانب ، وكإبليس نحن أبناءه أهل كردستان .

وكان العلم السائد في هذا العصر هو قصص السحر والاتصال بالأرواح ، ولذا فقد استمع السر كنث إلى رفيقه حينما اعترف بأصله الشيطاني ، ولم تساور نفسه خلجة من شك ، أو أثر من عجب ، ولكنه مع ذلك قد أحس بفرائضه ترتعد ، حينما ألقي نفسه في هذا المكان المروع برفقة رجل أعلن صراحة عن أصله الذي ذكرنا ؛ وكان السر كنث لا يعرف الخوف بطبعه ، فرسم علامة الصليب على

نفسه ، وطلب إلى العربي في جرأة أن يحدثه شيئاً عن أصله الذي يفخر به ،
وسرعان ما لبى العربي مطلبه فقال :

« اعلم أيها الغريب الشجاع أن (الضحاك) ، أحد أبناء جمشيد ، لما اعتلى عرش
فارس ، عقد مجمعاً من الشياطين تحت قباب (اصطخر) الخفية ، تلك القباب التي
نحتها الأرواح الأولى في عين الصخر ، قبل أن يخلق الله آدم نفسه ، وهنا كان
للضحاك حيتان ضاريتان ، أخذ يطعمهما ويقدم لهما القربان كل يوم من دم
الإنسان ؛ حتى صارا — كما يحدثنا الشعراء — جزءاً من نفسه ، وأراد أن يُبقى
عليهما ، فأخذ يجمع لهما الضحايا البشرية كل يوم ، حتى نفذ صبر رعيته ؛ فرفعوا
في وجهه راية العصيان ، وكان من بينهم أمثال الحداد المقدام ، و(فريدون) الظافر ،
الذين استطاع آخر الأمر أن يخلعا هذا الظالم المستبد عن عرشه ، ويحبساه طوال
حياته في الكهوف المظلمة في جبال (راموند) ، ولكن هذا الرجل المتعطش للدماء
كان قد بعث وهو في أوج قوته — قبل أن تخلص البلاد من حيفه — بثلة من
أتباعه اللصوص ، كي يأتوه بالفرائس يقدمها ضحايا كما اعتاد كل يوم ، فجاءوا إلى
أهباء قصر (اصطخر) بسبع أخوات ، تحسبن من فرط جمالهن من حور الجنان .
ها تيك الفتيات السبع هن بنات رجل حكيم ، لا يملك من الثروة غير حكمته وجمال
بناته ولكنه — على حكمته — لم يستطع أن يتوقع الكرب الذي حل به ، والبنات
لم يملكن أن يدفعن الشر ، ولم تعد كبراهن العشرين ، ولم تكذببلغ صغراهن الثالثة
عشرة ، وكن جميعاً على صورة واحدة ، لا تستطيع أن تفرق بين الواحدة والأخرى
إلا باختلاف القد ، إذ كن يتوالين في طولهن متتابعات ، مثلهن في ذلك مثل المصعد
الذي يؤدي إلى أبواب الجنة ؛ وما كان أجملهن حين وقفن تحت القبة المظلمة ،
وقد خلعن ثيابهن ، ولم يتسترن إلا بقمص من الحرير الأبيض ، يهززن بجمالهن
قلوب البشر ؛ إذ ذاك جلجل الرعد ، وزلزلت الأرض ، وتشقق حائط البهو ، ومن
بين تلك الشقوق تسلل رجل في زى صائد ، بيده قوس ونشاب ، وفي إثره ستة
من إخوته ، وكانوا جميعاً رجالاً طوالاً ، سود الوجوه ، محياهم جميل الطلعة ، إلا

أن في أعينهم بريقا كبريق الموت ، لا كذلك الضياء الذي يتألق تحت جفون
 الأحياء ؛ ثم أمسك زعيمهم بيد كبرى الأخوات السبع ، وقال في صوت ناعم
 خافت فيه رنة الأسي : « زينب ! أنا (كُثْرَب) ملك العالم السفلى ، ورئيس الجن
 الأعلى ؛ أنا وإخوتي هؤلاء — وقد خلقنا الله من النار الأولى — قد أبيتنا ، حينما
 أمرنا العزيز القادر ، أن نسجد لكائن خلقه من طين وسماء الإنسان . وما أخالك
 قد سمعت عنا إلا أنا قساة لا نلين ، نوقع الشر بالنفوس ، وما هذا إلا باطل ، إنما
 نحن بطبيعتنا كرام رحيمون ، لا ننقم إلا إذا لحقنا إهانة ، ولا نقسو إلا إذا
 مستنا أذى ، من وثق فينا أخلصنا له ، وقد دعانا أبوك ، « مِثْرَاب » الحكيم ،
 فلبينا الدعاء ، وأبوك بحكمته لا يعيد أصل الخير فحسب ، وإنما يعيد منبت الشر
 كذلك ؛ إنك وأخواتك على حافة الموت ، ولكنكن إن أعطيتنا كل واحدة منكن
 شعرة من فرعها الجميل ، دليلا على الولاء ، حملنا كن فراسخ من هنا إلى مكان
 آمن تتحدن منه الضحاك ووزراء » ولقد قال الشاعر إن الخوف من الموت
 العاجل كالخوف من عصا موسى نبي الله ، التي ابتلعت كل عصاة انقلبت أمام فرعون
 الملك إلى حية تسمى ؛ وهكذا كان بنات الحكيم الفارسي ، فلم يرعن لخطاب
 كثرَب ، كما ارتاع غيرهن ، فأعطينه ما فرض عليهن ، وفي أسرع من لمح البصر
 انتقل الأخوات إلى قصر مسحور فوق جبل « تَجْرَت » بكردستان ، ولم تقع
 عليهن من بعدُ عينُ إنسان ؛ ثم انقضى زمن طويل ، وذات يوم ظهر إلى جوار
 هذا القصر — قصر العفاريت — سبعة شباب ، لهم صيت في الحرب والطراد ،
 أشد حلوكة وأعلى ارتفاعا وأشد بأسا وأقوى عزيمة من كل من نزل بأودية كردستان
 من إنسان ، فاتخذوا البنات السبع زوجات لهم ، وأصبحوا آباء لقبائل الكرد
 السبع ، التي طبق ذكر شجاعتها الآفاق .

استمع الفارس المسيحي متعجبا إلى هذه القصة الوحشية ، التي مازال لها أثر
 بأرض كردستان ، ثم أطرق هنيهة وقال « أصبت فيما قلت أيها الفارس ؛ قد يخشى
 المرء منبتكم وينبذه ، ولكنه لا يستطيع أن يحقر من شأنه ، ولن أعجب ، بعد

الذى سمعت ، من تشبثكم بدين باطل ، فلا ريب أن ذلك ماهو إلا ناحية من ميولكم الشيطانية ، التى ورثتموها عن آبائكم ، الذين وصفتمهم كأنهم صيادون من الجحيم ، ميولكم التى تجب إليكم الباطل دون الحق ، ولن أعجب بعدُ منك تنتشى وتطرب وتنفس عن مكنون نفسك برواية الشعر ، مترنما به فى آونة أنت تدنو فيها من أمكنة ترتادها الأرواح الخبيثة التى توغرُ مسالكها ، تلك الأرواح التى تبعث فيك مرحا وجذلا يحس بهما المرء وهو يدنو من موطن أسلافه .

هذه الحرية التى عبر بها المسيحى عن رأيه سرَّ منها العربى ، ولم تجرح كرامته ، فقال « حقا ما قلت ولحية أبى ، فإننا ، على خلاف غيرنا من المسلمين ، لا نريد أن نقضى بضربة لازب على تلك الأرواح الأولى القوية العالية التى نعتقد انا منها نشأنا ، وذلك رغم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد آتانا دين خير من دين آبائنا الذى تعلموه فى أبهاء « بحرت » المفعمة بالأشباح ؛ نحن نعتقد ونؤمن أن هؤلاء الجن لم يتردوا فى شر لا محيص عنه ، وإنما هم ما برحوا فى طريق المحنة والاختبار ، وقد يجزون فى الآخرة خيرا ، وقد يجزون شرا ؛ ولكن دع هذا « لرجال الدين » والأئمة ، وحسبنا أن تقديس هذه الأرواح لم يجرِّمه ماتعلمنا من القرآن كل التحريم ، وأن كثيرا منا ما فتى يتغنى بمثل هذا الشعر الذى يذكّر بدين آبائنا الأولين . » ثم أخذ ينشد — فى لغة قدمة جدا فى لفظها ومعناها — أبياتا من الشعر ، يعتقد بعض الناس أنها ترجع فى أصلها إلى عبدة « أهرمان أصل الشر » .

— أهرمان —

أى أهرمان الأسود ،

يا من يرى فيك العراق منبع الشر والسوء !

إذا ما سجدنا لك عند معبدك ،

شهدنا الدنيا بعيون كليله ،

وعلمنا أن ليس تحت قبة السماء

دولة تنافس دولتك !

إذا كانت بقوة الرحمن الرحيم ،
تتفجر العيون في أرض خلاء ،
يرتوى منها رحالة متعبون ،
فعنك تصدر الأمواج ترطم الصخور ،
ومنك تهب رياح صرصر عاتية ،
فتتكفن في جوف الماء جنود البحار .

وإذا أنبت الرحمن من الأرض بلسمًا ،
تشتفي منه النفوس الخائرة ،
فيا ما أقل من تشفيه البلاسم
من ألم لا يبرح ومن عذاب مقيم ،
ومن نار المحمى ومن فتك الطاعون :
وتلك هي سهامك في جمعتك !

في قلوب البشر لك سلطان فوق كل سلطان ،
وإذا ما ابتهلنا بالصلاة
إلى عرش غير عرشك ،
ودعونا فأسرفنا في الدعاء ،
فإن خفي المعنى في الصلاة
لك وحدك يا أهرمان .

خبرني إن يكن لك حسٌّ أو شكل أو شعور ،
وهل صوتك الرعد وجلبابك العواصف ،
كما يحدثنا في الشرق المجوس ؛

وهل لك قلب ينبض بالبغضاء والشحناء ،
وأجنحة ترفرف بها في طريقك ، طريق الموت ،
وأسنان تنفث منها في فريستك السم الزعاف ؟

وهل أنت من بدء الخليقة منقلب الطباع ،
قوة لا تكل ولا تنى ،
تحوّل شرا كل خير ؟
عنصر الأذى في دمائك ،
إذا أصابنا خير تصارعه ،
وأنت أبداً تصرعه .

ومهما يكن فلا طائل تحت النضال ؛
لك سلطان على كل ما ظهر ،
ونفوذ على كل ما بطن ؛
كل عاطفة قوية في قلب البشر ،
من حب أو بغض أو طموح أو خوف أو جذل ،
تدفع بها نحو الإثم والرذيلة .

كلما بدت بارقة من ضياء
تنير ما يتحدث من مآقي الدموع ،
إذا أنت قريب المنال ،
وسط هذه الغبطة في بيداء الحياة ،
ترهف كل سكين على مائدة الطعام
وتجعل منها آلة للحرب والفناء .

مذ نفخ الله فينا الحياة ،
ومد لنا على وجه الأرض الأجل ،
وأنت تقضى في الرجال ؛
وإذا صار للموت حين ،
منك كان الألم ؛

فهل انقضى في الأرض سلطانك يا روح الظلام ؛
عجياً ! من ذا الذي يتصدى للجواب ؟ ^(١)

ولربما كانت هذه الأنشودة تعبيراً طبيعياً صادراً عن قلب فيلسوف لا يملأ
النور كل أرجاء صدره ، فيلسوف لا يرى في ألوهية أهرمان الكاذبة إلا سيادة
الشر الخلق والأذى الجثامى ، ولكنها في أذنى السر كنت كان لها أثر آخر ،
فقد كان لها في مسمعه — إذ كان يتغنى بها رجل يفخر بانتسابه إلى الجن — رنين
كأنه رنين الدعاء إلى الشيطان عينه ، وقد استمع كنت إلى هذا الكفران في قلب
الصحراء عينها ، التي وقف فيها الشيطان يطلب إلى الناس الولاء له ، فصب الله عليه
نقمته ، فأخذ (كنت) يوازن بين نفسه ونفسه إن كان خيراً له أن يفصل في الحال
عن رفقة العربي الكافر ، كي يشعوره بضجره ، أو يتحداه للنزال دون توان ، ويتركه
في القفر طعاماً للوحوش — إن كان حتماً عليه ذلك وفاء لميثاقه كحارب صليبي —
وإذ هو كذلك ، إذا بشبح لم يكن في الحسبان يجذب منه التفاته .

وكانت الشمس إذ ذاك آيلة للغروب ، ولكن فارسنا استطاع رغم ذلك أن

(١) ترجم هذه الأنشودة إلى الإنجليزية قس عالم ذو منزله رفيعة ، وقد طلب إلى تفادياً
لسوء الفهم ، أن أذكر القارئ بأن هذه القطعة من وضع رجل ينكر وجود الله ، ولا يعرف
لأخطا الخلق وشرور الجسد من سبب حق ، وإنما هو ينظر إلى سلطانها على نظام الكون ،
كما ينظر من لا يعمر قلبه نور المسيحية إلى هذه الحقيقة المرة ؛ وأنا من ناحيتي أزيد على ذلك أني
أعلم أن المترجم قد تصرف في الترجمة وزاد فيها زيادة لا يوافقها عليها أولئك الذين يعرفون القطعة
في أصلها العجيب الفريد ، ويخيل لي أن المترجم قد يئس من أن ينقل إلى نظم إنجليزي شعراً
شرقياً يحلق في الخيال ، وربما استعاض بمعانيه الخاصة معاني كانت في الأصل وأدرك استحالة
الكشف عن معناها ؛ وهكذا يفعل الكثير من عباقرة العلم — المؤلف .

يرى أنه لم يعد وصاحبه وحدهما في الغاب ، وإنما كان يرقبهما عن كشب جسم بالغ الطول ، جد نحيل ، يقفز على الصخور وفوق الأشجار ، ويذكر الفارس — بخفته ومظهره الخشن الغليظ — بآلهة الحقول وأرباب الغاب ، الذين شاهد لهم صوراً في معابد روما القديمة ؛ وكان هذا الرجل الاسكتلندي ساذج القلب ، لم يشك لحظة في أن آلهة القدامى المارقين على الدين كانت أبالسة في حقيقتها ، وهو الآن كذلك يعتقد دون تردد أن المقطوعة اللعينة ، التي تغنى بها العربي ، قد أخرجت روحاً من أرواح الجحيم .

فقال لنفسه في صراحة : « وماذا يعنيني ! ليهلك الشيطان وعبد الشيطان » ولكنه — بطبيعة الحال — لم ير ضرورة لأن ينذر عدوين ويتحداهما باللهجة عينها التي يخاطب بها عدواً واحداً ؛ وامتدت يده إلى عصاه ، وكاد العربي أن يلقى جزء شعره الفارسي ، وهو غافل ، بهشيم رأسه في الحين تهشماً لا مبرر له ؛ ولكن الفارس الاسكتلندي تحاشى إثماً لو اقترفه لكان ثمة في شرفه الحربي ، وذلك أن الشبح ، الذي ظل الفارس مدة وعيناه لا تحيدان عنه ، كان يعترض طريقهما بادی الأمر ، متخفياً خلف الصخور والأشجار ، مستغلاً طبيعة الأرض بحذق شديد ، ومتغلباً على نشازها بخفة عجبية ؛ ولكنه — حينما سكت العربي عن الفناء — تبدى عن رجل طويل القامة ، يرتدي جلد عاز ، ثم قفز إلى وسط الطريق ، وأمسك بزمام من أزيمة العربي بكليتا يديه ، وجابه الجواد النحيل ، وردده إلى الوراء ، فرأى الجواد أنه غير قادر على أن يصمد لمهاجمه — وقد أتاه على حين غرة وضغط على طرف عنانه المسنون الطويل ، وسلسلته المتينة التي كانت على الطراز الشرقي — فتقهقر لساعته ، ثم سقط إلى الخلف فوق صاحبه ، ولكن صاحبه أسرع وقفز جانباً كي ينجو من خطر الوقوع .

حينئذ رفع المهاجم قبضته عن زمام الجواد ومكنها من حلق راحبه ، وهوى بنفسه فوق العربي وهو يدفع عن نفسه ، واستطاع أن يبقيه تحته طريح الأرض ، وطوقه بذراعيه الطويلتين ، فبات العربي في قبضته ، وصاح غاضباً وهو يتكلف

الضحك : « أى (هاما كو) يالعين ، اطلقنى ، ليس هذا من حقك — اعزب عنى وإلا سللت خنجرى » .

فأجاب الرجل المرتدى جلد العنز : « أى خنجر أيها الوغد الخائن ، اقبض عليه إن استطعت » وبأسرع من لمح البصر استل خنجر العربى من يده ، وهزه فوق رأسه .

فصاح شيركوه مذعوراً : « النجدة ! النجدة ! أيها النصرانى ، وإلا قتلنى هاما كو » .

فأجاب ساكن الصحراء : « أقتلك ! حقاً إنك لتستحق الموت ؛ كيف تتغنى بهذه الأناشيد اللعينة ، وتترنم بما أثر إليه الشر ؟ » .

وكان الفارس المسيحى حتى ذلك الحين يتطلع فى دهشة وذهول ، ولشد ما كان عجبه ، لأن هذه الملحمة فى طورها ونهايتها قد أتت على خلاف ما كان يتوقع من قبل ؛ ولكنه لم يلبث طويلاً حتى أحس بأن الكرامة تقضى عليه بأن ينضم إلى جانب زميله المهزوم ، فالتفت إلى الرجل المرتدى جلد العنز ، وقد ظفر ، ووجه إليه الخطاب قائلاً : « كن من شئت ، كن من أبناء الخير أو من أبناء السوء ؛ ولكن اعلم أننى قد أخذت على نفسى فى هذا الظرف أن أخلص فى صحبتى لهذا العربى الذى أرديته تحتك ، ولذا فإنى أتوسل إليك أن تخلى عنه ، وإلا قاتلتك دفاعاً عنه » .

فأجاب هاما كو قائلاً : « مرحباً بالقتال ! مرحباً بالقتال يعتزك فيه صليبي ويشتجر مع واحد من أبناء دينه الحنيف فى سبيل وغد لم يعتنق دين المسيح ! هل أتيت إلى هذا القفر تحارب للهلال ضد الصليب ؟ اكرم بك جندياً من جنود الله تنصت إلى أولئك الذين يتغنون بحامد الشيطان ! » .

وانتصب قائماً وهو يفوه بهذا الحديث ، فسمح للعربى كذلك أن يهب من مرقد ، ورد إليه خنجره . ثم واصل الحديث موجهاً خطابه الآن إلى شيركوه

وقال : « لقد رأيت كيف أدى بك ادعاؤك إلى شفا الخطر ، ورأيت كيف — إن أراد الله بك سوءاً — يكون اندحارك بأضعف الوسائل ، على حذقك ومهارتك وخفتك التي تفخر بها ، فحذار يا (ضريم) واعلم أنه لولا لحظة من بريق تألق بها نجمك يوم مولدك بشيراً لك بخير ونعمة قدرها لك الله في علاه ، لما افترقنا إلا بعد أن مرقت حلقك هذا ، الذي كان يلفظ آيات الكفر منذ حين » .

فأجاب العربي ، ولم تبد عليه أمارات البغض لهذا اللفظ الشديد وذلك التهجم العنيف الذي صُوب إليه ، وقال « أى هاما كوايها الرجل الطيب ، حذار أن تزهو ثانية بفضائلك إلى هذا الحد ، واعلم أنني كمسلم مؤمن بالله أجل المرء إذا أعاضه الله بروح التنبؤ عن نعمة العقل ، ولكني لا أحب أن تمتد إلى زمام جوادى أو إلى شخصى يد غير يدي . خبرني إذن ماذا تريد ، وثق أنك في مأمن من غضبي ، واعلم أنك إن هددتني بالعنف دقت رأسك المشعث وفصلته عن كتفيك النحيلتين » ، ثم اعتلى صهوة جواده واستطرد قائلاً : « أما أنت يا صديقي كنت ، فاعلم أنني أحب في رفيق الصحراء الإخلاص في العمل أكثر مما أحب التطرف في الكلام ، وحسبي ما أسمعني من طيب الحديث ، وإنما كان خيراً لي أن تسارع إلى نجاتي في عمراكي مع هاما كوا ، وقد أوشك أن يقضى على حياتي وهو في نشوة الجنون »

قال الفارس : « حقاً لقد خارت عزيمتي ، بل قل لقد أبطأت في إسعافك بالنجدة ، ولكن غرابة مهاجمك ومفاجأته بالقتال — وكأن أنشودتك الذميمة بتوحشها قد أنبتت بيننا شيطانا — أربكت عقلي ، فانقضت دقيقتان أو ثلاث قبل أن أسل سلاحي » .

فأجاب العربي : « ما أنت يا صاح إلا رفيق متبلد الإحساس ، شديد الحرص . لو أن هاما كوا تغالى في جنونه ذرة واحدة ، ولبتت ممتظيا جوادك ، شاهرا سلاحك دون أن تحرك إصبعاً لنجاتي ، لخر زميلك إلى جوارك صريعاً ، ولحقك العار ما دمت حياً » .

فأجاب المسيحي : « وحق مهندي أيها العربي لأصارك القول ، لقد ظننت ذلك الجسم الغريب شيطانا من بنى جنسك ، ولم أدر أى سر عاثل بينكما تتبادلان فيه الحديث ، وأنما تتمرغان معا فوق الرمال » .

فقال العربي : « هذه السخرية منك يا أخى كنت رد غير مقبول ؛ ولتعلم أن لو كان مهاجى هو الشيطان عينه ، لكان حتما عليك — مع ذلك — أن تنازله القتال فى سبيل رفيقك ، واعلم كذلك أنه إن كان بها ما كومس من جن أو شيطان ، فهو أقرب إلى منبتك منه إلى منبتى ، فما هاما كو هذا فى الحق إلا الناسك الذى أتيت إليه حاجا » .

فأجاب السر كنه ، وقد نظر إلى الجسم المائل أمامه ممشوق القد ، وإن يكن منهوك القوى ، وقال : « هذا !! هذا ! إنما أنت تهزأ أيها العربي ، وما هذا بتيودوريك الوقور ! »

فرد عليه شيركوه وقال : « سله إن كنت لا تصدقنى » ، ولم تكذب تخرج الكلمات من فيه حتى شهد الناسك على نفسه وقال :

« أنا تيودوريك ، رجل عين جدة ، أنا المشاء فى الصحراء ، أنا صاحب الصليب ، وسوط الكفار والمناققين وأتباع الشيطان . عنى ! عنى ! ليهلك الكفرة جميعا » ، ثم استل — وهو يتكلم — من تحت جلبابه المشعث شيئا يشبه أن يكون مطرقة أو هراوة ذات مفاصل موثوقة بالحديد ، وهزها فوق رأسه بمهارة فائقة .

وقال العربي : « ها أنت ذا تشهد قديسك » ثم ضحك لأول مرة من السر كنه ، وقد نظر (كنه) بدهشة ما بعدها دهشة إلى حركات تيودوريك الوحشية ، وأنصت إليه يتمتم متممة عجبية ، بعدما لوح بعصاه هنا وهناك ، وكأنه لا يعبأ أعلى رأس العربي وقعت أم على رأس المسيحي ، وأخيرا ضرب بها صخرا إلى جانبه ، فهشم الصخر فتاتا ، وظهرت من الرجل قوة ومثانة سلاحه .

فقال السر كنه : « هذا رجل مجنون » .

ورد عليه المسلم ، وتكلم وفقا للعقيدة الشرقية المعروفة ، التي ترى أن المجنون رجل تحت تأثير الوحي المباشر وقال : « وليس هذا بأسوأ القديسين ، أعلم أيها المسيحي أنه إذا انطفأ من إحدى العينين نور اتقد في الأخرى الضياء ، وإذا بترت إحدى اليدين قويت اليد الأخرى ، وكذلك إذا اضطرب العقل أو فسد تفكيره في أمور البشر ، اتجهت البصيرة نحو السماء وهي أشد نفاذا وأتم كمالا » .

وهنا غاص صوت العربي في صوت الراهب إذ أخذ هذا يهلل بصوت عال ويترنم بنغم خشن ويقول : « أنا تيودوريك ، رجل عين جده ، أنا جذوة الصحراء ، أنا سوط المنافقين ، الأسد والنمر — رفيقاي — يدنوان من غارتي يحتميان ، ولن تخشى مخالبهما بعد اليوم غز ؛ أنا المشعل والمصباح ، رحماك اللهم ! » . ولما فرغ من غناؤه هرول قليلا ، ثم قفز إلى الأمام ثلاث قفزات ، لو أنه أداها في حفل رياضي لحاز عليها كثير الثناء ، ولكنها لم تليق به كراهب ، حتى إن الفارس الاسكتلندي تيمير واربتك » .

وكان العربي قد كان لحركاته هذه أدق فهما فقال . « ألا ترى أنه يريدنا على أن نتبعه إلى غاره فنحتمى هناك ليلتنا ؛ أنت النمر ، ويشهد بذلك هذا الرسم فوق درعك ؛ وأنا الأسد ، ويدل على هذا اسمي ؛ وبالغز يشير إلى ردائه — وهو من جلدها -- ويعنى نفسه ؛ لنجعله أبدا تحت أبصارنا فهو سريع العدو كالهجين » . وكان ذلك عليهما شاقا ، إذ أن قائدهما الوقور كان حقا يقف الفينة بعد الفينة ، ويلوح بيده يحثهما على السير ، ولكنه كان جد خبير بالأودية الملتوية وطرق الصحراء ، وقد وهبه الله خفة غير مألوفة ، ربما ساعده على الإبقاء عليها دأبة النشاط عقل غير مترن ؛ ولكنه كان يسير بهما في خلوات وطرق ، أحس فيها العربي — على خفة سلاحه ودربة جواده — بالخطر الشديد ، فبالك بالأوروبي ، وهو مدرع بالحديد ، وجواده مثقل بالأحمال ؛ لقد ألقي نفسه والخطر يحدق به فود لو استعاض بهذه المخاطر معركة حامية الوطيس ؛ ولشد ما كان سروره حين رأى — بعد هذا العدو الوحشي — ذلك الرجل المقدس ، الذي هداها الطريق ، وقد

وقف لدى كهف ، ويده مشعل يتألف من عصا خشبية منغمسة في القار ، يشع منها ضياء يتذبذب في شدة ، وتفوح منه رائحة الكبريت في قوة .

لم يرتد الفارس من هذا البخار الخانق ، وإنما رمى بنفسه من فوق جواده وولج الكهف الذي كان ظاهره لا يدل على توفر الراحة فيه ؛ وكان الفار مقسما قسمين : خارجيا به مذبح من الحجر و صليب من القصب ، وكان الناسك يتخذ من هذا المكان كنيسة له ؛ وإلى جانب هذا الكهف الخارجي وثق الفارس المسيحي جواده ، وأعد له لمبيت ، محتذيا في ذلك حذو العربي الذي أفهمه أن هذا من تقاليد ذلك المكان ، ولكن المسيحي لم يخل من وسواس الشك ، دب فيه مما كان يحوطه من مظاهر كان لها في نفسه احترام ديني ؛ وفي غضون ذلك كان الناسك يشغل بتنسيق الغرفة الداخلية كي يستقبل فيها ضيفيه ، وسرعان ما لحقا به هناك ؛ وكان في داخل الكهف الخارجي فرجة صغيرة تغلق بباب من الخشب الخشن ، وتؤدي إلى غرفة فسيحة كان يتخذها الناسك للنوم ؛ وكان سطح الأرض بالكهف خشنا رغم جهد ساكنه في تسويته ، مفروشا برمل أبيض اعتاد أن ينثر الناسك الماء فوقه كل يوم ، يأتي به من عين صغيرة تنفجر في الصخر في إحدى زوايا المكان ، وتمد الانسان في ذلك الجو الخانق بماء عذب المذاق ، خريره لذيذ المسمع ؛ وفي جانب من جوانب الفار وضعت بعض الحشايا المصنوعة من الأعلام الملتفة ؛ وجدر الكهف — كأديمه — خشنة الملمس ، رغم جهد بادٍ في تسويتها ، وقد علقت عليها الأعشاب والزهور ، وأشعل الناسك مشعلين من الشمع نشرا جوا طيبا في المكان ، الذي بات يشدها وبرودته حبيبا إلى النفس .

وكانت في إحدى زوايا الغرفة أدوات من آلات العمل ، وفي زاوية أخرى فجوة ينتصب فيها تمثال للعذراء خشن غليظ ؛ وبالعرفة كذلك مائدة ومقعدان ، يدل ظاهرها على أنها من صنع الناسك ، فهي تختلف في هيئتها عن الأثاث الشرق . أما المائدة فكان ينتثر عليها القصب والبقل ، وعليها لحم مجفف ، أحكم تيودوريك وضعه بحيث يسيل لعاب زائريه ؛ ولم يستطع السر كنت ألبتة أن يوفق بين مظاهر

الجود هذه — على أن الناسك كان يقوم بها في صمت ، ولا يعبر عنها إلا بالإشارة —
وبين مسلكه المتوحش العنيف من قبل ؛ وقد أضحى الراهب بعد ذلك مترن
الحركات ؛ ولئن كان هزيل الملامح من أثر العيش الشطيف ، لا تبدو عليه امارات
النبل والجلال ، فما ذلك إلا لإحساسه بضرورة التواضع الذي يمليه عليه الدين ؛
وكان ينتقل في كهفه ، وكأنه رجل ولد ليحكم بين الناس ، ولكنه تخلى عن دولته
كي يخلص لعبادة الله ؛ ولكنه كان رغم ذلك رجلا كبير الحجم ، له خصل من
الشعر مرسل طويلة ، ولحية لم يمد إليها يده بالتشذيب ، وعينان وحشيتان غائرتان
يتطاير منهما الشرر — وهذه من صفات الجندية لا من صفات الرهبنة .

حتى إن العربي نفسه لم يسهه إلا أن ينظر إلى هذا الناسك ، وهو مشتغل
بعمله — بعين التبجيل ، فأسر إلى السر كنت في صوت خافت ، وقال : « ألا ترى
أن هاما كوالآن هادى البال ، إنه لن يتحدث إلينا حتى نفرغ من الطعام ، وهذا
عهد أخذه على نفسه » .

وبعدئذ أشار تيودوريك في صمت إلى الرجل الاسكتلندي كي يستوى على مقعد
من المقاعد المنخفضة ، بينما جلس شيركوه — كما يجلس بنو قومه — على حشية
من الحصير ، وعندئذ رفع الراهب بكتا يديه كأنه يبارك الطعام الذي قدمه إلى
ضعيفه ، وشرع يأكلان في صمت عميق كصمت المضيف ، وكان هذا الجد الخيم
فوق المكان أمرا طبيعيا للرجل العربي ، فلبث صامتا ، وحذا المسيحي حذوه ،
ولكنه أخذ يفكر في هذا الموقف الشاذ الذي انتهى إليه ، وفي التباين الشاسع
بين تيودوريك ، لما التقيا به أول الأمر ، وهو كالوحش يلوح بالإشارة من شدة
الغضب ، على الصرخات ، عنيف الحركات ، وبينه الآن ، وهو يقوم بواجب الجود
والضيافة في ثبات وحزم ، وقورا كريم الوفاة .

وفرغا من تناول الطعام ، ولم يتبلغ الناسك بلقمة ، وأخذ يزيل الفتات من
المائدة ، ثم وضع أمام العربي إبريقا من شراب سائع ، وخص الاسكتلندي
بزجاجة من النبيذ .

وشق صمته بهذا الخطاب : « اثربا ، ابني » ، فان لنا أن نستمتع بنعم الله ما دمناله ذاكرين » .

ولما أتم حديثه أوى إلى الكهف الخارجى كى يؤدى صلاته لله ، وخلف ضيفه معا فى الغرفة الداخلية ؛ حينئذ أخذ السر كنى يحاول بمختلف الأسئلة أن يستخلص من الأمير شير كوه كل ما يعرف عن مضيفه ، ولم يكن فى استجوابه هذا مدفوعا بحب التطلع فحسب ، إذ كان عسيرا على السر كنى أن يلائم بين الراهب فى تهور خلقه حينما بدا لهما بادی الأمر ، وبينه وهو فى تواضعه وسكونه من بعد ، ومحال عليه أن يوفق بين ذلك وبين ما كان يعلم من قبل مما لهذا الراهب من المكانة العالية فى قلوب الكثير من رجال الدين المستنيرين فى العالم المسيحى ، فلقد كان تيودوريك راهب عين جده — كما عرفه السر كنى — يرسل البابوات وجامع الدين ، ويصف لهم فى رسائله ، فى بلاغة وحاسة ، ما كان يصيب به الكافرون المسيحيين اللاتين فى الأرض المقدسة من ألوان من الشقاء لا تكاد تقل شدة عما كان يوقعه بطرس الناسك فى مجمع « كليمنت » حينما كان يبشر بالحرب الصليبية الأولى ؛ فلما رأى الفارس المسيحى من تيودوريك — وهو ذلك الرجل الوقور ، وذلك الشخص المبجل — من حركات الجنون ما لا يليق إلا « بفقيير » نجبول ، تردد قبل أن تصح عزيمته على أن يبلغه تلك الأمور الهامة التى حملها إياه جماعة من قواد الحرب الصليبية .

وكان من أولى الأغراض التى أتى من أجلها السر كنى حاجا ، سالكا طريقا غير مطروقة ، أن يبلغ الناسك ما حمل من رسائل ، ولكن ما شاهده فى ذلك الساء دفعه إلى الصمت والتبصر قبل أن ييوح بما عهد إليه ؛ ولم يستخلص من الأمير كثيرا من الحقائق ، ومجمل ما قال العربى إن الناسك — كما روى له — كان فى يوم من الأيام جنديا شجاعا جسورا ، حكما فى مشورته ، ومجودا فى ساحات القتال ؛ وأنه (أى العربى) آمن بذلك لما شاهد من القوة الباردة والحركة الخفيفة يديهما الناسك فى كثير من الأحيان ، وقال : « إنه لم يظهر فى بيت

المقدس في شخص حاج ، وإنما في شخص رجل وقف بقية العمر للإقامة بالأرض المقدسة ، وبعد زمن وجيز استقر به المقام وسط تلك المجاهل المهجورة التي ألفياها بها ، وأن اللاتين يبجلونه لشدة إخلاصه لربه ، كما يحترمه الترك والعرب لما يبدو عليه من أعراض الجنون التي ينسبون لها إلى الوحي ، وهم الذين أطلقوا عليه اسم (هاما كو) وهي كلمة تركية تدل على هذه الصفات ، وقد تحير شيركوه نفسه كيف يقدر مضيفه ، فقد كان — كما قال — رجلاً حكماً ، يستطيع حيناً أن يلقى دروساً في الفضيلة والحكمة ساعات متواصلة دون أن يزل ولو قليلاً ، وحيناً آخر تراه متوحشاً عنيفاً ؛ ولكنه لم يشاهده قط من قبل شديد الميل لفعل الشر كما بدا لهما في ذلك اليوم ؛ وأشد ما كان يثير غضبه إهانة تلحق بدينه ، ومما يروى عنه أن جماعة من العرب الرحل اعتدوا عليه في الصلاة ، وشوهوا له ظاهر مذهبه ، فهاجمهم وقضى عليهم بسوطه القصير الذي كان يحمله عوضاً عن كل سلاح آخر . وقد أثار هذا الحادث ضجيجاً قوياً ، وباتت القبائل الجوالمة تخشى من الناسك وقع مطرقته الحديدية ، كما تنظر إليه (كهاما كو) ، فأصبحوا يحترمون مسكنه ومعبده ؛ وقد اتسع مدى صيته حتى إن صلاح الدين أصدر أمراً خاصاً بحمايته والتخلي عنه ، وقد أتى بنفسه أكثر من مرة ، مع غيره من كبار المسلمين ، زائرين للغار ، مدفوعين بحب التطلع من ناحية ، ومرقبين من ناحية أخرى ، من رجل عليم كهاما كو المسيحي أن ينفذ ببصيرته في غياهب الغيب ؛ ثم استطرد العربي قائلاً : « وكان له مرصد عظيم الارتفاع ، يرقب منه نجوم السماء وكواكبها ، وهي التي بحركاتها وتأثيرها ، تسيّر كل ما يقع للإنسان من أحداث ، وتعيننا على التنبؤ ، وذلك من عقائد المسيحيين والمسلمين على السواء » .

هذه خلاصة ما كان يعلم الأمير شيركوه عن الناسك ، سمعها السر كنث فداخلته الريبة في طبيعة الجنون الذي تلبس به الراهب : هل هو من فرط حمى الحماسة تنتابه الحين بعد الآخر ، أو هو وهم يتكلفه كي يفيد من حصانته ، وعلى أي الحالين ، يظهر أن المسلمين قد بالغوا في احترامه مبالغة شديدة رغم عداوته

الصريحة لما يعتقدون ، وظن السركنت كذلك أن بين العربي والناسك تعارفا وقربى أكثر مما كان العربي بكلماته يريد على أن يعتقد ، ولم يفته أن الناسك كان يدعو العربي باسم يختلف عما ادعى هذا لنفسه ؛ هذه الظروف جميعاً أوجت إلى السركنت بالحرص ، بل وبالشك ، فعزم على أن يرقب مضيفه عن كثب وأن لا يتعجل بإبلاغه الرسالة الهامة التي وكلت إليه .

فقال : « حذار أيها العربي ! إننى يخيل لى أن مضيفنا يسبح بخياله فى الأسماء كما يسبح فى غيرها من أمور ، أليس اسمك شيركوه ، وقد ناداك الآن باسم آخر ؟ » .

فأجاب الكردي : « كان اسمى فى خباء أبى « الضريم » وما زال الكثير ينادى بهذا الاسم ؛ أما فى ساحة الوغى وبين الجنود ، فأنا أعرف (بأسد الجبل) ، وهو اسم أكسبنيه حسامى الباتر ، ولكن صه الآن يا صاح ، فأنى أرى هاما كوا مقبلا يدعونا إلى الراحة ، وأنا أعرف عادته ، وهى أن لا يرقبه أحد وهو ساهر على ذكر الله » .

وآتئذ دخل الناسك ومثل أمامهما ، ويداه على صدره ، ثم قال بصوت وقور « الحمد لله الذى جعل الليل لباساً ، وجعل النهار معاشاً ؛ وجعل لنا فى هدأة النوم راحة للجسم المهووك ، وطمأنينة للنفس المضطربة » .

فرد عليه المحاربان معاً وقالوا : « اللهم آمين » ثم نهضا من المائدة وتأهبوا لأن يأويا إلى فراشهما ، وقد أشار إليه مضيفهما بيده ، ثم نرك الغرفة ثانية بعد أن حياهما معاً .

وحينئذ جرد فارس النمر نفسه من سلاحه الثقيل ، وقد أخذ زميله العربي يعاونه برفق فى خلع درعه وحل أربطته ، حتى لم يعد يستتر إلا برداء ضيق من جلد الغزال ، كان الفرسان ورجال الحرب يلبسونه تحت السلاح ، وإذا كان العربي قد أعجب بقوة نده — وهو مسلح بالحديد — فهو الآن أشد إعجاباً بدقة التماسق

البادية في جسمه المعروق المقتول العضل ؛ وكأن الفارس بدوره قد أراد أن يرد
الجميل بالجميل ، فمد يد المعونة إلى العربي يعينه على خلع ما تدثر به من لباس حتى
يستطيع أن ينام وهو طليق الجسم ، ولشد ما كانت دهشته إذ رأى أطرافاً رقيقة
وجسماً نحيلاً ، لا يتفق وما أبدى صاحبه من بأس في النزال .

وقبل أن يأوى الفارس إلى الفراش توجهها إلى الله بالصلاة ؛ أما المسلم فيم
شطر « القبلة » وهي المركز الذي يتوجه إليه أتباع محمد في الصلاة ، وتتم بالدعاء
— بينما انسلخ المسيحي من المكان — وقد تدنس بجوار صاحبه الملحد^(١) ونصب
حساماً ضخماً ، له يد على هيئة الصليب ، جعل منه رمزاً للخلاص ، وسجد أمامه
وأخذ يدعو الله بقلب خاشع ، زاده خشوعاً ذكرى الفياق التي شق عباها ،
والمخاطر التي نجا منها أثناء النهار ؛ وسرعان ما غلب على صاحبينا النعاس ، وقد
رقد كل منهما على سرير من الحطب ، منهوكا من تعب الرحيل وشدة الإعياء .

(١) هذا ما كان يراه السركنت في زميله العربي .

الفصل الرابع

لم يدر السر كنه الاسكتلندي كم لبث غارقاً في سبات عميق ، حينما أحس بضغط على صدره ، فثاب إلى يقظته ، وقد ظن ذلك الضغط أول الأمر أضغاث أحلام يصارع فيها خصماً فوياً ، ثم تنهت حواسه أخيراً ، وكاد أن يسأل : « من هنا ؟ » حينما فتح عينيه فشهد شبح الناسك ، وحشى المظهر ، مفترس النظرات — كما وصفنا — ما ثلاً بجانبه ، وقد ضغط يميناه على صدره ، وأمسك بيسراه مصباحاً صغيراً من الفضة .

رفع الفارس عينيه مذهولاً وهو مستلق على ظهره ، فقال الناسك : « صه ! إننى أريد أن أحدثك حديثاً لا يسمعه هذا المسلم » .

وتكلم بالفرنسية ولم يلجأ إلى اللغة الفرنجية ، وهى مزيج من لهجات الشرق والغرب كانت حتى ذلك الحين وسيلة التفاهم بينهما .

ثم استأنف الحديث وقال : « انهض وارقد عباءتك ولا تنبس بينت شفة وخفف الوطأ واتبعنى » .

فنهض السر كنه وامتشق حسامه .

ثم همس الناسك فى أذنه وقال : « دع هذا ، إنما نحن ذاهبون إلى حيث سلاح الروح يغنيك عن الشيء الكثير ، وما هذه الأسلحة المادية إلا قصب وقشور هشة » .

فطرح الفارس حسامه إلى جوار سريره حيث كان من قبل ، وتأهب لمرافقة مضيفه غريب الأطوار ، ولم يتسلح بغير خنجره الذى لم يفارقه طوال مسيره فى هذه البلاد المحفوفة بالأخطار .

وحينئذ تقدم الناسك إلى الأمام على مهل ، والفارس يتبعه ، وما زالت تساوره الظنون ، ويخشى أن يكون الشبح المظلم ، الذى يتسلل أمامه كي يهديه

الطريق ، ما هو إلا من خلق الأحلام المزعجة ، ثم مرّا بالغرفة الخارجية ، وكانهما ظل يتحرك ، فلم يزعجا الأمير المسلم — وقد ظل مستلقيا غارقا في سباته — وبلغا الصليب والمذبح في الغرفة الخارجية ، وكان أمامهما مصباح ما فتى يتحرك ، وإلى جواره كتاب من كتب الدعوات الدينية ، وعلى الأرض سوط أو ألحوب للتوبة مقتول من الجبال والأسلاك الدقيقة ، خيوطه ملطخة بدم لم يجف ، دليلا قاطعا على صرامة الناسك على نفسه في توبته ؛ وهنا خر تيودوريك راكعا ، وأشار إلى الفارس أن يتخذ لنفسه مكانا إلى جواره فوق الزناد المدب ، وكأنه إنما ألقى هناك كي يبلغ العسر أشده حينما يتأهب الراهب للتوجه إلى الله بالدعاء ، ثم قرأ كثيرا من دعوات الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذ يترنم في صوت خافت ، تمازجه نغمت الجذ ، بثلاثة من مزامير التوبة ، وقد اختلط ترنيمه بالتأوه والدموع ، وتهدج صوته بالبكاء المرير ، وكان في ذلك شاهد على شدة تأثره بالشعر الديني الذي كان يرتله ، وحينئذ دب في قلب الفارس الاسكتلندي إخلاص عميق من أثر هذه الحركات في تنسك الراهب ، وأخذت ظنونه في مضيفه إذ ذاك تتحول وتبدل ، حتى أوشك أن يعتقد فيه القداسة من قسوته في التوبة ، وإخلاصه في الصلاة ؛ ولما هبا من صلاتهما وقف أمامه إجلالا له ، كأنه طالب أمام أستاذ وقور ؛ أما الناسك فقد لزم الصمت واسترسل للفكر بضع لحظات ، ثم قال ، وقد أشار إلى ركن بعيد من أركان الكهف : « قتش في تلك الفجوة يا بني تجد حجابا . هاته هنا » .

فانصاع الفارس وألقى الحجاب المطلوب في فرجة ضيقة قدت في الحائط ، واستترت بياب من أغصان الصفصاف المجدولة ، ولما أتى به إلى الضياء ألفاه ممزقا وملطخا في بعض أتحائه بمادة سوداء ، ثم تفرسه الناسك بعاطفة قوية مكبوتة ، واضطر أن ينفس عن مشاعره بأنة من الأعماق قبل أن يتحدث إلى الفارس الاسكتلندي .

وأخيرا قال : « عما قريب تشهد أغني ما ملكت الأرض من كنوز ؛ يا ويلي !

إن عيني غير جديرتين بالنظر إليه ! يا حسرتي ! إنما أنا مرشد حقير وضع ،
ليس لي إلا أن أهدى المسافر المهوك إلى موئل الدعة والراحة ، وأن أظل أبدا
طريد الديار ؛ عبثا أفر إلى حنايا الصخور ، أو إلى قلب الصحراء المجردة ؛ لقد عثر
بي خصمي وطار دني إلى حصني رغم تنكري له ! »

وسكت هنيهة ثم التفت إلى الفارس الاسكتلندي وقال في صوت أشد ثباتا
في نغمه : « هل أتيتني بتحية من رتشارد ملك انجلترا . »

فأجاب الفارس : « إنما أتيت من مجمع الأمراء المسيحيين ، وأما ملك انجلترا
فلم أشرف بأن أثمر لجلالته ، فهو عن ذلك راغب . »

فأجابه الناسك وقال : « هات دليلك » .

فتردد السر كنت ، واندفعت توا إلى رأسه الشكوك التي ساورتها من قبل ،
وتذكر أمارات الجنون التي بدت على الراهب آنفا ، ولكن كيف له أن يرتاب
في رجل له هذه القداسة في مسلكه ؟ وأخيرا قال : « جوازي هذه الكلمة :
الملوك يتوسلون إلى التسولة » .

ثم سكت ورد الناسك قائلا : « لقد أصبت ، وإني لأعرفك حق المعرفة ،
ولكنني قائم على أمر هام ؛ والحارس في حراسته يتحدى الصديق كما يتحدى
العدو » .

ثم سار قدما والمصباح في يده ، وتقدم قصد الغرفة التي خلفهاها ، والعربي
ما يزال راقدًا في سريرته ، غارقا في نومه ، فوقف الناسك إلى جواره ورمقه بنظرة
ثم قال : « إنه ينام في الظلام ويجب أن لا يستيقظ » .

وكان الأمير في رقدته يوحى إلى الرأي أنه حقا في سبات عميق ، فقد استلقى
متجها نحو الحائط بنصف وجهه ، وإحدى ذراعيه ممتدة عبر جسمه ، وقد حجب
أكثر وجهه بكفه الواسع الطويل ، ولكن جبينه العالي ما زال باديا ، وسكنت
عروقه التي كانت دائبة التدفق وهو في يقظته ، وأضحى وجهه كالمرمر الأسود ،
وأهداب جفونه الطويلة الناعمة كالحرير تنطبق على أعين نافذة كميون الصقر ،

ويده مبسوطة مسترخية ، وأنفاسه عميقة هادئة تتوالى فى انتظام ؛ وكل ذلك دليل على سبات عميق ، وما كان أعجب تلك الجماعة التى تتألف من هذا النائم وزيّنك الشبحين الطويلين ، أحدهما الناسك مرتديا جلد العنز المشعث ويده المصباح ، والآخر الفارس فى سترة ضيقة من الجلد ، وعلى وجهه الناسك أمارّة قوية من اكتئاب التقشف ، وأما الفارس فقد انطبعت طلعة المشوق على ملامحه المسترجلة انطبعا قويا .

وقال الناسك بنغم خافت كالذى كان من قبل : « إنه فى نوم عميق » ثم ردد هذه الكلمات ، ولكنه لم يقصد بها هذه المرة إلى معناها اللفظى ، وإنما كان يرمى إلى معنى مجازى ، قال : « إنه ينام فى الظلام ، ولكن عما قريب يطالعه الفجر — أيها (الضريم) ! ما أشبه أحلام يقظتك فى عبثها وتوحشها بالرؤى التى ترقص مترنحة فى خيالك وأنت نائم ، ولكن عما قريب تدق الطبول وتبدد الأحلام » . وهكذا أتم الناسك حديثه وأشار إلى الفارس أن يتبعه ، ثم سار نحو المذبح وصر وراءه وضغط على زنبرك ، فانفرج — دون ضجيج — عن باب صغير من الحديد شق فى قلب الكهف ، ويكاد لا يلمحه البصر بغير الإمعان الدقيق ، وقبل أن يجسر الراهب على فتح الباب على مصراعيه صب على مفاصله من المصباح قليلا من الزيت ، ولما انفتح الباب الحديدى أخيراً بأكملة ، انكشف للرأى سلم صغير نحت فى الصخر .

وهنا قال الناسك فى صوت حزين : « خذ هذا القناع من يدي واحجب به عيني فليس لى أن أشهد الكنز الذى سوف تقع عليه عيناك عما قريب ، وإلا كان إثما منى وعدوانا » .

ولم يجبه الفارس بكلمة وإنما أسرع إليه وكم رأسه بالحجاب ، ثم شرع الناسك يصعد السلم ، وكأنه رجل تعود الطريق بحيث لا يحتاج إلى ضياء ، ولكنه كان يمسك بالمصباح للاستئناس الذى تابع خطاه على الدرج متسلقا ذلك المصعد الضيق ، وأخيراً بلغا بهوا صغيراً ليس له هيئة منظمة ، ينتهى الدرج إلى أحد

أركانها ، ويرى في ركن آخر درج آخر يقابله ويستأنف صعوده ، وفي زاوية ثالثة باب قوطى يتجمل جمالا ساذجا بما تتميز به عادة العمد والصخور المنحوتة ويحتفى بباب صغير اشتبكت فيه قضبان الحديد ودقت فيه المسامير ، وقد قصد الناسك إلى هذا المكان الأخير ، وكلما اقترب منه تعثر في خطاه .

ثم قال لرفيقه : « اخلع نعليك فإن الأرض التي تطؤها أرض مقدسة ، واطرد من دخيلة قلبك كل فكر أو شهوة دنسة ، فإنه كفر ما بعده كفر أن تضم إلى صدرك مثل هذه الرغبات في هذا المكان » .

فصعد الفارس بما أمر ، وخلع نعليه ، ووقف الناسك حينذاك وكأنه قد أرسل الروح في صلاة صامتة ، ثم تحرك ثانية وأمر الفارس أن يقرع الباب الصغير ثلاثا ، ففعل الرجل ، وخیل للسركنت أن الباب قد انفتح من تلقائه ، إذ لم تقع عينه على أحد ، وهب على حواسه تيار من ضياء نقي يخطف البصر ، وشذى عبق قوى يأخذ بمجامع الحس ، فرجع القهقري خطوتين أو ثلاثا ، ولم تمض دقيقة حتى أحس بالتغير المفاجئ من ظلام إلى ضياء يكاد من شدته يبهز البصر ويهد القوى .

ثم دخل الغرفة التي كان يخرج منها هذا الضياء البراق ، ورأى أن النور كان يشع من مجموعة من المصابيح الفضية ، تشتعل بزيت نقي ، وتنشر أنفاس العطور ، معلقة بسلاسل من الفضة بسقف كنيسة صغيرة قوطية شقت — كأكثر أرجاء دار الناسك الفريدة — في الصخر المصمت الصلب ؛ وبينما كانت الصخور في كل مكان آخر وقع عليه بصر السركنت تدل على أن يد الإنسان لم تمتد إليها إلا بتسوية خشنة ساذجة ، كانت هذه الكنيسة تشهد بأن الإنسان قد استخدم فيها أقدر المختصين بفن البناء بأزاميلهم وكل مبتكر من فهم ، فلقد كانت السقوف ذات الأضلاع المتصالبة ترتكز على ستة أعمدة في كل جانب ، نقشت بمهارة نادرة ، والقباب المقعرة تتقاطع في جمال متسق ، وكل شيء يدل على انسجام تام في الفن وملاءمة لروح العصر ، ويقابل صف الأعمدة على كلا الجانبين فجوات ست بديعة

الصنع ، في كل منها تمثال لواحد من الرسل الاثني عشر .
وأقيم مذبح الكنيسة في طرفها الأعلى ناحية الشرق ، وإلى ورائه ستار نفيس
من الحرير الفارسي مزركش بالذهب الكثير ، ويحجب مكانا خفيا لا شك في
أنه يحتوي على تمثال أو أثر له قدسية غير مألوفة ، وقد أقيم هذا المعبد الفريد تمجيدا
له ؛ وتوهم الفارس ذلك ، فتقدم إلى الضريح وركع أمامه ، وردد دعاءه بحرارة من
القلب ؛ وإذا هو كذلك ، إذا بالستار يرتفع بفتة ، أو لعله جذب إلى أحد الجانبين ،
فاضطرب الفارس في انتباهه ، ولم يركف ارتفع الستار ، أو من ذا الذي أراحه ،
ولكنه رأى في الكن الذي انكشف خزانة من الفضة والأبنوس لها باب مزدوج ،
وكل شيء صنع على غرار كنيسة قوطية .

تطلع الفارس إلى الضريح بشوق قلق ، وإذا بالباب المزدوج ينفرج ويكشف
عن كتلة من الخشب نقشت عليها هذه الكلمات « الصليب الحق » . وفي تلك
الآونة كانت بطانة من النساء ترتل نشيد (المجد لله) ؛ وفي اللحظة التي انقطع فيها
الفناء ، أغلق الضريح وأرخی السجاف ثانية ، وكان الفارس — وقد ركع لدى
المذبح — يستطيع أن يواصل دعاءه دون اضطراب تمجيدا للأثر المقدس الذي تجلى
لبصره منذ حين ، وقد فعل ذلك تحت تأثير عظيم ، يحس به كل من رأى بعيني رأسه
شاهدا قويا على صدق دينه ، واختتم صلاته ، ثم هب وقد تشجع على أن يبحث
حواليه عن الراهب الذي أتى به إلى هذا المكان المقدس المسحور ، فوقعت عليه
عينه وما فتئ رأسه مكما بالقناع الذي كان قد لفه بنفسه حوله ، واستلقى كالكلب
التليل لدى باب الكنيسة ، ولكنه لم يجسر على وطئها ؛ وقد كان في ذلك الوضع
الذي اتخذته دلالة قوية على مقدار قداسته ، وعلى توبته وندمه ، فقد استلقى كرجل
آده عبء فادح من إحساس باطن عميق ، فخر طريح الأرض مغلوبا على أمره ،
وخيل للاسكتلندي أن الرجل بينيته القوية وروحه المشتعل ، لن ينكب على
وجهه إلا إذا غلبه إحساس عميق بالتوبة والندم والخضوع .
فاقترب منه وكأنه يريد أن يتحدث إليه ، ولكن الناسك أدرك مرماه ،

فتمتم في صوت محتقن من خلف الوثاق الذي كان يكتم رأسه ، فرنت نبراته وكأنها صوت ينبعث من جثة هامدة في كفن وقال : « انتظر ، فالشهد لما ينته ، ولتسعد بمرآه » ثم نهض من فوق الأرض ، وتقهر من لدى المدخل حيث كان منكبا على وجهه ، وأغلق باب الكنيسة ، الذي كان يحكمه من الداخل مزلاج حلزوني كان له صرير رن صدهاء في أرجاء المكان ، وهذا الباب لا يختلف في ظاهره عن الصخر ذاته الذي شق فيه الكهف ، حتى إن كنت لم يكذبين أن هناك منفذا ، وأصبح الآن وحيداً في الكنيسة المضاءة التي كان بداخلها الأثر الذي أدى له واجب الطاعة منذ حين ، ولا سلاح له غير خنجره ، ولا رفيق غير فكر ديني يحالجه ، وشجاعة لا تعرف الخوف تتملكه .

ولم يدر السر كنت ماذا عسى أن يقع بعد ذلك من حدث ، وإنما اعترم أن يتابع مسير الحوادث ، فضرب في أرجاء هذه الكنيسة المهجورة ، حتى أوشكت الديكة أن تصيح عند منبثق الصباح ؛ وفي ذلك الزمن الموات ، حينما يعانق الليل النهار ، رن في أذن السر كنت صوت لم يتبين مأناه ، صوت يشبه رنين جرس صغير من الفضة ، يدق حين يهب مضيغه من مرقدته كي يقيم الصلاة أو يقدم القربان — على حد تعبيره — ، ولقد جعلت ظروف الزمان والمكان ذلك الصوت جد جليل ، فانكمش الفارس — رغم جرأته — إلى أقصى أركان المبد في الطرف المقابل للمذبح كي يرقب بغير اضطراب ما قد ينجم عن ذلك النذير .

ولم يلبث طويلا حتى أزيح الستار الحريري ثانية ، ومثل الأثر لعينيه من جديد ، فخر على ركبتيه إجلالا واستمع إلى أصوات نسوية ترتل نشيدا أو ترسل دعاء الكنيسة الكاثوليكية مبكرة ، وقد تألفت في الأداء كما تألفت في الصلاة الأولى ، وسرعان ما أدرك الفارس أن الأصوات لم تعد تنبعث من مكان ثابت ، وإنما كانت تدنو من الكنيسة وتعلو رويداً رويداً ، وإذا بباب في الجانب الآخر من البهو ينفتح ثم يوصد فلا يظهر له أثر ، كذلك الباب الذي دخل منه ، فتجد بذلك أنغام المرتلات فسحة ترن فيها ، ثم ترددها قباب السقف ذات الضلوع .

وحينئذ صوب الفارس بصره نحو الباب ، وأنفاسه تكاد تنقطع من شدة
الهلع ، ولكنه ظل راكعا على هيئة المصلى ، وهى الهيئة التى كان يتطلبها هذا
المكان وذلك المشهد ، ثم أخذ يتقرب ماذا عسى أن ينتهى إليه ذلك الإعداد ،
وإذا بموكب يترأى له ، وقد أوشك أن يلج من الباب ، يتقدمه ولدان أربعة ،
عليهم سيما الجلال ، عُمرى الأذرع والرقاب والسوق ، فبدا منهم ذلك اللون البرزى
— لون أهل الشرق — تقابله قص قصيرة ناصعة البياض ، كانوا يرتدونها وهم
مقبولون على المعبد مثنى مثنى ، وقد حمل الاثنان المتقدمان ميخرتين لو حابهما مئنة
ويسرة ، فانتشر فى الكنيسة عبق على العبق الذى كان من قبل يفعمها ، ثم أقبل
الاثنان الآخران ينثران الزهور .

وعلى أثر هؤلاء أقبلت النساء اللائى كن يرتلن متتابعات على خير نظام وأحسن
ترتيب ، وكن ستا ، يرتدين على أكتافهن أردية سودا ، ويتحجبن فوق ملابسهن
البيض بسُتر قائمة ، فدلن بأزيائهن على أنهن راهبات محترفات ، يتبعن دير
« جبل كرمل » ويشبهن الكثيرات غيرهن ، اللائى يفصحن بأفئنتهن البيض
على أنهن حديثات الترهب ، أو زائرات للدير عارضات ، لا يرتبطن به عهد
أو ميثاق ؛ وقد أمسك السابقات منهن فى أيديهن بالمسابع الكبيرة ، ولحق بهن
الصغريات ، رشيقات القد ، ومع كل واحدة منهن إكليل من الزهر الأبيض
والأحمر ؛ ثم سرن جميعا فى حفل بطوفن بالمعبد ، ولم يبد عليهن أنهن قد أعمرن
كنث أدنى التفات ، رغم أنهن مررن إلى جواره حتى كادت ملابسهن أن تمسه ،
وإذ هن يتغنين ، لم يشك الفارس فى أنه إنما كان فى دير من الأديرة التى كان الفتيات
المسيحيات النبيلات فى الزمن الماضى يقفن أنفسهن صراحة لخدمة الكنيسة
فيها ، وقد اضطر أكثرهن لأن ينقطعن مذأعاد المسلمون فتح فلسطين ، ولكن
كثيرات منهن اشترين الإغضاء عنهن بالهدايا ، أو لحقتهن رافة الظافرين
أو احتقارهم لشأنهن ، فبقين دون أذى ، وواصلن فى إخفاء مراعاة الطقوس التى
كانت لزاما عليهن بما أخذن على أنفسهن من عهود ، وكان كنث يعلم ذلك ، ولكن

رهبة السكان والزمان ، والدهشة التي استولت عليه من مباغطة أولئك الراهبات ، بظهورهن ومسيرهن إلى جواره وكأنهن أطيايف الخيال — كل ذلك كان له على خياله تأثير تعمس عليه معه أن يعتقد أن ذلك الموكب الجميل الذي وقعت عليه عينه كان يتألف من مخلوقات من هذه الدنيا ، فما كان أشبهن برتل من كائنات من غير هذا الوجود أتت بالولاء لله المعبود من كل الوجود .

هذا أول ما خطر للفارس لما أن مر به موكب النسوة ، وقد كدن أن يتقدم بمقدار ما يبقين متحركات فحسب ، حتى بدون وكأنهن ينزلقن ولا يمشين ، وقد أظهرهن للعيان الضياء المقدس القائم الذي كان ينبعث من المصاييح خلال سحب البخور التي كانت تنشر في الغرفة الظلام .

ولكنهن لما درن بالمعبد ثانية ، ومررن بالمكان الذي كان يجثو فيه ، نزلت إحدى الفتيات اللاتي كن يرتدين القمص البيضاء — وهي تسير الهوينى إلى جواره — زهرة ورد من الإكليل الذي كان بيدها ، وسقطت الزهرة من بين أصابعها على قدم السر كنث ، ولعلها سقطت منها على غير عمد ، فذعر الفارس كأن سهما قد أصابه فجأة ، وذلك لأن الإنسان إذا أرهف حسه وكان عقله في ارتقاب ، كان أنفه الأحداث — إذا وقع على غير انتظار — وقوداً لنار الفكر التي يؤججها الخيال ، ولكن الفارس أخذ عاطفته إذ أدرك أن أمراً كهذا لا يؤبه له ما يسره أن يحدث ، وأنه لولا أن المراتلات كن يسرن في حركة متكررة مملولة لما كان له أثر يذكر .

ورغم ذلك فقد تابع السر كنث بفكره وبصره واحدة دون سواها من بين أولئك الراهبات الصغيرات ، وهن يحطن بموكبهن المعبد الثالثة ، وتلك هي التي أسقطت زهرة الورد من يدها ، ولكنها كانت في خطوها ووجهها وقوامها على شبه تام بغيرها من المغنيات حتى تعمس على السر كنث أن يلحظ أقل إشارة من مميزات الخاصة ، ومع ذلك فقد أخذ قلبه يرفرف ، كطير حبس في قفص يريد أن ينطلق ، وكأنه يؤكد له بإيحاء ميوله أن الفتاة التي تسير عن يمين الصف

الثاني بين الراهبات أقرب إلى قلبه من كل من عداها من الحاضرات ، بل ومن كل بنات الجنس اللطيف قاطبة ، وتراعى قواعد الفروسية ، بل وتحتم على الفارس ، أن يوثق الروابط بين عاطفة الحب الشعرية ، وشعور الإخلاص لله ، الذي لا يقل خيالاً وشعراً عن عاطفة الحب نفسها ، وهما إحساسان يقوى أحدهما الآخر ولا يتعارضان ، ولذا فقد كان السر كنث ، ببارقة من الأمل يمازجها إحساس ديني وعاطفة حارة تهزه من قلبه إلى أطراف أنامله ، يرتقب لحظة ثانية من تلك التي توهم بكل نفسه أنها جادت عليه بلحمة الرضا مرة من قبل ؛ وأتم موكب الفتيات دورة ثالثة حول المعبد في زمن وجيز ، ولكنه كان للسر كنث دهرًا مخلداً ؛ وأخيراً دنامنه ذلك الشبح الذي كان يرقبه بعين لا تنى ، ولم يكن ثمة فارق بين هذا الجسم المتلفع بالثياب وبين غيره — وقد كن جميعاً يسرن مرتلات في صوت واحد مؤتلف النغم — حتى مرت بالصليبي الجاثي على ركبتيه مرة ثالثة واستلت من ثنايا ثوبها الحريري طرفاً من يد دقيقة متناسقة ، تدل ببراعة جهالها دلالة قوية على كمال التناسق في جسم صاحبها ؛ وبهذه اليد التي انسرفت ، كما ينسرق شعاع القمر من سحب كأنها العهن المنفوش في ليلة صائفة ، رمت ثانية زهرة ورد على قدمي فارس النمر .

وليس من شك في أن الإيماء لم يكن هذه المرة عارضا ، أو جاء مصادفة واتفاقاً ؛ وما كان أشبه تلك اليد النسوية الجميلة ، التي لم بيد غير نصفها ، بيد مد إليها بالتقبيل شفتيه يوما ، وهو يقسم بقلبه يمين الإخلاص والولاء لصاحبة اليد المعشوقة ؛ وهل يحتاج السر كنث إلى دليل آخر ؟ وذلك هو الخاتم الياقوتي منقطع النظير يتألق على إصبع ناصع البياض كالجليد ، إصبع لو أشارت به صاحبه أدنى إشارة لكان لهذه الإشارة في عين السر كنث قدر يفوق ما للياقوتة التي لا تقدر بثمن ؛ هذا وقد استطاع الفارس ، رغم أن الفتاة كانت مقنعة ، أن يرى إما مصادفة ، أو متناً منها ، ذؤابة من فرعها الفاحم ، كل شعرة من شعراتها أنفس لديه مائة مرة من سلسلة من الذهب الخالص . إذن لقد كانت فتاته التي هوى !

ولكن أنى لها أن تطرق هذا المكان ، هذه الصحراء المقفرة النائية ، بين أولئك العذارى اللأى اتخذن المجاهل والكهوف لهن موئلا كي يستطن أن يؤدين فى الخفاء طقوسا مسيحية لا يجرؤن على أدائها علانية وجها ؟ أحقا وصدقا مايرى ؟ إنه لا يستطيع التصديق ، إنه لا ريب فى حلم من الأحلام وغاشية خداعة من غواشى الخيال ؛ وبينما كانت هذه الخواطر تساور السر كنت ، إذا بالمسلك الذى زلف منه الفتيات حين دخلن المعبد يتلقاهن ثانية عائدات ؛ وأخذ الغلمان الصغار والراهبات المكتنبات ينسلون من الباب المفتوح ، ويختفون واحدا بعد الآخر ، وأخيرا توارت كذلك تلك التى ألمت إليه مرتين ، وهى إذ تتوارى التفتت التفاتة خفيفة بادية صوب المكان الذى لبث فيه السر كنت راسخا كالصنم ، وقد رأى قناعها وهو يرفرف لآخر مرة — إذن لقد غابت عن عينيه ، وحينئذ أحاط بروحه ظلام دامس لا يقل حلوكة عن ذلك الظلام الذى غشى آنئذ ظاهر حواسه ، إذ لم تكذب عبر أخرى المرتلات عتبة الباب حتى أوصد الباب بصوت مرتفع ، وفى هذه اللحظة عينها سكت الغنيات عن الترتيل وأطفئت فى الحين أضواء المعبد ، ولبت السر كنت وحيدا فى ذلك الظلام الشامل ، ولكن العزلة والظلام وغموض الموقف المبهم الذى آل إليه ، كل ذلك لم يكن للسر كنت شيئا مذكورا ، فلم يشغل به الفكر ولم يعأ به ، ولم يكن ليأبه إلا لشيء واحد فى هذا الوجود ، وذلك هو المشهد الذى مرق منذ حين وانسل من جواره ، وما منحته الفتاة من علامات الرضا ، فأخذ يتحسس فى الظلام فوق الأديم ، لعله يعثر على الزهور التى سقطت من يدها ، ثم يضم إحداها أو جميعها إلى شفتيه مرة وإلى صدره أخرى ، ثم يلصق شفتيه بكل صخر بارد تحده نفسه أمها وطئته بقدميها ، ثم يقوم بكل عمل شاذ يوحى به الحب المبرح ويبرره لكل من أسلم نفسه للعشق ؛ وكان فى هذا كله دليل على حرارة الحب ، دليل معروف منذ الأزل ؛ ولكن من العجيب فى عهود الفروسية أن الفارس ، وهو فى فرط السرور ، لا يتطرق إلى خياله أن يتعقب أو يتأثر عادة تعلق بها قلبه هذا التعلق الشعرى ، حتى أصبح ينظر إليها

وكانها إلهة تعطف فبدت هنيئة لعابد من عبادها المخلصين ، ثم آبت إلى ظلام معبدها المقدس ، أو كأنها كوكب سيار ، بالغ الأثر ، أرسل شعاع الرضا في لحظة من لحظات الطالع السعيد ، ثم تدثر ثانية في قناع من الضباب ؛ وكانت إشارات هذه الغادة التي تعلق بها قلبه كأنها تصدر عن كائن علوى يتحرك ولا رقيب عليه ولا عتيد ، إذا تبدى أفعم قلبه بالسرور ، وإذا تغيب غلبه الاكتئاب والخور ، فإن رأفت به بعثت فيه الحياة ، وإن قست عليه تملكه اليأس والقنوط — كل شيء وفق ما تريد ، ليس إلى الإلحاف أو المعارضة إليها من سبيل ، وليس عليه إلا أن يتوجه إليها خلصا ، يخدمها بقلبه وبسيف الفروسية ، وليس له في الحياة إلا مرمى واحد ، هو أن ياتمر لها بما تأمر ، ويذيع في العالمين صيتها بكل ما يستطيع أن يقوم به من عمل جليل .

تلك كانت قواعد الفروسية ، وأصول الحب — وهو أسمى مبادئها — ولكن ظروفها خاصة أخرى أحاطت بالسر كنه ، فأكسبت تعلقه بهذه الفتاة خيالا وشعرا ، ذلك أنه لم يستمع حتى لرنين صوته ، رغم أنه كثيرا ما تأمل جمالها بقلب طروب ؛ وكانت تعيش بين جماعة ، تخول له مرتبته في سلك الفروسية أن يدنو منها ولا يخالطها ؛ وكان حتما على هذا الجندي الاسكتلندي المسكين — رغم علو كعبه في المهارة الحربية وخطط الفروسية — أن يعبد إلهته وهو منها على بعد يكاد يبلغ في مداه تلك الهوة التي تفصل بين الفارسي والشمس التي يعبد — ولكن متى بلغ بالمرأة الخيلاء حدا تهمل معه مثل هذا الإخلاص الحار يصدر عن قلب عاشق مهما يكن وضع المقام ؟ فلقد كانت ترمقه وهو يتبارى في الطعان ، وتستمتع إلى محامده فيما يروى كل يوم عن معارك القتال ؛ وبينما كان كل « كونت » أو « دوق » أو « لورد » يكافح كي يحظى بنظرة منها ، كانت تميل بكل قلبها نحو فارس النمر المسكين ، الذي لم يكذب يكن له غير حسام يمتشقه ويؤيد به مكانته ؛ وربما كانت في حبها أول الأمر راغمة ، بل ومدفوعة بشعور غير محسوس ؛ وكانت إذا نظرت أو أصغت ، رأت وسمعت ما يكفي لأن يدفع بها في ميلها هذا الذي تطرق إلى قلبها

أول الأمر على حين غرة ؛ وإذا رددت يوما أكثر السيدات احتشاما في بلاط
انجلترا العسكرية ذكر فارس من الفرسان ، وامتدحن فيه جماله ، استثنين كنت
الاسكتلندي ؛ وكثيرا ما كان الأمراء والأشراف يبذلون جزيل العطايا على
المنشدين كي يتغنوا بفضائلهم ، فيتملك الشعراء روح العدل واستقلال الحكم ،
ويضربون الأوتار بإشادة بذكر رجل لا يملك خيلا ولا حلالا يخلعها عليهم جزاء
لهم على مدحهم إياه .

بانت اللحظات التي كانت « أديث » بنت الأشراف تستمع فيها إلى الثناء
يكال لحبيبتها كيلا أحب إلى نفسها بما كان قبل ، إذ كانت هذه اللحظات تسرى
عن قلبها الملقى الذي كلت من مسمعه ، وتمدها بموضوع جدير بالتأمل العميق ، فلقد
كان السر كنت — باجماع الرواة — رجلا أحق بالإجلال من كل من علاه مرتبة
أو كان أوفر منه حظا ، فأضحت وكل اتباعها معقود بالسر كنت ، لانفكر إلا فيه ،
وإن تملكها الحرص ؛ وكلما أمعنت في التأمل ازدادت وثوقا من ولائه لها ، ويقينا
أن لها فيه الفارس الذي كتب له أن يقاسمها الحياة ، سراءها وضراءها (ومستقبل
الأيام مظلم وخطير) ، وأن يعقد هواه بهواها ، ذلك الهوى الذي عزا إليه شعراء
العصر سلطانا شاملا ، والذي يكاد بتقاليده وفضائله يرتفع إلى حد الإخلاص لله .
ودعنى بعد هذا لا أستر على القراء حقيقة الأمر ، فليعلموا أن « أديث »
كانت فتاة قريبة الصلة بعرش إنجلترا ، يحتم عليها كرم الأصل وعزة النفس أن
تكتفى بالولاء والإخلاص يظهرهما لها دوما ، في صمت ، فارسها الذي اختارته
لنفسها ، ولكنها أدركت كنه ميولها — وهى ذات الميول النبيلة الشريفة —
وعلمت أن من اللحظات ما تتحرك فيها مشاعر المرأة في نفسها ، المرأة التي تحب
وتُحَب ، فتثور عواطفها في وجه قيود العظمة وتقاليدها ، التي كانت تتحوطها
من كل جانب ، وتنحى على حبيبتها باللائمة لحياة الذى يوسوس له أن لا يحطم
تلك القيود ؛ وإذا جاز لنا أن نبر بلفظ حديث قلنا إن « اتيكيت » مولدها ومكانتها
رسم حولها دائرة سحرية ، للسر كنت أن يخفض الرأس أو يرفع البصر ما دام

بعيداً عنها ، فإن تخطاها فليس له إلا أن يمر ، كما يمر الروح إذا استدعاه الساحر العظيم وحظر عليه أن يتخطى الحدود التي رسمها بعصاه ، فبدا لها — وهي كارهة — أن تُقدم هي ، وتمد ولو طرف قدمها الدقيق ، وتخرجه عن الحد المرسوم إن أرادت أن تصيب عشيقها الحي الخجول بلحة خفيفة من فضلها ، وتهبى له الفرصة كي يقبل رباط حذاءها ؛ ولقد كان لها في بنت ملك المجر أسوة ، إذ تعطفت على شريف من صغار الأشراف وحثته على الإقدام ، و« أديث » وإن يكن يجرى فيها دم الملوك ، إلا أنها ليست من بنات الملوك ، وليس كذلك حبيب قلبها من أبناء السوق ، فلم يقم القدر في سبيلهما حاجزاً قوياً يعترض تبادل الحب بينهما ، ولكن إحساساً بالألفة المتواضعة التي كثيراً ما تكبل الحب بسلام من حديد ، إحساساً أنها — رغم علو مكانتها — عن أن تخطو هي الخطوات التي يقضى الاحتشام أن تكون دائماً من اختصاص الجنس الآخر ، وفوق هذا فإن السر كنه فارس رقيق نبيل ، فائق التهذيب ، أو قل إن خيالها قد أوحى إليها بذلك وبث فيها شعوراً دقيقاً بما له وما لها ، فن واجبها — مهما تملك قلبها العاطفة — أن تتقبل منه صلواته ، وهي كتمثال الآلهة التي يسلم المرء بأنها لا تحس ولا تجيب لعبادها ما يقدمون من ولاء ، أو كالوثن ، تخشى إن هي بكرت بالنزول عن قاعدتها أن ينحط شأنها في عيني عبدها المتفاني .

ولكن العابد المخلص إذا توسل إلى وثن حق ، انكشفت له من الوثن أمارات الرضا في ملامح صورته المرصية ، التي لا تلين ولا تتحرك ؛ فلا عجب إذن إذا لاحت إشارة في خفاياها معنى القبول من عين أديث البراقة اللامعة ، أديث بارعة الجمال ، التي كان لها في سحر سيمائها جمال يفوق جمال الاتساق والوسامة في ملامحها ، والبريق والضياء في بشرتها ؛ ولذا بدرت منها — رغم غيرتها وحذرهما — دلالات خفيفة ؛ ولولا ذلك لما تسنى للسر كنه أن يعرف منها على الفور والحين ، وبغير ارتياب ، يدها الجميلة التي لم يكدها يبدو منها إصبعان من تحت القناع ، ولما قر في نفسه اليقين بأن الزهرتين اللتين سقطتا متواليتين في

مكان واحد إنما كانتا إلماعاً من حبيبة قلبه . ولن نحاول هنا أن نقص كل ما أدى إلى هذا التفاهم المتبادل بين أدith وحبيبها من ملاحظات متوالية ، وإشارات خفية ، ونظر وتلويح ، ومؤاخذة غريزية في الحب ، فانما نحن في ذيل العمر ، ولو تحدثنا عن رموز الحب الخفية ، تحدثنا في القدرة على ذلك شباب له عيون سريعة الملح في هذه الشؤون ؛ وحسبنا أن نقول إن هذا الحب قام بين شخصين لم يتبادلا كلمة واحدة ، وكانت أدith من ناحيتها تحبس الكلام لإحساسها القوى بالصعاب والأخطار التي لم يكن بد من أن تعترضها في توثيق عرى الروابط بين قلبيهما ؛ والفارس من ناحيته تساوره ألوف الشكوك والمخاوف ، ويخشى أن يكون مبالغاً في تقديره للإشارات الخفيفة التي أوامأت بها فتاته ، والتي كانت تتخللها — بحكم الضرورة — فترات طويلة يغلب عليها الفتور ، وتبدو في غضونها أدith قليلة الاكتراث ، وكأنها لا تلحظ وجوده ، إما لأنها كانت تخشى أن تثير بمسلكها تنبه الآخرين ، وتجر بذلك على عشيقها الأخطار ، أو لأنها كانت لا تحب أن تسقط في اعتباره لشدة لهفتها على أن تملك منه قلبه .

ربما كانت هذه القصة طويلة مملولة ، ولكنها ضرورية للرواية ، وتعيننا على إيضاح ما كان بين المحبين — إن كان هذا أمراً يستحق العناية — حينما بدت أدith على غير انتظار في المعبد ، وكان لها على مشاعر الفارس هذا الأثر البليغ .

الفصل الخامس

إذا ما ضربنا في الوادى الحيام ،
فعبثاً يسحرنا من الغيد الحسان القوام .
ولإن بدا لنا « اشتاروث » أو « ترماجون » ،
قلنا لطيفيهما اعزبا عن هذا المكان .
وارتون

لبث السكون العميق والظلام الدامس ساعة و بعض ساعة يخيان على المبدى
الذى خلفنا فيه فارس النمر جائياً على ركبتيه ، تارة يتوجه إلى الله بالحمد ، وطوراً
يذكر فتاته بالشكر ، اعترافاً بالنعمة التى أسبغت عليه ؛ أما سلامته ، أما نصيبه
— وقد كان أبداً قليل الاكتراث بهما — فلم يعد لهما الآن فى اعتباره وزن
ذرة من تراب ، فهو فى جوار السيدة أدبث ، وقد جادت عليه ببعض شارات
العطف ، وهو الآن فى مكان مبارك بما فيه من آثار لها أجل تقديس ، وهو
بجندى مسيحي ، ومحب مخلص ، لا يخشى شيئاً ، ولا يفكر فى شيء ، إلا فى
واجبه نحو السماء وفى حق فتاته عليه .

وفى الفترة التى انقضت بعد ذلك ، رنت فى أرجاء المبدى ذى القبو رنيناً قوياً
جلجلة صفير كصفير صائد الزاة ، وهو ينادى الصقور ، ولم يكن هذا الصوت مما
يليق بجلال المكان ، وقد ذكر السر كنت بوجوب تيقظه ، فهب من سجدة ،
ومد يده إلى خنجره ، ثم سمع صرير لولب أو بكرة ، وسطع إلى أعلى نور كأنه
ينبعث من فجوة فى الأرض ، وظهر للعين كأن باباً أرضياً قد ارتفع إلى أعلى أو
انخفض إلى أسفل ، وفى أسرع من لمح البصر ، امتدت من الفجوة ذراع هزيلة ،
بعضها عار وبعضها مدثر فى كم من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، ممسكة بمصباح
رفعته إلى أقصى ما تستطيع أن تمتد إلى أعلى ، ثم أخذ الشبح صاحب تلك الذراع
يصعد خطوة خطوة ، حتى بلغ مستوى أرض المبدى ؛ وكان لهذا المخلوق الذى

بدا الآن جسم ووجه كأنهما لقزم مروع الهيئة ، ذى رأس كبير ، عليه غطاء مزين بثلاث ريشات من ريش الطاوس زينة رائعة جميلة ، يرتدى ثوباً من الحرير النفيس الأحمر الموشى بالذهب ، مما جعل كآبة منظره أشد وضوحاً ، وتجذب العين منه أساور من ذهب تطوّق معصميه وعضديه ، ويتشح بوشاح من الحرير الأبيض يعلق به خنجراً ذا مقبض ذهبي ؛ ويحمل هذا الرجل ذو الهيئة العجيبة يسراه شيئاً يشبه أن يكون مكنسة ، ولم يكد يطل من الفجوة التى ارتفع منها حتى وقف ساكناً ، وكأنه أراد أن يظهر جلياً فحرك المصباح الذى كان بيده حركة خفيفة أمام وجهه وصورته ، حتى يسطع الضوء على ملامحه الهمجية الحوشية أولاً ، ثم على أطرافه المعروقة المشوهة ثانياً ؛ وكان لهذا القزم جسم غير متسق الأجزاء ، ولكن خلقه لم يبلغ به الانحراف حدا يشك معه الرأى أنه فاقد القوة والنشاط ؛ وبينما كان السر كنه يتأمل هذا المنظر الدميم ، طرأت على ذاكرته تلك العقيدة السائدة التى كانت تؤمن بالجن أو عفاريت الأرض ، التى كانت تقطن الكهوف ، وكان الشبح المائل أمامه يطابق الصورة التى كانت فى ذهنه عن هيئة هذه العفاريت ، فخدق فيه بتقزز لا يخالطه الخوف ، وإنما يمازجه نوع من الرعب قد يثته مثل هذا المخلوق الخارق للطبيعة فى أشد القلوب ثباتاً وحرماً .

وصفر القزم ثانية ، ثم استدعى زميلاً من زملائه من باطن الأرض ، فصعد هذا الشبح الثانى — كما صعد الشبح الأول — ولكنها كانت يد امرأة تلك التى امتدت هذه المرة رافعة مصباحاً من البهو السفلى الذى صدرت عنه هذه المناظر ، وكان شبحاً نسويًا ذلك الذى برز متنداً من جوف الأرض ، شديد الشبه بالشبح الأول فى هيئته وتناسق أعضائه ، وكان لباسها كذلك من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، مهلهلاً مهدباً على صورة عجبية ، كأن صاحبتة قد ازينت كي تعرض نفسها فى حفل من الممثلين والمشعوذين ؛ وكما فعل الشبح الأول من قبل ، حركت المصباح بأناقة ودقة أمام وجهها وجسمها ، الذى يبارى جسم الرجل دمامة وقبحاً ، ولكن ، رغم هذا المظهر الدميم ، كان فى ملامحهما كليهما مسحة تدل على تنبه نادر وذكاء

غير مألوف ؛ هذه المسحة تراها في بريق عيون غائرة تحت أهذاب غزيرة حالكة السواد ، يتألق فيها ضياء لامع كذلك الذى يشع من عيون الضفادع ، وكأنه بعض العوض عن قبج بليغ باد في البزة والهيئة .

لبث السر كنت مشدوها مذهولا ، بينما كان هذان الشبحان القميئان يطوفان بالمعبد متلاصقين بخادمين أجيرين قد كلفا نظافة المكان ؛ ولم يعد كل منهما غير يد واحدة للعمل ، فلبثت الأرض ولما تنتفع من هذا الجهد الضئيل الذى ثابرا عليه في حركات غير مألوفة ، وطريقة عجيبة ، تليق بالظهر الشاذ الغريب الذى تبديا فيه ؛ ولما دنوا من الفارس ، وهما يؤديان هذا العمل ، أوقفا مكنستيهما عن الحركة ، وتجاوزا قبالة السر كنت ، ثم رفعوا المشعلين اللذين كانا بيديهما ثانية في أنأة وتؤدة ، فتهيأت له الفرصة أن يتأمل ملاحظهما جليا ، ولكن هذه الملامح لم تزد جمالا في نظره بعد أن باتت على مقربة منه ، وأتيحت له الفرصة كذلك أن يلحظ السرعة القصوى والحدة التى كانت عيونهما المتألقة السود تعكس بهما ضوء المصباحين ، وبعد ذلك صوباً شعاع المصباحين على الفارس ، وبعد أن أنعما فيه النظر ، التفت كل منهما إلى الآخر ، وانفجرا يقهقهان بصوت يكاد يبلغ عنان السماء ، فرنت الضحكات في أذنى السر كنت ، وكان صداها كريها ، ففزع لسمعها وسارع بالسؤال ، مستحلفا بالله ، من ذا عسى أن يكون ذاك الشخصان اللذان دنسا ذلك المكان المقدس بمثل هذا التهريج وتلك الصيحات المزعجة .

فأجاب القزم الذى ذكر في صوت يلتئم وهيئة جسيمة ، وهو بصوت غراب الليل أشبه منه بأى صوت آخر يطرق الأذن في النهار ، وقال : « أنا القزم نكتابانوس » . وأجابت الأنثى في نغم أخشن وأشد توحشا من صوت رفيقها وقالت : « وأنا جنفرا امرأته وموضع حبه » .

وسأل الفارس ثانية ، ولم يكده يعتقد أنهما من أبناء البشر وقال : « وما الذى أتى بكما إلى هذا المكان » ؟

فأجاب القزم الذى ذكر متكلفا الجذ والوقار وقال : « أنا الإمام الثانى عشر ،

أنا محمد المهدي زعيم المؤمنين ورائدهم ، لى ولأتباعى ألف من الخيل المظهمة على أهبة لدى المدينة المقدسة ، وألف عند « مدينة الخلاص » ، أنا ذلك الرجل الذى سوف يشهد على بنى الإنسان ، وهذه حوراء من حورى »^(١) .

فقاطعت امرأته وأجابت فى صوت أحسن من صوته وقالت : « أنت كذاب أشر ، لست من حورك ، ولست أنت رجلا منافقا من سقط المتاع كما ذكرت . هلا أخبرك من أنت يا حمار » إسخار ؟ أنت الملك « أرثر » ملك بريطانيا الذى سرقت بنات الجن من فيافى « أفالون » وفررن به ، وأنا السيدة جنفرا ، التى طبق صيت جمالها الآفاق » .

فقال الرجل : « أجل يا سيدى الفاضل ، حقا إننا من الأمراء ، أحاطت بنا الهموم ورمت بنا هنا تحت جناح الملك « جاى » ملك بيت المقدس ، وقد لبثنا كذلك حتى أخرجه من مكنه جماعة من الكفار المدنسين ، اللهم أنزل عليهم من السماء الصواعق وأهلكهم جميعا » .

فانبعث صوت من الجانب الذى دخل منه الفارس من قبل ، وقال : « صه ! صه ! أيها الغافلون ، اعزبوا عن هذا المكان فقد دالت دولتكم » .

ولم يكد القزمان يستمعان إلى هذا الأمر ، حتى همس كل منهما للآخر فى وسوسة متقطعة ، واطفأ مصباحهما بغير توان ، وخلقا الفارس فى ظلام دامس ثم قفلا راجعين ، ولما انقطع وقع أقدامهما خيم على المبد صمت شامل هو أشد ما يكون التثاما وحلوكة ظلام .

ولما انجلي هذان الخلقان الشقيان ، أحس الفارس ببعض الترويح عن النفس ، وهما بمظهرهما ومسلكما ولسانهما لم يتركا له مجالا للشك فى أنهما يمتان بصلة إلى تلك الطائفة الوضيعة من الكائنات ، التى سيق بتشويه الخلق وضعف الخلق إلى هذه المسكاة الأليمة ، وأصبحت من ذبول الأسر الرفيعة ، التى يجعل أبنائها من ظاهرها وضعتها بواعث للمرح والسرور ؛ ولو كان الفارس الاسكتلندى فى عصر

(١) هذا كلام لا أساس له من الصحة التاريخية ، وإنما هو من ابتداع الخيال .

غير عصره لكان من المحتمل أن يسر غاية السرور من جنون هذه الصور الانسانية الوضيعة ، ولكنه لم يكن يعلوه — فى أية ناحية من النواحي — على زمانه ، فى الفكر أو فى الطبائع ، ولذا فإن هذين المخلوقين الشقيين بمظهريهما وإشارتهما ولغتهما قد قطعما عليه سلسلة من المشاعر العميقة الجلييلة ، كانت قائمة فى نفسه ؛ ولشد ما كان ابتهاجه عند ما اختفيا عن مرآه .

وبعد ما انجليا يوضع دقائق ، انفتح الباب ، الذى ولج منه من قبل فى تودة وتوان ، ولبت منفرجا ، وقد ظهر من خلفه نور خافت يشع من مصباح لدى عتبه ، وتجلى فى هذا الضياء المتقطع ، الذى يتراوح بين الظلمة والنور ، شبح أسود مسترخ لدى المدخل بعيداً عن حدود المعبد ، ولما دنا الفارس منه ، عرف أنه الناسك ما برج مستلقياً على الهيئة المتواضعة عينها التى اتخذها من أول الأمر ، والتى لا ريب أنه لبت عليها ما بقى ضيفه فى المعبد .

ولما سمع الناسك الفارس وهو يدنو منه قال : « لقد انتهى كل شيء ، وأن لأشقى من أذنّب فوق الأرض أن يؤوب من هذا المكان مع رجل يحق له أن يعتقد الآن أنه أنبل وأسعد بنى الإنسان جميعاً . أمسك المصباح واهدنى الطريق فى هذا المهبط ، فليس لى أن أكشف عن بصرى حتى أبتعد عن هذا المكان المقدس » .

فصدع الفارس الاسكتلندى بالأمر فى صمت وسكون ، وقد أخرسه إحساس بالنشوة والتسامى مما رأى ، فحمد فى نفسه حتى روح التطلع إلى ما يتحوطه ، ثم أخذ يشق طريقه بدقة بالغة خلال المسالك الخفية العديدة ، وعلى الدرج الذى تسلفاه من قبل ، حتى ألقى نفسه وصاحبه فى الغرفة الخارجة من كهف الناسك .

و « يؤوب المجرم الآثم إلى جيبه ، ويستأخر العقوبة من يوم نحس إلى يوم آخر ، حتى ينفذ فيه قضاء ربه ، ويجزيه الله العادل بما قدمت يداه » .

بهذه الكلمات تفوه الناسك ، ثم طرح عن عينيه الحجاب الذى تقنع به ، ونظر إليه وفى نفسه آهة حارة مكبوحة ، ولم يكدر الحجاب إلى السرداب الذى كان قد طلب إلى الاسكتلندى أن يأتى له به منه ، حتى سارع ووجهه إلى زميله

الخطاب في حزم وقال : « اذهب عني ، اذهب عني ، إلى الراحة والسكون ؛ إن في وسعك أن تنام ، ومن حقك أن تنام ، أما أنا فليس ذلك في وسعي أو من حق » .
فانسل الفارس إلى الغرفة الداخلية احتراماً لهذه الكلمات التي نطق بها الناسك في اضطراب شديد ، ولكنه أدار بصره إلى الوراء وهو يخرج من الغار الخارجي ، فألقى الناسك مجرد عن كتفيه العباءة المهلهلة في عجلة المخبول ؛ وقبل أن يغلق الباب الضعيف الذي يفصل ما بين حجرتي الكهف ، سمع ألحواجا يفرقع وتائباً يئن من كفارة أليمة فرضها على نفسه فرضاً ، وفكر الفارس في نفسه ماذا عسى يا ترى أن تكون هذه الخطيئة الدنسة ، وما هذا الندم الشديد على ذنب لا تمحوه ولا تخفف عنه هذه الكفارة القاسية ، ف شعر برعدة باردة تدب في أطرافه ثم سبح لله خاشعاً متورعاً ، وارتدى على سريرته الخشن — بعد أن رموه بعينه الرجل المسلم الذي لم يزل في سباته — وسرعان ما غط في نعاسه كالطفل ، منهوكاً من أثر المشاهد المختلفة التي تراءت له في يومه هذا وليله ، ولما استيقظ في الصباح اجتمع بالناسك يشاوره في مهام الأمور ، وأسفر الحديث عن عزمه على أن يبقى بالكهف يومين آخرين ، كان خلاهما شديد المحافظة على إقامة الصلاة ، كما يليق بالحاج ، ولكنه لم يعد إلى المعبد الذي شاهد به تلك العجائب .

الفصل السادس

أما هذا المشهد فعدل ، وفي البوق فانفخ ،
فقد حق علينا أن نستفز الليث من مربضه .
من رواية تمثيلية قديمة .

وهنا ننتقل بالقارىء من مكان إلى آخر كما أشرنا في عنوان هذا الفصل ،
ننتقل به من جبال الأردن المقفرة إلى خيام رتشارد ملك إنجلترا ، التي كانت مضروبة
إذ ذاك بين جون ميناء عكا وعسقلان ، والتي كانت تضم تحت لواها جيشا ، أخذ
قلب الأسد على نفسه من قبل أن يسير به ظافرا إلى بيت المقدس ، وكان من
المحتمل أن ينجح فيما شرع ، لولا أن وقفت في سبيله الغيرة المتبادلة بين الأمراء
المسيحيين الذين اشتركوا في هذا المشروع عينه ، ولولا أن عرقل مسعاه ما كان
يحبس به هؤلاء الأمراء من ألم النفس من تعالى الملك الإنجليزي عليهم تعالىا لا يكبح
له جماع ، ومن تحقير رتشارد — في غير موارد — من شأن إخوانه الملوك ،
الذين كانوا يعادونه مرتبة ، ولكنهم لا يبلغون شأوه في الشجاعة والإقدام
والمواهب الحربية . وأمثال هذه المشاحنات وما إليها — وبخاصة ما كان منها بين
رتشارد وفيليب ملك فرنسا — خلقت من الخصومات والعقبات ما كان حجر عثرة
لكل خطوة عملية يتقدم بها رتشارد ، الذي عرف بالبطولة وعدم التريث معا ،
بينما كانت صفوف المسيحيين تتخلخل يوما بعد يوم ، ويهجرها المجاهدون زرافات
ووحدا ، وفي طليعة كل فرقة قائد من قواد الاقطاع ، هو زعيمها ، وقد انسحبوا
بعد نضال أطفأ فيهم كل بارقة من الأمل في النجاح .

وبات أثر المناخ — كما كان دائما — مهلكا للمقاتلين الآتين من الشمال ،
وزاد من وطأة الجو أن الصليبيين أطلقوا شهواتهم العنان وانحلت أخلاقهم ،
وإن يكن هذا ينافي كل المناقاة المبادئ والأغراض التي شهروا من أجلها السلاح ،

فباتوا فرائس سائغة لحرارة القيظ المحرقة ، وقطرات الندى الباردة ، وما لها من أثر
وبيل ؛ وأضف إلى هذه البواعث التي كانت تفت في الأعضاء ، وتؤدي إلى
الخسران والدمار ، سيف العدو الباتر ، وذلك أن صلاح الدين ، الذي ليس في
سجل تاريخ الشرق اسم يعلو على اسمه ، كان قد عرف — وبإلها من معرفة قاضية —
أن أتباعه — بسلاحهم الخفيف — أضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد ،
وجها لوجه في ملحمة أو معركة ، كما عرف كذلك كيف يحشى شخص خصمه
رتشارد الجسور ويحسب له حسابه ؛ ولكن إن كانت الفرنجة قد انقضت على
جيوشه أكثر من مرة ذبحا وتقتيلا ، فلقد انتصر لكثرة عديده في تلك
المناوشات الخفيفة التي كان الكثير منها حتما لا محيص عنه .

ولما نقص جيش العدو المهاجم ، زاد السلطان من مدى خططه في هذه
الحرب الخفيفة ، وجعلها أشد جرأة ، فأحاطت بمعسكر الصليبيين — وكادت
تحاصره — جموع من الفرسان أقبلت كأسراب الزناير ، يسيرٌ سحقها إذا وقعت
في قبضة اليد ، ولكن لها أجنحة تمكنها من الإفلات من أشد القوى بأسا ، كما
أن لها أشواكا تنفث منها السوء والأذى ؛ ولم تنقطع الحروب بين طلائع المسيحيين
ورعاة حروب الخيل هلكت فيها أرواح كثيرة قيمة دون طائل أو جدوى ؛ وكثيرا
ما حيل بين الرسل ومواصلة السير ، وتقطعت سبل المواصلات ، وكان على الصليبيين
أن يشتروا أود الحياة ببذل الحياة ، وإن أرادوا ماء من عين كعين بيت لحم ، التي كان
يتشوق إليها داود الملك أحد حكامها الأقدمين ، أراقوا لذلك الدماء .

وكان يعادل هذه الشرور — إلى حد كبير — عزيم كالخديد ونشاط لا يستقر من
جانب الملك رتشارد ، الذي كان دائما على صهوة جواده بصحبة جماعة من خيار
فرسانه ، على أهبة لأن يكر إلى أى مكان تحمل به الأخطار ، وغالبا ما يعود
للمسيحيين بمعونة لم تقع لهم في الحسبان ، بل ويهزم المنافقين ، وهم من النصر قاب
قوسين أو أدنى ، ولكن حتى قلب الأسد ، ذو الجسم الحديدى ، لم يستطع أن
يحتمل بغير أذى تقلبات المناخ الوبيلة ، فضلا عن إجهاد جثاني وعقلي متواصل ،

فلقد أصابته إحدى تلك الحميات المنتشرة في آسيا ، والتي تفتك بالجسم شيئا فشيئا ؛ ورغم قوة شديدة وشجاعة أشد منها ، بات أول الأمر ضعيفا لا يستطيع أن يعتلى ظهر الجواد ، ثم انقطع عن حضور مجالس الشورى في شؤون الحرب ، التي كان يعقدها الصليبيون بين الحين والحين ، ولم يكن من اليسير أن تعرف إن كان ما استقر عليه المجلس — وهو أن يعقدوا مع السلطان صلاح الدين هدنة مداها ثلاثون يوما — قد جعل هذا الفتور ، الذي اعتور ملك الانجليز ، أشد فتكا أو أخف وقعا ؛ فلئن كانت هذه الهدنة تثيره لأنها تعترض سير الخطة الواسعة المدى التي رسمها لنفسه ، وتؤجلها إلى حين ، فهو من ناحية أخرى يجد فيها بعض العزاء ، لأنه عرف أنه إن لبث عاطلا لا يتحرك في سرير المرض ، فلن يظفر غيره بأكيل النصر .

وأما ما لم يرض عنه قلب الأسد فهو هذا التبلد الشامل ، الذي ضرب بجراحه في معسكر الصليبيين ، حينما أقبل على دور خطير من أدوار المرض ؛ وقد علم من البيان الذي استخلصه من أتباعه — وهم كارهون — أنه كلما اشتد به المرض ، هبطت آمال الجيش المحارب ، وأنهم لم يشتغلوا أيام الهدنة بتقوية صفوفهم ، أو بإحياء ما نخذ من روح البسالة والإقدام ، أو بتغذية روح الظفر في النفوس ، أو بالتأهب للزحف على المدينة المقدسة زحفا حازما لا ونية فيه — والمدينة المقدسة هي مقصد حملتهم ؛ لم يشتغلوا بهذا أو بذلك ، وإنما اشتغلوا بتأمين المعسكر ، الذي باتت تشغله جماعة هزيلة من الأتباع ، بحفر الخنادق وإقامة الحسائك وغيرها من وسائل التحصين ، كأنهم يتأهبون — إذا ما عاد القتال — لرد عدد قوى معتد ، ولا يعدون العدة لأن يقفوا موقف الغزاة المغيرين الفاخرين .

هاج الملك الانجليزي وماج من هذا البيان ، وكان كالأسد الجبب في القفص ينظر إلى الفريسة من وراء قضبان من الحديد ؛ ولما كان بطبيعته مندفعاً متهوراً ، فقد انعكس هياج طبعه على نفسه ، وكان أتباعه يخشونه ، وحتى أطباؤه الذين كانوا يباشرونه ، كانوا يخافون أن يتخذوا لأنفسهم ذلك النفوذ الذي لا بد منه لكل

طبيب على مريضه إن أراد به خيراً ؛ ولم يستطع أن يقف بين الأفعوان وتأثرته إلا رجل واحد من الأشراف المخلصين ، وربما كان ذلك لمواءمة بين ميوله وميول رتشارد ، مما قربته إلى الذات الملكية ووصل بين قلوبهما ، فكان له — في سكون وثبات — سلطان على الملك المريض الغاضب ، لم يجرؤ عليه غيره ؛ هذا النفوذ لم يباشره غير توماس دى ملتن ، لأنه كان يقدر حياة الملك وشرفه أكثر مما كان يقدر ما قد يفقد من جراء ذلك من رضاه ، وما قد يجر على نفسه من أخطار ، وهو يمرض عليلًا كهذا ، شديد المراس ، جسيم الأخطار إذا غضب .

كان السر توماس لورد جلزلاند ، في كمبرلاند ، في عصر لم تكن فيه الأنساب والألقاب شديدة الالتصاق بأربابها كما هي اليوم ، وكان النورمان يسمونه لورد دى ثو ، ويلقبه بالانجليزية السكسون — الذين كانوا يتعلقون بلغتهم الوطنية ويفخرون ببعض الدم السكسونى الذى يجرى فى عروق هذا المحارب الذائع الصيت — توماس ، وأحياناً يرفعون الكلفة ويسمونه « توم » رجل « الجلز » أو « الأودية الضيقة » التى اشتقت منها أملاكه الواسعة اسمها المعروف .

وقد تدرب هذا الزعيم فى أكثر الحروب ، مانشب منها بين إنجلترا واسكتلندا أو بين الأحزاب الداخلية العديدة ، التى كانت إذ ذاك تمزق البلاد تمزيقاً ؛ وفى هذه الحروب جميعاً برز وتفوق ، سواء فى مسلكه الحربى أو نفوذه الشخصى ، وكان من ناحية أخرى جندياً خشناً فظاً ، لا يأبه بهندامه ، كتوما مكتئباً فى معاشرته ، وينكر — فى ظاهر حديثه على الأقل — كل علم بالسياسة أو بدسائس البلاط ؛ وكانت هناك من الرجال جماعة تزعم أنها تستطيع أن تنفذ إلى دوائر الطباع ، وتؤكد أن لورد دى ثو لم يكن فى مكره وطموحه أقل منه فى خشونة طبعه وجسارته ، وتظن أنه — وهو يتشبه بخلق الملك فى البسالة وعدم المبالاة — إنما يرمى إلى الفوز برضا الملك ، وإلى إشباع آماله ، وتحقيق مطامعه الواسعة ؛ ولكن أحداً لم يجرؤ على معارضته فى أغراضه أية كانت ، أو ينافسه فى ذلك العمل الخطر ، وهو مباشرة سرير المريض كل يوم ، وعلة المريض معدية كما ذاع

بينهم ، والمريض هو قلب الأسد ، يئن من جزع غاضب يتملك الجندي إذا حيل بينه وبين القتال ، والملك إذا تجرد من كل سلطان ؛ وعامةُ الجند في جيش الإنجليز على الأقل كانوا يعتقدون إجمالاً أن دى فو يباشر الملك مباشرة الند للند ، وليس بينهما إلا مودة حربية خالصة ، زهية غير مغرضة ، تنعقد بين اثنين يتقسان المخاطر كل يوم .

وذات يوم في سوريا ، وقد مالت الشمس نحو الغروب ، استلقى رتشارد على فراش المرض ، والفراش إلى نفسه بغيض ، والمرض على جسمه شاق ثقيل ، وعيناه الزرقاوان اللامعتان — اللتان لم ينقطع لهما من قبل ضياء لامع ولا بهجة متألئة — فيهما حيوية زادت منها الحمى وقواها الجزع ، وقد أطلتا من خلال تجاعيد شعره الأصفر الطويل وخصله المسترسلة ، بنظرات زاهية متقطعة تكيوط النور ترسلها الشمس ساعة الغروب فتشوق السحب التي ترجيها العواصف المطيرة ، والتي يوشى حواشيها بالذهب — رغم ذلك — ضياء الشمس اللامع ؛ ويبدو على ملامحه المسترجلة سير المرض العضال ، وقد أهمل لحيته ولم يشذبها ، فتمت وطغت على شفتيه وذقنه ، وأخذ يترنح ذات اليمين وذات اليسار ، تارة يجر على نفسه الغطاء ، وطوراً يطرحه جزعاً وهلعاً ؛ ويدل سريره الذى يتأرجح ، وحركاته التي تتم عن القلق ، على ميل إلى النشاط والاندفاع بغير اكتراث ، ميل ليس له مجال طبيعى إلا حيث الجهد العنيف .

وإلى جوار سريره وقف توماس دى فو ، وهو في محياه وهيئته ومسلكه أشد ما يكون تبايناً للملك المريض . هو كالعملاق في قوامه ، ويكاد شعره يشبه في كثافته شعر شمشون بطل الإسرائيليين بعد ما جزه الفلسطينيون ، لأن دى فو قد قص شعره حتى يستطيع أن يضمه تحت خوذته ، وله عينان كبيرتان واسعتان لونهما كلون البندق ؛ يشع منهما ضياء كضياء الخريف في الصباح ، يضطرب الفينة بعد الفينة ، لحظة أو بعض لحظة ، كلما جذبت التفاته إلى رتشارد شاربات عنيفة من القلق والهياج ، وملامحه قوية غليظة كشخصه ، فيها جمال وجاذبية ، إلا أنها قد

تشوهت من أثر الجراح ، ويغطي شفته العليا — على الطراز النورماندى — شارب كثيف ، اختلط من غزارته وطوله بشعر رأسه ، وهو — كمثل — داكن يضرب إلى الحمرة ، تخططه قليل من الشعرات البيض ، ويلوح على بناء جسمه أنه من ذلك الطراز الذى يقاوم المسقة والمناخ بصدر رحيب ، فلقد كان نحيل الخصر ، عريض الصدر ، طويل الذراع ، عميق الأنفاس ، قوى الأطراف ، ولم يخلع سترته الجلدية ، التى يظهر على كتفها صليب مرسوم ، لأكثر من ثلاث ليال ؛ ولم يستمتع بالراحة إلا فى فترات متقطعة ، هى كل ما يظفر به اختلاسا رجل يقوم على حراسة ملك طريق الفراش ، وقل أن بدل هذا البارون من وقفته ، اللهم إلا حينما كان يتناول رتشارد دواء أو شرابا منعشا . ولم يجروا أحد غيره ، ممن ليست لهم هذه المكانة من أتباع الملك الجزوع ، على أن يحمل الملك على تناول الدواء ، وكانت له طريقة شفيقة ، لها أثرها رغم نبوها ، يؤدى بها واجبه ، وهى تبين عاداته وأخلاقه العسكرية الصريحة أشد المبينة .

كان هذان الرجلان فى سراق يلاثم روح العصر ، كما يلاثم طبيعة رتشارد الشخصية ، عليه من سبى الحرب والقتال أكثر من أمارات البذخ والملك ؛ فكنت ترى أسلحة للدفاع والهجوم ، كثير منها غريب الشكل من الطراز الحديث ، منتثرة فى أرجاء الخيم ، أو معلقة بالعمد التى يقوم عليها ؛ وجلود الحيوانات التى قتلت فى الطراد ملقاة على الأرض ، أو منشورة على جدر السراق ، وفوق كدس من هذه الفنائم الحرشية كلاب ثلاثة كبيرة الحجم ، ناصعة البياض كالثلج ، على وجوهها آثار من خدوش بالخالب والأنياب ، تشهد على مساهمتها فى جمع الصيد الذى رقدت على بقاياها ، وقد امتدت بجسومها فاعرة أفواهاها ، ومصوبة عيونها ، الحين بعد الآخر ، نحو رتشارد ، مبينة عن تعجبها وأسفها على هذا الخمود الذى لم تعده ، والذى لا بد لها أن تشارك فيه ، وكانت هذه الكلاب من رفاق الجندى الصائد ؛ وعلى مائدة صغيرة إلى جوار السرير درع من الحديد المرن ، ثلاثى الشكل ، عليه رسم ليوث ثلاثة ناهضة ، كان يتخذها هذا الملك الفارسشارة له ،

وأمام الدرع قرص من الذهب شديد الشبه بتيجان الأمراء ، إلا أن مقدمته كانت أعلى من مؤخرته ، وهو ومخل بنفسجي ، وتاج مثلث مزركش ، تكون جميعاً شارة الملكية في انجلترا ، وإلى جوار القرص فأس غليظة أعدت للذود عن رمز الملكية ، تسكل الذراع من حملها ، إلا إن كانت ذراع قلب الأسد .

وفي جزء خارجي من الرواق ضباط ثلاثة من حاشية الملك ، يرتقبون في اكتئاب ، يبدو عليهم الجزع على صحة مولاهم . ولم يكونوا على سلامتهم أقل جزعاً لو أن ملكهم قضى نحبه ؛ وانتشرت هذه المخاوف الكثيفة خارج السرادق بين الحراس الذين كانوا يضربون في الأرض بطرف مغضوض ، وهم يتفكرون صامتين ، أو يستندون إلى رماحهم ويقفون في أماكنهم لا يتحركون ، كأنهم تماثيل مسلحة ، لا جنود من الأحياء .

وبعد هذا الصمت الطويل المضطرب ، الذي انقضى في هياج كهياج الحمى ، حاولنا وصفه للقارىء ، قال الملك : « إذن لم تأت لى من الخارج ياسر توماس نبأ خير من هذا ؛ لقد بات فرساننا جميعاً نساء ، وأصبحت نساؤنا مترهبات ، وليس في المخيم شرارة من إقدام أو شهامة تنشر في أرجائه الضوء ، والمخيم يضم خيار فرسان أوروبا ، أليس كذلك ! » .

فأجابه دى فو بصبر تملكه قبل ذلك عشرين مرة وهو يكرر للملك شرح الموقف وقال : « إن الهدنة ياسيدى تحتم علينا نحن الرجال أن لا نحرك ساكناً وأما عن النسوة فلست ، مولاي — كما تعلم جلالتك — ممن ينغمسون فيهن ، وقبلما أبدل الحديد والجلد بالذهب والمحمل ؛ ومع ذلك فقد نما إلى أن خيار الفاتنات من نساؤنا قد التحقن بجمعية جلالة الملكة والأميرة ، وهما في طريقيهما حاجتين إلى دير (عين جدة) كي يرسلوا الدعوات ويطلبوا إلى الله أن ينقذ جلالتك من هذه المحنة » . ولم يرق لرتشارد هذا الجواب ، فتملكه القلق ورد قائلاً : « أفهكذا تخاطر بأنفسهن ربات الخدور والعدارى من بنات الملوك ، ويردن أرضاً تدنسها أوغاد ، إخلاصها لبنى الإنسان ضعيف كإيمانها بالله ؟ » .

فأجاب دى فو : « كلا ياسيدى ، لقد وعدهن صلاح الدين بالأمن والطمأنينة » .

فرد عليه رتشارد قائلا : « حقا ، حقا ! ولقد أسأت إلى هذا السلطان ، وأنا مدين له بمحو هذه الإساءة . ياليتنى أستطيع أن أقدم له هذا الجليل وأنا طريح بين جيشين ، جيش المسيحيين وجيش المسلمين ، وكلاهما ينظر إلى » .

وبينا كان رتشارد يتكلم ، دفع ذراعه اليمنى خارج الفراش ، وكانت عارية إلى الكتف ، ثم هب من مرقدته متألما ، وهز يده مقبوضة كأنها ممسكة سيفاً أو فأساً تلوح به فوق عمامة السلطان الرصعة بالجوهر ، نحف له دى فو ، وبصفته ممرضاً حمل سيده المليك بعنف يمازجه اللطف ، ما كان الملك ليحتمله من غيره ، على أن يعود إلى فراشه ، ثم ستر له ذراعه المقتولة ورقبته وكتفيه بعناية كعناية الأم تحنو على وليدها الجزوع .

فقال الملك وهو يضحك ضحكا مرأ ولين للقوة التى لم يستطع لها ردا : « إنما أنت يادى فو ممرض غشوم ، ولكنك محب للملك ، وإنى لأظن أن تقية الممرض تليق بمحيائك الخافض كما تليق بى تقية الطفل ، وإننا لنصلح أن نكون رضيعاً وممرضته يروّع بهما البنات » .

فأجاب دى فو : « كنا فى زماننا نزوع الرجال ياسيدى ، وإنى لأأمل أن نعيش حتى نزوعهم مرة ثانية . ما نوبة حمى حتى لا نستطيع أن نحتملها بصبر جميل كي نخلص منها فى سهولة ويسر ! » .

فتعجب رتشارد وأجاب مندفعاً : « نوبة حمى ! قد ترى — وأنت غير مخطئ — فيما ترى — أنها ليست إلا نوبة حمى حلت بى ، ولكن أظنّها كذلك مع الأمراء المسيحيين قاطبة ، مع فيليب ملك فرنسا ، ومع ذلك النمساوى البليد ، ومع رجل منتسراً ، ومع الاستبارية ، ورجال المعبد ؟ ما ذا عسى أن تكون مع هؤلاء جميعاً ؟ استمع إلى أخبرك ، إنما هى فالج بارد وفتور مميت — إنما هى مرض يمنهم عن الكلام والحركة — هى قرحة تأكل كل ما فى قلوبهم من نبل وفروسية وفضيلة ،

وتجعل منهم خونة لكل عهد نبيل يُقسم الفوارس على حفظه ، وتجعلهم لا يأبهنون
لذكراهم ولا يذكرون الله .

فقال دى فو : « وحق السماء تهونن على نفسك يا مولاي ، وحذار أن
يسمعلك أحد خارج هذا السرادق حيث تجرى على الألسنة أمثال هذه الأحاديث
بين عامة الجنود ، وتولد الشقاق والنزاع في صفوف المسيحيين ، واعلم أن مرضك
يحول دون مواصلتهم ما شرعوا فيه ، وإذا أمكن أن يتحرك المنجنيق بغير لولب
أو رافع ، تحرك جيش المسيحيين بغير الملك رتشارد » .

فقال رتشارد : « أنت تدهننى يا دى فو » ، ولكنه مع ذلك أحس بأثر الثناء
وقوته ، فمال برأسه إلى الوسادة وهو يحاول جهده أن يستقر ، محاولة لم ييدها
من قبل ، ولكن توماس دى فو لم يكن من ندماء الملوك ، وقد اندفعت إلى شفتيه
عبارة الثناء التي فاة بها من تلقاء ذاتها ، ولم يعرف كيف يواصل هذا الحديث المعسول ،
حتى يروى هذه الرغبة الدفينة التي أثارها ، ويشبعها ؛ فلزم الصمت حتى سأله
الملك محتدا بعد أن استرسل في تأملاته الكثيرة وقال : « يا إلهي ! هذا حديث
شهى سائغ لرجل مريض ، ولكن كيف أن عصابة من الملوك ، وجمعا من الأشراف ،
وحشدا من فرسان أوروبا بأسرها ، تخور قواهم من أجل رجل واحد قد وهن ،
حتى وإن يكن هذا الرجل هو ملك إنجلترا ؟ ولم يوقف مرض رتشارد أو موت
رتشارد مسير ثلاثين ألف رجل ، كلهم كمثل بسالة وإقداما ؟ أفئن خر زعيم الأيايل
صريعا تشنت القطيع لصرعه ؟ إذا أصاب البازي كبير الكراكي تقدم غيره الرهط
يتصدره ؛ لماذا إذن لا تجتمع القوى وتنتخب من بينها رجلا تعهد إليه
بقيادة الصفوف ؟ » .

فأجاب دى فو قائلا : « وأيم الحق لقد نما إلى أن القادة الملوك قد عقدوا
الجامع يتشاورون في مثل هذا الغرض ، ولعل هذا يرضى جلالتك » .
فصاح رتشارد متعجبا ، وقد تحركت الغيرة في نفسه وتوجه بنزق عقله وجهة
أخرى وقال : « ها ! إذن لقد نسيني أحلا في قبل أن أتناول العشاء الرباني الأخير ؟

أفحسبوننى قد قضيت ؟ ولكن ، كلا ! كلا ! لقد صدقوا ؛ ومن هذا الذى وقع عليه اختيارهم ليكون لجيش المسيحيين قائدا وزعيما ؟ » .

فأجاب دى فو : « الرفعة والعزة تشيران إلى ملك فرنسا » .

فأجاب ملك الانجليز : « اى نعم ، فيليب ملك فرنسا وناقارا ، ونيس منت چوا ، صاحب الجلالة المسيحية العظمى ! يا لها من كلمات تمتلئ بها الأشداق ! ولكن هناك خطرا واحدا أخشاه ، وذلك أن يتخذ شعاره « إلى الخلف » لا « إلى الأمام » ويعود بنا إلى باريس بدلا من أن يتقدم بنا إلى بيت المقدس ، فلقد علمته حكمته السياسية حتى الآن أن الجور على أمراء الاقطاع ، وسلب حلفائه أجدى له من مقاتلة الأتراك فى سبيل القبر المقدس » .

فقال دى فو : « وقد يختارون أرشيدوق النمسا » .

« ماذا تقول ! لأنه ضخيم الجسم ، كبير الحجم ، مثلك يا توماس ؟ نعم إنه قرينك فى الخرق والغباء ، ولكنه ليس كمثلك سهلا لا يبالي بالمخاطر ، مستهترا لا يأبه للضر والأذى ، صدقتى أن النمسا ليس لها فى هذه الكتلة اللحمية من ديب الحياة إلا بمقدار ما فى الزنبور الصاحب من جرأة ، أو العصفور الصغير من إقدام ، تباه تبا ! أفىكون قائد الفرسان إلى عمل مجيد ! أعطه ابريقا من نبيذ الرين يحتسيه هو ورجاله الأذنياء من قتلة الدببة ورماة الرماح » .

واستأنف البارون الكلام غير آسف على أن يشغل انتباه سيده بأمر آخرى غير مرضه ، حتى وإن يكن ذلك على حساب أشخاص الأمراء وأرباب النفوذ ، فقال : « وهناك أيضا كبير فرسان المعبد ، مقدم صادق باسل فى مواقع القتال ، حكيم فى مجالس الشورى ، ليس له مُلك خاص يصرف جهده عن استرداد الأرض المقدسة — ماذا ترى جلالتم فى هذا الرجل قائدا عاما لجيوش المسيحيين ؟ » .

فأجاب الملك وقال : « ها ! نعم الاختيار ! إنا لا نستثنى الأخ « جيلزأمورى » نعم إنه يعلم قواعد الحرب ، ويعرف كيف يقاتل فى الطليعة إذا نشبت المعركة ؛ ولكن هل من العدل يا سر توماس أن نستخلص الأرض المقدسة من يد الرجل

المسلم صلاح الدين — وهو يفيض كرماً وفضلاً — ونسألها « جيلز أموري » ، وهو أشد من صلاح الدين شركاً بالله ، وثني يعبد الشيطان ، عراف ، يرتكب أشد الجرائم سواداً وأكثرها شذوذاً تحت القباب ، وفي الأماكن الخفية الذميمة ؟ » .

فرد توماس دى فو وقال : « إن كبير الاسبتارية أتباع القديس يوحنا بيت المقدس له صيت لم يلوئه السحر ولا الضلال » .

فأجاب رتشارد على عجل وقال : « ولكنه ضنين خسيس ، أليس كذلك ؟ ألم يساورنا فيه الشك — بل اليقين — بأنه قد باع المسلمين ، تلك المزايا التي ما كان لهم أن يظفروا بها بالقوة الصراح ؟ صه ، صه ، يارجل ! تالله إنه خير لنا أن نسلم الجيش للملاحى البندقية وباعة لومباردى المتجولين من أن نوكل به كبير أتباع القديس يوحنا » .

فقال البارون دى فو : « إذن فلا تقدم باقتراح آخر ، ماذا تقول في المركز منتسراً الشهم الحكيم ، ذلك الرجل الرشيق المبرز في القتال ؟ » .

فأجاب رتشارد قائلاً : « الرجل الحكيم ؟ بل قل الماكر — رشيق في خدور النساء إن شئت ، أى والله ! كتراد منتسراً ، من ذا الذي لا يعرف الأخيل جميل الهندام ؟ أجل ، إنه سياسى متلون ، يبدل من أغراضه كما يبدل من حواشى صدره بحيث لا تستطيع أن تعرف من ظاهره حلته لونها في الباطن ؟ وتقول إنه رجل محارب ، أجل ، إن له لقدماً مشوقاً على ظهر الجواد ، وإنه لجرىء تحت الخيام وداخل الحصون ، حيث تكون السيوف مثلومة الظباء والشفرات ، وتكون الرماح مركبة أطرافها من ألواح الخشب لا من أسنان الحديد ؛ ألم تكن معي يوم قلت لهذا المركز الطروب ، هانحن ثلاثة من خيار المسيحيين ، وهناك في ذلك السهل ترى عصاة من الأعراب تبلغ الستين عدا ، يضربون في الأرض ، هلاهممت لتحمل عليهم — ولن يلتقى الفارس الحق منا بأكثر من عشرين من اللئام الكفرة الجاحدين ؟ » .

فقال دى ثو : « أذكر أن المريكز أجاب بأن جوارحه من لحم البشر لا من صلب الحديد ؛ وأنه يضم بين جنبيه قلب إنسان لا قلب حيوان ، حتى وإن يكن شيئاً ذلك الحيوان ؛ ولكنى الآن أرى الأمر واضحاً جلياً ، سنتهى حيث ابتدأنا ، ولا أمل لنا فى إقامة الصلاة عند قبر المسيح حتى يرد الله للملك رتشارد الصحة والسلامة » .

وبعد هذا القول الخطير ، انفجر رتشارد ضاحكاً من الأعماق ضحكاً لم يقهقه بمثله من منذ زمن طويل ، ثم قال : « عجباً لهذا الذى يُعرف بالضمير ، فعن سبيله استطعتَ — وأنت رجل من أشرف الشمال ، قليل الفطنة والحصافة — أن تحمل ملكك على أن يقر برعوثته ! حقاً إنهم لو لم يروا أنفسهم — كمثل — أكفاء لأن يحملوا عصا القيادة ، ما اكرثتُ قليلاً ولا كثيراً لأن أجرد هذا الرتل من التماثيل البشرية الحقيمة ، التى عرضت على ، واحداً بعد الآخر ، مما أزيئت به من زخرف الحرير — ماذا يعينى من هذه الحلال المزركشة يختالون فيها ؟ إنها لا تعينى إلا إذا ذكر أربابها كمنظراء لى فى هذا العمل الجليل الذى وقفت له حياتى ؛ اى دى ثو ! إني أقر بضغفى وجموح مطامى ، ولا ريب أن معسكر المسيحيين يضم كثيراً من الفرسان ممن يفضلون رتشارد ملك إنجلترا ، وإنه لمن الحكمة والعدل أن نسند إلى خيرهم قيادة الجيش ، ولكن . . . » .

وهنا واصل الملك المحارب حديثه ، وقد هب من مرقده ، وخلع عن رأسه غطاءه ، وتطاير الشرر من عينيه — وكان هذا أبداً شأنهما فى عشيّات المواقع — وقال : « ولكن لو أن هذا الفارس أراد أن ينصب علم الصليب فوق معبد بيت المقدس حيث أكون أنا عاجزاً عن أن آخذ بنصيبى فى هذا العمل النبيل ، إذن ليكابدن نزالي فى ضراب قاتل ، حينما يبيت فى طوقى أن أطعن برمحى ، لحطّه من ذكرى ، واستبقاه إلى هدفى ومرماى — دع هذا واستمع ! إني لأسمع أبواقاً على بعد ، ماذا عساها ياترى أن تكون ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى البدين وقال : « إني لأخالها يامولاي أبواق الملك فيليب »

فقال الملك وهو يحاول النهوض : « إنما أنت أصم يا توماس ، ألا تسمع هذا الصليل وذاك الرنين ؟ وحق السماء لقد حل الترك في المعسكر ، وإني لأسمع هتافهم » . ثم حاول أن ينهض من فراشه مرة ثانية ، فاضطر دى فو أن يلجأ إلى قوته الغشومة ، وأن يستعين كذلك برهط من الحجاب ، فاستدعاهم من الفسطاط الداخلى كي يكبحوه .

فقال الملك وهو حائق — وقد تعلقت أنفاسه وأنهكه العراك ، فاضطر أن يخضع لقوة فوق قوته ، وأن يستقر على فراشه فى سكون : « أنت خائن غدار يادى فو ، ياليت لى من الطاقة ما يكفى لأن أهشم رأسك بسيفى » .

فقال دى فو : « ياليت لك هذه الطاقة يامولاى ، بل وياليتك تصرفها كما ذكرت وتعرضنى لأخطارها ؛ لو مات توماس ملتن ، وعاد قلب الأسد كما كان ، إذن لرجحت كفة العالم المسيحى » .

فقال رتشارد وقد مديده ولثمها البارون إكراما وتبجيلا : « إنما أنت خادم مخلص أمين ، فهل تعفو عن سيدك وقد انتابه الجزع ؟ إن هى إلا هذه الحمى المحرقة التى تزجرك ، أما سيدك رتشارد ملك انجلترا فرؤوف بك رحيم ؛ ولكنى أرجو أن تذهب وتأتينى بالخبر اليقين : من هؤلاء الأغراب الذين حلوا بالخميم ، فإنى لا أظن هذه الأصوات من أصوات المسيحيين » .

وخرج دى فو من السرادق بهذه الرسالة التى كُلفها ، ووكل إلى الحجاب والأصفياء والأتباع أن يضاعفوا رعاية الملك إبان غيبته — وقد اعتزم أن لا يطيل أمدها — وتوعّد أن يحمّلهم تبعات الإهمال ، فزار ذلك — بل زاد من تهيبهم وقلقهم على أداء واجبه ، إذ كانوا يخشون من الملك حنقه وغضبه أولا ، ومن لورد جلزلاند^(١) صرامته وصلابته ثانيا .

(١) هو السر توماس ملتن الجلزلاندى .

الفصل السابع

لم يمض على التخوم^(١) فترة من الزمن .
التحم فيها الاسكتلنديون مع الانجليز ،
إلا وكان من عجيب الأمور
ألا يجري الدم القاني في الطريق
متدفقا كما تندفق مياه الأمطار .
موقعة أوتر بورن

انضم إلى صفوف المسيحيين عدد عديد من المقاتلين الاسكتلنديين ، وكان من الطبيعي أن ينضوا تحت لواء ملك الانجليز ، فلقد كان أكثرهم — كما كان الجنود من مواطنيه — من أصل سكسوني أو نورماندي ، وينطقون بلسانهم ، وبعضهم يمتلك عقارا في انجلترا كما يملك في اسكتلندا ، وترتبط بعضهم ببعض أواصر الدم وعرى الزواج ؛ كما أن عصرنا هذا يسبق العصر الذي امتدت فيه مطامح ادوارد الأول العظيمة ، واتسعت حتى نفثت بين الأمتين سما زاعافا ، وجعلت الحرب بينهما مهلكة ضروسا ، فكان الانجليز يحاربون لاختضاع اسكتلندا ، والاسكتلنديون — بعزمهم الصارم — وعنادهم الذي تميزت به أمتهم في كل العصور ، يحاربون للدفاع عن استقلالهم ، بأعنف الوسائل وتحت أسوأ الظروف ، مستهدين لأشد المخاطر . أما الآن فكانت الحروب بين الأمتين — رغم حدتها وتكرار وقوعها — تقوم على مبادئ العداوة العادلة ، وتوسع رقعتها لظلال دمثة ، تجدد فيها الرأفة والاحترام الواجب نحو خصوم صرخاء كرماء ، سبيلهما لأن يلفظا ويخففوا من مفاز القتال ؛ ولذا ففي أوقات السلم ، وبخاصة حينما تكون الأمتان — كما هما الآن — مشتبكتين في حرب نشبت في سبيل داع واحد مشترك ، حرب جعلتها عقائدهم الدينية عزيزة على النفوس ، كان المخاطرون البواسل من

(١) المقصود هنا بالتخوم ما بين انجلترا واسكتلندا .

الدولتين يقاتلون جنبا إلى جنب ، وليس للمنافسة الوطنية من أثر ، إلا أن تعمل على حثهما على أن تبز كل منهما الأخرى في جهادها في وجه العدو المشترك .

وكان رتشارد يتصف بالصراحة والخلق الحربى ، لا يفرق بين رعيته الخاصة ، وبين رعية وليم ملك اسكتلندا ، إلا بمقدار ما يظهرون من شجاعة وإقدام فى ساحة الوغى ؛ يسمى جهده لأن يوفق بين الأمتين ؛ ولكن لما وقع الملك فريسة للمرض ، وساءت ظروف الصليبيين ، عاد إلى الظهور ذلك التنافر بين الفرقتين اللتين لم يؤلف بين صفوفهما إلا الحرب الصليبية — كما تنفجر الجراح العتيقة من جديد فى جسم الانسان من تأثير مرض أو هزال .

والاسكتلنديون والانجليز كلاهما غيور حاد الطبع ؛ فى نفسه أهبة لأن يسيء الظن بالآخر ، والاسكتلنديون أشد من الانجليز إحساسا بهذا ، لأنهم أكثر الأمتين ضعفا وعوزا — فأخذ أبناء الأمتين يشغلون بالشقاق الداخلى تلك الفترة التى حرمت عليهم الهدنة فيها القتال مع العرب . والاسكتلنديون — كزعماء الرومان الأقدمين — لا يرضون لغيرهم أن يعلو عليهم ، كما أن جيرانهم ، أهل الجنوب ، لا يطيقون المساواة ، فتبادلو التهم والسباب ، وحط كل فريق من شأن الآخر ، سواء فى ذلك عامة الجند وقادتهم وزعمائهم ، الذين كانوا خير صحاب وقت الظفر ، كأن وحدتهم لم تكن حينئذ ألزم لهم من أى زمن مضى ، لالنجاح مسعاهم المشترك فحسب ، وإنما لسلامتهم جميعا كذلك . وبدأ مثل هذا التنافر يظهر كذلك بين الفرنسيين والانجليز ، والإيطاليين والألمان ، بل وبين الدنماركيين والسويديين ، ولكننا سنغنى فى روايتنا هنا قبل كل شىء بما كان من شقاق وانقسام بين أمتين تغذيها جزيرة واحدة ، وهما لذلك أشد تحرشا إحداهما بالآخرى .

وكان دى ثو من بين أشرف الانجليز جميعا ، الذين ساروا وراء مليكهم إلى فلسطين ، أشدهم تحاملا على الاسكتلنديين . كانوا جيرانه الأقربين ، وقد اشتبك معهم طوال حياته ، فى حروب خاصة أو عامة ، وأوقع بهم كثيرا من المصائب ،

وتحمل على أيديهم غير قليل من الأرزاء ، وكان حبه وإخلاصه للملكة قويا شديدا
 كحب الكلب الانجليزى قديما لصاحبه ، وكان شرسا لا يقربه أحد غير سيده ،
 حتى أولئك الذين لم يكن له شعور خاص نحوهم من حب أو بغض ، وكان فظا
 خطرا على كل من لم يكن معه هواه ؛ وما رأى دى ثو مليكة قط يظهر أية شارة
 من شارات الرضا والرأفة لذلك الجنس اللثيم الغادر المتوحش^(١) الذى نشأ على
 الضفة الأخرى للنهر الذى يفصل بين بلاده وبلادهم ، أو على الجانب الآخر لأى
 خط وهمى يشق الفيافي والقفار ويفصل بينه وبينهم ، إلا وتملكته الغيرة والسخط ؛
 بل إنه كان يشك فى نجاح الحملة الصليبية ، التى كان أولئك القوم يحملون فيها
 السلاح ، وكان ينظر إليهم فى دخيلة نفسه وكأنهم لا يفضلون كثيرا الأعراب
 الذين أتى لنزالهم ، بل وفوق ذلك كان دى ثو يرى نفسه رجلا انجليزيا صريحا
 هادىء الطبع ، لم يتعود أن يخفى أية شارة — مهما خفّت — من شارات الحب
 أو البغض ، ولذا فقد كان ينظر إلى التطرف والتلطف فى الحديث — الذى تعلمه
 الاسكتلنديون من تشبههم بالفرنسيين حلفاءهم الدائمين ، أو الذى ربما كان ينبعث
 عن إعجاب بالنفس وتكتم فى الخلق — كأنه دليل على خطط ما كره يدبرونها ضد
 جيرانهم الذين كان دى ثو يعتقد — والثقة الانجليزية الحق تملأ نفسه — أن
 الاسكتلنديين لن يتفوقوا عليهم بمحض الرجولة الخالصة .

ومع أن دى ثو كان يتأثر بهذه العواطف نحو جيرانه أهل الشمال — بل
 وكان يبالغ فيها ويبقى عليها غير منقوصة ، حتى كانت تشمل أولئك الذين
 ينضون منهم تحت لواء الصليب — فقد كان احترامه للملك ، وإحساسه بالواجب
 الذى يفرضه عليه عهد أخذه على نفسه للصليبيين ، محرمان عليه أن يظهر هذه
 العواطف بأية وسيلة ما ، إلا أنه أصرّ على أن يتحاشى مخالطة الاسكتلنديين
 زملائه فى القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان يتكتم ويكتئب إذا اضطرت
 الظروف أن يلاقهم حينما ، وكان ينظر إليهم شزراً إذا التقى بهم فى المسير

(١) يقصد الاسكتلنديين .

أو الخيم ؛ ولم يكن أشرف الاسكتلنديين وفرسانهم ليتقبلوا هذا الازدراء بالتغاضى أو إهمال الجواب ، فكان أن أصبحوا ينظرون إليه كأنه عدو دائب لدود لأمة لم يحمل لها فى الواقع أكثر من البغض وشيء من التحقير ؛ بل إن كل من أمعن ودقق ، عرف أنه وإن لم يعاملهم ببر المسيحية ، الذى يقضى على المرء أن يقاسى كثيراً ويغلب الرأفة والشفقة إذا تحكّم — إلا أنه لم يفته بأية حال أن يكرمهم — ولو قليلا وإلى مدى محدود — إكراماً يخفف من عوز المحتاجين ، ويفرج من هم المكرويين ؛ وكان لتوماس الجزلاندى من الثروة ما يمده بالمؤونة والدواء ، فكان شيء من هذا المدد يتسرب سرا إلى منازل الاسكتلنديين ، وهذا الإحسان الجافى كان يقوم على عقيدة أن العدو بلى الصديق فى الأهمية ، ولا يتوسطهما رجال هم بين بين ، فإنما هؤلاء لاهم إلى أولئك ولا هم إلى هؤلاء ، وليسوا أهلا حتى لمحبة من الفكر أو الاعتبار . وهذا البيان ضرورى للقارى كي يفهم جد الفهم ما سنفصله فيما بلى .

لم يبعد توماس دى فو كثيرا عن مدخل السراق الملقى حتى أدرك ما أدركته فى ملح البصر أذن ملك انجلترا الحادة ذات الخبرة والمعرفة بفن العزف والغناء ، وذلك أن الألحان الموسيقية التى طرقت أذنيه ، كانت تنبعث من مزامير العرب وقصباتهم وطبولهم ، وفى نهاية طريق طويلة ضربت الخيام على جانبيها ، متصلة بفسطاط رتشارد ، وقعت عيناه على حشد من الجنود الكسالى ، تجمعوا حول المكان الذى كانت أنغام الموسيقى تنبعث منه ، وهو يتوسط المعسكر ؛ ولشد ما كانت دهشته حين رأى بين الخوذات المتعددة الأشكال — التى كانت على رؤوس الصليبيين من الأمم المختلفة — عمامات بيضا وحراباً طوالا ، مما كان يدل على وجود الأعراب المسلحين ؛ كما رأى كثير من رؤوس الجمال والإبل الضخمة المشوهة ، وقد مكنتها أعناقها الطويلة القبيحة من الإشراف على الجمع المحتشد .

عجب البارون لهذا المشهد واشتد سخطه ، إذ رأى منظرأ فريداً لم يكن يتوقعه ؛

ذلك لأن العادة جرت بأن تُلقى أعلام الهدنة جميعاً ، وغير ذلك من رسائل العدو ، في مكان معين خارج الحدود . وتلفت شغوفاً ذات اليمين وذات اليسار ، عليه يرى أحداً يستفسر منه عن علة هذه الظاهرة الجديدة الخطيرة .

وكان أول من وقعت عليه عيناه من الناس رجل يتقدم نحوه ، ظنه لأول وهلة من خطوه الرزين المتعجرف أسبانيا أو اسكتلنديا ، ثم تتم لنفسه وقال : « إنه اسكتلندي ؛ إنه فارس النمر ، لقد شاهدته مرة يقاتل في سبيل رجل من بني وطنه فيحسن القتال ولا يبالى » .

وقد كره أن يتندر القادم حتى بسؤال عارض ، وأوشك أن يمر بالسر كنث وعلى سيماء الأكتئاب والتكبر ، وكأن لسان حاله يقول : « إني أعرفك ، ولكني لن أبادلِكَ الخطاب » . ولكن فارس الشمال أفسد عليه خطته إذ أقبل عليه يقصده ، وبدأه بالمجاملة وقال : « سيدى دى ثو الجزلاندى ، فى ذمتى رسالة على أن أبغك إياها » .

فرد عليه البارون الانجليزى وقال : « ها ! رسالة تبلغنيها ؟ قل ما شئت وأوجز إنما أنا فى خدمة الملك » .

فأجاب السر كنث « إنما رسالتى أمس بالملك رتشارد مما تقوم أنت عليه ، لقد أتيت به بالصحة والعافية ، إن صح أُملى » .

وهنا رمق لورد جزلاندى الرجل الاسكتلندى بعين الريبة والإنكار وقال : « لست بالطبيب المداوى على ما أعتقد يا سيدى الاسكتلندى — إنه لأقرب إلى ظنى أن تأتى لملك انجلترا بالمال والثراء » .

ولم يرض السر كنث عن الأسلوب الذى أجابه به البارون ، فرد عليه فى هدوء وقال : « إنما الصحة لرتشارد نخار وثروة للعالم المسيحى طرا — ولكنى على عجل ، وأتوسل إليك أن تأذن لى برؤية الملك » .

فقال البارون : « كلا يا سيدى الكريم ، لن تراه حتى تُفضى إلى برساتك

بأكثر من ذلك جلاء . ليست غرف الأمراء المرضى مفتحة الأبواب لكل طارق كأنها نزل من منازل الشمال .

فأجاب السر كنث وقال : « إن الصليب الذى أحمله يا سيدى — كما تحمله أنت — والأمر الجلل الذى أتيت لتبليغه ، يمتحن على الآن أن أتقاضى عن أسلوبك هذا ، الذى ما كنت لولا ذلك لأصبر عليه ؛ واعلم فى صريح العبارة بعد هذا أنى أتيت مئ بطبيب من بلاد المغرب أخذ على نفسه أن يبرى لنا الملك رتشارد . فقال دى ثو : « طبيب من بلاد المغرب ! ومن ذا الذى يكفل لنا أنه لم يأت بالسلم النافع عوضاً عن الدواء الناجع ؟ » .

« حياته ياسيدى — إنه يقدم رأسه كفالة لما يقول » .

فقال دى ثو « كم من رجل خبيث ، ثابت العزم ، عرفت ، لم يُقم حياته وزنا ، بل يسير إلى المفصلة مرحاً كأن الجلاد رفيق له فى حلبة الرقص » .

فأجاب الرجل الاسكتلندى وقال : « حقيقة الأمر ياسيدى أن صلاح الدين — الذى لا يتكر عليه أحد أنه عدو كريم شجاع — قد بعث بهذا الطبيب إلى هنا ، ومعه حاشية شريفة وحرس نبيل ، ممن يليق بالمكانة العليا التى يرفع السلطان إليها « الحكيم » ، ومعه كذلك فاكهة وطعام وشراب لغرفة الملك الخاصة ، كما أنه يحمل رسالة جديرة بأن تصدر من عدو نبيل إلى عدو نبيل ، يرجو له فيها أن يسلم من الحمى معافى ، حتى يتهيأ لزيارة السلطان الذى سوف يأتية ويده أحذب مسلول ، وخلفه مائة ألف فارس ؛ فهل تأذن — وأنت من أعضاء المجلس الملكى السرى — بأن تُطرح عن هذى البعير أحمالها ، وأن تُعد العدة للقاء الطبيب النطاسى ؟ » .

فأجاب دى ثو وكأنه يحدث نفسه : « ياللعجب ! ومن ذا الذى يكفل لنا شرف صلاح الدين فى أمر ، لو ساء فيه مقصده ، نخلص فى الحال من أشد خصومه وأقواهم ؟ » .

فأجاب السر كنث : « سأكون أنا نفسى له ضمينا بشرى وحياتى ومالى » .
فتمت دى ثو ثانية وقال : « عجبا ، رجل من أهل الشمال يكفل رجلا من أهل الجنوب — اسكتلندى يضمن تركيا ! هل لى ياسيدى الفارس أن أسألك كيف أضحي يهلك هذا الأمر ؟ » .

فأجاب السر كنث : « كنت متغيبا فى الحج ، وكانت لى حينذاك رسالة أبلغها ناسك (عين جدة المقدس) » .

« هلا تستأمننى على هذه الرسالة يا سر كنث ، وعلى ما أجب به الناسك عليها ؟ » .

فأجاب الاسكتلندى قائلا : « كلا ياسيدى » .

ورد عليه الرجل الانجليزى فى أنفة وكبرياء وقال : « إنى من أعضاء المجمع السرى فى انجلترا » .

فقال السر كنث : « ليس على لهذه البلاد حق الولاء ؛ وإن كنت قد تبعت جانب ملك انجلترا فى هذه الحرب طائعا ، إلا أنى مرسل من قبل المجمع العام للملوك والأمراء وكبار القوادى جيش الصليب المبارك ، وهؤلاء وحدهم أقوم برسالتى » .
فأجاب البارون دى ثو نفورا شامحا بأنفه وقال : « ها ! ماذا تقول ؟ اعلم يا من قد تكون رسول الملوك والأمراء ، أن ليس لطبيب أن يقرب فراش رتشارد ملك انجلترا دون قبول رجل جازلاند ، ولن يجسر على اعتراض مشيئتى إلا من أتى برسالة السوء » .

ثم هم بالانصراف فى كبر وخيلاء ، ولكن الرجل الاسكتلندى دنا منه ، واعتراض سبيله ، ووجه إليه الخطاب فى صوت خافت ، ولكنه لم يخل من نبرة ثم عن بعض الاعتزاز بالنفس ، وسأله إن كان يقدره كرجل كريم وفارس نبيل .
فأجاب توماس دى ثو فى شىء من التهمك والسخرية وقال : « الاسكتلنديون جميعا أشرف نبلاء بفضل مولدهم ونشأتهم » ؛ ولكنه أحس بالحيف فى كلامه ، ورأى الدم يعلو فى وجنتى كنث ، فاستطرد قائلا : « من الجرم أن يرتاب المرء فى أنك

فارس نبيل ، وإنه لا يثم على الأقل من رجل رآك وأنت تؤدي واجبك حق الأداء في جرأة وأقدام » .

وصادت هذه الصراحة في هذا الاعتراف الأخير من نفس الفارس الاسكتلندي قبولا فقال : « إذن فاني أقسم لك ياتوماس الجزل لاندى — وأنا رجل حسيب نسيب ، وأنا فارس ارتديت نطاق وأتيت إلى هنا طلبا للشهرة والصيت في هذه الحياة الفانية ، والعفو عن ذنوبي في الحياة الآخرة — أني ، بحق هذا الصليب المبارك الذي أحمل ، حين أوصى بخدمة هذا الطبيب المسلم ، لا أرمي إلا إلى سلامة رتشارد قلب الأسد » .

فصق الرجل الانجليزي من هية هذه الضراعة ، وأجاب باخلاص أشد مما أظهره حتى آنئذ وقال : « خبرني يا فارس النمر لو أني سَلَمْتُ بأنك عن نفسك مقتنع بهذا الأمر ، فهل تظن أني أصيب في بلاد ، فنُ التسمم فيها ذائع بين الناس ذبوع فن الطهي ، إن أنا أتيت بهذا الطبيب المجهول ، يجرب عقاقيره في رجل ، صحته لها قيمتها في العالم المسيحي » .

فأجاب الاسكتلندي قائلا : « سيدى — لا يسعني إلا أن أجيب بأن حامل ترسى وهو الوحيد من أتباعي الذي أفلت من الحروب والأوبئة وبق لي يسهر على — قد أصيب منذ عهد قريب بهذه الحمى ذاتها ، التي حلت بالملك رتشارد الصنديد فشلت أهم الأعضاء في هذا المشروع المقدس ، وقاسى منها كثيرا وتعرض لأخطارها ، فأمدته الحكيم بالدواء من منذ أقل من ساعتين ، وهو الآن يغط في نوم هادئ ؛ أما أن هذا الحكيم يستطيع أن يشفي هذه العلة القاتلة فاني لا أشك في ذلك ، وأما أنه يرغب في الأداء فهذا ما يكفله — على ما أظن — أنه رسول من السلطان صاحب النفوذ ، وهو رجل طيب القلب مخلص أمين ، إن صح أن تطلق هذه الصفات على كافر أعمى البصيرة ؛ ويكفينا ضمين أنه إن نجح في علاجه فله ثواب مؤكد ، وإن فشل عامدا فعليه الجزاء » .

وكان الرجل الانجليزي يصنى مطرق النظرات ، كأنه يشك فيما يسمع ؛

ولكنه لم يكن عن الاقتناع راغبا ، وأخيرا رفع بصره وقال : « هل لى أن أرى خادمك المريض يا سيدى الكريم ؟ » .

فتردد الفارس الاسكتلندى وعلا الدم فى وجنتيه وأجاب أخيراً وقال : « بكل ارتياح يا لورد جلزلاند ، ولكنك يجب أن تذكر ، حين ترى حقارة مسكنى ، أن نبلاء اسكتلندا وفرسانها لا يسرفون فى الطعام ، ولا يتقبلون على الحرير ، ولا يأبهون لجلال المقام ، إنما هذى من خواص جيرانهم أهل الجنوب » ، ثم استطرد وقال : « إنى أقطن فى بيت حقير يا لورد جلزلاند » ، وشدد التأكيد على كلمة « حقير » فى عبارته وهو يسير نحو مقر إقامته المؤقت فى شىء من التأتبى والتمنع .

ومهما تسكن أهواء دى ثو ضد الأمة التى كان منها هذا الرفيق الجديد - ونشهد أنا لا ننكر أن بعض هذه الأهواء يرجع إلى ما سار عن هذه الأمة فى المثل من الفقر والعوز - فلقد كان فيه لديه من نبل المقصد ما لم يجب إليه إذلال رجل باسل جرىء ، أكرهته الظروف على أن ييوح بفاقة كان يود إخفاءها . فقال : « عار على مقاتل الصليب أن يفكر فى زخرف الدنيا أو فى رغد العيش وهو يشق الطريق للاستيلاء على الأرض المقدسة ؛ إنا مهما تكبدنا من مشقة فنحن خير من جماعة الشهداء والقديسين الذين وطئوا هذه الأرض من قبلنا ، وهم الآن يسكون بمصاييح من ذهب وبنخيل دائم الاخضرار » .

ولم ينطق قط توماس الجلزلاندى حياته بمحدث فيه من الكناية والاستعارة مثل ما فى هذا الكلام ، وربما كان ذلك لأن هذا الحديث لم يعبر عن كل ما كان يجيش فى نفسه من إحساس وعاطفة ، لأنه كان على شىء من حب اللهو ورخاء العيش ؛ وقد بلغا حينئذ مكان المخيم الذى اتخذه فارس النمر له مسكنا .

وكان ظاهر المكان هنا يدل على أن قواعد التقشف ، التى كان الجلزلاندى يرى أن الصليبيين جميعاً يجب أن يلزموها ، قد روعيت جميعاً : مساحة من الأرض قد تتسع لأن تقام فيها ثلاثون خيمة ، ترك بعضها خلاء وفقاً لقواعد

الصليبيين في ضرب الخيام — وذلك لأن الفارس كان قد طلب أرضاً تتسع في ظاهر الأمر لحاشيته الأولى — وأقيم في بعضها الآخر قليل من الأكواخ الحقيرة المصنوعة من غصون الأشجار ، والتي تظللها أوراق النخيل ، وكان يبدو على هذه المساكن أنها قد هُجرت كل الهجران ، نغرب الكثير منها وتدمر ، وكان الكوخ الأوسط — وهو يمثل سراق القائد — يتميز بعلم صغير له ذيل كذيل السنونو ، رفع على رأس رمح وتهدلت ثناياه الطويلة على الأرض في سكون ، كأنه يتألم من حرارة شمس آسيا المحرقة ؛ ولم يقف إلى جوار هذا الكوخ — وهو رمز نفوذ الاقطاع وشرف الفروسية — حاجب أو خادم أو حتى حارس واحد ؛ فإذا كان اسم المكان لا يدفع عنه العدوان ، فهو مكان لا يستحق الحراسة . أرسل السر كنث حواليه نظرة كثيبة ، ولكنه كبس إحساسه ودخل الكوخ ، وأشار إلى البارون جزلاند أن يتبعه ، ثم تلفت حواليه ثانية ، وأرسل نظرة فيها تمنع ، ثم عن إشفاق مشوب بشيء من الازدراء ، والإشفاق — كالحب — يسير دوماً مع الازدراء كما يقولون ؛ ثم نكس رأسه الشامخ ، ودخل كوخاً منخفضاً كاد جسمه الضخم أن يملأ كل فراغه .

وكان أهم ما يشغل داخل الكوخ سريران ، أحدهما خال ، وقد انتثرت عليه مجموعة من أوراق الأشجار وانتشر فوقه جلد ظبي ؛ وتدل الأسلحة الملقاة إلى جانبه ، والصليب الفضي المرفوع إلى رأسه في عناية ووقار ، على أن هذا السرير هو فراش الفارس نفسه ؛ أما السرير الآخر فكان يضم العليل الذي تحدث عنه السر كنث ، وهو رجل قوى البنية ، غليظ الملامح ، تدل نظراته على أنه قد تجاوز سن الكهولة ؛ وكان سريره أكثر هنداماً وأشد نعومة من سرير سيده ، وقد بدا للعيان أن السر كنث قد وقف ثيابه الفاخرة وعباءته الفضفاضة ، التي كان الفرسان يرتدونها في أوقات السلم ، وغيرها من الأشياء الدقيقة التي تتعلق باللباس والتزين ، على توفير الراحة لخادمه العليل ؛ وفي مكان خارج الكوخ ، يقع تحت بصر البارون ، كان يجثو على ركبتيه غلام خشن الكساء ، يلبس حذاء طويلاً

من جلد الغزال ، وقلنسوة زرقاء ، وصدار له مشبك من الحديد انطفأ بريقه ، إلى جوار صحفة بالية مملوءة بالفحم ، وكان يطهى في طبق من الصلب خبزا من الشعير كان إذ ذاك — ولا يزال — طعاما مستحبا لأهل اسكتلندا ، وكان جانب من ظبي يتعلق بدعامة من دعامات الكوخ الكبيرة ، ولم يكن من العسير على الرأى أن يعرف من أين كان هذا الظبي ، فلقد كان هناك كلب كبير من كلاب الصيد أكبر حجما وأنبل مظهرا من غيره ، حتى من تلك التى تقوم على حراسة الملك رتشارد وهو فى فراش المرض ، وكان الكلب يرقد وهو يرقب بعينه الفطير وهو يخبز ، وحينما دخل الفارس وصاحبه الكوخ ، أرسل الكلب الأريب نباحا مختنقا ينبعث من صدره العميق كأنه رعد يقصف على أمد بعيد ، ولكنه لمح صاحبه ، ففز ذيله ونكس رأسه اعترافا بوجوده ، وسكت عن تحيته ذات العجيج والضجيج كأن غريزته النبيلة قد علمته حشمة الصمت فى غرفة المريض .

وعلى حشية من الجلد إلى جانب السرير كان يجلس الطبيب الغربى الذى تحدث عنه السركنت ، وقد وضع ساقا فوق الأخرى كما يفعل أهل الشرق عادة ، ولم يبد منه فى النور الضئيل غير قليل ، إلا أن النصف الأدنى من وجهه كانت تحجبه لحية طويلة سوداء ، أرسلها على صدره ، وكان يرتدى تقيّة تترية من صوف الغنم ، صنعت فى « استراخان » لونها قاتم ، وقفطانة الفضفاض — أو ثوبه التركى — كان كذلك ذا صبغة معتمة ؛ وفى هذا الظلام ، الذى كان يغشى ملامحه ، لم يبد من أسارير وجهه غير عينيّن نافذتين ، يتألق فيهما بريق غير معهود ، فوقف اللورد الانجليزى صامتا فى تهيّب ووقار ، لأن هذا الرجل المائل أمام دى فو — رغم خشونة هيئته — كان عليه سيما الكرب والعوز يقاسيها برابطة جأش دون شكوى أو أنين ، ومثل هذا المشهد ، فى أى وقت كان ، يدعو توماس دى فو إلى احترام لا تثيره فى نفسه المظاهر الفاخرة التى تحيط بغرف الملوك ، مع استثناء غرفة الملك رتشارد وحدها .

ولم يُسمع لفترة من الزمن صوت غير أنفاس مطردة وثيدة يرددها الليل ، الذى كان ظاهره يدل على أنه فى سبات عميق .

وقال السر كنث : « لم يأخذ الكرى بمعقد جفنيه لست ليال مضت ، كما يؤكّد لي الشاب الذي يباشره » .

فقال توماس دى فو وقد أمسك بيد الفارس الاسكتلندى وضغط عليها ضغطاً فيه من الإخلاص ما لم يبدُ في كلامه : « أيها الاسكتلندى النبيل ، ينبغي لك أن تعنى بخادمك هذا ، فهو لا يأخذ من الطعام ما يكفيه ؛ ولا من العناية ما يغنيه » .

ورفع صوته بطبيعة الحال إلى نبرته المألوفة الحاسمة في العبارة الأخيرة من كلامه ، وحينئذ اضطرب العليل في سباته .

فقال : وكأنه يدمدم في حلم : « سيدى ، اى سر كنث النبيل ، هلا نشرب أنا وأنت من ماء الكليد^(١) البارد الشافى بعد مياه العيون الآسنة في فلسطين ؟ » . فأسر السر كنث إلى دى فو وقال : « إنه يحلم بموطنه ، وإنه لسعيد في نعاسه » ولم يكده يلفظ بهذه الكلمات حتى هب الطبيب من مكانه بجوار سرير المريض ، ووضع يد العليل — التي كان يرقب نبضها بعناية وحذر — على الفراش ، في هدوء وسكينة ، ثم أقبل على الفارسين وأمسك كلا منهما من ذراعه ، وأشار إليهما أن يلزما الصمت ، وسار بهما إلى خارج الكوخ .

ثم قال : « باسم عيسى ابن مريم ، الذى نكرم كما تكرمون ، ولكننا لنحوطه بالخرافة العمياء ، لا تفسدا أثر الدواء الناجع الذى تناول منه المريض . في يقظته الآن إما حتفه أو فقدان عقله ؛ اذهبا وعودا حينما ينادى المؤذن من فوق المنارة بصلاة المغرب في المسجد ؛ وإذا بقى المريض دون قلق حتى آتئذ ، فاني أعدكم أن هذا الجندى الفرنجى سوف يقوى — دون إجهاد لصحته — على أن يتبادل معكما حديثاً قصيراً في أى أمر تسألانه فيه ، وبخاصة إن كان السائل سيده » .

فتراجع الفارسان طوعاً للأمر الجازم الذى أمرهما به الطبيب ، وكان يبدو

(١) الكليد نهر في اسكتلندا .

عليه أنه يفهم جد الفهم أهمية الحكمة الشرقية السائرة ، وهى أن غرفة المريض مملكة الطبيب .

وتوقف الفارسان عن المسير ، ولبثا واقفين معاً لدى باب الكوخ ، وعلى سيا السر كنت أنه كان يتوقع من زائر أنه يودعه ، ويبدو على دى فو كأن فى نفسه شيئاً يحول بينه وبين أن يفعل ذلك ؛ ولكن الكلب انطلق من الخيمة وراءها ورمى بوجهه الطويل الخشن فى يد صاحبه ، كأنه يتوسل إليه خاشعاً أن يخلع عليه بعض عطفه ، ولم يكد الكلب يحظى من صاحبه بالرعاية التى أراد ، فى كلمة طيبة ، وتريت خفيف ، حتى ود أن يظهر عرفانه للجميل وسروره بمجاوبة سيده له ، فهرع مسرعاً ، وهروى فى مسيره ، ومد ذيله ولوح به يمينا ويساراً ، وأداره هنا وهناك ، وهزه إلى أعلى وإلى أسفل ، وهو يجوس خلال الأكواخ المهدمة والرجبة التى وصفنا ، ولكنه لم يتخط حدود المنطقة التى عرف بفطنته أن علم صاحبه يحميها ، وبعد بضع وثبات من هذا القبيل ، دنا الكلب من صاحبه وتخلّى لحينه عن مجونه ، وعاد إلى الجد الذى ألف ، وإلى حركاته الوئيدة ومسلكه التوائى ، وبدأ عليه الحجل لأنه تنحى إلى هذا الحد البعيد عن الرزانة وحكم النفس ، أيا كان الباعث على ذلك .

فنظر الفارسان جذلين ؛ أما السر كنت فقد حق له أن يفخر بكلبه النبيل ، وأما البارون الانجليزى — وهو من أهل الشمال — فقد كان بطبيعة الحال ممن يعجبون بالصيد ، فيستطيع أن يقدر ماثل هذا الكلب من جدارة .

فقال : « إنه كلب سليم قدير ، وإنى لأظن ياسيدى أن لو كان لهذا الكلب من القوة ماله من سرعة العدو ، إذن فلن يكون له لدى الملك رتشارد صنو أو نظير ، ولكنى أرجوك — وأنا أكلّمك بالشرف والكرامة — أن تخبرنى هلاً سمعت بالبيان الذى يحتم على كل من هم دون مرتبة « الأيرل » أن لا يقتنوا كلاب الصيد فى دائرة الملك رتشارد بغير إذن منه ، وما أظن ياسير كنت أنك استصدرت من المليك هذا الإذن ، وإنى أكلّمك الآن كتابع من أتباع الملك » .

فقال السر كنت محتدا : « وإني أجيبك كفارس اسكتلندى حر ؛ إني أسير اليوم تحت لواء إنجلترا ، ولكنى لا أذكر أنى خضعت يوما لقوانين الغاب التى تسود فى هذه الدولة ، بل وإنى لا أحمل لها من الاحترام ما يدفعنى إلى ذلك ؛ إذا نفخ فى البوق لحمل السلاح خفت قدماى إلى ركابى كما يخف غيرة ، وإذا رن رنينه للحمل على العدو ما تخلف رحى وراء غيره أو استكن ؛ ولكنى إذا فرغت من واجبي وكانت ساعة التراخى ، فليس من حق الملك رتشارد أن يحول بينى وبين نزهى وراحتى » .

فقال دى فو : « ومع ذلك فإنه من الحق أن لا تطيع سنة المليك ، ولذا فهل تسمح لى — بصفتى صاحب النفوذ فى هذا الأمر — أن أبعث إليك بما يحمى صاحبي هنا ؟ » .

فأجاب الاسكتلندى فى برود : « شكرا لك ، ولكنه يعرف الحى الذى يخصنى ، وفى حدود هذا الحى أستطيع أن أدفع عنه بنفسى ، ومع ذلك . . . » وهنا بدل أسلوب كلامه واستطرد قائلا : « ومع ذلك فما هذا إلا رد بارد منى لعطف نبيل المقصد ؛ إني أشكرك يا سيدى بكل قلبى ، إن رؤساء الاصطبل الملكى قد يرون فى «رزوال» (اسم الكلب) بعض المضرة فيلحقون به الأذى ، ولكنى قد لا أتوانى فى رد هذا الأذى ، وقد ينجم الشر عن ذلك ، لقد رأيت الكثير من شؤون دارى يا سيدى » ، وهنا تبسم واستأنف الحديث وقال : « فلا أرى بى حاجة إلى أن أستحي من أن أقول بأن «رزوال» هو أهم ما يمدنا بالمؤونة ، وإنى لشديد الأمل فى أن رتشارد الأسد لن يكون كالليث الذى نسمع به فى الأغانى الخرافية ، الذى خرج للصيد وعاد بالغنيمة كلها لنفسه ؛ إنى لا أظن أنه يرضى على رجل كريم فقير ، من اتباعه المخلصين ، بساعة يلهو فيها ، وجناح طائر يتبلغ به ، وبخاصة إذا كانت الأطعمة الأخرى عسيرة المنال » .

فقال البارون : « وحق ما أعبد إنك إنما تنصف الملك ، ولكن فى ثنايا لفظك — رغم رفته وعذوبته — ما يثير أثرة كل أمير نورماندى » .

فقال الاسكتلندى : « لقد سمعنا أخيرا من أفواه المنشدين والحجاج أن جماعة من طريدى الدهماء فى بلادكم قد ألقوا عصابات كبيرة فى مقاطعتى يورك ومنتجهايم وعلى رأسهم نبال شديد البأس يدعى « روبن هود » ، ووكيله « جون الصغير » ، وإنى لأظن أنه خير لرتشارد أن يتراخى فى تطبيق قانون الغاب فى انجلترا من أن يفرضه فى الأرض المقدسة » .

فأجاب دى فو وقد هز كتفيه كأنه يود أن يتحاشى التخبط فى جدل خطر كريفه وقال : « حقا إنه لعمل عنيف يا سركنث ، وإنها لدنيا جنون يا سيدى — والآن يجب أن أودعك ، إذ لا بد لى أن أسارع بالعودة إلى سراق الملك ، وسأعودك فى مسكنك إن رضيت ساعة الغروب ، وأتحدث إلى هذا الطبيب المشرك ؛ وإنى لأحب بطيب خاطر أن أبعث إليك بما يسرى عنك ولو قليلا ، إذا كنت لا ترى فى ذلك إيذاء لنفسك » .

فقال السركنث : « أشكرك يا سيدى ، لا حاجة بى إلى ذلك ، لقد أتى « رزوال » إلى خزانة مأكلى بما يكفينى أربعة عشر يوما ، فإن شمس فلسطين ، التى تجلب الأمراض ، تساعد على حفظ لحم الغزال مقددا جافا » .
ثم افترق المحاربان وهما أشد صداقة مما التقيا أول الأمر ، وقبل أن ينفصلا ، وقف توماس دى فو يتعرف بشيء من الإسهاب الظروف التى تلابس بعثة هذا الطبيب الشرقى ، وتسلم من الفارس الاسكتلندى وثائق الاعتماد التى أتى بها من صلاح الدين الملك رتشارد .

الفصل الثامن

الطبيب الحكيم يمدق شفاه الجروح
أجدى على الإنسان من جيوش وجيوش .
من الالياذة ترجمة « پوپ »

استمع الملك المريض إلى ما نبأه به بارون جلزلاند الصادق الأمين ، ثم قال :
« هذه قصة عجبية يا سر توماس ، هل أنت على يقين من أن هذا الرجل الاسكتلندى
صادق أمين ؟ » .

فرد عليه الرجل الغيور ساكن الحدود وقال : « لا أستطيع أن أجيبك على
ذلك يا سيدى ، إنى أسكن بلدا شديدا القرب من الاسكتلنديين ، ولكنى لم أتبين
فيهم كثيرا من الصدق ، وقد وجدتهم أبدا يتذبذبون بين الحق والباطل ؛ ولكن
هذا الرجل يتخلق بالصدق ، وسواء كان شيطانا أم اسكتلنديا ، فإن من واجبي
أن أعترف له بهذا إرضاء لضميرى » .

ثم سأله الملك وقال : « وماذا ترى فى هيئته كفارس يادى فو ؟ » .
« إن جلالتم أعرف منى بهيئات الرجال وسلوكهم ، وإنى على ثقة من أنكم
قد لحظتم كيف كان مسلك رجل النمر هذا ، فلقد تحدث الناس عنه طويلا » .
قال الملك : « حق ما قلت يا توماس ؛ إنا شهدناه بأنفسنا ، ولقد كان مرمانا
أبدا من تصدر المارك أن نرى كيف يقوم موالينا وأتباعنا بواجباتهم ، ولم نتقدم
قط الصفوف مدفوعين بشهوة الزهو والغرور ، كما قد يتطرق إلى أذهان بعضكم ؛
إننا نعلم أن ثناء الانسان زهو باطل ، وإن هو إلا كبخار الماء ، ولذا فلقد شككنا
السلاح لأغراض أخرى ، لا طمعا فى اجتلاب المدح والثناء » .

فصمق دى فو حينما سمع الملك وهو يلقى هذا البيان الذى لا يتفق وطبيعته ،
وظن لأول وهلة أنه لم يعمد إلى هذا الحديث المهين عن الشهرة العسكرية — وقد
كانت له بمثابة الأنفاس يستنشقها — إلا لاقتراب الموت منه على الأقل ، ولكنه

تذكر أنه التقى في السراشق الخارجى بالقس الذى تعود الملك أن يعترف له ، ففطن إلى أن إذلال النفس هذا ، الذى تملك الملك إذ ذاك ، هو من أثر الوعظ الذى ألقاه ذلك الرجل المقدس ، فلم يحرجوا ، وإنما أخذ يكابد الملك وقد استأنف الحديث . وقال رتشارد مستطردا : « أى نعم ، لقد شهدتُ حقا بأى أسلوب كان هذا الفارس يقوم بواجبه ، والله لولا ملازمته لى لما كان لعصا قيادتى شأن يذكر ؛ لقد أصابه قبل اليوم شىء من جودنا ، ولكنى لحظت فيه الاعتداد بالنفس والصلف والإقدام » :

وهنا لحظ بارون جزلاند أن الملك قد تغيرت ملامحه فقال : « مولاي ، إني لأخشى أن أكون قد اعتديت على جلالتكم باغضائى قليلا عن تجاوزه وعدوانه . فأجاب الملك وقد قطب جبينه وتكلم بلهجة الدهشة والغضب وقال : « كيف هذا يا دى ملتن ؟ هل أنت تتجاوز عن قبحته ؟ إن هذا لن يكون » .

« هل مولاي أن يأذن لى أن أذكره أن من حق وظيفتى أن أسمح لمن كان من دم كريم أن يقتنى كلبا أو كلبين فى المعسكر ، وذلك إبقاء على الفن النبيل ، فن الصيد والقنص ؛ بل إنه لمن الجرم أن نشوه أو نوذى مخلوقا وديعا ككلب هذا الرجل الكريم » .

فقال الملك : « إذن إن له لكلباً مليح المنظر » .

فأجاب البارون ، وهو رجل شديد الحب للقنص فى الخلوات ، وقال : « إنه لمخلوق سماوى وافر الكمال ، وهو من أنبل الفصائل الشمالية ، عريض الصدر ، قوى العجز ، أسود اللون ، مرقش من قُبُل وعلى الأقدام بخطوط داكنة ، عليه سمات شهباء تضرب إلى البياض ، فيه قوة يصرع بها الفحل ، وسرعة يطارد بها الوعل » .

فضحك الملك من هذه الحماسة وقال : « وقصارى القول إنك قد أذنت له باقتناء الكلب وانتهى الأمر . ولكنى أحذرك ألا تتهاون فى إصدار إذنك كل هذا التهاون بين هؤلاء الفرسان ، الذين ليس لهم أمير أو قائد يركنون

إليه ؛ إنهم قوم شديدو المراس ، وقد لا يخلّفون في فلسطين بأسرها صيداً يقتنص — ولكن دعنا من هذا ، وخبرني عن علم هذا الرجل المشرك ، إنك تقول إن الاسكتلندي قد لاقاه في الصحراء ، أليس كذلك ؟ » .

« كلا ياسيدي ، قصة الاسكتلندي كما يلي : كان في طريقه رسولا إلى ناسك عين جدة الذي يتحدث الناس عنه كثيراً — » .

وهنا هب رتشارد من مرقدته وقال : « يالقداحة الخطب ! من الذي بعث به ، وفي أي أمر من الأمور ؟ من ذا الذي يجروء على إرسال رجل أيا كان إلى هناك ، وملكتي في دير عين جدة ، وقد حجت إليه تدعولي بالشفاء ؟ » .

فأجاب البارون دي ثو وقال : « هو رسول من قبل مجمع الصليبيين ياسيدي ، وقد أبي أن يخبرني بالغرض من بعثته ، ويخيل لي أن أحداً في المعسكر لا يعلم أن الملكة زوجكم قد رحلت إلى الحج ، وحتى الأمراء أنفسهم قد لا يعلمون ذلك ، إذ أن الملكة قد تنحت عن الجماعة مذ حرمت عليها جلالتكم أن تدنو منكم حفظاً لها من العدوى » .

فقال رتشارد : « إن هذا الأمر يتطلب النظر . إذن لقد التقى هذا الرجل الاسكتلندي ، هذا الرسول ، بطبيب متجول لدى كهف عين جدة ، أليس كذلك ؟ خبرني ؟ » .

فأجاب دي ثو وقال : « كلا ياسيدي ، إنما التقى هذا الرسول ، حسب ظني ، قريباً من ذلك المكان بأمير عربي ، وكان بينهما عراك ، قصداً به امتحان ما هما عليه من جرأة وشجاعة ، ولما ألفاه جديراً برفقة الشجعان ، انطلقا معاً إلى غار عين جدة ، كما ينطلق فارسان شاردان » .

وهنا سكّت دي ثو ، لأنه لم يكن ذلك الرجل الذي يستطيع أن يروي قصة طويلة في عبارة وجيزة .

فسأله الملك وقد نفذ صبره : « وهل التقيا بالطبيب هناك ؟ » .

فأجاب دي ثو : « كلا ياسيدي ، ولكن العربي حينما علم بمعرض جلالتكم

العضال ، وعد بأن يبعث صلاح الدين بطبيبه الخاص إليك ، مؤكدا لك أشد التأكيد براعته وحذقه . فجاء الطبيب إلى الفار بعد أن لبث الفارس الاسكتلندي يتربقه يوما وبعض يوم ؛ جاء تحوطه الرعاية كأنه أمير تدق له الطبول ويتبعه الحشم راكبين وراجلين ، ومعه خطابات الاعتماد من صلاح الدين .

« وهل فخصها جيا كومو لوردانى ؟ » .

« لقد عرضتها على الترجمان قبل أن آتى بها إلى هنا ، وإليك ما اشتملت عليه » .
فتناول رتشارد قرطاسا دونت عليه هذه الكلمات : « سلام الله ورسوله محمد .
تحية من صلاح الدين ملك الملوك ، سلطان مصر وسوريا ، نور الدنيا وملاذها ،
إلى رتشارد العظيم ملك إنجلترا . أما بعد ، لقد نما إلينا ، يا أخانا في الملك ، أن
المرض قد مد إليك يدا ثقيلة لا تحتمل ، وأن ليس لديكم من الأطباء غير النصارى
واليهود ، الذين يعملون بغير بركة الله وبنينا الكريم ولذا فإننا مرسلون إليكم
بطبيبنا الخاص يقوم برعايتك ، ويسهر على راحتك ، وهو (أدُنْبَك) الحكيم
الذى إن رآه عزرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض ، والذى يعلم مزايا
الأعشاب والأحجار ، ومسير الشمس والقمر والنجوم ، وفي وسعه أن ينقذ
الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين ؛ وإنا لهذا فاعلون ، متوسلين إليك من
أعماق القلوب ، أن تكرمه وتفيد من حذقه ، وإنا لم نفعل ذلك خدمة لقدرك
وشجاعتك فحسب — وهما فخر دول الفرنجة قاطبة — وإنما فعلناه كي نقضى على
الخصومة القائمة بيننا الآن ، إما باتفاق شريف وإما علناً بحمد السيف في ساحة
القتال ، وذلك لأننا نرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد
قد أمهكه سيده بالعمل ، ولا يلائم اسمنا بين الناس أن يتزعزع المرض من أسنة
رماحنا خصما جريئاً مثلك . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

فصاح رتشارد : « كفى ، كفى . والله إنه ليضاعف من مرضى أن هذا السلطان
الشجاع ، صاحب المقام الرفيع ، يعتقد في دين الإسلام ؛ أجل سوف أرى
طبيبه ، وسوف أسلم نفسى لهذا الحكيم ، وسوف أرد لهذا السلطان النبيل

جوده ونواله ، وسوف ألتقى بصلاح الدين في ميدان القتال وفقاً لرأيه السيد ؛ ولن تترك له مجالاً كي يسم رتشارد ملك إنجلترا بالوجود ونكران الجليل ، وسوف أدق عنقه وألقيه طريح الأرض بفأسى ، وسوف أردّه إلى حرم المسيحية بضربات لا أظنه عانى لها من قبل مثيلاً ، وسوف ينبذ ضلاله أمام سيفي الكريم ، ذى اليد الصليبية ، وسوف أعمّده بالمسيحية في ساحة الوغى من خوذتي ، حتى وإن امتزجت مياه الطهور بدمى ودمه ؛ هيا يادى فو ، ولا تؤخر عني هذه النهاية الراضية البهيجة ، هات الحكيم هنا .

فقال البارون وقد رأى أثر الحمى في هذه الثقة بالنفس المتدفقة : « اعلم مولاي أن السلطان من المسلمين وأنت خصمه اللدود — » .

« ولهذا حق عليه أن يخدمنى في هذا الشأن ، كي لا تحسم هذه الحمى الطفيفة نزاعاً بين ملكين مثلى ومثله ؛ اعلم أنه يحبني كما أحبه — وكما يتحاب الخصوم النبلاء في كل حين — وشرفى إنه لمن الجرم أن أرتاب في حسن طويته ! » .
فقال لورد جلزلاند : « ومع ذلك فإنى أرى من الحكمة يامولاي أن تترث حتى ترى أثر هذا الدواء في الخادم الاسكتلندى ، إن هذا أمر تتعلق به حياتى ، فإنى لو اندفعت في هذه السبيل ، وتحطمت سفينة العالم المسيحي على يدي ، لحقّ على أن أموت كما يموت الوغد الذئ » .

فرد عليه ريتشارد وهو يؤنبه : « لم أعرفك قبل اليوم متردداً خشيّة الموت » .
فأجاب البارون ذو القلب الحديدى : « وما كنت لأتردد الآن يامولاي لولا أن حياتك مع حياتى على كف عفريت » .

فقال رتشارد : « إذن فلتنذهب عني ما دمت رجلاً تداخله الريبة ، وارقب سير هذا الدواء ؛ والله إنى لأود لو شفانى أو أودى بحياتى ، فلقد كللت من رقدتى هنا كالثور يقضى عليه الطاعون في وقت تدق فيه خارج السرادق الطبول ، وتدوس فيه الأرض الحيول ، ويرن فيه رنين الأبواق » .

حينئذ سارع البارون بالرحيل واعتزم أن يبلغ رسالته رجلاً من رجال

الكنيسة ، إذ قد أحس ببعض الوخز في ضميره لأنه أدرك أن سيده سوف يكون تحت رعاية رجل من المنافقين .

وكان رئيس أساقفة (صور) هو أول من بث إليه شكوكه ، إذ كان يعرف عنه اهتمامه بمولاه رتشارد ، الذى كان يجب هذا الأسقف الحكيم ويحمله ، فاستمع الأسقف إلى هذه الشكوك التى حدثت بها دى فو ، متنبها ذلك التنبه الدقيق الذى يتميز به رجال الدين من الرومان الكاثوليك ، ونظر إلى هذه الريب الدينية التى كانت تساور دى فو بالاستخفاف الذى يلائم نيافته أن يقابل به أمراً كهذا من أمور الدنيا .

فقال : « إنما الأطباء — كالدواء الذى يستخدمونه — عظيمو النفع ، ولكنهم من أرذل بنى الانسان مولداً ونشأة ، كما أن الدواء كثيراً ما يستخرج من أخط المواد » ثم قال : « ولكم معشر الرجال أن تستعينوا عند الحاجة بالكفار والمشركين ، بل إنى ليخيل لى أن من أسباب استبقائهم على وجه الأرض أنهم قد يعملون على راحة المسيحيين المخلصين ، ولذا فنحن نستعبد الأسرى من الكفار شرعاً » .

واستطرد قائلاً : « هذا إلى أنه ليس من شك فى أن المسيحيين فى جاهليتهم كانوا يستغلون الكفار الذين لم يعتنقوا المسيحية ، ولك مثل فى سفينة الإسكندرية التى أبحر فيها إلى ايطاليا بولس الرسول — بارك الله فيه — فلقد كان ملاحو السفينة كفاراً ، ولا مشاحة فى ذلك ، وهل تدرى ماذا قال هذا القديس المكرم حينما أحس بالحاجة إلى خدمتهم ؟ قال لاسبيل إلى خلاصكم إلا إن كان معكم هؤلاء الرجال على ظهر السفين ، وفضلاً عن ذلك فإن اليهود كالمسلمين ، كلاهما مارق من المسيحية ، وليس بالمعسكر إلا قليل من الأطباء من غير اليهود ، ونحن نستخدم هؤلاء دون رية أو عار ، ولذا فإنى أستبيح الإفادة من المسلمين فى هذا الشأن ، وقد بينت لك جواز ذلك ^(١) » .

(١) هذه العبارة باللاتينية فى الأصل .

هذه الأدلة أزالَت عن توماس دى فو كل شك قائم في ضميره ، وقد كان للمقتبسات اللاتينية خاصة أثر شديد على نفسه لأنه لم يفقه منها كلمة واحدة .

ثم استطرد الأسقف الحديث ، وهو أقل طلاقة من ذى قبل ، وعرض له أن الرجل العربى قد يتقدم إلى العمل بنية سيئة ، ولكنه لم يستطع أن يحسم في الأمر على عجل ، وقدم له البارون خطابات الاعتماد فقرأها وقرأها وقارن بين الأصل والترجمة .

ثم قال : « والله إنها المكيدة قد دبرت على هوى الملك رتشارد ، وإني لا يسعنى إلا أن أرتاب في هذا العربى الماكر ؛ إنهم قوم برعوا في فن السموم ، ويستطيعون أن يخففوها حتى تلبث الأساييع وهى تسرى في الجسم ، فيتسنى لمحضّر السم إبّان ذلك أن يلوذ بالفرار ؛ إنهم يستطيعون أن يدسوا في الأقمشة والجلود ، بل وفي الورق والرق خفي السموم — غفرانك يا مريم ! — كيف لى وأنا بهذا عليم أن أمسك بخطابات الاعتماد هذه وأدنيها من عيني — خذها منى يا سر توماس ، خلصنى منها سريعا » .

ثم سلمها للبارون ، وهى منه على بعد ذراع ، وعليه لهفة العاجل ، واستطرد قائلاً : « ولكن هيا بنا يا سيدى دى فو إلى خيمة الخادم المريض ، حيث نستطيع أن نعرف إن كان هذا الحكيم خبيراً حقاً بفنون العلاج التى يدعيها لنفسه ، قبل أن نفكر في سلامة الملك إذا نحن أذنا له أن يباشره بفنه — ولكن قف ! ودعنى أولاً آتياً بصندوق عطورى ، فإن هذه الحميات تنتشر انتشار العدوى ، وإني أشير عليك يا سيدى بأن تتناول حصى البان منقوعاً في الخل فإنى كذلك أعلم شيئاً عن فنون العلاج » .

فأجاب توماس الجزلاندى وقال : « أشكرك يا نيافة الأسقف ؛ إني أظن أن لو كان لهذه الحمى أن تنال منى لأصابتنى منذ زمن طويل وأنا ملازم جوار فراش سيدى » .

نفجل أسقف صور من هذا الجواب لأنه كان يتحاشى الملك المريض ، ثم أمر البارون أن يتابع المسير .

ولما مرا بالكوخ الحقير ، الذى كان يقطن به كنث صاحب النمر وتابعه ، قال الأسقف لى فو : « والآن اعلم ياسيدى يقينا أن هؤلاء الفرسان الاسكتلنديين أقل بأتباعهم عناية منا بكلابنا ، فهذا فارس يقولون إنه جرىء فى القتال ، ويروونه جديرا بأن يتحمل جسيم التبعات فى زمن الهدنة ، وهذا تابع من أتباعه يسكن فى كوخ أحط من أسوأ بيوت الكلاب فى إنجلترا ، فهاذا أنت قائل فى جيرانك هؤلاء ؟ » .

فقال دى فو : « إنى أرى أن السيد يقوم بما يكفى نحو خادمه إذا أسكنه فى بيت لا يقل عن بيته » ثم دخل الكوخ وتبعه الأسقف ، وعليه إمارات التأتى والإحجام بادية ، فهو ، وإن لم تنقصه الشجاعة من بعض نواحيها ، إلا أنها كانت شجاعة ممزوجة باعتبار قوى شديد لسلامته وأمنه ، ولكنه تذكر أن من واجبه أن يحكم بنفسه على حذق الطبيب العربى ، فدخل الكوخ متعاليا بذاته شاخا بأنفه ، متكلفا ذلك ، ظنا منه أن فى هذا ما يدعو إلى احترام القادم الغريب .

وكان الأسقف حقا رجلا يجذب النظر ، عليه سيما الهيبة والنفوذ ؛ كان فى شبابه فارط الجمال ، وحتى فى شيخوخته لم تقل رغبته فى التظاهر بالجمال ، فكان زيه الكنسى من أنفاس طراز ، حواشيه مزركشة بالفراء الثمين ، ويتلفع بعباءة جميلة التطريز ، وعلى أصابعه خواتم تليق برجل يتأمر على مقاطعة من المقاطعات الكبيرة ، ويلبس على رأسه قلنسوة كانت إذ ذاك محمولة الرباط ، ومطروحة إلى الخلف من حمارة القيظ ، وللقلنسوة أزرار من الذهب الخالص يوثقها بها حول رقبتة ويحت ذقنه وقمها يشاء ؛ ولحيته الطويلة التى فضضها العمر تتدلى على صدره ؛ وكان له سادنان شابان يرعياه ، أحدهما يحمل فوق رأسه مظلة من أوراق النخيل الهندى ينشر بها ظلا مصطنعا ، كانت تألفه بلاد الشرق حينذاك ، والآخر بيده مروحة من ريش الطاووس يهز بها كي يروح عن سيده الكريم .

وحينما دخل الأسقف كوخ الفارس الاسكتلندى كان صاحب الدار متغيياً ، والطبيب العربى — الذى جاء لرؤيته — يجلس الجلسة عينها التى خلفه عليها دى ثو منذ ساعات عديدة ، متصالب الساقين فوق حصير من أوراق الأشجار المقصوصة ، إلى جوار العليل الذى كان فى سبات عميق ، والذى كان يحس نبضه حيناً بعد حين ؛ ولبت الأسقف منتصباً قبالة فى سكون مدة دقيقتين أو ثلاث كأنه يرتقب منه تحية شريفة يحيه بها ، أو كأنه كان على الأقل ينتظر من هذا العربى أن يذهل لنبل مظهره ، ولكن أدنك الحكيم لم يعره التفاته ، اللهم إلا لمحة عجلي ، وأخيراً لما حياه الأسقف باللغة الفرنجية السائدة فى تلك البلاد ، لم يحبه بأكثر من التحية الشرقية المألوفة ، وقال : « عليكم السلام » .

فقال الأسقف وقد صعق من هذا الاستقبال الفاتر : « أنت طبيب أيها الكافر ؟ أريد أن أتحدث إليك فى هذا الفن » .

فأجاب الحكيم وقال : « لو كنت تعلم فذلك من الطب لعرفت أن الأطباء لا يتشاورون ولا يتجادلون فى غرف مرضاهم » . ثم قال وقد سمع للكلب من الكوخ الداخلى دممة خافتة « اصغ ! حتى الكلب يعلمك التعقل ، فهل علمت ؟ إن غريزته تهديه أن يكتم نباحه حتى لا يسمعه الرجل المريض » . ثم قال وقد هب من مكانه وتقدم نحو الطريق : « هيا بنا خارج الخيمة إن كان لديك شئ تريد أن تحدثنى عنه » .

ورغم سذاجة الطبيب العربى فى ملبسه ، وضؤولة جسمه إذا قيس بالأسقف الطويل القامة والبارون الانجليزى الضخم ، فلقد كان فى مسلكه وطلعته شئ يجذب الأنظار ، شئ حال بين أسقف صور وبين أن يحتج على هذه الإهانة التى لحقته من الاستخفاف بمقدمه ؛ ولما بعدا عن الكوخ ، صوب نظره بضع دقائق فى صمت نحو « أدنك » ، وذلك قبل أن يستقر بينه وبين نفسه على خير أسلوب يجدد به ما انقطع بينهما من حديث ؛ وكان العربى يلبس فوق رأسه عمامة كبيرة لا تظهر

من تحتها خصل الشعر ؛ وكانت العمامة تخفى كذلك أحد حاجبيه ، وكان غزيراً طويلاً ناعماً خالياً من التجاعيد ، كما كانت وجنتاه الباديتان تحت ظل لحيته الطويلة ، هذا وقد ذكرنا من قبل نفاذ عينيه السوداوين .

وكان الأسقف مأخوذاً بالفتوة البادية على صاحبه ، ولكنه تمكن أخيراً من شق السكون الخيم — ولم يبد على العربي أنه كان يتعجل تعكير صفوه — وسأل الأسقف العربي عن عمره ؛ فأجاب : « إنما تقاس أعمار عامة الرجال بتغضن البشرة ، أما العلماء فتقاس أعمارهم بما يحصلون من علم . وإنى لا أجروء على الظن بأنى أزيد على مائة حول بعد الهجرة ^(١) » .

وفهم بارون جزلاً هذه العبارة على ظاهر معناها ، وظن أن العربي قد عاش قرناً من الزمان ، فنظر إلى الأسقف نظرة الشك والريبة ، ورغم أن الأسقف كان خيراً منه فهماً لما رمى إليه الحكيم ، إلا أنه رد عليه نظره بهز رأسه هزة الدهشة والتعجب ؛ ثم استرد هيئة الجد وأعاد السؤال على أدنك بصيغة الجزم والأمر ، وطلب إليه أن يقدم الدليل على كفاءته في طبه .

فرد عليه الرجل الحكيم — وقد وضع يده على عمامته دليلاً على الاحترام والتقدير — وقال : « إن لديك كلمة صلاح الدين العظيم ، وهي كلمة لم يبحث فيها قط لعدو أو صديق ، فهل تريد شيئاً أكثر من ذلك أيها النصراني ؟ » .

فقال البارون : « أريد منك دليلاً على مهارتك أشهده بعيني ، ولن تقرب سرير الملك رتشارد بغير ذلك » .

فقال العربي : « جزاء الطبيب شفاء المريض ؛ انظر إلى هذا الجندي الذى جففت دماؤه الحمى — وقد أصابت خيمكم فبيضت أديمه بعظام الموتى — تلك الحمى التى وقف فن أطباؤكم المسيحيين إزاءها كما تقف الصدرة الحريية فى وجه الرمح الصلب ؛ انظر إلى أصابعه وذراعيه وقد هزلت وباتت كمنخال السكركى وعظام سوقه ؛ والله لقد حلق الموت هذا الصباح فوق رأسه ، ولكن لو أن عزرائيل بجانب سريريه ، وأنا

(١) يقصد بذلك أن له من الاطلاع والعلم ما يُحصل فى مائة عام .

بجانبه الآخر ، ما فارقت الروح منه الجسد ؛ لا تزعجني بسؤال بعد هذا ، وإعما تريت حتى تحل ساعة الفصل واشهد الخاتمة العجيبة وأنت صامت ذاهل .

ثم لجأ الطبيب إلى الإسطرلاب ، وهو مصدر الوحي للعلم في الشرق ، ولبث يرقب بجذ وإمعان ، حتى إذا ما حان وقت صلاة العشاء ، خر على ركبتيه وغم وجهه شطر مكة ، وصلى لله الصلاة التي يختتم بها المسلمون اليوم بعد العمل ، فتبادل الأسقف والبارون الانجليزى النظر ، وعليهما إمارات الازدراء والحنق ، ولكن أحداً منهما لم ير أن من اللياقة في شيء أن يعترض الحكيم في صلواته مهما تكن في اعتبارهما خالية من كل تقديس .

ونفض العربي من الأرض التي خر عليها ساجدا ، وولج الكوخ حيث كان العليل ممتداً على فراشه ، ثم أخرج من صندوق صغير من الفضة اسفنجة مشربة بقطرات العطر ، ووضعها على أنف النائم ، فعطس وتيقظ ، ثم تلفت حواليه هايجاً مذعوراً ، وكان مرآه مروعا ، وقد هب على سريريه شبه عار ، عظامه وغضاريفه ينم عنها ظاهر الجلد ، كأنها لم تكس يوماً بلحم ، ووجهه طويل ، تشققه الغضون أخديد ، وكانت عيناه أول الأمر حائرتين ، ولكنهما أخذتا يهدآن شيئاً فشيئاً ، ويظهر أنه قد أحس بوجود زائريه ذوى المكانة الرفيعة ، لأنه حاول — في دهش — أن ينزع الغطاء عن رأسه احتراماً لهما ، وسأل عن سيده بصوت فيه ذلة وخضوع ، فقال له لورد جلزلاند : « هل تعرفنا أيها التابع ؟ » .

فأجابه التابع بصوت خافت : « لا أعرفكم حق المعرفة ، إن سباتي كان طويلاً ومليئاً بالأحلام ، ولكنى أعرف أنك من كبار اللوردات الانجليز ، كما يدل على ذلك صليبك الأحمر ؛ وصاحبك أسقف مقدس يتوق إلى بركاته آثم مسكين مثلى » .

فقال الأسقف : « لك منى البركات ، وغفر الله لك » ثم رسم علامة الصليب ولكنه لم يدن من فراش المريض .

فقال العربي : « ها أنت ذا تشهد بعينيك أن الحمى قد غلبت على أمرها

وقهرت ، وما هو ذا الرجل يتكلم في طمأنينة وروية ، وخفقات قلبه هادئة
تحفقات قلبك ، وتستطيع أن تخبر نبضها بنفسك » .

فأبى الأسقف أن يقوم بهذه التجربة ، ولكن توماس الجزلاندى — وقد
كان أشد إصرارا على هذا الاختبار — جس نبض المريض ، واقتنع بأن الحمى قد
أدبرت وتولت .

ثم نظر الفارس إلى الأسقف وقال : « إن هذا لشيء عجاب ؛ لقد تم شفاء
الرجل ولا ريب في ذلك ؛ لا بد لى أن أصطحب هذا الطبيب توا إلى خيمة الملك
رتشارد — ماذا ترى يا نيافة الأسقف ؟ » .

فقال العربى : « البثا قليلا ودعانى أتم علاجا قبل أن أشرع فى الآخر ؛ سوف
أصبحكما بعد أن أناول مريضى الكأس الثانية من هذا الإكسير المبارك » .

وبعد أن فرغ من حديثه ، استخرج كأسا فضية وملاها بالماء من جرة كانت
إلى جانب السرير ، ثم أخرج كيسا صغيرا من الحرير المطرز مجدولا بالفضة ، ولم
يعلم الحاضرون ما بداخله ، ثم غمره فى الكأس ولبث يرقبه فى سكون مدة
خمس دقائق ، وخيل للنظارة أن الماء قد فار وجاش من هذا العمل ، ثم هدا
بعد لحظة .

وقال الطبيب للرجل المريض : « اشرب ونم ثم اصح بريئا من المرض » .
فقال أسقف صور : « أفبهذه الجرعة الهينة تأخذ على نفسك علاج الملك ؟ » .
فرد عليه الرجل الحكيم وقال : « لقد شهدت أنى عاجلت بها رجلا بائسا ،
فهل ملوك الفرنجة من طينة غير الطينة التى خلق منها أدنى رعاياهم ؟ » .

فقال بارون جزلاندى « لنسُقّه توا إلى الملك ؛ لقد دل على أنه يعرف سر
السبيل إلى استرداد صحته ، ولو أنه أبى مباشرة العلاج لأرديته حيث لا يجدى
فعل الدواء » .

وبينما هم يتأهبون لمغادرة الكوخ ، صاح الرجل المريض وقد رفع صوته بقدر
ما سمح له ضعفه وقال : « أبانا المقدس ، ويا أيها الفارس النبيل ، وأنت أيها الطبيب

الرؤوف ، إن أردتموني على أن أنام وأشفي فخبروني برا منكم وإحسانا ؛ ماذا دهي سيدي العزيز ؟ »

فأجاب القس : « لقد رحل يا صديقي إلى بلاد نائية يحمل رسالة نبيلة قد تستبقيه بضعة أيام » .

وقال بارون جزلاند : « كلا ، ولماذا تخدع هذا الرجل المسكين ؛ لقد عاد سيدك إلى المعسكر وعما قريب تراه » .

فرفع المريض إلى السماء يديه الهزيلتين حمدا لله ، ولم يعد يقدر على مقاومة فعل الإكسير المنوم ، واستولى عليه نعاس خفيف وديع » .

وقال الأسقف : « إنما أنت يا سر توماس طبيب خير مني ، وللباطل المرضى أليق بحجرة المريض من الحق الكريه » .

فأجاب دى ثو متعجلا : « ماذا تعني يا سيدي الموقر ، أفتظن أني أقول كذبا كي أنقذ عشرة من أمثال هذا الرجل ؟ » .

فقال الأسقف وإمارات الذعر بادية عليه : « إنك تقول إن سيد هذا التابع — أعني فارس النمر الرابض — قد عاد ، أليس كذلك ؟ » .

قال دى ثو : « وحقا لقد عاد ، وتحدثت إليه من منذ بضع ساعات مضت ، وقد عاد برفقة هذا الطبيب النطاسي » .

فقال الأسقف وهو بادى الاضطراب : « يا للعذراء البتول ! ولماذا لم تنبئني بإيابه ؟ » .

فأجاب دى ثو غير مبال وقال : « ألم أقل لك إن هذا الفارس ، فارس النمر ، قد عاد بصحبة الطبيب ؟ أعطني خبرتك بذلك ، ولكن ماشأنا إيابه وحذق الطبيب أو شفاء المليك ؟ » .

فرد عليه الأسقف وقد أمسك إحدى يديه بالأخرى ، وضرب بقدمه الأرض ، وبدت عليه دلائل الجزع ، وقال ، وكأنه مكره على ما يقول « شأن كبير يا سر

توماس ، ولكن هلا خبرتى أتنى ذهب هذا الفارس ؟ رحماك اللهم ! لقد نفع الآن
فى إثم ما بعده إثم ! » .

فأجاب دى فو وقد أدهشه انفعال الأسقف وقال : ربما خبرنا ذلك التابع
الواقف بعيدا فى الخلاء أتنى ذهب سيده .

ودعى الصبي للحضور ، وأخذ يحدثهم بلغة لا يكادون يفقهون لها معنى ،
واستطاع بعد لآى أن يفهمهم أن ضابطا جاء لسيده واستدعاه إلى السراىق الملكى
قبل قدومهما إلى خيمة مولاه بزمى وجيز ، وحينئذ ازداد بالأسقف القلق حتى بلغ
أقصاه ، واستطاع دى فو أن يتبينه ، رغم أنه لم يكن بالرجل الدقيق الملاحظة ،
ولا بالمرتاب الظنين ، وكلما ترايد قلق الأسقف اشتدت رغبته فى كبته وكماته
عن العيان ؛ ثم استأذن دى فو فى الانصراف على عجل ، فنظر إليه دى فو
حائرا مذهولا ، وهز كتفيه إلى أعلى فى صمت وعجب ، ثم شرع يرشد الطبيب
العربى إلى خيمة الملك رتشارد .

الفصل التاسع

هذا أمير الأطباء ،
إن شهادته حى أو طاعون ،
أو نقرس أو زكام ،
تولى الداء عن جسم العليل .
لكتاب غير معروف

سار البارون جزلاند بخطوات وئيدة نحو السرادق الملكي ، وعليه سيم القلق والجزع ، وكان البارون قليل الثقة بنفسه وبكفائاته إلا في ساحة القتال ، يحس من نفسه افتقار الذكاء المتوقع ، ويكفيه أن يقف من الظروف موقف التعجب والدهشة حيث يسمى غيره من الرجال من ذوى الخيال الحى إلى التفهم والتنقيب ، أو إلى التأمل والتفكير على الأقل ؛ ولكنه كان أمرا شاذا — حتى في نظره — أن يحول الأسقف انتباهه من التفكير في العلاج العجيب الذى شهداه وفي احتمال شفاء رتشارد واسترداده صحته بذلك الدواء ، إلى نبأ تافه عن توجه فارس اسكتلندى بائس من مكان إلى مكان ، فارس لم يعلم عنه توماس الجزلاندى أنه من دم كريم ، ولم يكن في نظره أكثر من رجل قليل الأهمية حقير ؛ ورغم أن البارون قد تعود أن ينظر إلى ما قد يمر به من أحداث نظرة سالبة ، إلا أنه أخذ الآن يكدح الذهن كدحا لم يألفه متخرصا بحقيقة الأمر .

وأخيرا عرض له بفتة أن الأمر ربما كان مؤامرة تدبر لرتشارد وتختبر في معسكر الحلفاء ، وليس من البعيد أن يكون الأسقف عضوا من أعضائها لما عرف عنه بعضهم من أنه رجل سياسى لا يتورع فيما يريد ، وكان يرى أن ليس بين الجميع رجل كامل الخلق كسيده ، فلقد كان رتشارد زهرة الفرسان طرا ، ورأس القواد المسيحيين جميعا ، مطيعا في كل أمر لأحكام الكنيسة المقدسة ، ولم ير « دى ثو » بعد هذا الكمال كمالا ؛ ومع ذلك فهو يعرف أن سيده كان دائما يجلب على نفسه

— بغير حق — لوما وكرها ، بقدر ما يجلب شرفا وحبا ، لما يبدى من جليل الصفات ؛ ويعلم أن في المعسكر ذاته ، وبين أولئك الأمراء الذين أقسموا بيمين الولاء للحرب الصليبية ، الكثير ممن يود لو يضحى بكل أمل في الظفر على العرب في سبيل إرضاء نفسه بالقضاء على رتشارد ملك إنجلترا ، أو بإذلاله على الأقل .

وقال البارون محدثا نفسه : « ليس من المحال أن يكون هذا الحكيم ، وهذا الشفاء — أو شبه الشفاء — الذى أدخله في جسم الخادم الاسكتلندى ، ماها إلا خدعة ، ينضم إليها فارس النمر ، ويساهم فيها أسقف صور ، رغم وظيفته الدينية » . ولكن لم يكن من اليسير حقا أن يوفق البارون بين هذا الظن وبين ما أبداه الأسقف من هلع وذعر حينما علم — على غير انتظار — أن الفارس الاسكتلندى قد عاد بقتة إلى معسكر الصليبيين ؛ ولكن دى فو لم يكن يتأثر بغير أهوائه عامة ، وكانت أهوائه توحى إليه يقينا لا يداخله الشك بأن قسا إيطاليا ما كرا محتالا ، ورجلا اسكتلنديا خبيث الطوية ، وطيبيا مسلما ، إنما يؤلفون مجموعة لا يصدر عن أفرادها غير الشر ، ولا يرجى أن ينبع منها الخير ، فاعتزم أن يصارح بشكوكه مليكه ، وكان يقدر إصابته في الحكم قدرا عاليا لا يقل عن عقيدته في شجاعته وإقدامه .

ولكن الأحداث التى وقعت إبان ذلك جرت مجرى يناقض الظنون التى لعبت برأس توماس دى فو ، فلم يكد يترك السراق الملقى حتى بدأ رتشارد — وهو بين جزع أنشبهته الحمى وجزع هو من طبيعة نفسه — يشكو غياب البارون ، ويث شديد رغبته فى عودته ؛ وقد عانى من قبل كثيرا ، فحاول الآن أن يخلص من هذا الهياج الذى زاد من علة جسمه زيادة كبيرة ، وأضنى أتباعه بكمثرة ما طلب إليهم من ألوان اللهو ، وعبثا ما استعان القس بدعواته ، والكاهن بقصص الخيال ، بل ومغنيه المحبوب بقتيلاته ؛ وأخيرا ، قبيل انحدار الشمس بنحو ساعتين — وكان ذلك قبل الوقت الذى كان يرتقب فيه نبأ يسره عن سير العلاج الذى يباشره المغربى (أو العربى) بزمن طويل — أرسل كما سمعنا رسولا يأمر فارس

النمر بالحضور ؛ واعتزم أن يهدى من جزعه بحصوله من السر كنه على بيان مفصل عن سبب تغييه عن المعسكر ، وعن ظروف التقائه بهذا الطبيب الذائع الصيت .

أُستدعى الفارس الاسكتلندى ومثل لدى حضرة المليك ، وكأنه ليس بالغريب على أشباه هذه المقابلات ؛ لكن ملك انجلترا لم يكده يعرف منه حتى مرآه ، وذلك رغم أنه (الفارس) كان شديد الاحتفاظ بمربته ، وكان متفانيا في إخلاصه للسيدة التى تملكته منه سويداء القلب ، فلم يغب في ظرف واحد من الظروف التى كانت أريحية انجلترا وسخاؤها تفتح فيها بلاط مليكها لكل من بلغ مرتبة خاصة في سلك الفروسية ؛ ونظر الملك وأمعن في النظر إلى السر كنه وهو يقترب من فراشه ، وقد ثنى الفارس ركبته لحظة من الزمن ، ثم نهض ووقف أمام الملك موقفاً يليق بضابط في حضرة مليكه ، موقف الإجلال ولكن بغير ذلة أو خنوع .

قال الملك : « اسمك كنه فارس النمر — أنى لك مرتبة الفروسية ؟ » .

فأجاب الاسكتلندى : « لقد نلتها من حسام وليم الأسد ملك اسكتلندا » .

فرد عليه الملك وقال : « والله إنه لسلاح ما أجدره بمنح الشرف ، والله إنه لم يوضع على كتف ليست له أهلاً ^(١) فلقد شهدناك وأنت في موقف الفروسية والشجاعة لما حى وطيس القتال واشتدت الحاجة ؛ ولكنك قبل أن تعرف أنا بكفاءة علماء ، بلغت بك القحجة في بعض الأمور حداً لا يخول لك أن تطلب لخدماتك جزاء خيراً من العفو عن عدوانك ، فإذا تقول في هذا ؟ » .

فحاول كنه أن يجيب عن ذلك ، ولكن عجز عن أن يفصح عن نفسه ، وقد تآصر على بلبته إحساسه بحب على المطامح ، ونظرة ثاقبة كنظرة البازي رmqه بها قلب الأسد ، وكأنه يريد أن ينفذ إلى دخيلة نفسه .

ثم قال الملك : « ومع ذلك ، ورغم أن الجند عليهم طاعة الأمر ، وعلى الأتباع

(١) كان الملك في العصور الوسطى يمس بسيفه كتف الرجل علامة على منحه

احترام أولى الأمر ، فإننا نستطيع أن نعفو عن فارس مقدام جرما أخطر من اقتنائه لكلب عز ، مع ما في ذلك من مخالفة لما فرضناه على الناس فرضا صريحا لا يحتمل التأويل .

وظل رتشارد يحدق في وجه الاسكتلندي ، ويبادلُه النظر ، وُسْرَ في دخيلة نفسه واطمأن للأسلوب الذي ساق فيه اتهامه .

فقال الاسكتلندي : « إن جلالتك يا مولاي ، إن شئت ، ينبغي أن تهاون معنا نحن فقراء اسكتلندا من النبلاء في هذا الشأن ، فنحن عن الوطن بعيدون ، مواردنا قليلة ، ولا نستطيع أن نقيم أودنا كما يستطيع أشرافكم الأغنياء الذين لهم ثروة اللمبارد ؛ وإن ضاربنا ليكون على الأعراب أشد وقعا لو أننا تناولنا من لحم الغزال المجفف الحين بعد الآخر مع ما نأكل من العشب ومن خبز الشعير . »

فقال رتشارد : « لست بحاجة إلى رضاي مادام توماس دى ثو — كغيره ممن يتحوظني من الرجال — يعمل ما يروق في عينيه ، وقد أذن لك بالصيد والقنص . »

فأجاب الاسكتلندي وقال : « إنما أذن لي بالصيد فقط يا مولاي ، ولكن إن أردت جلالتك أن تمن علي بمنة القنص ، وكذلك إن بدا لكم أن تأذنوا لي باستخدام البزاة ، فاني آخذ على نفسي أن أمد سرادقكم الملوكي بخير طيور الماء » فقال الملك : « لو كان لك باز ما كنت تنتظر منا الإذن ، وأنا أعرف جيدا أنه يقال عنا خارج بلادنا إننا أبناء أنجو نستنكر الاعتداء على ما شرعنا للغاب من سنن ، كما نستنكر الخيانة لتاج الملك ، ولكننا نعفو عن هذه الإساءة — كما نعفو عن تلك — للرجال الشجعان ذوى المكانة ؛ ولكن دعنا من هذا ، إنما أريد أن أعرف منك أيها الفارس لماذا ومن ذا الذي أذن لك أن تقوم برحلتك الحديثة العهد إلى قفار البحر الأحمر وإلى عين جدة ؟ » .

فقال الفارس : « بأمر من مجمع أمراء الحروب الصليبية المقدسة » .

« وكيف يجسر امرؤ على إصدار مثل هذا الأمر وأنا — ولست قطعاً بأقلهم شأنًا في هذا المجمع — غير عالم به ؟ » .

فقال الاسكتلندى : « لم يكن من شأنى يا جلالة الملك أن أسأل عن مثل هذه الدقائق ، إنما أنا جندى من جنود الصليب ، ولا ريب أنى أخدم الآن تحت لواء جلالتك ، وأنا فخور لأنكم قد أذنتم لى بذلك ، ولكنى لست مع ذلك إلا رجلا يحمل الرمز المقدس فى سبيل حقوق المسيحية واسترداد القبر المقدس ، وأنا لذلك مكره على أن أطيع طاعة عمياء أو امر الأمرء والزعماء الذين يدبرون هذا المشروع المبارك ، وإنى والعالم المسيحى بأجمعه نندب انحرافهم عن جلالتك ، وإبعادهم إياكم لفترة وجيزة — على ما أرى — عن مجامعهم التى لجلالتكم فيها صوت قوى مسموع ؛ ولكنى بكندى يجب أن أطيع أولئك الذين يؤول إليهم حق الحكم شرعا ، وإلا كنت مثالا سيئا فى معسكر المسيحيين » .

فقال الملك رتشارد : « حق ما تقول ، ولا لوم عليك فى ذلك ولا تتريب ، وإنما العتب على أولئك الذين أرجو أن أواجههم عينَ عينَ حينما يكتب لى الله أن أنهض من هذا الفراش اللعين ، فراش المرض والفتور ؛ ولكن هلا خبرتنى فحوى رسالتك ؟ » .

فأجاب السر كنث وقال : « أظن يا جلالة المليك أن هذا السؤال جدير به أولئك الذين أنا رسول منهم ، فهم أقدر على إبداء العلة فى رسالتى ، أما أنا فلا أستطيع إلا أن أتحدث عن ظاهر معناها ومغزاها وحسب » .

فقال الملك النزق : « لا تراوغنى أيها السيد الاسكتلندى ، إن فى هذا لخطرا على سلامتك » .

فأجاب الفارس رابط الجأش وقال : « سلامتى يا مولاي أنا لا أكرث لها ، فما هى إلا من توافه الأمور إزاء يمين أقسمتها لهذا المشروع ، وإنى لا أنظر إلا إلى نعيم الخلد فى الدار الباقية ، ولا تعيننى سعادة الجسد فى هذه الدنيا الفانية . »
فقال الملك رتشارد : « وحق القداس إنك لرجل شجاع ! استمع إلى ياسيدى الفارس ، إنى أحب أهل اسكتلندا ، فإنهم قوم أشداء ، إلا أنهم يتصفون بالعناد وصلابة الرأى ، وإنهم لقوم مخلصون فى قلوبهم ، إلا أن ظروف دولتهم تضطربهم

أحيانا إلى اصطناع الخداع والرياء ، وإني أستحق منهم المحبة والتقدير ، فلقد قمت لهم طوعا بما لم يكونوا يستطيعون ابتزازه كرها بحمد السيف منى أو من أسلافي ، فأعدت بناء قلعتي (ركبره) و(برك) اللتين تدينان لانجلترا بالولاء ، وأعدت لكم التخوم القديمة ، وخلصتكم أخيراً من واجب الولاء لتاج انجلترا ، وهو واجب رأيت أنه قد فرض عليكم ظلماً وجوراً ، وسعيت في أن أجعل منكم أصدقاء أشرافاً مستقلين ؛ ولم يرم ملوك انجلترا السابقون إلى أكثر من أن يرغموكم على الطاعة كارهين ، ويقوكم أتباعاً لهم ناقلين .

فقال السر كنث وقد أحنى رأسه إجلالاً : « أجل ، لقد فعلت هذا كله ياسيدى المليك ، ولقد فعلته وعقدت عليه معاهدة ملكية مع ملك بلادنا في (كنتربرى) ولذا فهأنذا طوع أمرى ، وهام من هم خير منى من الاسكتلنديين يأترون لك ، ويشنون الغارة على المسلمين تحت لوائك ، هانحن رهن إرادتك ، ولولا ما ذكرت لكنا الآن نعيث فساداً في حدود بلادك بانجلترا ، ولئن كنا الآن قليل عدينا فما ذلك إلا لأننا وهبنا في سبيلك حياتنا وأزهقناها راضين طائعين . » فقال الملك : « صدقت فيما تقول ، ولكن بحق ما أدت لبلادكم من جليل الخدمات ، أود أن أذكرك أن من حقى — كعضو رئيسى فى عصبة المسيحيين — أن أعرف ما يتفاوض فيه خلانى ، فهل لك بعد هذا أن تنصفنى وتخبرنى بما هو من حقى أن أعرفه ، وإنى لعلى ثقة من أنك سوف تصدقنى فى هذا أكثر من كل من عداك . »

فأجاب الاسكتلندى وقال : « مولاي ، أما وقد ناشدتنى هكذا ، فسأصدقك القول ، وإنى أعتقد أن مرايميك من حملتنا هذه نبيلة خالصة لوجه الله ، وإن هذا لأكثر مما أظن فى الآخرين من أعضاء العصبة المقدسة ؛ وإذن فليسرك يا مولاي أن تعرف أن مهمتى كانت أن أقترح بوساطة ناسك عين جدة — وهو رجل يحبه ويدود عنه صلاح الدين نفسه — .. » .

وهنا سارع رتشارد معترضاً وقال : « مدّ أجل الهدنة ولا ريب . »

فأجاب الفارس الاسكتلندي وقال : « كلا ياسيدى وحق القديس اندراوس ، بل عقد صلح دائم ، وسحب جيوشنا من فلسطين » .

فرد عليه رتشارد دهشاً وقال : « يا لله ! لقد ساء ظنى بهم حقاً ، ولكنى لم أكن لأحلم أنهم سيذلون أنفسهم إلى مثل هذا الخزى والهوان ، خبرنى يا سر كنت بأية طوية حملت هذه الرسالة ؟ » .

فقال كنت : « بطوية خالصة طيبة يامولاي ، لأننا بعد ما افتقدنا زعيمنا النبيل ، الذى كنت آمل فى الظفر تحت قيادته وحده ، لم أر أن أحداً يستطيع أن يخلفه ، أو أن نرجو منه أن يقودنا إلى النصر ، فرأيت أنه خير لنا فى مثل هذه الظروف أن نتجنب الهزيمة » .

فقال رتشارد وقد كتم غيظاً أليماً يكاد قلبه يتميز منه : « وما هى الشروط التى أردتم أن تعقدوا عليها هذا الصلح المرجو ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال : « هذه لم يعهد إلى بها يامولاي ، إنما سلمتها للناسك مختومة مغلقة » .

فقال رتشارد : « وماذا ترى فى هذا الناسك الوقور ، وهل هو غافل أو مجنون أو خائن أو قديس ؟ » .

فأجابه الرجل الاسكتلندي الماكر وقال : « يخيل لى أنه يدعى الغفلة ياسيدى كى يكتسب من المسلمين رضاهم واحترامهم ، وهم قوم ينظرون إلى الرجل المعتوه وكأنه يوحى إليه من السماء ، ولقد بدا لى على الأقل أن جنون هذا الراهب لا يظهر إلا لاسماً ، وهو ليس — كالجنون المألوف — جزءاً من طبيعة عقل صاحبه » .

فقال الملك وقد ارتقى إلى الورا على سريره ، وكان قد نهض منه إلى نصفه : « أمكر بك فى هذا الجواب ، والآن هلا حدثتني طرفاً عن توبته ؟ » .

فاستطرد كنت الحديث وقال : « أما توبته فقد بدا لى أنه مخلص فيها ، وهى ثمرة لندمه على ذنب مروع يحسب — فيما يرى — أنه يقضى عليه بأن ينتبذ من الناس مكاناً قصياً » .

فقال الملك رتشارد : « وما سياسته ؟ » .

فأجاب الفارس الاسكتلندى وقال : « أظن يا سيدى أنه قد يؤس من استخلاص فلسطين ، كما يؤس من خلاص نفسه ، اللهم إلا بمعجزة من السماء ، أو هو يرى ذلك على الأقل منذ انقطعت ذراع رتشارد ملك انجلترا عن أن يجاهد في سبيله » .

« وإذن فسياسة هذا الناسك هي سياسة الجبن والخور ، وهو كأولئك الأمراء الأشقياء الذين نسوا فروسياتهم ودينهم ولم تصح منهم العزيمة ، ولم يثبتوا إلا على أمر واحد ، وذلك أن يكروا راجعين ؛ أولئك خير لهم أن يتقهقروا على جثة حليف لهم ينازع الروح من أن يتقدموا ويلتحموا بالأعراب المسلحين ! » .
فقال الفارس الاسكتلندى : « هل لى يا سيدى المليك أن أذكرك أن هذا الحديث إنما يزيد من حرارة مرضك ، وما مرضك إلا عدو يخشى العالم المسيحى منه شراً أكثر مما يخشى من جيوش الكفار المجهزين بالسلاح » .

وحينئذ علا الدم في وجه الملك رتشارد ، واستشرى في حركاته ، وأمسك إحدى يديه بالأخرى ، ومد ذراعيه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وظهر عليه في الحين أنه يعانى ألماً جثامياً شديداً وثورة نفسية عنيفة فى آن واحد ، ولكن حماسه دفعته إلى أن يواصل حديثه كأنه لم يأبه لهذا أو لتلك .

وقال : « تستطيع يا سيدى الفارس أن تداهن ، ولكنك لن تفلت منى ، ولا بد لى أن أعرف منك أكثر مما ذكرت ، هل رأيت زوجى الملكة وأنت لدى عين جدة ؟ » .

فأجاب السر كنث ، وقد تملكه ارتباك شديد إذ تذكر الموكب الذى مرّ به فى منتصف الليل فى المعبد الصخرى وقال ، « لا أعلم أنى رأيته يا مولاي » .
فقال الملك بصوت حازم : « إني أسألك ألم تكن فى معبد راهبات « كرمل » لدى عين جدة ، وهل لم تر هناك « برنجاريا » ملكة انجلترا ووصيفات بلاطها اللأئى قصدن إلى هناك حاجات ؟ »

فرد عليه السر كنث وقال : « سيدى ، سأصدقك القول كأنى أعترف لك !
فى معبد تحت الأرض ، هدانى إليه الناسك ، شاهدت رتلا من النساء يغنين
ويظهرن ولاءهن لأثر مقدس كريم ، ولكنى لم أر وجوههن ، ولم أسمع أصواتهن ،
إلا وهن يرتلن الأناشيد ، ولذا فأنى لا أستطيع أن أقول هل كانت ملكة إنجلترا
فى هذا السرب أو لم تكن » .

« وهل لم تتعرف واحدة من هؤلاء السيدات ؟ » .
فسكت السر كنث ولم يحرجوا .

فقال رتشارد وقد نهض على مرققيه : « إنى أسألك كفارس وكرجل كريم
— وسوف أعرف من جوابك كيف تقدر هاتين الخلتين — هل عرفت أية سيدة
من بين هذه الزمرة من العابدات أو لم تعرف ؟ » .
فقال كنث وقد خالجه كثير من التردد : « مولاي ، إنى أستطيع أن أرى
بالظن » .

فرد عليه الملك وقد قطب جبينه وعبس وقال : « وأنا كذلك أستطيع أن
أرى بالظن ، ولكن كفاك هذا ، قد تكون نمرا يا سر كنث ، ولكن حذار
أن تتحرش بكف الأسد . استمع إلى ، إنك إن شُغفت بالقمر حبا فلقد أتيت
أمرا إداً ، وإنك إن قفرت من أسوار برج شاهق أملأ فى الدنو من هالته فلقد
هلكت رعوة ونزقا » .

وفى تلك الآونة علا فى الغرفة الخارجية بعض الضجيج ، فسارع الملك وارتد
إلى أسلوبه المهود وقال : « كفى ، كفى ، واعزب عنى ؛ سارع إلى دى ثو
وابعث به إلى مع الطبيب العربى . حياى لدين السلطان ! تالله لو أنكر السلطان
عقيدته لمدته بمهندى يطرد به هذا الزبد من الفرنسيين والنمساويين من مُلكه ،
وما أظن إلا أن فلسطين ستنعم تحت حكمه كما كانت تنعم حينما كان يتأمر عليها
ملوك مباركون بتفويض من الله » .

وحينئذ تراجع فارس النمر ، ولم تمض دقائق معدودات حتى أعلن الحاجب قدوم وفد من المجمع أتى ليمثل لدى جلالة ملك الانجليز .
فأجاب الملك قائلاً : « يسرنى أنهم يعترفون بأنى ما زلت على قيد الحياة ، ولكن من هم أولاء السفراء الموقرون ؟ » .

« هما الرئيس الأعلى لرجال المعبد ومركز منتسرا » .

فقال رتشارد : « إن أخانا ملك فرنسا لا يجب فراش المرضى ، ولو كان فيليب هو العليل لوقفت إلى جوار سريريه أمدًا طويلًا ، أى (جوسلين) مهد سريرى خيرا من هذا ، فلقد انقلب كبحر عاصف ، وهات لى تلك المرأة الصلبة ، ومشط شعر رأسى ولحيتى فأنهما حقا ليبدوان كعرفة الأسد ، لا كغداثر الرجل المسيحى ، ناولنى ماء » .

فقال الحاجب وهو يرتعد : « إن الأطباء يقولون يا مولاي إن الماء البارد قد يكون فيه الهلاك » .

فأجاب الملك : « إذهب بالأطباء إلى الشيطان الرجيم ! إذا كانوا لا يعرفون لى شفاء ، أفنظن أنى أسمح لهم بإيلاى وتعذيبى ؟ هات الماء وحسبك هذا ! » وبعد ما اغتسل بالماء قال : « أدخل على الرسولين الكريمين ، وما أخال إلا أنهما سوف يريان الآن أن المرض لم يحدُ برتشارد إلى أن يتهاون فى مظهره » .

وكان رئيس رجال المعبد الشهير رجلا طويلا نحىلا ، برته الحروب ، نظراته وئيدة إلا أنها نافذة ، وله حاجبان طبعت عليهما ألوف الدسائس المظلمة لمحة من خفائها ودجنتها ، وهو على رأس تلك الجماعة الفريدة التى ترى فى نفسها متكاتفه كل شىء ، ولا ترى فى نفسها أفرادا شيئا ، تلك الجماعة التى تسمى لإعلاء كلمتها حتى وإن استهدف للخطر فى سبيل ذلك الدين ذاته ، وقد تألفوا متأخين من أول الأمر للذود عنه ، وهم قوم يتهمون بالزندقة والسحر رغم ما لهم من صفة القساوسة المسيحيين ، ويظن بعض الناس أنهم متآمرون مع السلطان سرا رغم اليمين التى أقسموها للإخلاص فى الدفاع عن المعبد المقدس أو استرداده ؛ هذه

الجماعة كلها ، وشخص زعيمها — أو قل سيدها الأعلى — كانت لغزا ، إذا ذكر ارتعدت منه الفرائص ؛ وكان الرئيس مرتديا ثيابا بيضاء تكسبه وقارا ، ويحمل في يده عصا الحكم السحرية ، التي كثيرا ما أثارت بشكلها العجيب التأويلات والظنون ، مما كان يؤدي إلى الشك بأن هؤلاء الإخوة من الفرسان المسيحيين المعروفين ، إنما يأتلون تحت أحط رموز الوثنية . ٨

أما كتراد منتسرا فكان ظاهره أسر للنفس من صاحبه الجندى القس ذى اللون القاتم الذى يحوطه الإبهام والغموض ؛ كان منتسرا رجلا مليح الوجه ، فى شرخ الشباب أو جاوزه قليلا إلى الكهولة ، جريئا فى القتال ، حكيما فى المشورة ، مرحا جذلا فى أوقات اللهو والسرور ؛ إلا أنه كثيرا ما كان يتهم بالتلون وبالأطاع الذاتية الضيقة ، وبرغبته فى مد إمارته دون اعتبار لخير المملكة اللاتينية فى فلسطين ، وبسعيه وراء صالحه الذاتى بأجراء المفاوضات الخاصة مع صلاح الدين معتديا بذلك على حقوق الحلفاء المسيحيين .

تقدم هذان الرجلان ذوا المقام الرفيع إلى رتشارد بالتحية المألوفة ، فردها الملك بلطف وبشاشة ، ثم شرع مركز منتسرا يشرح ما حدا بهما إلى تلك الزيارة ، وقال إنهما مرسلان من قبل الملوك والأمراء الذين يتألف منهم مجمع الصليبيين ، وقد ازداد قلقهم ، « كي يستفسروا عن صحة حليفهم الكريم ملك إنجلترا الجسور » .

فأجاب الملك الإنجليزي قائلا : « إنا نعرف ما لصحتنا من أهمية لدى أمراء المجمع ، وإنا نعلم حق العلم كم ذا يكابدون من كتمان كل ما بهم من طُلعة بشأنها مدة أربعة عشر يوما ، خشية منهم — دون ريب — أن تشتد بنا العلة لإظهارهم الجزع لما أصابنا » .

وهكذا أوقف الملك تيار البيان الذى كان يتدفق على لسان المركز ، وتحير المركز نفسه واضطرب لهذا الجواب ، فوصل صاحبه — وهو أشد منه صراحة — ما انقطع من جبل الحديث ، وفى هيئة جافة ، وصيغة موجزة توأمت الحضرة التى يوجه

إليها الخطاب ، قال للملك إنهما جاءا من قبل المجمع يتوسلان إليه باسم العالم المسيحي : « أن لا يعرض صحتي لطبيب مسلم يعث بها ، طبيب قيل إن السلطان قد بعث به إليه ، وأن يترث حتى يتدبر المجلس الريب التي يرون الآن أنها تلبس بعثة مثل هذا الرجل ، فإما أزلوها أو أيدوها » .

فأجاب رتشارد : « أي رئيس فرسان المعبد الشجعان المقدسين ، وأنت يا مركيز منتهرا إذا النبل الرفيع ، لو تفضلتما وعرجتما على السراشق المجاور ، لرأيتما أي وزن تقيم لهذا العتب الرقيق من زملائنا في هذه الحرب الدينية من ملوك وأمرأء » .

فانسحب على أثر ذلك المركيز ورئيس الفرسان ، ولم يتغيا طويلا في السراشق الخارجى حتى وصل الطبيب الشرقى يصحبه بارون جلزلاند وكنت الاسكتلندى ، وقد تأخر البارون فى مقدمه إلى الخيمة قليلا عن الرجلين الآخرين ، وربما تريت كى يصدر إلى الحراس خارج السراشق أمراً ما .

ولما دخل الطبيب العربى ، انحنى على الطريقة الشرقية امتثالاً وإجلالاً للمركيز ورئيس الفرسان ، وكانا باذى الوقار مظهرأ ومخبرأ ، فرد رئيس الفرسان التحية بصيغة فيها برودة الأنفة والازدراء ، أما المركيز فقد ردها بلطفه المعهود الذى ألف التقدم به إلى الرجال على اختلاف مراتبهم وأوطانهم ، ثم كان سكون ، لأن الفارس الاسكتلندى كان يرتقب دى قو ، ولم يجرؤ على أن يدخل من تلقاء نفسه خيمة ملك انجلترا ؛ وفى غضون تلك الفترة ، سأل رئيس الفرسان الرجل المسلم مقطبا عابسا وقال له : « أيها الرجل ، هل لديك من الشجاعة ما يمكنك من ممارسة فنك فى شخص ملك مبارك من جيوش المسيحيين ؟ » .

فأجابه الحكيم وقال : « إن شمس الله تضىء على النصرانى كما تضىء على المسلم المؤمن ، وليس لعبد الله أن يفرق بين هذا وذاك إذا دعى الداعى لأن يمارس فن الشفاء » .

فقال رئيس الفرسان : « يأيها الحكيم المنافق — وسواء كان هذا اسمك

أو أى غيره مما يدعونك به ، فأنت عبد من عبيد الظلام لم تعتق دين المسيح — هلا عرفت أن الخيول الوحشية سوف تمزقك إربا إربا لو مات الملك رتشارد بين يديك ؟ » .

فرد عليه الحكيم وقال : « ما أقسى هذا من حكم ، إني لا يسعنى إلا أن أستخدم وسائل البشر ، أما العاقبة فسطورة فى كتاب النور » .

فقال مركز منتسرا : « كلا يارئس الفرسان الوقور المقدام . إعلم أن هذا الرجل العالم لا يعرف شيئا عن نظامنا المسيحى الذى يقوم على خشية الله ومن أجل سلامة من حلت فيهم بركته — ولتعرف إذن أيها الطبيب الخطير ، يامن لا نشك فى حذقه ومهارته ، أن خير سبيل تسلك هى أن تقصد إلى مجمع حلفنا المقدس المجيد ، وتمثل لديه ، وهناك تدلى بكل ما يتعلق بالوسائل التى سوف تتخذها فى علاج هذا العليل صاحب المقام الرفيع ، وتشرح رأيك لمن ينتقون لك من أطباء وحكماء عالمين ، وبذا تفلت من كل خطر قد تشيره على نفسك بنفسك لو أنك اندفعت وأخذت على نفسك وحدها تبعة مثل هذا الأمر الخطير » .

فأجاب الحكيم قائلا : « سيدى ، إنى أفهم ما ترميان إليه حق الفهم ، ولكن للعلم أساطينه كما أن لفنونكم الحرية أبطالها — بل لقد كان له — كما كان للدين — شهداؤه . إنى أثمر بأمر ملكي السلطان صلاح الدين ، وقد أمرنى بشفاء هذا الملك النصرانى ، وسوف أصدع بأمره ، بارك الله فيه ، ولئن فشلت فيما أردت فيها هو جسمى أقدمه لسلاحكم ، وإنكم لتمتشقون سيوفا عطشى لدماء المؤمنين ؛ ولكنى لن أجادل رجلا لم تطهره فضائل الأدوية التى جمعت شيئا من علمها بفضل الله ، وأتوسل إليكم أن لا تضعوا التوانى حائلا بينى وبين أداء واجبي » .

فقال البارون دى فو ، وقد سارع ودخل الفسطاط : « من ذا الذى يذكر التوانى ، كفانا ما نلنا منه . إليكما تحيتي يا لورد منتسرا ويا رئيس فرسان المعبد الجسور ، لا بد لي أن أدخل توا مع هذا الطبيب العالم إلى فراش مولاي » .

فقال المركز بالفرنسية النورماندية أو لغة : « وى Ouie » كما كانت تسمى

إذ ذاك : « سيدى ، هلا عرفت أنا إنما أتينا كي نذكر — نيابة عن الملوك والأمراء الصليبيين — بالخطر الذى ينجم عن السماح لطبيب شرقى مسلم بأن يعبث بصحة عزيزة كصحة مولاي الملك رتشارد ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى بفظاظة وغلظة وقال : « ليس فى وسعى أن أستخدم ألفاظا كثيرة ، ولا يسرنى أن أستمع إليها ، وفضلا عن ذلك فإننى إلى تصديق ما رأيت عيناي أقرب منى إلى ما سمعت بأذنى ، وإنى لعلى ثقة من أن هذا الرجل قدير على شفاء الملك رتشارد من علته ، وإنى أومن وأوقن أنه سوف يسمي جهده فى هذه السبيل . الوقت ثمين ، ولو أن محمداً ذاته وقف يباب الفسباط وفى نفسه مثل هذا الغرض السامى الذى بنفس (أدنيك) الحكيم لرأيت من الجرم أن نمهله دقيقة واحدة — وإذن فلتتوكلا على الله ياسيدى » .

فأجاب كثراد منتسرا وقال : « ولكن الملك نفسه قد قال إنه ينبغي لنا أن نمثل وقما يعالجه هذا الطبيب » .

وحينئذ أسرّ البارون إلى الحاجب بشيء ما ، ولربما كان يريد أن يعرف إن كان المركيز صادقا فيما يقول ، ثم أجاب : « سيدى ، لو صبرتما رحبنا بمثولكما معنا ؛ ولكنكما إن عارضتما بالفعل أو بالتهديد هذا الطبيب فى أداء واجبه فلتعلما أنى لن أرمي لعلو مكاتكما حرمة ، وسوف أفرض عليكما الابتعاد عن فسباط رتشارد ، ولتعلما كذلك أنى قوى الإيمان بما لدواء هذا الرجل من فضائل ، حتى لو أن رتشارد ذاته أعرض عن تناوله ، فيحق سيدة (لاركست) ما أظن إلا أنى سوف أجد فى قلبى ما يدفعنى إلى أن أكرهه على أن يتعاطى أسباب شفاؤه ، أراد أو لم يرد — هيا بنا يا حكيم » .

ولفظ كلمته الأخيرة باللغة الفرنجية ، وصدع الطبيب بما أمر فى الحين ، وحينئذ نظر رئيس فرسان المعبد متجهما عابسا ، إلى هذا الجندى المسن ، الذى لا يعرف من آداب اللياقة شيئا ، ولكنه ما إن تبادل النظر مع المركيز حتى انفرج جبينه المقطب على قدر ما وسع ، وتبع كلاهما دي فو والعربى إلى الفسباط الداخلى

حيث كان رتشارد مستلقياً على سرير يترقبهم ، وقد ارتسم عليه ذلك الجزع الذى يرقب به المريض خطوات الطبيب ؛ أما السر كنت الذى لم يكن مثوله مراداً أو ممنوعاً ، فقد شعر بأن من حقه فى تلك الظروف التى وقف فيها أن يتبع هؤلاء الرجال ذوى المسكنة الرفيعة ، ولكنه أحس بحطته نفوذا ومرتبته فانتأى بعيداً إبان ما جرى إذ ذاك .

وما إن دخلوا غرفة رتشارد حتى صاح الملك متعجباً : « هيا ، هيا ، أكرم بهؤلاء الزملاء الذين أتوا كي يشهدوا رتشارد وهو يقفز فى الظلام — أى حلفائى النبلاء ، إني أحبيكم كممثلين لمجمعنا المنعقد ، وعما قريب إما ترون رتشارد بينكم بسالف هيئته ، أو تحملون إلى القبر جثمانه ورفاته — أى دى ثو ، لك من أميرك الشكر حياً أو ميتاً — ولكن هناك شخصاً آخر — لقد أضاعت هذه الحمى منى البصر — ماذا ؟ يا أيها الاسكتلندى الجسور : من ذا الذى يرقى إلى السماء بغير درج ؟ مرحباً بك ؛ هيا يا سيدى الحكيم ، إلى العمل ، إلى العمل » .

وكان الطبيب قد استعلم من قبل عن مختلف الأعراض التى تبدو على الملك فى مرضه ، فشرع الآن يحس نبضه ، ولبت كذلك طويلاً ، شديد التنبه والتمعن ، بينما وقف الجميع حواله صامتين يترقبون بأنفاس مقطوعة ، وبعد ذلك ملأ الحكيم كأساً بماء معدنى ، وغمس فيه الكيس الأحمر الصغير الذى أخرجه من صدره كما فعل من قبل ، ولما بدا له أنه تشبع بالدواء تشبعاً كافياً هم أن يناوله الملك ، لولا أن اعترضه هذا وقال : « البث قليلاً — لقد جسست نبضى ، فدعنى أضع إصبعى فوق إصبعك ، فإني كذلك — كما يليق بالفارس النبيل — أعرف شيئاً عن فنك » .

فأسلم العربى يده بغير تردد ، واختفت — بل وانطمرت — أصابعه الطويلة الرقيقة السوداء برهة من الزمن فى قبضة يد الملك رتشارد الكبيرة .

ثم قال الملك : « إن دمه ينبض فى هدوء كدم الطفل ، أما أولئك الذين يُسمّون الأمراء فلا تتدفق دماؤهم هكذا ؛ أى دى ثو ! لتصرف هذا الحكيم مكرماً

آمناء سواء مت أم حيت — واذكرنا بالخير يا صديق عند صلاح الدين النبيل ؛
لومت فساموت ولا يخامرني شك في نيته ، ولو حيت فلاشكرنه كما يحب
المقاتل أن يشكر .

ثم نهض من فراشه وتناول الكأس في يده ، والتفت إلى المركيز وإلى رئيس
فرسان المعبد وقال : « أصغيا إلى ما أقول ، ولتدع إخواني الملوك يذكرونني وهم
يحتسون نبيذ قبرص ويقولون : ” هذا من أجل الشرف الخالد ، الذي سوف يناله
أول صليبي يضرب برمح أو بسيفه أبواب بيت المقدس ، ومن أجل العار والشنار
الأبدى الذي سوف يلحق بكل من ولّى ظهره السلاح بعد أن امتدت إليه يده ! “ .
ثم احتسى الكأس حتى ثملتها وردها إلى العربي وغاص ثانية — كأنه مجهد
منهوك — فوق الحشايا التي أعدت لراحته ؛ ثم ألمع الطبيب بعد ذلك بإشارات
صامتة ، إلا أنها قوية التعبير ، بأن يغادروا الفسطاط جميعا ، ما خلاه هو ودى فو ،
الذي لن ينسحب لإشارة أو أمر ، نخلت الغرفة بعد ذلك كما أشار الطبيب .

الفصل العاشر

والآن سوف أفتح كتابا خفيا ،
وأقرأ لكم فصلا عميقا خطيرا ،
تدركونه بنافذ البصيرة فتبرمون منه ولا ترضون .
هنرى الرابع — الجزء الأول

وقف مر كيز منتسرا ورئيس فرسان المعبد معا أمام السراق الملكى الذى وقع فيه هذا الحادث الفريد ، ورأيا حراسا أشداء بنشأهم وقسيهم مشهورة ، وهم على هيئة دائرة حول السراق ، يُبعدون كل ما قد يزعج الملك النائم ؛ وكان هؤلاء الجنود يتطلعون بنظرات خافضة صامتة كثيفة كأنهم يجرون سلاحهم فى جنازة ، وكانوا إذا خطوا خطوا فى حرص شديد ، حتى لا تكاد تسمع رنين الدرق أو صليل السيوف ، رغم العدد العديد من الرجال المسلحين الذين كانوا يسيرون حول الفسقاط ولما مر الرجلان ذوا المكانة الرفيعة بصفوفهم نكسوا السلاح إكبارا وإجلالا ، ولكنهم لزموا الصمت العميق .

وقال رئيس فرسان المعبد لكتراد بعد ما مرا بحرس رتشارد : « لقد غيّر كلاب الجزيرة ^(١) هؤلاء من روحهم الطروب . أى ضجيج أجش وأى قصف كان من قبل أمام هذا السراق ! كنت لا ترى إلا المتاريس تدق ، والكور تقذف ، والمصارعة وزئير الأغاني وطقطقة كؤوس النبيذ ، واجتراع الأباريق ، بين هؤلاء الرعاع الضخام الجسوم ، كأنهم على سهر فى الريف تتوسطهم السارية بدلا من العلم الملكى » .

فأجاب كتراد وقال : « هذه الكلاب الجسيمة من أمة مخلصنة أمينة ، وقد أحرز الملك سيدهم محبتهم باستعداده للمصارعة والنزال والمجون بين المتقدمين منهم كلما تملكه الهوى » .

(١) يشير بذلك إلى الإنجليز .

فقال رئيس الفرسان : « ما هذا الملك إلا مجموعة من الأهواء ، ألم تلحظ العهد الذى حملنا إياه عوضاً عن الصلاة والدعاء وهو يتناول الكأس المباركة هناك ؟ » .
فقال المركيز : « والله لو كان صلاح الدين كأى تركى آخر ممن يلبسون العمام ويولون وجوههم شطر مكة إذا ما نادى المؤذن بالصلاة ، لأحس رتشارد ببركة الكأس ، بل ولا ستساغ مذاقها كذلك ، ولكن صلاح الدين يتظاهر بالإيمان والشرف والكرم — كأنه يجوز لو غد مثله لم يعتنق دين المسيح أن يتحلى بأخلاق الفارس المسيحى الفاضلة ! هل نأى إليك ما يقال من أنه تقدم إلى رتشارد يطلب الانخراط فى سلك الفروسية ؟ » .

فأجاب كبير الفرسان متعجباً وقال : « وحق القديس « برنارد » لقد آن لنا إذن أن نخلع التُّطق والمهاميزيا كنزاد ونمحو شعار الدروع ونبذ الخوذات ، لو كان أرفع الشرف المسيحى يُمنح تركياً لم يعتنق دين المسيح ولا يساوى عشرة دراهم » .

فرد عليه المركيز وقال : « إنما أنت تحط من شأن السلطان ، ومع ذلك ، ورغم أنه رجل له قيمة ، فلقد رأيت خيراً منه من المشركين يباع بأربعين درهما فى المواخير » .

وكان الرجلان إذ ذاك قد دنوا من جواديهما — وكانا واقفين بعيداً عن السراقق الملوكى يمرحان بين جماعة الخدام والحجاب الشجعان الذين كانوا يباشرونهما — وحينئذ عرض كنزاد على صاحبه ، بعد برهة ساد فيها السكون ، أن يستمتعا بنسيم المساء البارد الذى بدأ فى الهبوب ، وأن يصرفا جواديهما وخدامهما ويسيرا راجلين إلى بيتيهما فى الحى الذى يسكنانه ، متخللين صفوفاً ممتدة من خيام المسيحيين ، فقبل رئيس الفرسان ، ثم طفقا يسيران معاً وكأنهما تراضيا على أن يتجنبنا الأماكن المأهولة فى هذه المدينة من الخيام ، ويتابعا الرحبة الفسيحة التى كانت تقع بين الخيام وقوى الدفاع الخارجية ، حيث يستطيعان أن يتحدثا مختلين ، لا ترعاهما عيون غير عيون الحراس وهما يمران بهم .

وتبادلا الحديث برهة من الزمن على النقط الحربية والاستعداد للدفاع ، ولكن هذا اللون من الحديث ، الذى لم يرق لهما كليهما ، سرعان ما خمد وأعقبته فترة طويلة ساد فيها السكون ، ثم انتهى الأمر بأن وقف مركز منتسرا بغتة وكأنه انتهى إلى رأى طارئ ، ثم حلق يبصره بضلع لحظات فى عيني رئيس الفرسان السوداوين النافذتين ، ووجه إليه الخطاب أخيراً وقال : « هل لى أن أطلب إليك يا سر » جاز امورى « ، يأيها الرجل البجل ، طلبة عساها تتفق وكرامتك ، وتفوز منك بالرضا والقبول ؟ وذلك أن تخلع عنك هذا القناع الأسود الذى تتقنع به وأن تتحدث إلى صديق لك بوجه عار . »
فابتسم رئيس فرسان المعبد نصف ابتسامة .

ثم قال : « من الحجب ما خف لونه ، ومن الستر ما اسودت صفحته ، وأولهما — كثانيهما — يخفى الملامح الطبيعية كل الخفاء . »
فقال المركز ، وقد مديده إلى لحيته ، ثم رفعها وكأنه يضم قناعاً : « ليكن ذلك ، هذا حجابى أرفعه ، والآن ماذا ترى فى أمر هذه الحرب الصليبية فيما يمس صالح رجال معبدك ؟ » .

فأجابه رئيس الفرسان قائلاً : « إنما أنت بسؤالك هذا تمزق الحجاب الذى يستر فكرى ، ولا ترفعه عما بنفسك ، ومع ذلك ، فإنى أجيبك بقصة مجازية حدثنى بها شيخ من شيوخ الصحراء ؛ قال الشيخ : دعا مرة رجل فلاح ربه أن ينزل له من السماء ماء ، ولما نزل الماء فى غير وقت حاجته شك الفلاح وتململ ، فأراد الله أن يجزيه جزعه ، فأرسل على حقله الفرات ، فهلك الرجل وما يملك ، ومع ذلك فقد استجاب الله له الدعاء . »

فقال المركز كئداً : « ما أصدق ما تقول ، وددت لو ابتلع المحيط تسعة عشر جزءاً من سلاح أمراء الغرب هؤلاء ! فإن مايقى بعد ذلك يؤدى لنبلأ فلسطين المسيحيين ، وللبقية التعسة من مملكة بيت المقدس اللاتينية ، أغراضهم خيراً من ذى قبل ؛ لو أنا ثر كننا لأنفسنا لصمدنا للعواصف ، ولو أن مددا معتدلاً جاءنا من

المال والرجال لأكرهنا صلاح الدين على أن يحترم فروسيتهنا ، ويقدم لنا صلحاً وحماية بشروط هينة ، ولكننا من الخطر الداهم الذى يكتنف هذه الحرب الصليبية القوية التى تهدد صلاح الدين — لو أنها وقعت — لا ننتظر من العرب أن يرضوا لأى منا أن يستولى على مُلك أو إمارة فى سوريا ، بله أن يسمحوا ببقاء جماعات الإخوان المسيحيين الحربيين الذين نالوا على أيديهم شراً كثيراً .

فقال رئيس الفرسان : « أى نعم ، ولكن هؤلاء الصليبيين المغامرين قد ينجحون ويرفعون الصليب ثانية على حصون صهيون » .

فأجاب المريكز وقال : « وماذا يجدى هذا على رجال المعبد أو على كنزاد منتسرا ؟ »

فأجاب رئيس الفرسان قائلاً : « قد يجدى عليك ، وقد يصبح كنزاد منتسرا كنزاد ملك بيت المقدس » .

فرد عليه المريكز وقال : « هذا كلام فيه شيء من الرنين ، ولكنه رنين أجوف ، فإن « جودفرى أمير بويين » قد يختار التاج الشائك رمزاً له . أى رئيس الفرسان ، إنى أعترف لك أنى الآن أميل بعض الميل إلى هيئة الحكومة الشرقية : الدولة ما هى إلا ملك ورعية ؛ هذا هو البناء الفطرى الساذج — الراعى والقطيع ، وما هذه السلسلة من الإقطاعيات المستقلة بين الطرفين إلا نظام مصطنع غير طبيعى ، وإنه خير لى أن أمسك بعصا المريكزية بقبضة ثابتة وأهزها كما أهوى من أن أستولى على صولجان الملك ، ولا أكون فى حقيقة الأمر إلا مقيداً وخاضعاً لإرادة كل أمير من أمراء الإقطاع المحتالين الذين يمتلكون أرضاً تحت قانون بيت المقدس ^(١) ؛ ينبغى يا كبير الفرسان أن يطاء الملك الأرض حراً لا تعوقه حفرة هنا وسياج هناك — هذا امتياز اقطاعى وذاك بارون يتدرع بالزرد وقد استل سيفه

(١) قانون بيت المقدس هو خلاصة قانون الأقطاع ، وضعه « جودفرى البيولونى » لحكومة مملكة فلسطين اللاتينية حينما تم استخلاصها ثانية من أيدي العرب ، ويقول المؤرخ « جبن » إنه « وضع بمشورة البطريق والأمراء ورجال الدين والعلمانيين وهو أثر قيم من آثار التشريع الإقطاعى يقوم على أسس الحرية التى كانت من ضروريات هذا النظام » .

في يمينه يتق به ، وموجز القول أنى أعلم أن مطالب « جاى دى لرجنان » في العرش سوف توضع فوق مطلبى له ، لو أن رتشارد عوفى وكان له أن يقول كلمته في الانتخاب .

فقال كبير الفرسان : « كفى ، كفى . حقا لقد أقنعتنى بإخلاصك ، وقد يرى غيرك ما ترى ، ولكن قليلاً سوى كثراد منتسرا من يجرؤ على أن يجهر صراحة بأنه لا يرغب في إعادة مملكة بيت المقدس ، وإنما هو يؤثر أن يبقى سيداً على جزء من أجزائها ، مثله في ذلك مثل سكان الجزر البرابرة الذين لا يعملون على خلاص سفين كريم من لجج الأمواج إلا إن كان لهم في حطام السفين مغم » .

فقال كثراد وقد نظر نظرة حادة فيها شك وريبة : « ينبى أن لا تبوح بهذا السر ، واعلم وكن على ثقة أن لسانى لن يسىء إلى ضميرى ، ولن تمتنع يدى عن الدفاع عنهما معاً . اتهمنى بالخيانة إن شئت ، فإنى مستعد لأن أدفع عن نفسى ، وأن أقف في رحبة النزال في وجه خير رجل من رجال المعبد ممن يحملون الرماح » .

فقال رئيس الفرسان : « هذه نهضة مباغته منك أيها الرجل الجسور ، وإنى لأقسم لك بالمعبد المقدس — الذى أخذت وزملائى على أنفسنا أن ندفع عنه — أنى سوف أحفظ شرك كزميل صادق » .

فقال مركز منتسرا — وهو رجل كثيراً ما غلب حبه للسخرية سياسته وحكمته — « بأى معبد تقسم لى ؟ أفبذاك القائم على تل صهيون الذى ابتناه الملك سليمان ، أم بذلك البناء المجازى الذى يقال إن المجامع التى تعقد في قاعات دروسكم ترمز به إلى توسيع نطاق جماعتكم ؟ » .

فتجهم له رئيس رجال المعبد ، ونظر إليه بعين قاتلة ، ولكنه أجاب في هدوء وقال : « أيا كان المعبد الذى أقسم لك به ، فكن على يقين يا لورد مركز أن يمينى مقدسة ، ولكن أنى لى أن أعرف كيف أربطك يمينين تعادل يمينى إلزاماً وثقة ؟ » .

فأجاب المركز ضاحكاً وقال : « أقسم لك حقاً بتاج (الايـرل) ، الذى أرجو أن أحيله قبل انتهاء هذه الحروب إلى شىء خير منه ؛ وإنى لأحس على جبينى

بالبرودة من هذا التاج الخفيف ، وتالله إن خوذته (الدوق) التي يتقى بها خير من التاج وقاية من نسيم الليل البارد الذي يهب علينا الآن ، وخير من هذا وذاك تاج الملك فهو مبطن بالخمél والفراء الثمين الوثير ، وموجز القول أنا ترتبط معا بصالح مشترك ولا تظن يا سيدى الرئيس أن هؤلاء الأمراء المتحالفين — لو أنهم استردوا بيت المقدس ونصبوا عليهم هناك ملكا باختيارهم — سوف يرضون ببقاء جماعتك أكثر مما يرضون ببقاء إمارتى الفقيرة ، أو يرضون بأن تحتفظ بالاستقلال الذى تتمتع به الآن ، كلا ، وحق العذراء ، إن فرسان القديس يوحنا المحتالين فى مثل هذه الحال سوف ينشرون الدواء ويضمدون بالغ الكلوم فى المستشفيات ، وأنت يا أشد فرسان المعبد مقدرة ، وأكثرهم جلالة ، سوف تعود إلى حالك ، ولا تبيت أكثر من جندى ساذج ، تمامون ثلاثة فوق حصير واحد ، ويمتطى كل اثنين منكم جوادا واحدا ، كما لا يزال طابعكم الحالى يدل على أن هذه العادات الساذجة كانت دأبكم الزمان الحالى » .

فقال رئيس رجال المعبد بأنفة وكبرياء : « إن جماعتنا لها من المكانة والفضل والرخاء ما يمنع مثل هذا الانحطاط الذى تهدد به » .
فرد عليه كتراد منتسرا وقال : « وإن فى ما ذكرت لأسباب شقائقكم ، وأنت كمثلى يا رئيس رجال المعبد ، يا أيها الرجل الموقر ، تعرف أن لو نجح الأمراء المتحالفين فى فلسطين ، فإن ذلك سوف يكون مبدأ لسياسة ترمى إلى الحد من استقلال جماعتك ، هذا الاستقلال الذى لولا حماية أئينا البابا المقدس له ، وضرورة استخدام شجاعتك فى فتح فلسطين ، لافتقده منذ زمن طويل ؛ أعطهم نجاحا تاما يبنذك كما تُنبذ شظايا الرمح المحطم بعيدا عن رجة الزلزال » .

فقال رئيس رجال المعبد وقد ابتسم ابتسامة كثية : « قد يكون صدقا ماتقول ، واسكن أى أمل لنا لو أن الحلفاء سحبوا قواهم ، وخلفوا فلسطين فى قبضة صلاح الدين ؟ » .

فأجاب كتراد : « أملنا عظيم ومؤكد ، سوف يسمح السلطان للأقاليم

الكبيرة بأن تُبقى على فرقة من خيار الرماحين الفرنجة تكون رهن مشيئته ، وإن مائة من أمثال هؤلاء الأعوان تلتحق بخيالاته الخفيفة في مصر وسوريا لتظفرن في القتال على أشد الأعداء فزعا ورعبا ؛ وهذا الاعتماد على جيوش السلطان سوف لا يدوم إلا فترة وجيزة — ربما كانت طيلة حياة هذا السلطان الطموح — وذلك لأن الدول في الشرق تهب كما يهب الفطر^(١) ، وهب أنه قد مات ، وهبنا تعضدنا من أوروبا نفوس مقحامة متقدة تأتينا دأبة متتابعة ، فأى شيء لا نطمح في الظفر به دون أن يسيطر علينا هؤلاء الملوك الذين لهم من الرفعة اليوم ما يرى بنا في الظلام ؟ — أما إن لبثوا هنا ونجحوا في هذه الحملة ، فإنهم سوف يودعوننا أبدا ، عن رغبة منهم ، إلى الذلة والتواكل .

فقال رئيس الفرسان : « هذا كلام طيب يا سيدى المريكز ، وإن لكلماتك لصدى في نفسى ، ولكننا مع ذلك ينبغي أن نكون على حذر ؛ إن فيليب ملك فرنسا حكيم كما هو جسور شجاع » .

« حقا وهو لذلك سوف يكون أشد تساهلا في تحوله عن حملة ارتبط بها مندفا في لحظة اشتعلت فيها نار الحماس أو استفرزه فيها نبلاؤه ، إنه يغار من الملك رتشارد عدوه الطبيعي ، ويتوق إلى العودة إلى متابعة خطط أطاعه ، وهى إلى باريس أقرب منها إلى فلسطين . أى دعوى عادلة سوف يتوكأ عليها كي ينسحب من ملحمة يعلم أنه إنما يبدد فيها قوى مملكته » .

فقال رئيس الفرسان : « وماذا ترى في دوق النمسا ؟ » .

فرد عليه كتراد وقال : « أما فيما يخص الدوق ، فإن غروره بذاته ، وحمقه ، سوف يؤديان به إلى النتائج عينها التى وصل إليها فيليب بسياسته وحكمته ؛ إنه يرى أنه عومل بالجحود ، وذلك لأن أفواه الرجال — حتى مغنية من الجرمان — تمتلئ بحماد الملك رتشارد ، الذى يخشاه ويمقتة ، والذى يُسر لأذاه ، مثله في ذلك مثل أولئك الأوغاد الأندال الذين لم يصنهم شيء من التهذيب ، والذين

(١) نبات سريع النمو سريع الزوال .

إذا نهش المجلى من سربهم ذئب ، فسه ضر ، كانوا إلى مهاجمة زميلهم من الخلف .
أسرع منهم إلى الخلف إلى معوته . ولكن لماذا أحدثك بهذا ، اللهم إلا إن
كان ذلك لأدلل لك على أنى خلص فى رغبتى فى أن ينفذ هذا المجتمع ، وأن
تتحرر البلاد من هؤلاء الملوك العظام وجيوشهم ؟ وأنت جد عليم ؛ وقد شاهدت
بنفسك كيف أن الأمراء قاطبة من ذوى النفوذ والسلطان ، لا تستثنى منهم غير
واحد ، يودون لو يرمون عهدا مع السلطان » .

فقال رئيس الفرسان : « إنى أقر بذلك ، ومن لم يشهد ذلك إبان تداولهم
أخيراً فهو أعمى البصر ، ولكن هلا رفعت عنك الحجاب قيد أئمة إلى أعلى
وحدثتنى عن الباعث الحق الذى حدا بالمجمع أن يبعث بذلك الرجل من أبناء
الشمال ، انجليزيا أو أسكتلندياً ، أو أيا كان ذلك الفارس ، فارس النمر ، يحمل
مقترحهم لعقد المعاهدة ؟ »

فأجابه الرجل الإيطالى وقال : « إن وراء ذلك لحكمة ، فإن صفة الرجل
كواحد من أبناء بريطانيا ، قينة بأن تسد ما يطلب صلاح الدين ، فهو يعرف
أن الرجل ينتمى إلى فريق رتشارد ؛ وصفته كأسكتلندى ، وغير ذلك من الضغائن
الشخصية التى أعلم ، تجعل اتصال رسولنا بعد عودته — برتشارد — وهو على
فراش المرض ، أمراً بعيد الاحتمال ، فإن رتشارد لا يجب مرآه » .

فقال رئيس الفرسان : « تالله إنها لسياسة دقيقة الحبك ، صدقنى إن نسيج
العنكبوت الإيطالى هذا الذى نسجت لن يقيد شمشون ^(١) الجزيرة هذا الذى لم
يقص شعره بعد . ليس لهذه المؤامرة أن تنجح إلا إذا حبكتموها من جديد
بالجبال ، وبأشد من الجبال متانة وصلابة ؛ ألا ترى أن الرسول الذى عنيتم جد
العناية بانتخابه قد أتى لنا بطبيب بين يديه شفاء الملك الانجليزى قلب الأسد وعنق
الثور ، وردّه إلى تنفيذ مشروعه الصليبي ؛ وإذا ما بات على الانطلاق قديراً فأى
الأمراء يجسر على كبح جماحه ؟ إنهم سوف يتبعونه خجلاً وحياء ، وإن يكن
أحب إليهم أن يسيروا تحت لواء الشيطان » .

(١) إشارة إلى قصة شمشون الجبار فى التوراة .

فقال كتراد منتسرا : « لا تجزع ، فقبل أن يتم هذا الطبيب شفاء رتشارد — إن كان يعتمد إلى أى شيء غير المعجزة — فإنه من الممكن أن نحفر هوة عميقة بين الرجل الفرنسى — أو النمساوى على الأقل — من ناحية ، وبين حلفائه من الانجليز من ناحية أخرى ، حتى يتعسر رتق الخرق على الراقع ، وقد يهب من فراشه رتشارد بعدئذ كي يتأمر على جنده الخاص من مواطنيه ، ولكن لن يسيطر وحده على قوى الصليبيين جميعا » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « إنما أنت يا كتراد منتسرا نبأل صحت عزيمته ، ولكن قوسك مرتخية لا تبلغ بالنشاب إلى الهدف » .
وتوقف عن الكلام فجأة ، وأرسل نظرة فيها شك وريبة كي يستوثق أن أحدا لم يكن يتسمع له ، ثم أمسك بيد كتراد وقبض عليها بشدة وحدق في وجه صاحبها الإيطالى ، وكرر هذه العبارة فى أناة وتؤدة : « أفتقول إن رتشارد قد يهب من فراشه ؟ كتراد ! ينبى أن لا يهب رتشارد مطلقا ! »
ففزع من ذلك مركز منتسرا وقال : « ماذا ! هل أنت تتحدث عن رتشارد ملك انجلترا قلب الأسد بطل العالم المسيحى ؟ »

وعلت الصفرة وجنتيه وارتعدت فرائضه وهو يتكلم ، فنظر إليه رئيس الفرسان وقد تقلصت ملامحه ونمت عن ابتسامة فيها تحقير وازدراء .

« هلا تعرف أيها السيد كتراد لأى شيء أنت تشبه هذه الآونة ؟ لست كمركز منتسرا السياسى الجسور — ولست كمن هو قمين بتوجيه مجمع الأمراء والفصل فى قضاء الدول — إنما أنت كتلميذ زل عند رقية فى كتاب سحر لأستاذه ، فابتعث الشيطان من حيث لا يدري ، ثم وقف مذعورا أمام الشبح الذى مثل أمام عينيه » .
فقال كتراد وقد ثاب إلى رصده : « إني أسلم لك أنا إن لم نكشف عن طريق أكيدة نخلص بها ، فلقد أشرت أنت إلى تلك التى تؤدى رأسا إلى ما زرى — ولكن ، لك الله يا مريم ! لسوف تصب أوروبا كلها علينا اللعنات ، ونصبح مسببة فى جميع الأفواه ، من البابا على عرشه إلى أدنى متسول لدى باب الكنيسة ،

يحمد ربه — على شعثه وبرصه وتمرغه في الدرك الأسفل من الشقاء الإنساني — على أنه ليس بجيئز امورى أو كتراد منتسرا .

فرد عليه رئيس الفرسان برباطة الجأش التى تميز بها خلال هذا الحوار الهام وقال : « لو كان هذا ما ترى إذن فلنمض وكأن لم يكن بيننا شيء ، وكأن حديثنا حديث نيام ، وما لبثنا أن صحونا حتى تبددت من أماننا الأحلام » .

فأجاب كتراد قائلا : « إن هذه الأحلام لن تنقشع » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « أجل إن رؤيا أكايل الأمرء ، وتيجان الملوك تحتل فى الخيلة مكانا لا يتزعزع » .

فأجاب كتراد وقال : « إذن فدعنى أحاول بادىء ذى بدء أن أفصم عرى الوئام بين النمسا وإنجلترا » .

ثم افترقا ، ولبث كتراد ساكنا لا يتحرك حيث كان ينظر إلى عباءة رئيس الفرسان البيضاء ترفرف ، وهو يخطر فى مشيته فى تؤدة وأناة ، ويبتعد قليلا قليلا حتى ابتلعه ظلام الليل الشرقى الذى سرعان ما يرخى سدوله ويتوء بكل كلكه ؛ وكان مركز منتسرا مختالا طموحا ، جريئا أريبا ، ولكنه — مع ذلك — لم يكن قاسى القلب بطبعه ، كان شبقا أبيقوريا ، ولكنه كان — كغيره ممن يتخلقون بخلقه — يعاف الإيلام ، ولا يحب أن يشهد عملا فيه قسوة أو صرامة ، حتى وإن يكن فى نفسه من البواعث ما يبرره ، وكان لديه كذلك إحساس عام بتقدير ذكره بين الناس ، ذلك الإحساس الذى كثيرا ما يسد النقص فى المبادئ السامية التى يقوم عليها طيب الأحداث .

قال وما فتئت عيناه ترقبان الموضع الذى شاهد به عباءة رئيس الفرسان وهى تهتر الهزة الخفيفة الأخيرة : « حقا لقد أثرت فى الشيطان روح الانتقام ! من ذا الذى كان يظن أن هذا الرئيس الحازم الزاهد — الذى يتلاشى كل أمل له فى آمال طائفته — يكون أشد منى رغبة فى إشعال الفتنة ، وأنا إنما أعمل لنفمى

خاصة ؟ حقا لقد كان إيقاف هذه الحرب الصليبية الممجية هو باعثى الوحيد ، ولكنى لم أجروا على أن أفكر فى هذه الطريق العاجلة التى تجاسر هذا القس القوى العزيمة على اقتراحها — وهى مع ذلك آكد الطرق ، وربما كانت آمنها .

وهكذا كان المركز يناجى نفسه ، وبهذه الخواطر كان يتمم ، حينما استوقفه صوت غير بعيد ينادى ، وكأنه صوت رائد فى نبراته رنة التأكيد ، ويقول : « اذكروا القبر المقدس ! » .

وردد هذا النذير حارس بعد الآخر ، إذ كان من واجب الخفراء أن يصيحوا بهذا النداء الفينة بعد الفينة وهم فى رقابتهم المتعاقبة ، حتى لا يغيب أبدا عن ذكر الصليبيين الغرض من حمل السلاح ، ولكن رغم أن كندراد كان يألف هذه العادة ، ورغم أنه سمع هذا الصوت النذير فى كل مناسبة سبقت وكأنه أمر مألوف ، إلا أن صوت المنادى قد اتصل إذ ذاك اتصالا وثيقا بسلسلة أفكاره ، حتى خيل له أنه صوت من السماء يحذره من الإثم الذى يتردد فى صدره ، فتلفت حواليه جزعا كأنه — وإن اختلف ظروفه — ذلك الأب القديم يرتقب كبشا يأتيه من الغاب ، فداء عن القربان الذى اقترح له رفيقه أن يقدمه لا إلى الكائن الأعلى ، وإنما إلى وثن أطاعهما ، وإذ هو يتلفت اختطفت بصره ثنانيا العلم الإنجليزى ترفرف متناقلة مع نسيم الليل العليل ، وكان العلم مرفوعا فوق ربوة مصطنعة تكاد تتوسط المعسكر ، ربوة ربما كان قد اختارها فى الزمن القديم زعيم من زعماء بنى إسرائيل ، أو بطل من الأبطال ، لتكون شاهداً على جدته ، وإن صح هذا ، فلقد غاص اسم الرجل فى لجج النسيان وأطلق الصليبيون على المكان اسماً نصرانيا هو جبل «سنت جورج» ، وذلك لأن العلم الإنجليزى كان يخفق فوق هذه القمة الشاخة ، ويعلو على كل ما عداه ، كأنه رمز السلطان يسمو على العدد العديد من البيارق البارزة النبيلة ، بل والبيارق الملكية التى كانت ترفرف فوق المواضع الدنيا .

ورجل له من سرعة الخاطر ما لكندرا دقنين بأن يرى رأى فى وميض برهة

أو لحظة ، وكأن نظرة واحدة إلى العلم قد بددت كل ما قام في نفسه من ريبة أو شك ، فسار إلى سرادقه بخطى حازمة حثيثة ، كأنه رجل قد اختط لنفسه خطة صح منه العزم على إنفاذها ، ثم صرف رتلا من الرجال ، لهم ما يشبه الأبهة الملكية ، كانوا يقومون على خدمته . وما أن استلق على فراشه حتى تتم بعزمه الجديد ، وذلك أن يحاول وسائل اللين قبل أن يعتمد إلى خطة اليأس .

وقال : « غدا أجلس في مجمع أرشدوق النمسا ، وسوف نرى ما عسى أن نفعل لبلوغ ما ربنا قبل أن نلجأ إلى الرأي الأغبر ، رأى رئيس المعبد » .

الفصل الحادى عشر

فى بلادنا الشمالية أمر أكيد ؛
قد يتميز الفرد مولداً أو شجاعة أو ثروة أو ذكاء ،
ولكن الحسد الذى يتبع هذى الفضائل ،
كما يتبع كلب الصيد طريق الغزال ،
يهدمها جميعاً واحدة بعد الأخرى .

السر دافيد لندزى

كان ليوبولد دوق النمسا الأعظم أول من تملك تلك البلاد الكريمة التى تنتمى إليها مرتبة الإمارة السامية ؛ ارتفع فى الإمبراطورية الألمانية إلى مرتبة الدوق لصلته رحم قريبة بينه وبين الامبراطور هنرى الحازم الشديد ، وتملك تحت حكومة الامبراطور خير الأقاليم التى يروىها الدانوب ، وقد تلوث اسمه فى التاريخ بسبب فعلة شنعاء ، كان فيها ختال منه ، نشأت عن هذه الحروب فى الأرض المقدسة ، وذلك هو العار الذى ارتكبه حينما زج برتشارد فى السجن وهو عائد خلال أملاكه متخفياً لا تتبعه حاشية ، ومع ذلك فإن هذا العمل لم يصدر عن سجية ليوبولد وطبيعته ، فلقد كان أميراً إلى الضعف والعبث أقرب منه إلى الطموح والجور ، وهو فى قواه العقلية أشبه بصفاته الشخصية ؛ كان طويل القامة ، قوى البنية ، تظهر على بشرته الحمرة والبياض على أشد تباين ، وله شعر أشقر جميل تتدلى منه خصلات طويلة متهدلة ، ولكن بمشيته نبواً كأن ليس بجسمه من النشاط والحياة ما يكفى لأن يدفع بمثل هذا الحجم الكبير ، وكذلك كان يرتدى ثياباً فاخرة وكأنها لا تنسجم عليه ، وكان يبدو عليه أنه لم يألف كثيراً أن يحتفظ بكرامته كأثير نبيل ؛ ولما كان فى كثير من الأحيان فى حيرة من أمره كيف يفرض سلطانه ونفوذه حينما يدعو إلى ذلك داع ، فكثيراً ما كان يظن أنه مضطر إلى الفعال العنيفة والألفاظ الشديدة فى غير مناسبة ، كى يسترد مكانة ، ما كان أيسر له وأوفر كرامة من أن يُبقى عليها لو كان لديه قليل من الحصافة فى أول الجدل .

ولم تكن هذه النقائص ليراهما غيره فحسب ، وإنما لم يسع الأرشدوق نفسه أحياناً إلا أن يحس إحساساً أليماً بأنه لم يكن البتة جديراً بأن يفرض نفوذه ويحتفظ بالمرتبة العالية التي أحرزها ، وكان يحس إلى جانب ذلك برية قوية — كثيراً ما كان مصيغاً فيها — في أن الآخرين كانوا من أجل هذا لا يولونه إلا قليلاً من الاحترام والتقدير .

ولما التحق ليوبولد بالحرب الصليبية أول الأمر ، تتبعه حاشية عليها أبهة الإمارة ، كان يتوق كثيراً لأن يظفر بصداقة رتشارد وإخلاصه ، وقد تقدم إليه يخطب الود ، ويرتقب من ملك إنجلترا أن يتقبل — لدهائه — هذا التودد وبجيبه ، ولكن بين الأرشدوق — وإن تكن لا تنقصه الشجاعة والإقدام — وبين قلب الأسد بوناً شاسعاً في تلك الحرارة القلبية التي تعانق الأخطار كأنها عروس حسناء ، فلم يسع الملك إلا أن ينظر إليه بشيء من التحقير والازدراء . وكان رتشارد كذلك أميراً نورمانديا ، والنورمان قوم ضبط النفس من طبعهم ، فكان يحتقر الجرمان الذين يميلون إلى السباط الممدود بشهى الطعام ، وبخاصة ذلك الإدمان الفارط في احتساء النبيذ ؛ ومن أجل هذا عامة ، ولأسباب شخصية أخرى ، سرعان ما نظر ملك إنجلترا إلى الأمير النمساوى بقلب ملؤه الاستخفاف والتحقير ، ولم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذا الشعور أو الحد منه ، ولذا فسرعان ما بدا عليه ، ورده ليوبولد — الذي كانت تداخله الرية — بالبغض الشديد . هذا التنافر بينهما زاد من حدته فيليب ملك فرنسا بالدسائس الخفية الماكرة ، وفيليب أحد الملوك ذوى الفطنة في ذلك الزمان ، وكان يخشى من رتشارد ثورته وصلفه ، وينظر إليه كمنافسه الطبيعي ، ويحس كأنه — وهو تابع من أتباع فرنسا من حيث أملاكه في القارة الأوروبية — يسعى إليه بذلك الإملاء الذي يعليه ويتظاهر به إزاء سيده ، فكان فيليب لتلك يحاول أن يشد من أزر حزبه ، ويضعف من شأن حزب رتشارد ، بتوحيد الأمراء الصليبيين ذوى المراتب الدنيا ، للوقوف في وجه ما كان يسميه السلطة الغاصبة لملك إنجلترا . تلك كانت السياسة ، وهذه كانت الخواطر التي يرحب بها

أرشدوق النمسا ، حينما اعتزم كثراد منتسراً أن يستخدم غيرته من انجلترا كوسيلة لحل مجمع الصليبيين أو الفت منه على الأقل .

وقد اختار أوج النهار وقتاً لزيارته ، ودعواه أنه يريد أن يقدم للأرشدوق بعضاً من خير نبيذ قبرص وقع أخيراً بين يديه ، ويجب أن يتحدث في شأن ماله من مزاليا ، ويوازن بينه وبين نبيذ المجر والرين ؛ وقد أجب بالطبع لهذا الإلماع إلى مرماه ، بدعوة كريمة لأن يشترك في مأدبة يؤديها الأرشدوق ، وقد بذل كل مسعى لأن تكون هذه المأدبة لائقة بأبهة أمير ملكي ، ولكن الرجل الإيطالي رغم ذلك ، رأى بذوقه المذهب أن في الأطعمة المعروضة وفرة غير متسقة ، أثقلت بها المائدة ، أكثر مما رأى فيها تأثقاً وبهاء .

والجرمان ، قوم ما عتموا يحتفظون بالصراحة والصفات الحربية التي ورثوها عن آبائهم الذين أخضعوا الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنهم مع ذلك قد أبقوا على أثر طفيف من آثار وحشيتهم ، فلم ترتفع بينهم عادات الفروسية ومبادئها إلى ذلك الحد الرقيق الذي بلغته بين الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، ولم يرعوا قواعد الجماعة المرسومة دقيق الرعاية ، تلك القواعد التي كانت بين تينك الأمتين تتم عن مبلغ الحضارة والتمدن . ولما جلس كثراد إلى مائدة الأرشدوق ، صعد لساعته ، وزعر لنقيق الأصوات التيوتونية التي كانت تقرر سمعيه من جانب ، رغم الوقار الذي ينبغى أن يلبس موائد الأمراء ؛ ولم تكن أزيائهم بأقل غرابة ، وقد احتفظ الكثير من أشراف النمسا بلحي طويلة ، وكانت غالبيتهم الساحقة ترتدي معاطف قصيرة متنوعة الألوان ، وقد رُسمت وازينت ، وتهذبت منها هذب على طراز غير مألوف في غرب أوروبا .

وكم كان في السرادق من الأتباع كهولة وشباباً ، على الخدمة قاعون ، وهم يساهمون في الحديث أحياناً ، ويتسلطون من سادتهم ما تبقى من طعام أو شراب يلهيهمونه وهم وقوف خلف ظهور الحافلين ؛ وكان عدا هؤلاء عدد عديد من المهرجين والأقزام والمغنين ، وهم أعلى نجيحاً وأكثر تدخلاً مما يُسمح لهم به في حفل خير

من هذا نظاماً؛ ولما أن كان مباحاً لهم أن يأخذوا بنصيبهم ، بقدر ما يشتهون ، في النبيذ الذى كان يتدفق هنا وهناك أنهاراً جارية ، فقد أفرطوا في اللجب الذى أجز لهم أن يلجوا فيه .

وفي غضون ذلك ، ووسط هذا الضجيج والعجيج ، وذلك المضطرب الذى هو بحان ألانى في سوق قائمة أليق منه بفسطاط أمير ملكي ، كان الأرشدوق يخدم خدمة رقيقة في ظاهرها ومواقعاتها ، مما كان يدل على مبلغ اهتمامه بحفظ المستوى والصفة اللتين تحولهما له مرتبته العالية حفظاً صارماً دقيقاً ؛ وكان الموالى يخدمونه وهم ركع ، ولا يتقدم لخدمته من الغلمان إلا من كان من دم نبيل ، وكان يطعم في طبق من الفضة ، ويحتسى نبيذ توكي ونبيذ الرين في قدح من ذهب ، وعباءة الأرشدوق التي يرتديها تتزين أسنى زينة بالفراء الثمين ، وتويجه قد يعادل في قيمته تيجان الملوك ، وقدماء تدثران في حذاء من المخمل (طوله حتى أطرافه قد يبلغ القدمين) ، ويستوى على مقعد من الفضة الخالصة ؛ وتعرف طرفاً من خلق الرجل إذا عرفت أنه كان يود أن يلتفت إلى مركيز منتسرا الذى أجلسه إلى يمينه متلطفاً باشاً ، ولكنه كان إلى نديمه أو «محدثه» أشد إصغاء ، وقد وقف النديم خلف كتف الدوق اليمنى .

وكان هذا النديم فاخر الثياب ، يرتدى عباءة وصدرة من المخمل الأسود ، والصدرة مزركشة بقطع نقدية مختلفة من فضة وذهب ، حيكت بها ذكري للأمرء الأسخياء الذين وهبوا إياه ، ويحمل عصا قصيرة تتعلق بها كذلك باقات من النقد في حلق يجلبله كي يجذب إليه الأنظار حينما يهيم بأن يقول شيئاً يكون في ظنه جديراً بالالتفات ، ولهذا الرجل من النفوذ بين حاشية الأرشدوق شيء بين ما للنشد والمستشار ؛ هو مرة مداهن ، ومرة شاعر أو خطيب ، وكل من أراد أن يتقرب إلى الدوق كان يسعى لكسب رضا هذا النديم .

وكان إلى كتف الدوق اليسرى «مهرّجه» واسمه «جوناس شوانكر» خشية أن يكل الحاضرون من تمادى «المحدث» في حكمته ؛ و «المهرج» يُحدثُ

بتقنيته وأجراسه وألأعييه ضوضاء كضوضاء المحدث التي يحدثها بجلجلة عصاه .
 وكان هذان الرجلان يرسلان عبث الكلام تارة جادين وطورا هازلين ،
 وسيدهما ، إما ضاحك منهما أو محبذ لهما ، إلا أنه كان كذلك يرقب ، ممعنا ، ملامح
 ضيفه الكريم ، كي يرى أى أثر يرتسم على فارس مذهب مثله من عرض تلك
 الفصاحة والنكات النمساوية ، وليس من اليسير أن تعرف أيهما كان للحفل أكثر
 تلهية وسلوى ، رجل الحكمة أو رجل المراء ، أو أيهما كان له لدى سيدهما
 الأمير القدر الأوفر ، ولكن ملحمهما كليهما كانت تقابل بالإعجاب الشديد ،
 وأحيانا يتنافسان في التحدث ويهزان بعضاتيهما ، وكل منهما يناظر صاحبه ويباريه
 مباراة مزعجة ، ولكنهما كانا على الجملة على وئام ، وقد ألفا أن يعين كل منهما
 الآخر في ألأعييه ، حتى إن المحدث كثيرا ما تنزل إلى مستوى المهرج يتابعه في
 نكاته بالشرح والتعليق فيجعلها أشد وضوحا لإدراك السامعين ، حتى باتت حكمته
 ما هي إلا شرح لهراء المهرج ، وكثيرا ما رد المهرج فكاهة موجزة يعقب بها
 على ختام خطاب طويل ممل يلقيه « المحدث » .

ومهما تكن عواطف كثراد في حقيقتها ، فلقد كان شديد الحرص على أن لا
 تتم ملاحظه عن غير الرضا بما سمع ، وكان يتسم ويتظاهر بالثناء الحار — كما كان
 يفعل الدوق نفسه — على فكاهة المحدث المحتشمة ونكات المهرج الوضيعة ، وكان
 في الواقع يترقب بانتباه أن يبدأ أحدهما بموضوع ما يناسب الغرض الذي كان يحتل
 في ذهنه المكافحة الأولى .

ولم يمض زمن طويل حتى رمى المهرج بملك أنجلترا على بساط الحديث ، وقد
 اعتاد أن يتخذ من (دِ كُن) صاحب الكنيسة — وقد استعار هذا الاسم الذميم
 لرتشارد بلا تاجنت^(١) — موضوعا للزل مقبولا لا ينفد ؛ أما المحدث فقد صمت
 حقا ولم يتكلم إلا حينما شرع كثراد يتحدث عن النبات الذي تصنع منه

(١) اسم يطلق على كل ملوك أنجلترا من هنرى الثانى إلى رتشارد الثالث — والكلمة

معناها نبات تصنع منه الكناس .

المكانس ، فقال (أى المحدث) : « هذا العشب هو رمز الذلة والخضوع ، وخير للذين يلبسونه أن يذكروا ذلك » .

وكان هذا الإيحاء إلى شارة بلانتاجنت البراقة جليا واضحا ، فقال جوناس شوانكر المهرج : « إن أولئك الذين تواضعوا قد رفعهم الانتقام إلى مراتب المجد » . فأجاب مركيز منتسرا : « الشرف لمن يستحق الشرف ، لقد اشتركنا جميعا في هذه الحملة وهذى المواقع ، وإني أرى أن الأمراء الآخرين ينبغي أن يساهموا قليلا في الصيت الذى يحتكره رتشارد ملك انجلترا بين جماعة المنشدين والمغنين الجرمان ؛ أليس من بين هذه الجماعة المرحه هنا من يعرف أنشودة واحدة في مدح أرشودوق النمسا الملكى مضيفنا الكريم ؟ »

فاستبق ثلاثة من المنشدين وخطوا إلى الأمام رفعون الصوت بالغناء ويضربون على القيثارة ، وقد وجد « المحدث » مشقة في إسكات اثنين منهم ، وكان المحدث يتصرف كأنه سيد القصف ، وأخيرا ظفر الشاعر الذى أوثر على صاحبيه باستماع الحاضرين ، وأخذ يغنى بالألمانية أبياتا من الشعر ، ترجمتها :
أى زعيم مقحام يتقدم الجيوش ،
حيث تتجمع فيالق الصليب الأحمر ؟
إنما هو خير فارس على خير الخيول ،
وأعلى الرؤوس ذو الريشة الحسناء .

وهنا جلجل المحدث بعصاه ، واعترض الشاعر ، وألمع للحافلين إلى ما قديفوتهم إدراكه من هذا الوصف ، وذلك أن القائد الذى أشير إليه إنما هو مضيفهم الملكى ، ثم طافت بين الحاضرين كأس مترعة ، وصاح الجميع : « ليحى الدوق ليوبولد » ثم تلا الشاعر أبياتا أخرى :

لا تسألوا النمسا لماذا

يرفرف فوق أعلام الأمراء لها علم ،

وإلا فاسألوا النسر ذا الجناح المتين ،

لماذا يخلق صوب السماء ويسبق كل الطيور .

وقال المحدث وهو شارح الأقوال الغامضة : « النسر شارة سيدنا النبيل الأرشدوق — عفوا ! إنما ينبغي أن أقول صاحب الجلالة الملكية الأرشدوق — والنسر يخلق فيعلو ويصبح إلى الشمس أدنى من كل طائر مريش » .

فقال كنزاد غير مكترث : « ولكن الليث قد قفز فوق النسر » .

فأحمر الأرشدوق ، وحدث يبصره في التكلم ، وقد أجابه المحدث بعد ما تروى دقيقة وقال : « ليأذن لى سيدى المركز أن أقول إن الأسد لا يستطيع أن يخلق فوق النسر ، إذ ليس لأسد جناح » .

فأجاب المهرج : « إلا أسد القديس مرقص » .

وقال الدوق : « هذا عَلمُ البندقية ، ولكن لا ريب أن هذا القبيل المختلط ، نصف من الأشراف ونصف من التجار ، لا يجروا على الموازنة بين مرتبته ومرتبتنا » .

فأجاب مركز منتسرا وقال : « كلا وما عن ليث البندقية تحدثت ، وإنما عن ليوث انجلترا الثلاثة التى تتطلع ذات اليمين — وقد قيل إنها قديما كانت نمورا ، ولكنها صارت اليوم أسدا من كل وجه ، وينبغى أن تسبق الوحش والطير والأسماء وإلا فالويل لمن يقترب منها » .

فقال النمساوى وقد أصبح شديد الحمرة من فعل التبيذ : « هل أنت فى هذا جاد يا سيدى ؟ وهل تظن أن رتشارد ملك انجلترا يزعم لنفسه فضلا على الملوك الأحرار الذين تحالفوا معه طوعا فى هذه الحروب الصليبية ؟ » .

فأجاب كنزاد وقال : « والله إني لا أعرف إلا ما تنم عنه الظروف ، فهناك يخفق علمه فريدا وسط مخيمنا ، كأنه ملك على جيوشنا المسيحية كلها ، وكأنه كبير قوادها » .

فقال الأرشدوق : « وهل أنت تحتمل هذا صابرا ، وتحدث عنه بمثل هذه البرودة ؟ » .

فأجاب كنزاد : « سيدى ! ليس لمركز منتسرا المسكين أن يحتج على أذى

يخضع له خضعا أمراء أشداء كفيليب فرنسا وليوبولد النمسا ؛ ما تخضعان له من هوان لن يكون لى شنارا » .

وحينئذ أطبق ليوبولد قبضة يده وضرب بها على المائدة بشدة وعنف . وقال : « لقد قلت لفيليب ذلك ، وكم من مرة قلت له إن من واجبنا أن نحمل صغار الأمراء من اغتصاب هذا الجزى — ولكنه كان دائما يجيبني بوجود رعاية تلك العلاقة السخيفة بينهما ، علاقة السيد والمسود ، ويقول أن ليس من الحكمة من جانبه أن يعلن انفصام هذه الرابطة فى هذا الوقت وذلك الحين » .

فقال كتراد : « يعلم الناس قاطبة أن فيليب رجل حكيم ، وسوف ينظرون إلى خضوعه كأنه من حسن السياسة ؛ أما ذلك يا سيدى فأنت وحدك مسئول عنها ، ولكنى لا أشك فى أن لديك أسبابا قوية تدعوك إلى الإسلام إلى نفوذ الانجليز » .

فأجاب ليوبولد موتور الكرامة وقال : « أنا أسلم لهم ! أنا أرشودق النمسا ذلك العضو الحيوى الهام فى جسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة — أنا أذل نفسى لهذا الملك الذى يتأمر على نصف جزيرة — هذا الحفيد لرجل نورماندى نغل ! — كلا ورب السموات العلا ! لسوف يرى المعسكر ، ولسوف يرى العالم المسيحى طرا ، أنى أعرف كيف أعيد لنفسى حقها ، ولسوف يرى إن كنت أنزل عن قيد شعرة لهذا الوغد الانجليزى — هيا يا سادى ، يرافاق الجبور ، هيا اتبعونى ! سوف نضع نسر النمسا حيث يخلق عاليا كما خلقت فى التاريخ أية شارة لملك أو لقيصر ، ولن نتوانى فى ذلك برهة أو لحظة » .

ولما أتم حديثه نهض من مقعده ، ووسط الهتاف العجاج الذى هلل به ضيوفه وأتباعه توجه نحو باب السرادق ، وأمسك بعلمه الخاص الذى كان منتصبا لديه .

فقال كتراد متملسا للتدخل سببا : « كلا يا سيدى ! إنك لو أثرت بالمعسكر

شغباً في هذه الساعة للطخت بذلك سداد رأيك ، ولربما كان خيراً لك أن تبقى خاضعاً لاغتصاب إنجلترا فترة من أن » .

فصاح الدوق بأعلى صوته وقال : « كلا ، لن أخضع بعد اليوم ساعة ، كلا بل ولا دقيقة واحدة » ثم سار والعلم في يده ، وفي إثره ضيوفه وأتباعه مهلين ، وسارع إلى الرابية الوسطى التي كان يخفق عليها علم إنجلترا ، ووضع يده على رمح اللواء يريد أن يقتله من الأرض .

فقال جوناس شوانكر ، وقد مد ذراعيه حول الدوق : « سيدي ! سيدي العزيز ، احذر فإن للأسد أنياباً . . . » .

فقال الدوق : « وللنسر مخالباً » ، ولم يترك عصا اللواء من قبضته ، ولكنه تردد في اقتلاعها من الأرض .

وكان للمحدث فترات يصدر فيها عن روية وبصيرة — وهذا بعض واجبه — ففرع عصاه بصوت مرتفع حتى أدار ليوبولد رأسه نحو مستشاره ، وكأنه قد اعتاد ذلك ، فقال المحدث : « النسر ملك بين الطيور في الهواء ؛ وكذلك الليث بين الوحوش في الغاب ؛ كل له دائرة يصل فيها تنفصل عن الأخرى تماماً ، كما تنفصل إنجلترا عن ألمانيا — فلا تلحق بالأسد الملوك هواناً أيها النسر النبيل ، واخلّ لوائيكما يخفقان جنباً إلى جنب آمنين مطمئنين » .

فباعد ليوبولد يده عن رمح اللواء ، وتلفت يبحث عن كثراد منتسرا ، ولكنه لم يره ، لأن المركيز لم يلبث أن رأى الشر قائماً على قدم وساق حتى انسحب من الحشد ، وقد عبّر للكثير من المحايدين عن أسفه لأن يختار الأرشدون تلك الساعة بعد المأدبة ليثار من أية إساءة يرى أن من حقه أن يشكو منها . ولما لم ير الدوق ضيفه الذي كان يرغب في التحدث إليه خاصة ، رفع عقيرته وقال : « إنه لا يرغب في أن يولد بين صفوف جيش الصليب فتنة . إنه يريد أن يؤيد حقه في أن يقف وملك إنجلترا على قدم المساواة ، ولكنه لا يتطلع — وقد كان في وسعه ذلك — إلى رفع علمه — الذي تسلمه من العواهل أسلافه — فوق علم ملك

ما هو إلا حفيد من أحفاد أمراء أنجو . ثم أمر الدوق بدن من النبذ يؤتى به إليه ، ويدك فوق الأرض ليحتسى منه الواقفون الذين تجرعوا الدمام تكراراً حول راية النمسا بين قرع الطبول ونغم الموسيقى .

ولم ينته هذا الحفل المهوش بغير ضجيج أزعج المعسكر بأسره . وأزفت الساعة الحرجة ، الساعة التي رأى الطبيب وفقاً لقواعد فنه أن عليه الملكي بجوز أن يوقظ فيها بطمأنينة وسلام ، واستخدم اسفنجة لهذا الغرض ، ولم يتفرس مريضه طويلاً ، وأكد لبارون جلزلاند أن الحمى قد تخلت عن ملكه بتاتاً ، وأن من حسن الطالع أن للملك من قوة البناء ما لا يحتم تناوله جرعة أخرى من الدواء الناجع ، كما يجب في غالب الظروف ؛ والظاهر أن رتشارد نفسه كان يرى الرأي ذاته ، فقد استوى على السرير ، ومسح بعينه ، وسأل دى فو عن مبلغ النقد الذى كان بالخزائن الملكية حينذاك .

ولكن البارون لم يستطع أن يجيبه إلى ذلك على وجه دقيق . فقال رتشارد : « ليكن المال قليلاً أو كثيراً ، فليس هذا بأمر ذى بال ؛ امنح كل ما هنالك لهذا الطبيب النظامى الذى ردنى — على ما أعتقد — لخدمة الحرب الصليبية ، ولو كان المبلغ ينقص عن ألف بيزنط ^(١) فأعطه من الجواهر ما يرفع القيمة إلى هذا المقدار » .

فأجاب الطبيب العربى قائلاً « إني لا أبيع الحكمة التى وهبها الله ، وأعلم أيها الأمير العظيم أن الدواء الإلهى الذى تناولت منه يفقد أثره بين يدي الضعيفتين لو أتى بعت فضائله بالذهب والماس » .

فقال دى فو محدثاً نفسه « إن الطبيب يرفض المنحة ، والله إن هذا لأعجب من أنه فى المائة من عمره » .

وقال رتشارد « أى توماس دى فو ، إنك لا تعرف من البسالة إلا ما بظباء السيف ، ولا تعرف جوداً أو فضلاً إلا ما يسرى فى الفروسية — ألا فلتعلم أن

(١) اليزنط عملة ذهبية كانت متداولة فى الدولة البيزنطية وقيمتها نحو خمسة وأربعين قرشا

هذا المغربي يستطيع — باعناده على نفسه — أن يكون مثلاً لأولئك الذين يظنون أنفسهم زهرة الفروسية » .

فقال المغربي وقد طوى ذراعيه على صدره ووقف موقفاً موقراً محترماً : « كفاني ثوبا أن ملكاً عظيماً كالملك رك^(١) ينطق بهذا الكلام عن خادمه — ولكني أتوسل إليك الآن ثانية أن تستوى على فراشك ، لأنني وإن كنت لا أظنك بحاجة إلى أن تعاود اجتراح هذا الشراب الإلهي ، إلا أنك إن بذلت جهداً مبتسراً قبل أن تسترد قواك كاملة ، فقد يعود عليك ذلك بالضر والأذى » .

فقال الملك : « تجب على طاعتك أيها الحكيم ، ولكن صدقتني أن صدري قد تحرر من تلك النار المتأججة التي لبثت أياماً طويلاً تلتهم ما بين جنبي ، وإنني لا أكرث الآن إن أنا بادرت إلى تعريضه لرمح رجل من بواصل الرجال — ولكن صه ، صه ! ما وراء ذلك الصباح وتلك الموسيقى النائية التي تعزف في المعسكر ؟ اذهب ، توماس دي فو ، واكشف عن الأمر » .

فتغيب دي فو دقيقة ثم عاد وهو يقول : « إنه الارشديق ليوبولد يسير وإخوانه في الشراب في موكب خلال المعسكر » .

فصاح الملك رتشارد قائلاً : « ياله من وغد قد ثمل ! ألا يستطيع أن يخفي هذا التمل الوحشي وراء ستار سرادقه ، وهل لا بد له أن يبدى خزيه هذا للعالم المسيحي طراً ؟ » — ثم أردف موجه الخطاب إلى كتراد منتسراً — وقد وبل الفسباط آنئذ — وقال له : « ماذا ترى في هذا ، سيدي المركيز ؟ » .

فأجاب المركيز قائلاً : « كم يسرني أيها الأمير النبيل أن أرى جلالتك معافي وقد برئت إلى هذا الحد ؟ إن الحديث في هذا الشأن شاق على رجل ناله شيء من قراء دوق النمسا » .

فقال الملك : « ماذا ! هل كنت تتناول الغداء مع هذه القربة التيوتونية المترعة بالنبيذ^(٢) ؟ أنسى له هذا المرح الذي انتهى به إلى كل هذا الضجيج ؟ حقاً يا سر

(١) هكذا كانت تسمى الأمم الشرقية رتشارد .

(٢) يقصد دوق النمسا .

كنراد لقد كنت أظنك حتى الآن رجلا محبا للهو والطرب ، حتى إنى لأعجب كيف هجرت مكان القصف » .

وكان دى فو إذذاك قد وقف وراء الملك وقرىبا منه ، يسعى جهده — بالمحاث والشارات — أن يشير إلى المركز بأن لا ييوح لرتشارد بشيء مما كان يدور خارج السرادق ، ولكن كنراد لم يفهم هذا التحذير ، أو قل إنه لم يأبه له . فقال : « إن ما يعمل الأرشدوق شيء قليل الجدوى لغيره ، وأقل جدوى لنفسه ، فهو لا يعرف ما هو صانع ، وما هذا حقا إلا لعب لا أحب أن أساهم فيه ما دام الدوق يخلع لواء انجلترا من فوق جبل سنت جورج وسط ذاك الحميم ، وينشر رايته مكانه » .

فصاح الملك بصوت يكاد يوقظ من فى القبور وقال : « ماذا تقول ؟ » . فقال المركز : « كلا ! لا يُغضبن جلالتك أن رجلا أحق يعمل ما يمليه عليه حقه . . » .

فقال رتشارد وقد هب من مرقده واثنى على ثيابه بعجلة عجيبة : « لا تخاطبنى ياسيدى المركز ! أى دى ملتن ، إنى أمرك أن لا تنبس إلى بنت شفة — من يلفظ كلمة واحدة فليس لرتشارد بلاتنا جنت بصاحب أو صديق — ناشدتك الله أن تلزم الصمت أيها الحكيم ! »

وفى تلك الأثناء كان الملك يرتدى ثيابه متعجلا ، ولم يكد يلفظ الكلمة الأخيرة حتى انتزع حسامه من إحدى قوائم الفسطاط ، وانطلق من السرادق وليس معه سلاح آخر ، ولم يدع أحدا يتبعه . فرفع كنراد يديه كأنه ذاهل ، وبدأت عليه الرغبة فى التحدث إلى دى فو ، ولكن السر توماس خلفه واندفع بشراسة ، ثم نادى أحد رعاة الخيول الملكية ، وقال له متلهفا متعجلا : « انطلق إلى بيت اللورد « سولزبرى » واطلب إليه أن يجمع رجاله ويتبعنى توا إلى جبل سنت جورج ، قل له إن الحمى قد خرجت من دماء الملك ، واستقرت فى رأسه » .

وذعر الخادم الذى وجه إليه دى فو الخطاب بهذه اللفظة ، فلم يستمع إلى كل حديثه ، ولم يكذب يفته له قولاً ؛ وانطلق على إثر ذلك رئيس رعاة الخيل وزملاؤه من خدام البيت المالك وهربوا إلى خيام النبلاء المجاورة ، وسرعان ما نشروا الأعراب بين الجنود البريطانيين كافة ، وبقي الباعث غامضاً لم يدرب به أحد ، فاستيقظ الجند الإنجليز وهبوا من قيلولتهم ، التى علمتهم حرارة الجو أن يستغرقوا فيها كأنها لون من ألوان الترف ، وأخذوا فيما بينهم يتساءلون ما تلكم الجلبة ، وما ذلك الشغب ، وقبل أن يجابوا سؤالهم كفتهم قوى الخيال ما نقصهم من خبر ، وقال بعضهم إن العرب قد حلوا بالمعسكر ، وقال بعضهم حياة المليك مهددة ، وقال بعضهم إنه هلك من الحمى فى المساء السابق ، وقالت كثرة منهم إن دوق النمسا قد اغتال حياته ، وبات الأشراف والضباط — كغيرهم من عامة الرجال — فى حيرة من حقيقة الباعث على هذا الاضطراب ، فلم يعملوا إلا على أن يُيقوا أتباعهم شاكى السلاح ، مؤتمرين لدوى النفوذ والسلطان ، خشية أن ينجم عن تهوهم شر مستطير يلحق بجيش الصليبيين ؛ ورن رنين الأبواق الإنجليزية ، وجلجل صوتها دون انقطاع ، وعلا صوت القوم مذعورين ، وأخذوا ينادون : « قسيكم ورماحكم — قسيكم ورماحكم ! » ، وسرى النداء من حى إلى حى ، وأخذ يتردد مرة تلو الأخرى ، فيجيب بالفوج إثر الفوج من المقاتلين المتأهبين ، ودعواهم القومية : « سنت جورج لانبجلترا الطروبة ! ».

وسرى الذعر فى أقرب الأحياء بالمعسكر ، وتجمهرت زمرة من الرجال من الأمم المختلفة جميعاً ، وربما كان لكل قوم من أقوام العالم المسيحى من يمثلهم ، ورفع الجميع السلاح متكاتفين فى ظرف هذا الممعان المضطرب الذى لم يعرفوا له باعثاً أو مرمى ؛ وكان من حسن الطالع وسط هذا المشهد المروع أن (الاييرل أف سولزبرى) — وقد هرع بعد أن استدعاه دى فو فى ثلة من خيار الرجال الإنجليز المدججين بالسلاح — قد سير بقية الجيش الإنجليزى ، وأشار لهم أن يحتشدوا ويبقوا شاكى السلاح ، كي يسيروا إلى نجدة رتشارد إن دعا إلى ذلك داع ، وأن

يتقدموا بنظام لائق ، وألا يتحركوا إلا إن جاءهم أمر معتمد ، وألا يسيروا بعجلة
لجبة قد يجلبها عليهم ما يملكهم من دعر وما يدفع بهم من غيرة على سلامة المليك .
وفي تلك الآونة أخذ رتشارد يشق طريقه إلى جبل سنت جورج منطلقاً
كالشهاب ، ولم يكثر لحظة لتلك الصيحات وذلك الهتاف والضجيج الذي أخذ
يتعالى حواليه ، وثيابه أبعد ما تكون عن الاتساق ، ولم يتبعه غير دى فو وواحد
أو اثنين من حشمه .

وكان في انطلاقه أسرع من الذعر الذي أثاره باندفاعه وتهوره ، ومرّ بجى جنوده
البواسل من « نورماندى » و « بواتو » و « غسقونيا » و « أنجو » قبل أن يبلغهم
الاضطراب — وإن يكن الشغب الذي كان يرافق قصف الألمان قد دفع بالكثير
من الجند إلى أن يهبوا على أقدامهم يتسمعون — وكانت قلة الاسكتلنديين تقطن إلى
جوار ذلك الحى ، ولكن هذا اللجب لم يزعجهم ، أما فارس النمر فقد لحظ شخص
الملك وما كان عليه من عجلة ، فعلم أن الخطر لا بد دان ، فسارع كي يساهم فيه ،
وانتزع درعه ومهنده ، وانضم إلى دى فو الذي كان يجد بعض المشقة في مسيرة
سيده — وقد اشتعل ناراً وجزعاً — وصوب الفارس الأسكتلندى إلى دى فو نظرة
تطلع وتشوق ، فأجابه دى فو بهز كتفيه العريضتين ، وانطلقا جنباً إلى جنب ،
يتابعان خطى رتشارد .

وسرعان ما بلغ الملك سفح جبل سنت جورج ، وقد تحوط القوم إذذاك سفح
الجبل وجوانبه ، واحتشد من الناس زحام ، بعضه من أتباع دوق النمسا الذين كانوا
يمجدون — مهللين هاتفين — ذلك العمل الذى كانوا يعدونه إقراراً للكرامة
القومية ، وبعضه نظارة من أمم مختلفة ، ضمهم بعضاً إلى بعض ، ليشهدوا نهاية
هذا العمل الشاذ ، بغض في النفوس للانجليز ، أو حب للتطلع مجرد ؛ وانطلق
رتشارد في طريقه وسط هؤلاء الجند المختلطين كأنه سفينة كريم امتلاً شراعه
بالهواء ، وسار يشق طريقه عنوة خلال الأمواج المتلاطمة ، لا يبالي إن تجمعت
الأمواج بعد مسيره أو خر خيرها على مؤخرته .

وكانت قمة الجبل فسحة من الأرض صغيرة مستوية ، اندكت فوقها الأعلام المتنافسة ، وما فتى يحوطها أصدقاء الأرشدوق وحاشيته ، وكان ليوبولد نفسه وسط الدائرة ، وما برح ينظر إلى الفعلة التي فعلها بنفس مطمئنة ، وما عثم يستمع إلى هتاف الاستحسان الذي لم يدخر حربه نفساً في توجيهه إليه ، وإذ هو كذلك في غبطته ، إذا برتشارد يندفع إلى الحلقة وليس له من الأتباع حقاً غير اثنين ، ولكنه بنشاطه المتدفق جيش وحده لا يقاوم .

وقال وقد مديده إلى العلم النمساوى ، وتكلم بصوت يشبه تلك الجبلجة التي تسبق الزلازل : « من ذا الذي حدثه نفسه أن يضع هذه الخرقة الحقيمة إلى جوار الراية الانجليزية ؟ » .

ولم يفتقر الأرشدوق إلى الشجاعة الشخصية ، وكان محالاً أن يسمع هذا السؤال دون أن يجيب ، ولكنه رغم ذلك انزعج وذهل ذهولاً شديداً لمقدم رتشارد الذي لم يكن في الحسبان ، وتملكه رعبٌ مبعثه شخصية الملك الغيورة التي لا تلين ، حتى إنه أعاد السؤال مرة بعد أخرى — في نفمة كأنها تتحدى السموات والأرضين — قبل أن يجيب الأرشدوق ويقول رابط الجأش جهد الطاقة : « أنا ذلك الرجل ، ليوبولد النمساوى » .

فأجاب رتشارد : « إذن فلسوف يرى ليوبولد النمساوى عما قريب أى وزن يقيم رتشارد الانجليزى لرايته ودعواه » .

ولم يكذب رتشارد حديثه حتى اقتلع رمح العلم وحطمه إرباً إرباً ، ورمى بالعلم فوق الثرى ووطأه بقدميه .

ثم قال : « هكذا أدوس علم النمسا ! فهل من بين فرسانكم التيوبوتون من يجرؤ على مناقشتى الحساب ؟ » ، وحينئذ ساد الصمت حيناً ؛ ولكن ليس في الرجال من لهم شجاعة الألمان ، فكم من فارس من أتباع الدوق أجاب رتشارد قائلاً : « أنا ذلك الرجل » ، وضم الدوق نفسه صوته إلى أصوات أولئك الذين ردوا على ملك انجلترا تحديه .

قال « الإيرل والآنرود » وهو مقاتل كبير الجسم من حدود المجر : « فيم هذا التواني ، أى إخوانى يا كرام النبلاء ، إن هذا الرجل يطأ بقدمه شرف بلادكم — هلموا بنا لنقذه من هذا الاعتداء ، ولتسقط كبرياء أنجلترا ! » .

ولم يكذب قوله حتى استل حسامه ووجه نحو الملك ضربة ، كان فيها قضاؤه لولا أن اعترضها الرجل الاسكتلندى وتلقاها بدرعه .

فقال الملك رتشارد ، وقد استشرى وعلا صوته الشغب الذى ارتفع ضجيجيه إذ ذاك : « لقد أقسمت يميناً أن لا أضرب رجلاً يحمل الصليب على كتفه ، وإذن فلتعش يا « والآنرود » — ولكن عش لتذكر رتشارد ملك أنجلترا » .

ولم يفرغ من حديثه حتى أمسك الرجل المجرى الطويل القامة من خصره — وهو رجل لا يبارى فى الصراع كما لا يبارى فى غيره من الحركات الحربية ، وطوح به إلى الوراء بعنف ، فتدحرج جسم الرجل البدين — وكأنه ينطلق من مدفع عسكرى — لا وسط النظارة الذين شهدوا هذا المنظر الشاذ فحسب ، وإنما فوق حافة الجبل نفسه وعلى جرفه الذى أخذ يتقلب عليه والآنرود رأساً على عقب ، حتى ارتكز أخيراً على كتفه ، وتخلخلت عظامه ، وابث ملق على الأرض وكأن الحياة قد فارقت . هذا الحادث الذى بدت فيه قوة الملك — وهى تكاد تفوق الطاقة البشرية — لم تشجع الدوق أو أحداً من أتباعه ، على أن يعاود السجال الذى لم تكن بدايته ميمونة الطالع ؛ وحقاً لقد صلصل بالسيوف أولئك الذين وقفوا بعيداً إلى الخلف وصاحوا : « مزقوا وغد الجزيرة إرباً إرباً » ، ولكن الأقربين منهم أخفوا مخاوفهم الشخصية تحت ستار مصطنع ، هو ستار الرغبة فى حفظ النظام ، وكنت أكثر ما تسمع منهم « السلام ، السلام ، سلام الصليب ! سلام الكنيسة المقدسة وأيننا البابا ! » .

هذه الصيحات المختلفة من المغيرين كان يناقض بعضها بعضاً فتدل على فتور فى العزيمة ، بينما كان رتشارد — وقدمه ما تزال فوق راية الأرشدوق — يتطلع حواليه بعين كأنها تبحث عن عدو ، عين تراجع منها الأشراف الغاضبون فزعين ،

كأن ليثاً هصوراً يهددهم بالهجوم ، ولبت دى فو وفارس النمر مكانهما إلى جوار الملك ، ورغم أن سيفيهما ما برحا مغمدين ، إلا أنه كان جلياً أنهما يتحفزان لحماية شخص رتشارد حتى النفس الأخير ، وكانا بضخامة جسميهما وقوة بنيتيهما الفائقة يدلان دلالة واضحة على أن دفاعهما سوف يكون دفاع المستقلين .

وقد دنا سولزبرى وحاشيته كذلك إذ ذاك برماح وحراب مسنونة وقسي مشدودة .

وفى تلك الآونة جاء فيليب ملك فرنسا يتبعه واحد أو اثنان من أشرافه ، واعتلى المنصة مستعلماً عن سبب تلك الشحنة ، ولوّح بشارات التعجب حينما ألقي ملك إنجلترا وقد هب من فراش مرضه ، وواجه دوق النمسا ، حليف الطرفين ، وقد وقف وقفة المتوعد المتحدى ؛ ولقد خجل رتشارد نفسه حينما رآه فيليب — وكان يقدر فيه حكمته بقدر ما كان يكره شخصه — وهو فى هيئة لا تليق بمركزه كملك ، ولا بصفته كصليبي ، ولحظ الحاضرون أنه رفع قدمه — وكأنه غير عايد — من فوق الراية المهيئة ، وبذل من نظرتة الممزوجة بالعاطفة الحارة نظرة اصطنع فيها الطمأنينة وعدم المبالاة ؛ وجاهد ليوبولد أن يظفر بشيء من الهدوء ، وكاد يموت كهدأ حينما رآه فيليب وهو فى موقف الذلة والخنوع بسبب الإهانة التى لحقت به من ملك إنجلترا وهو يتقد غضباً .

وكان فيليب على كثير من تلك الصفات الملكية التى أطلقت عليه رعيته من أجلها لقب العظيم ، حتى أنا نستطيع أن ندعوه « يوليسيز » كما كان رتشارد « أخيليس » ^(١) غير منازع فى الحرب الصليبية . كان ملك فرنسا حكيماً عاقلاً حازماً فى مشورته ، متزناً ساكناً فيما يعمل ، يتبصر فيما يدبر لصالح مملكته ، ويرسم لذلك خطة يتابعها راسخ القدم ثابت العزيمة ؛ وهو فى سلوكه ملك موقر ، مقدم فى نفسه ، إلا أنه إلى السياسى أدنى منه إلى المقاتل ؛ وما كان للحرب الصليبية أن تكون من محض اختياره ، ولكن عدواها أصابته ، وفرضت عليه الكنيسة

(١) « يوليسيز » و « أخيليس » شخصيتان هامتان فى إلياذة هومر .

الجملة فرضاً ، كما دفعته إليها رغبة قوية أجمع عليها أشرافه ؛ ولو كان الظرف غير الظرف ، أو لو كان العصر أشد رفقاً ، لكان يعلو في خلقه على قلب الأسد الجسور ، ولكن في حرب صليبية — هي في ذاتها أمر لا روية البتة فيه — لا يكون العقل السليم من بين جميع الصفات إلا أقلها قدراً ؛ ولو أن شجاعة الفروسية ، التي كان يتطلبها العصر ومشروع الحرب ، اختلطت بأدنى أثر من آثار الحكمة لحط ذلك من قدرها ، ولذا فإن مزية فيليب ، إذا قيسست بصفات منافسه الشامخ بأنفه ، ما كانت إلا كضوء المصباح الضئيل الصافي إذا وضع إلى جوار وهج المشعل المتوقد الذي ليس له من النفع نصف ما للآخر ، إلا أن له من الأثر على العين عشرة أمثاله ؛ وكان فيليب يحس بمحطته عن رتشارد في أعين الجمهور ، فيألم لذلك ألماً يحس به كل أمير كريم النفس ؛ وليس عجيباً أن ينتهز كل فرصة تسنح كي يقرر شخصيته إلى جوار منافسه بحيث يرفع من قدر نفسه ، وكان الظرف إذ ذاك إحدى تلك المناسبات التي تنتصر الحكمة والهدوء فيها على العناد والتهور والعنف .

« ما وراء هذا الشجار الذي لا يليق بأخوين في الصليب أقسم له الولاء — بين صاحب الجلالة ملك إنجلترا والأمير الدوق ليوبولد ؟ كيف يجوز لزعماء هذه الحملة المقدسة وعمدها أن ... »

فقال رتشارد — وقد تأججت النار في صدره حينما ألقي نفسه وقد وضع على شيء من المساواة مع ليوبولد ، ولم يدر كيف يستنكر هذا الموقف — : « مهلاً بعض هذا العتاب ملك فرنسا ؛ إن هذا الدوق أو الأمير أو الدعامة — إن شئت — قد دل على قبحته فلاق مني الجزاء ؛ وهذا هو ما نحن فيه ؛ وحقاً إن هذا لشغب كثير من أجل وغد مهين ! »

فقال الدوق : « أي جلالة ملك فرنسا ، إني أعمد إليك وإلى كل أمير ملكي في هذا الخزي المشين الذي كابده وعانيت منه ؛ إن ملك إنجلترا هذا قد نزع رايتي ومزقها وداسها . »

فقال رتشارد : « أجل ، لأنه بلغ من الجرأة أن يرفعها إلى جوار رايتي » .
فأجاب الدوق وقد شجعه مثول فيليب : « إن مكنتي كند لك تخول لى هذا » .
فقال الملك رتشارد : « وحق القديس جورج لو أعلنت هذه المساواة بينك
وبيني لفعلت بك ما فعلت بهذه الراية الموشاة التى لا تليق إلا بأدنى وظيفة يمكن
لراية أن تؤديها » .

فقال فيليب : « صبراً أخى ملك إنجلترا ، ولسوف أرى الآن دوق النمسا أنه
مخطئ فى هذا الشأن » ، ثم استأنف الكلام وقال : « لا تظن أيها الدوق النبيل
أننا ، إذ نرضى لعلم إنجلترا أن يحتل المكانة العليا فى معسكرنا ، نقر — نحن ملوك الحرب
الصلبية المستقلين — بأننا أصغر من الملك رتشارد شأنًا ، أو أخط منه قدرًا ؛ كلا ،
ليس هذا من الصواب فى شئ ، مادام لواء الجهاد ذاته — وهو علم فرنسا الأعظم
الذى ليس الملك رتشارد نفسه فيما يخص أملاكه الفرنسية إلا تابعًا له — يتبوا الآن
مكانة أدنى من ليوث إنجلترا^(١) . ولكننا — كأخوة فى الصليب — قد أقسمنا له جميعًا
يمين الولاء ، وكحجاج حريين قد طرحنا عظمة الدنيا وكبرياءها جانبًا ، وأخذنا نشق
بسيوفنا طريقًا إلى القبر المقدس ، فتخلت أنا نفسى وغيرى من الأمراء للملك
رتشارد — احترامًا لصيته الذائع ومآثره فى القتال — عن هذا التصدر الذى
ما كنا لنسلمه له فى مكان غير هذا المكان ، وتحت بواعث غير هذه البواعث ؛ وإنى
على يقين أنك يا صاحب الفخامة الملكية دوق النمسا ، لو تدبرت ما أقول ، سوف
تأسف على أنك رفعت رايتك فى هذا المكان ، وأنا على ثقة بأن جلالة ملك إنجلترا
سوف يرضيك بعد هذا لما ألحق بك من مهانة » .

وكان المحدث والمهرج كلاهما قد أويا إلى مكان بعيد مطمئن حينما ادلهمت الأمور
وأنذرت بالقتال ، ولكنهما عادا بعد أن عرفا أن الكلام — وهو جل بضاعتهم —
قد أوشك أن يكون هو الحكم فى ذلك اليوم .
وكم سر رجل الأمثال (أى المحدث) من خطاب فيليب السياسى حتى لقد

هز بعصاه عند اختتام الكلام كأنه يؤيد ما قال فيليب ، ونسى الحضرة التى كان ماثلا لديها ، وبلغ به النسيان أن رفع عقيرته قائلا إنه هو نفسه لم يفه حياته بكلام أحكم من هذا .

فهمس جوناس شوانكر وقال : « قد تكون مصيبا فيما تقول ، ولكنك إن رفعت صوتك بالكلام فستضربن بالسياط » .

وأجاب الدوق ، مكتئبا ، بأنه سوف يرفع أمر هذا النزاع إلى مجمع الصليبيين العام — وهو رأى أثنى عليه فيليب كثيرا وقال عنه إنه قمين بأن يرفع خزيا بالغ الأذى بالعالم المسيحى .

أما رتشارد فقد بقى كما كان على هيئته غير مكترث أو مبال ، وأنصت لفيليب حتى أوشك أن ينضب معين فصاحته ، ثم قال بصوت جهورى : « إني وسنان ، وما زالت الحمى تلعب برأسى . أى أخى ملك فرنسا ، إنك بمزاجى عليم ، وإنك لتعرف أنى دأما لا أ كتم إلا قليلا من اللفظ ؛ فاعلم إذن فى التو والحين أنى لن أعرض أمرا يمس شرف إنجلترا على أمير أو مجمع أو بابا ؛ هذا لوأنى قائم ، وأية راية ترتفع على مدى رماح ثلاثة منه — حتى وإن كانت راية فرنسا التى أظنك كنت تتحدث عنها الآن — فلسوف يكون حظها كحظ تلك الحرقه المهينة ، ولن تتألوا منى ترضية غير تلك التى تستطيع جوارحى الضعيفة هذه أن تؤديها ، وذلك بمبارزة من يجرو منكم على النزال — أى وربى ، حتى وإن يكن منازل خمسة من أبطالكم لا واحدا فحسب » .

فقال المهرج همسا إلى زملائه : « تالله إن هذا الحديث خرافة ما بعدها خرافة ، وكأنه قد صدر عنى ، ومع ذلك فما اخل إلا أن هناك من هو أشد من رتشارد غفلة وأكثر هراء » .

وقال رجل الحكمة : « ومن عسى أن يكون ذلك الرجل ؟ » .

فقال المهرج : « ذلك هو فيليب أو دوقنا الملوكى ، لو أن أحدهما قبل النزال . هيه يا أيها المحدث الحكيم ، والله ما كان أجدرنى وإياك أن نكون من عظام الملوك ،

ما دام أولئك الذين يحملون التيجان على رؤوسهم يستطيعون أن يمشوا دور المحدث بالأمثال والمهرج ، مثلى ومثلك تماماً ! » .

وبينا هذان الرجلان مشغولان بهذا الحديث وحدهما ، أجاب فيليب على رتشارد تحديه الجارح في هواده وهدوء وقال : « إني لم آت إلى هنا كي أوقف خصومات جديدة لا تتفق واليمين التي أقسمناها ، والقضية المقدسة التي نشغل بها ؛ إني أبرح أخى ملك انجلترا كما يبرح الأخ أخاه ، ولن تكون بين أسد انجلترا^(١) وزنبق فرنسا^(٢) من الخصومة إلا ما نوجهه معاً حاملين على صفوف أعدائنا الكفار » .

فقال رتشارد : « هذه صفقة رابحة يا أخى الملك » . ومد يده وقلبه مفعم بالإخلاص الذى يتصف به طبعه الكريم رغم تهوره ، ثم قال : « وعمما قريب قد تتاح لنا الفرصة لتنفيذ هذا الاتفاق الأخوى المجيد » .

فأجابه فيليب وقال : « دع هذا الدوق النبيل يساهم كذلك فى صداقة هذا الظرف السعيد » ؛ واقترب الدوق مكتئباً بعض الاكتئاب ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، كي يصل إلى تسوية ما .

فقال رتشارد غير مكترث : « إني لا أفكر فى الغافلين أو فى غفلتهم » فولاه الأرشدوق ظهره وانسحب من الميدان ، ونظر إليه رتشارد وهو يتراجع وقال : « إن من ألوان الشجاعة لوناً كالبراعة ، لا يظهر للعيان إلا ليلاً ، وإني لن أبرح هذا العلم بغير حارس فى كنف الظلام ، أما إذا انبثق ضياء النهار ، فإن عيون الأسد كفيلة وحدها بأن تدفع عنه ؛ أى توماس الجزلاندى ، إني أعهد إليك برعاية العلم ، وأكلفك السهر على شرف انجلترا » .

فقال دى ثو : « سلامة انجلترا عزيزة على ، وإن فى حياة رتشارد لسلامة لها ، يجب على أن أعود بجالاتك إلى القسطنطينية ، وينبغى أن لا نترث هنا بعد هذا » .

فانفجرت شفتا الملك عن ابتسامة وقال : « إنما أنت ممرض غليظ صارم يا دى ثو » ثم واصل الحديث مخاطباً السر كنث وقال : « أيها الأسكتلندى

(١) رمز لعلم انجلترا . (٢) رمز لعلم فرنسا .

الجسور ، إني مدين لك بالجميل ، وسوف أردّه لك جزيلًا . هناك ترى لواء إنجلترا مرفوعاً ! هلا عنت براقبته كما يعنى الناشئُ بسلاحه عشية اليوم الذى يحرز فيه شرف الفروسية ؛ لا تتعد عنه أكثر من طول ثلاثة رماح ، وادفع عنه بجسمك أى أذى أو إهانة — لو هاجمك أكثر من ثلاثة رجال فى آن فانفخ فى البوق ؛ فهل تقوم بهذه المهمة ؟ »

فقال كنت : « لأقومن بها عن رغبة ، ولئن قصرت فى أدائها لحياتى قصاصى ، وسوف أمتشق سلاحى وأعود فوراً إلى هنا » .

وحينئذ استأذن فى الانصراف ملكا فرنسا وإنجلترا أحدهما الآخر ، وكلاهما يخفى وراء ستار من المجاملة أسباب شكواه من الآخر — أما رتشارد فيشكو من فيليب ما كان فى ظنه تدخلا فضوليا بينه وبين دوق النمسا ، أما فيليب فيشكو من قلب الأسد مسلكه المشين إزاء توسطه . أما أولئك الذين حشدهم هذا الاضطراب ، فقد تسلموا الآن ، وسلك كل منهم سبيله ، مخلفين الجبل الذى دار النزاع على قمته فى عزلة التى لم تفارقه حتى شابهها استخفاف دوق النمسا ؛ وحكم الرجال على حوادث ذلك اليوم كل على هواه ، فبينما عاب الإنجليز على دوق النمسا أنه أول من تقدم بسبب للنزاع ، أجمع أهل الأمم الأخرى على صب اللوم الأكبر على كبرياء رجل الجزيرة وعلى صلف رتشارد .

وقال مركز منتسرا الرئيس فرسان المبد : « أما رأيت أن الدهاء أبلغ أثراً من الشدة والعنف ، لقد حلت الموائيق التى كانت توثق هذه الرابطة من الصوالة والرماح ، وسوف تراها عما قريب وهى تساقط متناثرة متنافرة » .

فأجاب رئيس المبد وقال : « ما كان أحكم خطتك لو كان هناك رجل واحد يأسل بين أولئك النمساويين ذوى الدم البارد يفصم بسيفه عرى الروابط التى تحدث عنها ؛ إن العقدة إذا انحلت قد تلتئم ثانية ، ولكن ذلك لن يكون إذا تقطع الجبل إربا إربا » .

الفصل الثانی عشر

هی المرأة نغری بنی الإنسان جمیعا
جای .

كان جزاء الشجاعة العسكرية فی أيام الفروسية كثيرا ما يكون وظيفة خطيرة ،
أو مغامرة مهلكة ، تسند إلى الرجل تعویضا له عما كابد من محن ؛ مثلهم فی ذلك
مثل الإنسان يصعد جبلا عاليا ، كلما تسلق صخرة ارتفع إلى صخرة أشد خطرا .
ففي منتصف الليل ، والقمر فی كبد السماء يتلألأ ضياء ، كان كنت الأسكتلندی
واقفا فوق قنة جبل سنت جورج ، إلى جوار راية المجتريا يخفها بمنعزلا نائيا ، ويحمي
رمز تلك الأمة من أية إهانة قد تلعب برأس واحد من تلك الألوف التي صيرها
رتشارد بكبريائه أعداء له . ودارت برأس هذا المقاتل خطير الفكر واحدة تلو
الأخرى ، وخيل له أنه قد اكتسب الرضا فی عینی ذلك الملك الفارس ، الذي
حتى آنشد لم يكن يميزه بين جموع شجعان الرجال ، الذين جمعهم تحت رايته صيته
الدائع ؛ ولم يكثر السر كنت كثيرا للموقف الخطر الذي ساقته إليه الرعاية
الملكية ، وكان تفانيه فی حبه لفتاة من ذوی المكاة الرفیعة يشمل فيه الحماسة
العسكرية . وحقا لقد كان فاقد الأمل فی وصلها تحت الظروف المألوفة ، إلا أن
تلك الأحداث التي وقعت أخيرا قاربت ما بينه وبين (أديث) بعض المقاربة ،
ولم يعد كنت — وقد من عليه رتشارد وميزه بحراسة رايته — مقحاما خامل
الذكر ، وإنما هو محط الرعاية من أميرة من الأميرات ، وإن يكن أبعد ما يكون
عن مستواها . ولن يكون بعد اليوم نكرة من النكرات ، ولو أنه أخذ على حين
غرة ، وقتل وهو قائم بالعمل الذي أسند إليه ، فلسوف يستحق بموته — وقد اعترم
أن يكون موتا يحوطه الجلال — من قلب الأسد الثناء ، كما يظفر منه بالانتقام له ،
وسوف يتبع موته الأسمى والدمع ، تذرفه الجحيلات من بنات الأسر الكريمة فی البلاط

الإنجليزى ؛ ولم يبق بعد اليوم ما يحمله على أن يخشى أن يموت كما يموت صغار الرجال .

استرسل السر كنث فى الاستمتاع بهذه الخواطر الطامحة وأشباهاها ، التى يغذيها ذلك الروح الهمجى ، روح الفروسية الذى يخلق فيعلو ويرتفع ويسبح فى الخيال ، ولكنه يظل رغم ذلك نقيًا طاهرًا من شوائب حب النفس — هو روح كريم مخلص ، وقد لا تعيب عليه إلا أنه فى أغراضه وما يرسم من خطط العمل لا يتفق وضعف الإنسان ونقصه . والطبيعة كلها حول السر كنث نائمة فى ضياء القمر الهادى ، أو فى الظلال الحالكة ، والصفوف الممتدة من الخيام والسرادات ، مظلمة كانت أو متألقة بالنور — وهى قاعة فى ضوء القمر ، أو فى الظلام — كانت صامتة ساكنة ، كما تكون الطرقات فى مدينة مهجورة ، وإلى جوار سارية العلم كان يرقد الكلب الذى ذكرنا من قبل ، رفيق السر كنث الأوحد وهو فى خفارته ، يركن إلى تنبيه نذيرا له باكرا كلما دنا من عدو وقع القدم ؛ وكأن هذا الحيوان النبيل قد أدرك مرعى هذه الرقابة ، فأخذ يتلفت الحين بعد الآخر إلى ثنايا العلم الثقيل ، وإذا ما سمع صباح الحراس من الصفوف النائبة وأماكن الدفاع فى المعسكر ، أجابه بنباح عميق متكرر ومتواصل ، كأنه يؤكد أنه كذلك يقظ فى أداء واجبه ، وكان يخفض رأسه الشامخ الفينة بعد الفينة ، ويهز ذيله كلما مر به سيده مرة بعد الأخرى وهو يدور دوراته القصيرة أثناء حراسته ؛ وكلما وقف الفارس صامتا شارد الذهن ، متكئا على رمح ، ومصوبا نظره نحو السماء ، اجتأ صاحبه الأمين « أن يقطع عليه سلسلة خواطره » إن صح هذا التعبير الخيالى ، ووخز الفارس فى يديه ذواتى القفاز بمقدم فمه الحشن الكبير ، فأيقظه من أحلامه متوسلا إليه أن يدلله لحظة أو بعض لحظة .

وهكذا تصرمت من رقابة الفارس ساعتان دون أن يقع فيهما أمر ذو بال ، وأخيرا ، وعلى حين بقتة ، أخذ هذا الكلب الشهم ينبح محتما ، وبدا عليه كأنه

يوشك أن ينطلق إلى الأمام ، حيث الظلال على أشدها حلوكة ، ولكنه رغم ذلك تريث ، كأنه على ارتقاب ، حتى يتعرف ما يريد صاحبه .
فقال السر كنث وقد أحس بأن شيئاً يزحف قُدماً على جانب الجبل الظليل ،
« من السائر هناك ؟ » .

فأجابه صوت خشن يعافه السمع : « باسم « مارلين » و « موجيس » قيد
أقدام ماردك^(١) هذا الأربع ، وإلا فلن آتيك » .

فقال السر كنث وقد حذق يبصره الثاقب ما استطاع في شيء يكاد لا يراه في
أسفل المنحدر ، ولم يستطع أن يتبين له شكلاً أو هيئة : « ومن عسى أن تكون
أيها الداني من منصبي — حذار ! حذار ! — إنما أنا هنا للموت أو الحياة » .
فرد عليه الصوت قائلاً : « أبعد مخالب شيطانك الطويلة ، وإلا فسأرميه
بسهم من قوسى » .

وسمع في ذات الحين صوت اثناء أو جذب كذلك الذى تسمعه حينما تشد
القوس .

فقال الأسكتلندى : « أقم قوسك ولا تنهأ ، وتعال في ضوء القمر ، وإلا
فبحق القديس اندراوس لأطرحنك أرضاً ، وكن ما شئت أو من شئت ! » .
وأمسك برمح من وسطه وهو يتكلم ، ودنا يبصره نحو ذلك الجسم الذى كان
كأنه يتحرك ، وهز بسلاحه كأنه يفكر فى قذفه من يده — والسلاح يستخدم
أحياناً — وإن يكن نادراً — ويُركن إليه حين تلزم الرماية . ولكن السر كنث
استحى من مقصده ، فرمى بسلاحه أرضاً حينما أقبل من الظلام إلى ضوء القمر
مخلوق مقعد عاجز ، وكأنه ممثل قد أقبل على المسرح ، وقد عرف السر كنث من
زبه الغريب وتشويه خلقه ، ولما يزل بعيداً عنه ، أنه ذكر القزمين اللذين رآهما
فى معبد (عين جدة) ؛ وفى تلك اللحظة عيناها عادت إلى ذاكرته المشاهد الأخرى التى
رآها فى تلك الليلة الفريدة ، وهى تختلف جد الاختلاف عن هذا القزم فى مرآها ،

(١) يقصد بالمارد هنا الكلب .

وأوماً إلى كلبه بإشارة أدركها الكلب في الحين ، فأوى إلى العلم ورقد إلى جواره وهو يدمدم بصوت محتق .

هذه الصورة الإنسانية الصغيرة المشوهة^(١) ، بعد ما أيقنت من سلامتها من هذا العدو الخيف ، أقبلت تصعد الجبل وهى تلهث من الإعياء ؛ وكان الصعود شاقاً على ساقيه القصيرتين ، ولما بلغ مستوى القمة ، نقل إلى يسراه القوس الصغيرة ، وهى أشبه باللعبة التى كان يسمح للأطفال فى ذلك الأوان أن يصيدوا بها صغار الطير ، ووقف موقف الكرامة والاعتزاز بالنفس ، ومد يمينه برشاقة وكياسة إلى السر كنث ، وتدل هيئته على أنه كان يرتقب منه أن يلثمها ، ولم يفعل ذلك السر كنث ، طلب إليه بصوت فيه رنة الحدة والغضب وقال : « أيها الجندى ، لماذا لا تؤدى إلى « نكتابانس » الولاء الواجب لكرامته ؟ أو قد نسيته ؟ » .

فأجاب الفارس وهو يود لو يخفف من حدة هذا المخلوق وقال : « أى نكتابانس العظيم ، إن هذا عسير على كل من وقعت عليك عيناه ؛ وإنى لأسألك العفو ، إذ أنى كجندى أودى واجبى ورمحى ييذى ليس لى أن أسمح لرجل من شا كلتك أن يدنو من مكان حراستى ، أو أن يسيطر على سلاحى ، وحسبك أنى أحترم كرامتك ، وأخضع لك خاشعاً على قدر ما يستطيع جندى فى مكانى أن يخضع » .

فقال نكتابانس : « حسبى هذا ، إن كنت بعد قليل تصحبنى إلى خضرة أولئك الذين بعثوا بى إلى هنا كى أستدعيك » .

فأجاب الفارس : « سيدى العظيم ، لا أستطيع فى هذا الأمر كذلك أن أصدع بما تريد ، فلقد أمرت أن ألزم هذه الراية حتى مطلع الفجر — ولذا فإنى ألتمس منك أن تعذرنى فى هذا الشأن كذلك » .

وبعد ما أتم حديثه استأنف مسيره فوق الجبل ، ولكن القزم لم يطق أن يدعه يفلت من لجأته بتلك السهولة .

(١) الإشارة هنا إلى القزم .

فقال وقد وقف قبالة السر كنث كي يعترض سبيله : « استمع إلى ، إما أطعنى يا سيدى الفارس كما يحتم عليك واجبك ، أو أمرتك باسم تلك التى تستطيع بجبالها أن تستنزل الجن من عالمه ، وبجبالها أن تسيطر على هذه المخلوقات الخالدة بعد هبوطها من عليائها » .

فخطر للفارس خاطر وحشى بعيد الاحتمال ، ولكنه كبته ورده عن نفسه ، وظن أن من المحال أن ترسل إليه عادة قلبه وهواه رسالة كهذه على لسان رسول كهذا — ومع ذلك فقد أجاب وفى صوته رعشة وقال : « اذهب عني يا نكتبانس . خبرني على الفور وأصدقني القول هل هذه السيدة الكريمة التى تتحدث عنها امرأة غير الحوراء التى رأيتهما تعاونك وأنت تكنس معبد عين جدة ؟ » .

فأجاب القزم قائلاً : « ما هذا أيها الفارس المدعى ! أفتظن أن السيدة التى عقدنا بها حبنا الملكى ، شريكة عظمتنا ، ورفيقة جلالتنا ، تستذل نفسها وتعلق بتابع مثلك ؟ كلا ، إن شرفك لعظيم ، ولكنك لست بعد جديراً برضى الملكة « جنقرا » ^(١) عروس آرثر الحسناء التى تعلى مقعداً مرتفعاً فيبدو لها الناس قاطبة ، حتى أمراؤهم ، أقزاماً ؛ ولكن ، انظر إلى ، إن كنت تعرف هذه الشارة أو تنكرها فلتطع أمر صاحبها أو أعصه ، ذلك الأمر الذى تعطفت بفرضه عليك » .

وبعد ما أتم حديثه ، وضع بين يدي الفارس خاتماً من ياقوت ، فاستطاع الرجل أن يتعرف فى لمحة — حتى فى ضياء القمر — أنه ذلك الذى يتحلى به عادة إصبع السيدة ذات الأصل الكريم ، التى كرس نفسه لخدمتها . ولو كان له أن يرتاب فى صدق الشارة لاستيقن من الوشاح الصغير المعقود ذى اللون القرنفل ، الذى كان مربوطاً إلى الخاتم ، فذلك كان اللون الرغيب إلى نفس سيدة قلبه ، وكم من مرة عمل على أن ينتصر القرنفل على كل ما عداه من ألوان فى حلبة المصارعة أو ميدان القتال ، مدعيّاً أن ذلك اللون هو لون حاشيته وأتباعه .

(١) هى زوج الملك آرثر فى الأسطورة الفهيرة ، ويقصد بها هنا زوجته .

وحقاً لقد صعق السر كنت ، وأوشك أن يخرس حيناً رأى هذه الشارة بين تلك اليد .

فقال الفارس : « باسم كل ما تقدس ، خبرني ممن أخذت هذا الشاهد ؟ ناشدتك الله أن تجمع — إن استطعت — ذهنك الشارد لحظة أو لحظتين ، وأن تكون ثابتاً رزيناً ، وتحديثي شيئاً عمن أرسلتك ، وعن حقيقة الغرض من رسالتك ، وحاذر فيما تقول ، فليس هذا مجال المجون » .

فقال القزم : « حقاً إنك لفارس متيم غافل ، أفتريد أن تعرف عن هذا الشأن أكثر من أنك تتشرف بتلقى الأمر من أميرة ألقى إليك بها ملك من الملوك ؟ إننا لا نريد أن نتحدث إليك بأكثر من أن نأمرك باسم هذا الخاتم ، وبما له من نفوذ ، أن تتبعنا إلى صاحبه ، واعلم أن كل دقيقة تتوانى جرم في واجب ولائك » .

فقال الفارس : « أي نكتبانس الكريم ، تريث قليلاً ، هل تعرف سيدتي أية مهمة قد أسندت إلى هذا المساء ، وفي أي مكان أقوم بها ، وهل هي عليمه بأن حياتي — رحماك اللهم ، كيف لي أن أتحدث عن حياتي — كلا ، إنما شرفي ، يتوقف على حراسة هذه الراية حتى منبثق النهار ؛ وهل يجوز أن ترضى هي بأن أخلفها حتى وإن يكن لأداء واجب الخضوع ؟ كلا ، إن هذا الأمر محال ، إن الأميرة قد أرادت أن تمزح مع خادمها حيناً بعثت إليه بمثل هذه الرسالة ، وما أظن غير ذلك ، وبخاصة حيناً أذكر أنها قد اختارت مثلك لها رسولا » .

فقال نكتبانس وقد تلفت كأنه يريد أن يفصل عن قنة الجبل « اعتقد بما شئت ، إنني لا أكرث كثيراً إن كنت لهذه السيدة الملكية خائناً أو أميناً ؛ وإذن فلا أستودعك الله » .

فقال السر كنت : « إلبث قليلاً ، إلبث هنا ؛ إني أتوسل إليك ألا تبرح ؛ أجبني عن سؤال واحد ، هل السيدة التي بعثت بك قرية من هذا المكان ؟ » .
فقال القزم : « وما شأن هذا ؟ هل يحسب الإخلاص للفراسخ والأميال حساباً ، كما يحسب الساعي الفقير الذي يؤجر على عمله بمقدار ما يقطع من أبعاد ؟

ولكن ، لتعلم أيها المرتاب أن صاحبة الخاتم الحسنة ، التي بعثت بي إلى تابع مثلك ليس له وزن ، وليس به صدق أو إقدام ، لا تبعد عن هذا المكان أكثر من مرمى السهم من هذه القوس .

فخدق الفارس في الخاتم ، كأنه يريد أن يتثبت أن ليس بالشارة أثر من زيف أو بهتان ، ثم قال للقرمز : « هل سأمثل طويلا هناك ؟ » .

فأجاب نكتبانس بأسلوبه الطائش وقال : « طويلا ! ماذا تعنى بقولك طويلا — إني لا أدرك للزمن معنى ولا أحس به ، إن هي إلا كلمة مبهمة — ما الزمن إلا أنفاس متلاحقة نقيسها ليلا برنين الأجراس ونهاراً بظل المزولة . هلا عرفت أن الوقت للفارس الحق ينبغي ألا يقاس إلا بما يؤدي من عمل في سبيل الله وفي سبيل سيده ؟ » .

فقال الفارس : « حقا إنها لكلمة الصدق من فم الطائش الأرعن ، ولكن هل تستدعيني سيدتي حقاً كي أقوم بعمل ذي بال باسمها وفي سبيلها ؟ وهلا يمكن أن نستأخره بضع ساعات حتى ينبثق النهار ؟ » .

فقال القرمز : « إنها تريد منك المشول توأ وبأسرع مما تتسرب عشر حبات من رمال مقياس الزمن ^(١) ؟ استمع إلى أيها الفارس المرتاب ذو الدم البارد ، هذي هي كلماتها لفظة لفظة : (قل له إن اليد التي يتساقط منها الورد في وسعها أن تضفر الأكاليل) » .

هذا الإلماع إلى لقاءها بمعبد (عين جدة) أثار في ذهن السركنت ألوف الذكّر ، وأقنعه بأن الرسالة التي بلغه إياها القرمز صادقة لا غبار عليها ، وكانت براعم الزهر — رغم ذبولها — لما تزل مكنوزة تحت درعه ، وأقرب ما تكون إلى قلبه ، فوقف الفارس قليلا ولم يستطع أن يعتزم عزيمة قوية على أن يدع هذه الفرصة — وهي الفريدة التي ربما تعرض له حياته ، ويفوز فيها بالرضا في عيني تلك التي ولاها ملكة

(١) هو مقياس على هيئة إناء منبعج الطرفين دقيق الوسط ، يمتلئ أعلاه بالرمال ، ويعرف به الزمن بمقدار ما يتسرب من طرفه الأعلى إلى طرفه الأسفل .

على قلبه — وفي ذلك الحين زاده القزم ارتبا كما بأن كرر عليه القول ، وعرض عليه إما أن يرد الخاتم أو يتبعه على الفور .

فقال الفارس : « مهلا ، مهلا . تريث لحظة واحدة » . ثم واصل الكلام وهو يدمدم ويقول : « هل أنا للملك رتشارد تابع أورقيق على من الواجبات أكثر مما على الفارس الحر يقسم على خدمة الحرب الصليبية ؟ ومن عساني قد أتيت من أجله هنا لأرفع من شرفه بالرمح والسيف ؟ إنما أتيت لغرضنا المقدس ولسيدتي البارعة ! »

وصاح به القزم جريعا وهو يقول : « الخاتم ! الخاتم ! أيها الفارس الخائن المتواني . رد إلى الخاتم فلست جديرا بمسه أو بالنظر إليه » .

فقال السر كنث : « أمهلني لحظة . برهة واحدة يا نكتبانس الكريم . لا ترعج خواطري — هب أن الأعراب يوشكون أن ينقضوا على صفوفنا ، أألث هنا كتابع أقسم الولاء لانجلترا ، وأسعى على أن لا يلين كبرياء مليكها لذلة أو خضوع ، أم أسارع إلى الحث في اليمين وأقاتل من أجل الصليب ؟ كلا ، بل إلى الحث ، وليس بعد سبيل الله إلا ما تأمرني به حبيتي سيدة قلبي — ولكن ما الرأي في مشيئة قلب الأسد والوعد الذي أخذت على نفسي ! أي نكتبانس ، إنى أناشدك مرة أخرى أن تقول لى هل أنت سائر بعيدا عن هنا ؟ » فأجاب نكتبانس وقال : « كلا ، بل إلى ذلك السراق ؛ وأنت لا ريب ترى القمر يتلأأ فوق القبة الموشاة بالذهب ، التي تتوج أعلاه ، والتي تستحق فداء المليك » .

فقال الفارس وقد تملكه اليأس ، وأغمض عينيه عن كل ما قد ينجم بعد ذلك من نتائج : « إنى أستطيع أن أعود بعد لحظة ، وإنى أستطيع أن أستمع من هناك لنباح الكلب لو اقترب من العلم إنسان — لسوف أرتدى لدى قدمي سيدتي وأستأذنها في العود كي أتم رقابتي — أسمع يا رزوال ؟ » (ونادى كلبه وطرح عباءته إلى جوار رمح العلم) « راقب هذا المكان ، ولا تسمح لأحد أن يقترب » .

فخدق الكلب المهيّب في وجه صاحبه ، كأنه يؤكد له أنه فهم ماعهد به إليه ، ثم جلس إلى جانب العبادة ، وأذناه مستقيمتان ، ورأسه مرفوع كأنه حارس يدرك تمام الإدراك الغرض الذي استقر من أجله هناك .

وقال الفارس : « هيا يا نكتبانس الكريم ، سارع بنا إلى تلبية ما أتيت به من أمر » .

فقال القزم مكتئبا : « ليسارع من يستطيع ذلك ، إنك لم تحف لإطاعة مادعوتك إليه ، وأنا لا أستطيع أن أسرع في مشيتي بحيث أسير وخطاك الواسعة . إنك لا تمشي كما يمشي الرجال ، إنما أنت تثب كما تثب النعامة في الصحراء » .

ولم يكن هناك غير سيبلين للتغلب على عناد نكتبانس الذي أبطأ في مشيته وهو يتحدث ، وبات يسير كما تسير القوقعة ؛ إما رشوته وليس للسر كنه إلى ذلك من سيبل ، وإما مصانعته وليس لها من الوقت متسع ؛ فنقد من فارسنا الصبر ، واختطف القزم ورفع من فوق الأرض ، وحمله وسار به لا يعبا بتوسله أو بخوفه ، حتى كاد أن يبلغ السراق الذي أشار إليه القزم من قبل وقال إنه سراق الملكة ؛ ولما دنا الأسكتلندي ، ألقي هناك قليلا من الحراس الجنود متربعين على البسيطة ، وقد كانت تخفيهم عنه الخيام المتوسطة ؛ وعجب الفارس كيف أن صليل سلاحه لم يجذب منهم التفاتا ، وعرض له أنه ينبغي في ذلك الظرف الراهن أن يسير في الخفاء ، فوضع مرشده الصغير على الأرض — وهو يتهد — كي يسترد أنفاسه ويشير بما ينبغي بعد ذلك أدائه ؛ وكان نكتبانس غاضبا حانقا ، ولكنه شعر بأنه أضحي بكليته تحت سلطان الفارس القوى ، كأنه البوم في مخبئ النسر ، ولذا لم يفكر في استشارته إلى ما يدعو له لإظهار قوته أكثر مما فعل .

ومن أجل هذا لم يشك من المعاملة التي لاق ، وإنما عرج خلال تيه الخيام ، وسار بالفارس في سكون إلى الجانب الآخر من السراق الذي كان يحجبهم عن رؤية الحراس ، الذين كانوا إما بالنسي الإهمال أو في النوم مستغرقين فلم يؤدوا واجبهم بكثير من العناية .

ولما بلغنا ذلك المكان رفع القزم جانب الخيمة الأسفل من الأرض ، وأشار إلى السركنث أن يتسرب إلى داخل الفسطاط زاحفا تحته ، فتردد الفارس قليلا ، إذ لم يكن من اللياقة في شيء أن يتسرب خفية إلى داخل السرادق الذي ضرب — بغير ريب — لايواء كراهم السيدات ، ولكنه تذكر الشارات الأكيدة التي عرضها عليه القزم ، واستقر به الرأي على ألا يجادل في رغبات سيده . وعلى ذلك طأطأ الرأس ، وزحف تحت السور الذي كان يحوط الفسطاط ، وسمع القزم يهمس من الخارج ويقول : « إلبث هنا حتى أناديك » .

الفصل الثالث عشر

إنكم تتحدثون عن اللهو مع البراءة !
ولكنهما في اللحظة التي أكلت فيها التمرة التي كان فيها القضاء ،
افترقا على غير لقاء ؛

ومن ثم بات الشر قرين اللهو والحبور
من اللحظة الأولى حينما يودى الطفل الباسم
بالزهرة أو بالفراشة لاعبا لاهيا ،
إلى أن يقهقه البخيل وهو يموت
إذ يضحك ضحكاته الأخيرة فوق فراش الفناء
حينما يسمع أن جاره الثرى قد أصابه الإفلاس .

من رواية تمثيلية قديمة

لبث السر كنت بضغ دقائق وحده في الظلام ، وكان في ذلك عطلة له ، وبات
لزاما عليه أن يمد أجل غيابه عن مقر حراسته ، وبدأ يدب في نفسه الندم على
السهولة التي أغرى بها على أن يترك مكانه ، ولكن لم يعد بطراً على ذهنه أن يعود
دون أن يرى السيدة أديث . لقد خرج على النظام العسكري ، واعتزم أن يحقق
على الأقل صدق الأمل الذي أغرى به وساقه إلى ما فعل ؛ ولكن موقفه لم يكن
رضيا في ذلك الحين ، فلم يكن هناك ضوء يبين له أية غرفة كانت تلك التي سيق
إليها — والسيدة أديث كانت من الوصيفات الملازمات للملكة انجلترا — ولو
تعرف عنه كيف ولج السراق الملكي خلصة ، فقد يؤدي ذلك — لو كشف الأمر —
إلى شكوك كثيرة خطيرة . أسلم الفارس نفسه لهذه الخواطر البغيضة إلى النفس ،
وكاد يود لو عاد وتم له ذلك دون أن يرى ؛ وإذ هو كذلك ، طرق أذنه شغب من
أصوات النساء يتضاكن ويتهايمن ، ويتبادلن الحديث في غرفة مجاورة لا يفصله
عنها إلا حاجز من القماش ، كما تدل على ذلك الأصوات التي نمت إليه ، وقد عرف
أن المصاييح موقدة من النور الخافت الذي انتشر حتى ظهر على الجانب الذي كان

إلى ناحيته من الحاجز الذى يقسم السرادق ، واستطاع أن يرى ظلالات لشخص
عديدة ، كانت تجلس وتحرك في الغرفة المجاورة . وليس عدلا أن نقول إنه لم يكن
من اللياقة في شيء أن يستمع السر كنث - وهو في موقفه الذى وقف - إلى
الحديث الذى ألقى نفسه وقد التذ منه غاية اللذة .

وقال صوت من أصوات أولئك النسوة الضاحكات المحتفيات عن الأبصار :
« ادعها^(١) ، ادعها ، بحق العذراء ! أى نكتبانس ، إنك سوف تعين سفيرا لبلاط
«پرسترجون» لترميمهم كيف أنك تستطيع أن تؤدي الرسائل بحكمة وتدير » .
وسمع السر كنث صوت القزم الأجش ، وقد خنع واستدل ، حتى إن الفارس
لم يدرك مما كان يقول ، إلا أنه قد تفوه بشيء عن أسباب الطرب التي
قدمت للحراس .

« ولكن كيف نستطيع أيتها الأوانس أن نخلص من هذا الروح^(٢) الذى
أثاره نكتبانس ؟ »

قال صوت آخر : « استمعي إلى سيدتي الملكة ، إذا لم يكن نكتبانس الحكيم
الأمير شديد الغيرة من عروسه وعاهلته البارعة ، فلننبعث بها تنقذنا من هذا الفارس
الشارد السفية ، الذى أمكن إغراؤه بهذه السهولة ، حتى ظن أن كرائم السيدات
بحاجة إلى بسالته المتصلفة العاتية » .

وأجابت الأخرى : « من العدل أن تصرف الأميرة « جثفرا » بكياستها
ذلك الرجل الذى استمالته إلى هنا حكمة زوجها » .

وأصاب سويداء القلب من السر كنث الخزي والغیظ مما سمع ، حتى أوشك
أن يسعى إلى الفرار من السرادق مهما كلفه ذلك ، لولا أن ما تلا ذلك من حديث
ملك عليه لبه وخطره .

إذ قالت المحدثة الأولى : « كلا . حقا إن ابنة عمنا أدیث ينبغي أن تعلم أولا
أى مسلك سلك هذا الرجل المتبجح ، وعلينا أن نسوق إليها دليلا عيانا على أنه

(١) تقصد المتكلمة أدیث .

(٢) تقصد المتكلمة بذلك السر كنث .

قد فشل في أداء واجبه ، وقد يكون في ذلك درس نافع لها ، لأنى — وصديقى فيما أقول يا « كالستا » — كثيرا ما ظننت أنها قد سمحت لهذا المخاطر من أهل الشمال أن يدنو من قلبها أكثر مما تجيز لها الروية .

وارتفع حينئذ صوت آخر يدمدم بشيء عن حكمة السيدة أديث ، وحصافة رأيها .

ف قيل ردا على ذلك : « أى حصافة رأى يا فتاة ! إن هو إلا كبرياء ورغبة في أن تشتهر بالصرامة والصلابة أكثر منا جميعا ؛ كلا ، إنى لن أتهاون في حقى ، إنكن تعرفن حق المعرفة أننا إن أخطأت إحدانا ، فلا تستطيع أينا أن تضع بلباقة أمام الآئمة إثمها وانحما ملموسا كما تستطيع سيدتى أديث — صه ! ها هى ذى قد أقبلت . »

وانتشر من شخصها وهى تلج الغرفة ظل فوق الحاجز أخذ ينزلق رويدا رويدا حتى اختلط بغيره من الظلال التى كانت تظلم بغيومها الحاجز ، ورغم ماض بالفارس من خيبة مريرة ، ورغم الإهانة والأذى اللذين ألحقهما به حقد الملكة (برنجاريا) ، — أو إن أحسن الظن بها فتندرهما به تندرا شديدا — (وكان إذ ذاك قد أيقن أن تلك التى كانت تملو بصوتها جميع الأصوات وتتكلم بنعمة الأمر إن هى إلا زوج رتشارد) ، رغم كل ذلك ، أحس الفارس بشيء يلف مشاعره ، حينما علم أن أديث لم تكن تساهم فى الغدر الذى تواطأ به الحاضرات عليه ، كما أحس بشيء من التشوق والتطلع إلى ما يوشك أن يقع ، فلم يقم بإفاد العزم الحكيم الذى اعتزم ، وهو الرجوع توا بغير توان ؛ بل على النقيض من ذلك ، أخذ يبحث متلهفا عن شق أو خصاص يستطيع أن يكون منه شاهد عيان ، وشاهد سمع ، لكل ما يقع . وقال محدثا نفسه : « لا ريب أن الملكة التى سرها أن تتفكه فكاهة سمجة سقيمة ، وتعرض بذكرى بل وبجياتى ، لا تستطيع الشكوى إن أنا اغتيمت هذه الفرصة — التى أراد الجد السعيد أن يرى بها إلى — كي أظفر ببعض العلم عما برح فى مكنون الطوايا . »

وفي ذلك الحين كانت أدith كأنها ترتقب ما تأمر به الملكة ، وكأن الملكة قد أحجمت عن الكلام خشية أن يفلت زمام نفسها منها ، فلا تستطيع لضحكها أو لضحك زميلاتهما ردا ، لأن السر كنث لم يستطع أن يميز أكثر من صوت كأنه صوت ضحكات محبوسة ومرح مكبوت .

وأخيرا قالت أدith : « يظهر أن جلالتك الآن مزاجا طروبيا ، وإن كنت أرى أن هذه الساعة من الليل تحت على الميل إلى النوم ؛ ولقد كنت في فراشى راغبة ، حتى أتاني أمر جلالتك بأن أمثل لديك » .

فقالت الملكة : « لن أستأخرك يا ابنة العم طويلا عن راحتك ، وإن كنت أخشى أن تنامي نوما غير عميق حينما أقول لك إنك قد خسرت الرهان » .

فأجابت أدith وقالت : « كلا يا مولاتي الملكة ، ما هذا حقا إلا إصرار منك على فكاهة أو شكت أن تبلى ؛ إني لم أراهن على شيء رغم إلحاح جلالتك بأني فعلت ذلك » .

« كلا ، ولكن رغم حجبنا إلى هنا فما فتى للشيطان عليك يا ابنة العم الكريمة سلطان عظيم ، وإنه ليدفع بك إلى المخاتلة والخذاع ؛ هل تنكرين أنك قد رهنت خاتمك الياقوتي تلقاء سوارى الذهبي على أن فارس النمر ذاك — أو أيا كان ما تسمينه به — لا يمكن أن يُغرى عن أداء واجبه ؟ » .

فأجابت أدith قائلة : « إن جلالتك أعظم من أن أعارض ، ولكن هؤلاء السيدات يستطعن — إن أردن — أن يؤيدنني في أن جلالتك هي التي تقدمت بهذا الرهان ، وأخذت الخاتم من إصبعي ، رغم أنني كنت أعلن صراحة أنني لم أر من الخير في شيء أن أراهن بأى شيء في هذه السبيل » .

فرد عليها صوت آخر قائلا : « ولكن ينبغي يا سيدتي أدith أن تسلمى راضية بأنك قد بحث بشديد ثقتك في بسالة هذا الفارس عينه — فارس النمر » .

فقالت أدith غاضبة : « هبيني فعلت ذلك يا جيبتي ! فهل في هذا ما يبرر أن ترفى صوتك تدهنين جلالة الملكة في مزاحها ؟ إني لم أذكر عن هذا الفارس

إلا ما يذكر عنه كل رجل رآه وهو في ساحة الوغى ، وليس لى فى الذود عنه
هوى أكثر مما لك فى الانتقاص منه . بماذا عسى النساء أن يتحدثن فى المعسكر
غير رجال الحرب وأعمال القتال ؟ » .

فأجاب صوت ثالث قائلا : « إن السيدة أديث الكريمة ما عفت قط عن
« كالستا » أو عنى مذكرا لجلالتك أنها أسقطت من يدها زهرتين فى المعبد » .
فقال أديث بنعمة كانت فيما يرى السر كنى عتابا لطيفا : « إذا لم يكن لجلالتك
أمر غير أن أستمع إلى سخرية وصفاتك ، فهل لى أن أستاذنك فى الانصراف ؟ » .
فقال الملكة : « صه يا فلورنس ، ولا يدفعنك تهاونا إلى تجاهل ما بينك وبين
قربيات الملك من فارق » ثم استأنفت الكلام مستعيدة نعمة التهم والتعنيف ،
وقالت : « أما أنت يا ابنة العم العزيرة ، فكيف لك — وأنت دمثة الطبع — أن
تضنى علينا نحن البائسات ببضع دقائق نتضاحك فيها بعد ما مرت بنا أيام عديدة
صرفناها جميعا باقيات تميز من الغيظ ؟ » .

فقال أديث : « زادك الله يا سيدتى الملكة مرحا وجورا ، ولكن والله
لخير لى ألا أبسم بقية العمر من أن ... » .
ثم توقفت عن الكلام إجلالا ، ولكن السر كنى استطاع أن يسمع
ويدرك أنها كانت فى ثورة نفسية عنيفة .

وقالت برنجاريا وهى أميرة من بيت نافار ، خفيفة العقل ، ظريفة الطبع :
« ماذا عسى أن تكون الإساءة الكبرى ؟ إن فارسا شابا قد خُدع وسبق إلى
هنا ، قتل من منصبه — أو قلن إنه أُستل من منصبه الذى لن يعتدى عليه
أحد فى غيبته ، وجاء من أجل سيده الكريمة ؛ إننا ينبغى أن ننصف بطلك أيتها
الحسنة ؛ إن حكمة نكتبانس ما كان لها أن تستهويه إلى هنا باسم غير اسمك » .

فقال أديث بصوت فيه رنة الدعر ، يخالف كل الخلف ذلك الغضب الذى بدا
عليها منذ حين : « يا الله ! هل تقول لجلالتك بذلك ! إن معنى هذا ضياع شرفى

وشرفك ، فأني أمت لزوجك بصلة الرحم ! قولي إنك كنت معي تمزحين يا سيدتي الملكة ، واعفي عنه فأني ما كنت أحسبك لحظة واحدة إلا هازلة » .

فأجابت الملكة بصوت يرن فيه الاستياء وقالت : « إن السيدة أدith تأسف على الخاتم الذي ظفرتُ به منها . . . سندر إليك الرهان يا ابنة العم اللطيفة ، على ألا تنكري علينا تلقاء ذلك أن تغلب — ولو قليلا — على هذه الرزاة التي انتشرت فوق رؤوسنا مرارا كما ينتشر العلم على رؤوس الجنود » .

فصاحت أدith حانقة وقالت : « تتغلبين ! تتغلبين ! إنما الغلبة سوف تكون للكافر حينما يسمع أن ملكة أنجلترا في وسعها أن تجعل من اسم امرأة من دم زوجها موضوعا للهو والعبث » .

فقالت الملكة : « إنما أنت غاضبة يا ابنة العم الحسنة لأنك سوف تفقدين خاتمك العزيز . استمعي إلى ، ما دمت تضنين ببذل الرهان ، فسوف نتنازل عن حقنا فيه ؛ إنما أتى بالرجل إلى هنا اسمك وهذا الخاتم ، وإنا لا نقيم للطعم وزنا بعد أن يقع الصيد في الشباك » .

فأجابت أدith جازعة وقالت : « مولاتي ، إنك تعلمين جد العلم أن جلالتك لا تتعلمين إلى شيء مما أملك إلا صار لك في التو والحين ، وإني لأبذل قنطارا من الياقوت على ألا يُستخدم خاتمي أو اسمي للإيقاع برجل باسل في الخطيئة ، أو سَوْقه إلى الخزي والعقوبة » .

فقالت الملكة بحمية : « إننا لا نخشى إلا على سلامة فارسنا الحق ، وإنك لتستخفين بنفوذنا يا ابنة العم الحسنة إذ تتحدثين عن حياة هذا الرجل وكأنها هريقت من جراء فكاكتنا وتندرنا . أيتها السيدة أدith ، من النسوة غيرك من لهن على صدور المقاتلين الحديدية نفوذ كما لك — وحتى الليث ذاته ليس قلبه إلا من لحم ودم لا من حجر ، وصديقي إن لي برتشارد من الصلة ما يكفي لإيقاد هذا الفارس — الذي تهتم السيدة أدith بشؤونه اهتماما كبيرا — من العقوبة التي حقت عليه لعصيانه أمر ملكه » .

فقلت أديث : « أستحلفك بحب الصليب المبارك أيتها الملكة . . . » وهنا أحس السر كنث بعاطفة كان عسيرا عليه أن يدرك كنهها وهو يستمع إلى أديث ، وهي تنكب بوجهها لدى قدمى الملكة وتقول : « ناشدتك بحب العذراء البتول ، وبكل قديس مبارك فى الوجود ، أن تحذرى فيما تفعلين ! إنك لا تعرفين الملك رتشارد — ولم يعض على قرانك به إلا زمن وجيز — والله لأيسر لك أن تناهضى بأنفاسك رياح الغرب حين يشتد هبوبها من أن تحملى هذا الملك قريبا على أن يعفو عن جريمة عسكرية . أستحلفك بالله أن تصرفى هذا الرجل الكريم ، إن كنت حقا قد أغويته إلى هنا ! تالله لأرضين أن يعلق بى عار دعوته لو أنى عرفت أنه عاد ثانية حيث واجبه يناديه ! »

فقلت الملكة برنجاريا : « انهضى يا ابنة العم ، انهضى ، وتيقنى أن الأمر سوف ينتهى على خير مما تظنين . انهضى يا عزيزتى أديث ؛ إني آسفة لأنى تفككت بفارس ، لك فيه كل هذا الهوى — كلا ، كلا ، لا تهزى بيديك ؛ سوف أعتقد أنك لا تعنين بأمره ، لسوف أعتقد بأى شئ حتى لا أراك فى هذا المظهر البائس الكئيب . اعلمى أنى سوف ألتقى من الملك رتشارد على نفسى العتاب نيابة عن صاحبك الكريم ابن الشمال — كلا ، بل ينبغى أن أقول أحد معارفك ، فإنك لا تعترفين به صاحباً لك — كلا ؛ لا تنظرى إلى بهذه العين العاتبة — سوف نبعث بنكتبانس كى يصرف هذا الفارس الذى وُكلت إليه حراسة العلم ، ويعود إلى مقره ، وسوف نتعطف عليه يوما نحن أنفسنا ونهيب له ظرفا يعوض به هذا الخطأ الفاحش ؛ ما إخاله الآن إلا مستلقيا متخفيا فى إحدى الخيام المجاورة . » فقال نكتبانس : « أقسم بأكليل الزنبق الذى أحمل ، وبصولجان القصب الجميل الذى أرفع ، إن جلالتك لخاطئة — إنه أقرب مما تظنين — أنه يرقد متحجبا هناك خلف حاجز الفسطاط . »

فصاحت الملكة بدورها ، وقد اشتد بها الدعر والغضب وقالت : « إنه إذن لعل مسمع من كل ما نقول . اعزب عني أيها الوحش الأحمق الخبيث ! » .

وما إن فاهت بهذه الكلمات حتى فرّ نكتبانس من السراق وهو يصرخ صراخا يداخلك من طبيعته الشك : هل قصرت برنجاريا زجرها على اللفظ أم هل أضافت إلى ذلك تعبيراً آخر عن حقها أشد تأكيداً .

وقالت الملكة لأديث وهي تهمس همسا بادی القلق : « ماذا عسانا نصنع الآن ؟ » فقالت أديث رابطة الجأش : « لنصنع ما ينبغي ؛ يجب أن نرى هذا الرجل الكريم ، وأن نضع أنفسنا تحت رحمته » .

وبعد ما أتمت هذا الحديث ، خفت إلى سجاف ترفعه ، وكان السجاف يستر من أحد جوانبه مدخلا يصل الداخل بالخارج .

وقالت الملكة : « برب السموات لا تفعل ، انظري ، هذه غرفتي وذاك ردائي — وفي أى ساعة ! وشرقي ! » .

ولكن قبل أن تدلى بكل عتابها ، سقط السجاف ، ولم يعد بين الفارس المسلح وجماعة النساء حجاب ؛ وكان ذلك في ليلة من ليالى الشرق الدفيئة ، التى حدث بالملكة برنجاريا ووصيفاتها إلى أن يخلعن أثوابهن ولا يرتدين إلا لباساً خفيفاً لا كلفة فيه ، ولا يتفق وما يقتضى موقفهن ، ولا يلتئم ومثول شاهد من الرجال له مكانته . وما إن ذكرت الملكة هذا حتى صاحت صيحة عالية ، ولذت بالفرار من الغرفة التى كشفت عن السر كنث ، وأظهرته للعيان فى غرفة أخرى من غرف السراق الفسيح لم يعد يفصلها عن الغرفة التى وقف النسوة بها فاصل ؛ وكانت السيدة أديث فى حال من الأسى والهياج ، وأحست بلهفة شديدة وهى تتبادل الحديث مع الفارس الأسكتلندى متعجلة مسرعة ، فأدى بها ذلك إلى أن تنسى أن خصلات شعرها كانت على شعث ، وأن جسمها لم يكن محكم الحجاب ، ولم يكن ذلك مما تألفه بنات الأسر الكريمة فى عصر لم يكن — رغم هذا — أكثر عصور العهد القديم تحسباً أو بصراً ؛ وكان أهم ما تسترت به رداء رقيق فضفاض من الحرير الأحمر ، وخف شرقى ، دفعت بقدميها العاريتين فيه على عجل ، ووشاح اتشحت به على كتفيها فى لهفة وبغير اكتراث ، وليس على رأسها ما يحجبه غير قناع من خصلات

شعرها الغزير المهوش ، تتدلى حوله من كل جانب ، وتحجب محياها حجابا خفيفا — وقد انتشرت الحمرة فيه مما اعتراها من مزيج المشاعر ، إذ أحست بالحياء والاستياء وغير ذلك من العواطف الشائنة العميقة .

وأحست أدith بموقفها بكل تلك الرقة التي هي أشد ما يسحرنا في الجنس اللطيف ، ولكن لم يطرأ لها لحظة أن ترفع حياءها إلى حد التغاضي عن أداء الواجب نحو هذا الرجل الذي انساق إلى الخطأ والخطر من أجلها ؛ حقا إنها جرت وشاحها ، وقربته من جيدها وصدرها ، وأسرت بنبذ مصباح كان بيدها ، يشع منه ضياء شديد على جسمها ؛ وبينما وقف السركنت لا يبدى حراكا في ذات المكان الذي شوهد به أول الأمر ، كانت هي إلى التقدم إليه أدنى منها إلى التقهقر عنه ، وهي تصيح مذعورة وتقول : « أسرع إلى مقر حراستك أيها الفارس الجسور ! لقد خُدت إذ سيق بك إلى هنا . عد ولا تسَل » .

فجنا الفارس على إحدى ركبتيه ، كأنه القديس أمام المذبح إخلاصا وتقديرا ، ثم قال : « ليس بي حاجة إلى سؤال » وأطرق يبصره نحو الأرض خشية أن يزيد بمرآه ما كانت عليه السيدة من حيرة وارتباك .

فقال أدith جازعة : « هل سمعت كل ما دار . يا كرام الأولياء ! إذن فلماذا أنت باق هنا ، وأنت تعلم أن كل دقيقة تنقضي معبأة بالخزي وامتهان الكرامة ؟ » فأجابها كنت وقال : « سمعتُ منك يا سيدتي أن الخزي قد أصابني ، فلست أبالي أن يحل بي الجزاء بعد هذا ، إنما لي لديك مطلب واحد ، لا أعبا بعده أن أسير خلال سيوف الكفرة علّني أحمو الخزي بالدماء »

فقال السيدة : « كلا ، لا تفعل ذلك . كن حكيما ولا تلبث هنا ؛ ولئن هممت بالعودة فلربما ينتهي الأمر بخير العواقب » .

فقال الفارس وما برح جاثيا : « إنما أنا أنتظر العفو منك عن جرأتى في الاعتقاد بأن خدماتي القليلة ربما سدت لديك حاجة أو لاقت منك تقديرا » .
« لقد عفوت عنك — يا إلهي ، ليس لدى ما أعفو عنه ! — لقد كنتُ

السييل إلى أذاك — ولكن بربك انصرف ! — لسوف أعفو عنك — ولسوف أقدر خدمتك — وذلك بمقدار ما أقدر كل صليبي مقدم — ولن تنال منى ذلك إلا إن انصرفت ! » .

ثم عرض الفارس الخاتم على أديث ، وهى تبدى من الشارات ما ينم عن الجزع ، وقال : « خذى أولاً هذا الميثاق النفيس القاتل » .

فقات وهى معرضة عن تناوله : « كلا ، كلا ، احتفظ به . احتفظ به دليلاً على تقديري — بل على أسنى . أوآه ، هلا انصرفت من أجلى ، إن لم يكن من أجل نفسك ! » .

فهب السر كنت من جثوة ، ورمى أديث بنظرة عجي ، وانحنى كثيراً ، وهم بالانصراف وكأنه قد أتيب — بما بدا عليها من لطفة على سلامته — عن كل ما افتقد ، حتى عن ضياع شرفه الذى افتضحته بنبرة صوتها . وفى تلك اللحظة عينها غلب على أديث ذلك الحياء العذرى ، الذى تمكنت حتى آنئذ بشدة انفعال مشاعرها من أن تكبح جماحه ، فخفت من الغرفة ، وأطفأت المصباح وهى تنصرف ، وخلفت فى خواطر السر كنت من بعدها اكتئاباً فى حسه ونفسه . وكان أول خاطر واضح أيقظ السر كنت من هواجسه وجوب طاعتها ، فسارع إلى المكان الذى ولى منه السراق ؛ ولكنه إن انزلق تحت السور كما دخل فإنه يحتاج لذلك إلى الوقت والحذر ، فثقب بخنجره السور الحائط ، وأصبح له بذلك مخرج ميسور ؛ وما إن خرج إلى الهواء الطلق حتى هاجمته المشاعر المتنازعة ، فقبل حسه وغلب على أمره ، ولم يستطع أن يستوثق من كنه ما مر به ومن حقيقة الأمر ، واضطر أن يحفز نفسه للعمل حيناً ذكر أن أمر السيدة أديث يتطلب العجلة ؛ وحتى بعد هذا كان لا بد له — وهو مشتبك بين الخيام وحبالها — أن يسير حذراً حتى يبلغ الطريق الجانبية التى سلكها القزم وإياه من قبل ، كي يتحاشى أعين الحراس الواقفين لدى سراق الملكة ، واضطر إلى أن يسير وئيداً حريصاً ، كي لا ينبه الأذهان إن هو خر على الأرض أو صلصل سلاحه ؛ وفى تلك

اللحظة عينها التي فصل فيها السر كُنْث عن الفسْطاط ، غشت القمر سحابة رقيقة ، واضطر الفارس أن يواجه هذه المشقة في وقت لم يكْدُ يُبقِ له دوار رأسه وخفقان قلبه من نفاذ البصيرة ما يكفي لأن يدبر به مسيره .

ولكن سرعان ما طرقت أذنيه الأصوات على حين غرة ، فثاب تواء إلى رشده وإلى قواه العقلية كاملة ؛ وكان جبل سنت جورج هو مبعث هذه الأصوات ، وكان أول ما سمع نباحاً منفرداً همجياً غاضباً متوحشاً تبعه على الفور صراخ الكرب والألم ، وما كان الظبي ليثب فازعا من صوت «رزوال» كما وثب السر كُنْث ، إذ خشى أن يكون ذلك الصوت هو نزع الموت يصيح منه ذلك الكلب النبيل ، الذي ما كان لأذى مألوف أن يستخلص منه أدنى شكاية من الألم ، فذلل الفارس المدى الذي كان يفصل ما بينه وبين الطريق ، وما إن بلغها حتى شرع يجري نحو الجبل ، ورغم أنه كان مثقلاً بالزرد فبا. كان لرجل أن يلحق به ، حتى وإن كان مجرداً عن السلاح ؛ ولم يترأخ في خطاه وهو يصعد جوانب الراية المضطئعة الشديدة الانحدار ، ولم تمض بضعة دقائق حتى كان فوق قمة الجبل .

وفي تلك اللحظة أرسل القمر سهام نوره ، وتبين له أن راية انجلترا قد اختفت ، وأن الرمح الذي كانت ترفرف فوقه كان ملقى على الأرض محطماً ، وإلى جواره كلبه الأمين يعالج سكرات الموت .

الفصل الرابع عشر

... لقد أضعت أذيال الشرف الطويلة ،
وقد جمعتها في شبابي وادخرتها لمشيتي !
ماذا ؟ هل غاض معين الشرف ؟
أجل ، لقد كان ،
ولتمض لإذن صغار الأطفال بأقدام عارية
يجمعون الحصا من مخاضة العين بعد جفافها .
دون سبستيان

اتتاب السر كنت فيض من الإحساسات المتضاربة ، كاد أول الأمر أن يذهله ويشتت ذهنه ؛ ولما أفاق كان أول ما خطر له أن يبحث عن اعتدوا على العلم الإنجليزى ، ولكنه لم ير لهم أثراً في أية ناحية من النواحي ، فخطر له ثانياً أن يفحص حال (رزوال) الأمين ، وقد أصيب بجراح قاتلة وهو — على ما يظهر — يؤدي الواجب الذى أغرى سيده بهجرانه ؛ وقد يبدو هذا الخطر غريباً لبعض القوم ، ولكنه ليس كذلك لكل من كانت له بالكلاب صلات وثيقة . أخذ كنت يدلل الكلب مخلصاً حتى النهاية ، فتناسى الكلب آلامه من أثر السرور الذى أحس به من قرب سيده ، ولبث يهز ذيله ، ويلق يديه ، حتى حينما كانت أناته الضعيفة تدل على أن آلامه كانت تتزايد كلما حاول السر كنت أن يستخلص من الجرح شظايا الرمح أو النشاب الذى أصيب به ؛ وأخذ الكلب يضاعف من إعرازه لصاحبه — رغم فتوره وضعفه — كأنه كان يخشى أن يسىء إليه إن هو أبدى إحساساً بالألم الذى أصابه من جراء تعرضه للدفاع ؛ ولقد كان في هذا المظهر الذى ظهر به الكلب وهو يعالج سكرة الموت ، مظهر التعلق بصاحبه ، شئ من المرارة اختلط في نفس السر كنت بشعوره بالخزى والوحشة اللذين حاقاه ؛ وشعر كأن صديقه الأوحى قد رحل عنه في الوقت الذى كان يحس فيه بالازدراء والبغضاء لكل من عداه ، فلم يسع الفارس — رغم صدق غريزته — إلا أن يستسلم للانفجار من هذا الكرب الأليم ، فأخذ يتأوه ويكي بكاء مرا .

وبينا هو كذلك مستغرق في الهم ، إذا بصوت جهورى وقور وراءه وعلى مقربة منه ينطق بهذه الكلمات ، برنين فيه نغم القراء في المساجد ، وباللغة الفرنجية التي كان يفهمها المسيحيون والأعراب على السواء .

« إنما المصائب كالطر المتلاحق — فيه للإنسان والحيوان برودة ومشقة وعداوة ، وفيه كذلك حياة للزهر والتمر والورد والرمان » .

فتلفت السر كنت فارس النمر صوب المتكلم ، ووقع بصره على الطبيب العربى وقد اقترب صامتاً ، وجلس خلفه وقريباً منه ، ووضع ساقاً فوق الأخرى ، وأخذ — فى هدوء ورزاة وبنعمة تنطوى على العطف — ينطق بالحكم والأمثال التى فيها للإنسان عزاء ، وقد استمدّها من القرآن وأقوال المفسرين ؛ وليست الحكمة فى الشرق فى ما يُظهر الحكيم من قوة الابتكار بمقدار ما هى فى حضور الذاكرة وإجادة التطبيق والإشارة إلى « الكلام المسطور » .

وخجل السر كنت إذ بوغت وهو ينفس عن أساه كما تنفس النساء ، فسح دموعه ، وأزالها حياءً وخزياً ، ثم أخذ يشتغل ثانية بكلمه العزيز وهو يفارق الحياة . وواصل العربى حديثه ، ولم يسترع التفاته أن الفارس قد أشاح ببصره ، أو ما كان يعملو محياه من الاكتئاب ، وقال : « لقد قيل : (الثور للحقل ، والجل للصحرأ) ، أليست يد الطبيب ألين من يد المقاتل لشفاء الجروح ، وإن تكن أقل منها قدرة على ثلها ؟ »

فقال السر كنت : « ليس لك بهذا المريض أيها الحكيم حيلة ، وهو فوق ذلك حيوان نجس فى شريعتكم » .

فقال الطبيب : « حيثما من الله بالحياة ، وأوجد الحس باللذة والألم ، فإنه لكبيراء باطل من الحكيم — وقد أنار الله بصيرته — أن يحجم عن أن يمد أجل البقاء ، أو يخفف وقع الألم . إنما علاج الخادم البائس ، أو الكلب المسكين ، أو الملك الظافر ، سواء لدى الحكيم ، كلها أمور لا نفرق بين أحدها وبين الآخر ؛ دعنى أفحص هذا الحيوان الجريح » .

فأسلم له السر كنت صامتا ، وأخذ الطبيب يفحص ما برزوال من جراح ،
ويقلبه بين يديه بحرص وعناية كأنه مخلوق آدمي ، ثم استخرج حقيية بها بعض
آلاته ، وأولج في جسم الكلب مسبرا بحكمة ومهارة ، واجتذب من كتفه الجريحة
شظايا السلاح ، ثم أوقف بالأدوية الواقية والضمادات ما عقب ذلك من تدفق الدماء ،
والكلب خلال ذلك يكابد الألم صابراً ، ويستسلم للطبيب وهو يعالجه برفق ،
كأنه يدرك طيب طويته .

وقال الحكيم موجهاً للسر كنت الخطاب : « إن في شفاء الكلب لرجاء لو
أذنت لى أن أحمله إلى خيمتى وأعالجه بالعناية التى يستحقها نبل طبيعته ، ولتعلم أن
خادمك « أدنبك » ليس بفصائل الكلاب وكرام الخيل وسلالاتها وطباعها ،
أقل حذقا منه فى الأمراض التى تصيب البشر » .

فأجاب الفارس وقال : « إذن فلتصطحبه ، وإنى أهبك بغير مقابل إذا عوفى ،
إنى مدين لك بالجزاء على عنايتك بخادى ، وليس لدى غير ذلك أرد لك به حسن
صنيعك . أما أنا فلن أنفخ بعد اليوم فى بوق أو أنادى كلبا ! »

فلم يجر العربى جوابا ، وإنما صفق بيديه إشارة أجيت على الفور بمثول عشرين
أسودين ، أصدر لهما أمره بالعربية وأجابه « سمعا وطاعة » ، ثم حملا الكلب بين
أذرعهما ، ورفعاه بغير كبير مقاومة من جانبه ، لأنه — وإن يكن قد رفع بصره
نحو سيده — لم يقو على المناضلة .

فقال السر كنت : « أستودعك الله إذن يا رزوال ، وداعا يا صاحبي الأوحد
والأخير ، إنما أنت أنفس من أن يملكك رجل له ما سوف يكون لى فى مستقبل
أيامى » ، ولما تراجع العبدان قال : « وددت لو أنى بدلت بحالى حال هذا الحيوان
النبل ، رغم أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ! » .

فأجاب العربى مع أن السر كنت لم يتوجه إليه بهذا الرجاء وقال : « لقد
كتب على المخلوقات جميعا أن تكون فى خدمة الإنسان ، فإذا كان سيد الأرض

يود لو يبدل — وهو جازع — بأمله في الدنيا والآخرة حالاً وضيعة يعيش عليها مخلوق دنيء كالكلب ، فإنه لا ينطق إلا حمقا .

فقال الفارس عابسا : « إنما الكلب الذي يموت في أداء واجبه خير من الإنسان الذي يحيا بعد إهماله ؛ دعني أيها الحكيم . أجل ، إن لديك بطبك المعجز أعجب ما وصل إليه الإنسان من علم ، ولكن جراح الروح فوق طاقتك » .
فقال أدنبك الحكيم : « كلا ، ليس كذلك إن كان المريض يبوح برزئه ، ويسلس للطبيب القياد » .

فقال السر كنث : « ما دمت تلحف كذلك فلتعلم إذن أن راية انجلترا كانت الليلة البارحة مرفوعة فوق هذه الراية — وكنت على حراستها — لقد انبثق النهار — انظر ترى رمح العلم المحطم ملقى هناك — وقد افتقدت الراية نفسها — وهأنذا أجلس هنا على قيد الحياة ! »

فأجاب الحكيم وهو يتفرسه وقال : « كيف كان ذلك ! إني أرى درعك سليما ولا أرى أثرا للدماء على سلاحك ؛ وذكرك بين الناس ينطق ببعد احتمال عودك هكذا بعد القتال . أجل ، لقد انسقت من منصبك ، وجذبتك بورد خديها ، وهور عينها ، إحدى أولئك الحور ، اللاتي يحملون لهن — أنتم أيها النصارى — ولاء يليق برب السموات ، لا جبا يجوز التوجه به شرعا لمخلوقات مثلنا من الطين . لا شك في أن الأمر كان كذلك ، فهكذا زل الإنسان منذ الأزل من يوم أينا آدم » .

فرد عليه السر كنث مكتئبا وقال : « وإن كان الأمر كذلك أيها الطبيب فما دواؤك ؟ » .

فقال الحكيم : « العلم فوق المقدرة ، كما أن الشجاعة فوق القوة — استمع إلى ، ليس الإنسان كالشجرة معقودا بمكان واحد من الأرض ، وليس مصاغا بحيث يتشبث بصخرة واحدة جرداء كالقوقعة تكاد لاتذب فيها الحياة ، وكتابكم المسيحي يأمركم إن لا قيم جورا بيلد أن تلوذوا بيلد آخر ، ونحن المسلمين كذلك

تعرف أن محمداً رسول الله بعدما فر من مكة المكرمة أوى إلى المدينة وألقى بها أنصاراً .
فقال الأسكتلندي : « وما شأن هذا بي ؟ » .

فأجابه الطبيب قائلاً : « شأن كبير ، ألا تعلم أن الحكيم نفسه يتوارى عن العاصفة إن كان لا يستطيع لها رداً ؟ إذن فلتعتمد إلى العجلة وتفر من نقمة رتشارد إلى ظل راية صلاح الدين الطافرة » .

فرد عليه السر كوث ساخراً وقال : « إذن لسوف أخفى عارى في معسكر الكفرة الذين لا يعرفون لهذه الكلمة معنى ؛ ولكن أليس خيراً لي أن يلحق بى عارهم ؟ هلا توصيتني بلبس العامة ؟ تالله لم يعد لي إلا أن أردت عن ديني كي تبلغ فضيحتي منهاها » .

فقال الطبيب عابساً : « لا تجدف أيها النصراني ، إن صلاح الدين لا يقبل في دين محمد إلا أولئك الذين يؤمنون بقواعد الإسلام . افتح عينيك للنور — إن شئت — يهبك السلطان العظيم مُلكاً ، فهو رجل ليس لجوده أو سلطانه حد ، وإن شئت فلتبقي أعمى البصيرة ، فن يكون نصيبك من الحياة الآخرة غير الشقاء ، ولكن صلاح الدين سوف يغنيك ويسعدك في هذه الدار الفانية ؛ ولا تخش أن تطوق حاجبك العامة إلا إن أردت ذلك راغباً » .

فقال الفارس : « إنما إرادتي أن يسودّ جيبني القطب ، وهو ما يحتمل وقوعه عند مغيب الشمس هذا المساء » .

فأجاب الحكيم وقال : « كلا ، ليس من الحكمة في شيء أيها النصراني أن تنبذ ما عرضت عليك ؛ إن لي على صلاح الدين لسلطاناً ، وأنا أستطيع أن أرفع من شأنك حتى تشملك رعايته . استمع إلي يا بني ، إن هذا المشروع المهمجي الذي تسمونه الحرب الصليبية ليس إلا كالسفين يشق عباب الماء ؛ لقد حملت بنفسك شروط الهدنة من الملوك والأمراء — الذين تتجمع جيوشهم هناك — إلى السلطان العظيم ، وربما لم تكن تعلم كل ما كانت ترمي إليه رسالتك » .

فقال الفارس وقد تملكه الجزع : « لست أعرف ولا يهمني أن أعرف ؛

وماذا يعني أنى كنت منذ حين رسول الأمراء ، ما دمت سوف أمسى — قبل أن يسدل الليل ستاره — جثة مهينة تحت المفصلة ؟ » .

فأجابه الطبيب وقال : « كلا ، سوف أسعى فى أن يكون إلى غير ذلك منهاك ؛ إنهم جميعا يتوددون إلى صلاح الذين ؛ إن اتحاد الأمراء فى هذا المجمع ، الذى تألف لمعارضته ، قد تقدم إليه يعرض المهادنة والصلح ، ولو كنا فى زمان غير هذا لكان جديراً بشرف صلاح الدين أن يمنحهم سؤالهم ؛ وسعى إليه غير هؤلاء بالأصالة عن أنفسهم يعرضون فصل قواهم عن معسكر ملوك الفرنجة ، بل ويعيرون أسلحتهم للذود عن راية الإسلام ، ولكن ليس صلاح الدين بالذى يقبل الخدمات من أمثال هؤلاء الخونة العاجزين ذوى المنافع الخاصة ؛ ليس للملك الملوك أن يأتى غير الملك الأسد . إن صلاح الدين لن يعقد مع أحد ميثاقاً سوى الملك رتشارد ، وسوف يواتيه كما يواتى الأمير الأمير ، أو يقاتله كما يقاتل البطل البطل . إنه يسلم لرتشارد — لجوده وسخائه — بشروط ليس لسيوف أوروبا جميعا أن تفرضها عليه عنوة أو إرهاباً ، إنه يسمح بالحج دون قيد أو شرط إلى بيت المقدس وإلى كل مكان يحب النصارى أن يتعبدوا فيه ؛ بل إنه ليقسم حتى دولته مع أخيه رتشارد ، فيسمح للجاليات المسيحية أن تقيم فى أشد مدن فلسطين الست قوة وفى بيت المقدس ذاته ، ويرضى لهم أن يكونوا تحت إمرة ضباط رتشارد مباشرة ، ويقبل هؤلاء الضباط أن يحملوا اسم (حرس فلسطين الملكى) ، وفضلاً عن ذلك لتعلم يا سيدى الفارس — وقد يبدو لك ما سأحدثك به أمراً غريباً لا يحتمل التصديق ، ولكنى سأبوح إكراماً لك بهذا السر الذى يكاد لا يصدقه أحد — اعلم أن صلاح الدين سوف يختم بخاتم قدسى على هذا الائتلاف السعيد بين أشجع الشجعان وأنبى النبلاء فى بلاد الفرنجة وفى آسيا : وذلك بأن يرفع إلى مرتبة الزوجية الملكية فتاة مسيحية تصلها بالملك رتشارد أوامر الدم وتعرف باسم السيدة أدith بلانتاجنت^(١) .

(١) قد يبدو هذا الاقتراح شاذاً غير مقبول ، فينبغى أن نقول إنه قد وقع حقيقة ، =

فصاح السر كنهث قائلا : « ها ! أفهذا ما تقول ؟ » وكان يستمع شارد اللب غير آبه إلى الشطر الأول من حديث الحكيم ، إلا أن هذا الخبر الأخير قد مس منه كامن حسه ، وأيقظه كما توقظ رجفة الأعصاب — حين تنتفض على حين بقتة — الحسَّ بالألم حتى في سبات المفلوج ، ثم خفف من نبرة كلامه ، وإن يكن قد عانى في ذلك ما عانى ، واكتتم ما أحس به من امتهان الكرامة ، وستره بستر من الريبة والازدراء ، ثم واصل الحديث كي يظفر بأكثر ما يستطيع من علم عن هذه المؤامرة — وقد ظنها كذلك — هذه المؤامرة التي كانت تدبر ضد فتاته ، ضد شرفها وسعادتها ، ضد تلك التي لم ينتقص من حبه لها ما أصاب جده وشرفه بسببها ، فقال في سكينته وهدوء : « وأى مسيحي ذلك الذي يصادق على عقد غير طبيعي ، كذلك الذي يكون بين مسيحية عذراء وعربي مسلم ؟ » .

فأجاب الحكيم وقال : « إنما أنت نصراني جاهل متعصب ، أفلم تر إلى الأمراء المسلمين كيف يتزاوجون كل يوم مع النيبلات من عذارى أسبانيا النصرارى ، وما في هذا عار على مغربي أو مسيحي ؟ ولسوف يسمح السلطان النبيل — لثقتة التامة في دم رتشارد — للفتاة الإنجليزية بالحرية التي وهبتها المرأة طباعكم الفرنجية ، سوف يسمح لها بالحرية في ممارسة دينها ، وسوف يخضعها بمكانة ومرتبة فوق نساءه جميعاً ، فتتيت من كل وجه ملكته الفريدة المطلقة » .

فقال السر كنهث . « كيف تجرؤ أيها المسلم على أن تحسب أن رتشارد يتنازل عن قريبته ، وهي أميرة فاضلة كريمة النسب ، لتكون — أحسن ما تكون — فضلى الإماء بين (حريم) رجل مسلم ! اعلم أيها الحكيم أن أدنى مسيحي نبيل حر يأبى لابنته مثل هذا العار الشنيع » .

= ومع ذلك فإن المؤرخين يستبدلون ملكة نابلس الأرملة بأخت رتشارد هذه العروس ، وأخى صلاح الدين بهذا الزوج ؛ ولكن يخيل لى أنهم كانوا يجهلون وجود أدب بلاتنا جنت — ارجع إلى « تاريخ الحروب الصليبية » تأليف مل — صفحة ٦١ من الجزء الثانى .

فرد عليه الحكيم وقال : « والله لقد أخطأت ، ولقد نما هذا الرأى إلى فيليب ملك فرنسا ، وهنرى صاحب شبانيا ، وغيرهما من زعماء أحلاف رتشارد ، ولم يصعق أحدهم للخبر ، ووعدوا جميعا أن يسعوا ما وسعهم السعى فى حلف قد تكون فيه نهاية هذه الحرب الضروس ؛ وقد أخذ الرجل الحكيم كبير قساوسة (صور) على نفسه أن يزف هذا المقترح إلى رتشارد ، ولا تداخله رية فى أنه سوف يستطيع أن يسوق الخطة إلى خير غاية ، وقد احتفظ السلطان — لحكمته — بهذا الأمر سرا ، وكتبه على أمثال صاحب منتسرا ورئيس فرسان المعبد ، لأنه يعلم أنهما وأمثالهما يسعون إلى الفلاح من وراء حلف رتشارد أو خزيه ، لا عن سبيل حياته وشرفه — فهيا إذن ياسيدى الفارس ، وامتنط صهوة جوادك ، وسأعطيك مكتوبا يرفع من شأنك لدى السلطان ، ولا تحسبن أنك تارك بلادك أو قضيتها أو دينها مادام صالح الملكين عما قريب سوف يتحد ؛ إن مشورتك سوف تلقى من صلاح الدين خير القبول ، مادام فى وسعك أن تخبره بالكثير عن الزواج لدى المسيحيين ، وكيف يعاملون أزواجهم ، وغير ذلك من أمور شريعتهم وعاداتهم ، فإن السلطان يهمله كثيرا أن يعرف ذلك من أجل المعاهدة . إن السلطان يقبض على كنوز الشرق يميناه ، ومنها تنفجر عيون الجود والسخاء ؛ ولن يتعسر على صلاح الدين — إن تحالف مع انجلترا — أن يظفر من رتشارد لا بالعفو عنك وردك إلى حظيرة الرضى فحسب ، وإنما يستطيع أن يحصل لك كذلك على قيادة شريفة بين من قد يتخلف من جنود جيش ملك انجلترا للإبقاء على حكمهما المشترك فى فلسطين ، فهيا إذن واركب جوادك وأمامك الطريق واضحة » .

فأجابه الفارس الأسكتلندى وقال : « أيها الحكيم ، إنما أنت رجل من رجال السلم — وإنك كذلك أنقذت حياة رتشارد ملك انجلترا — بل وحياة خادمى المسكين (ستروخان) ، ولنا فلقد أصغيت إليك حتى النهاية وأنت تتحدث فى أمر لو أن رجلا مسلما غيرك تقدم به إلى لأوقفته بطعنة من خنجرى ! أيها الحكيم ، إني أنصح لك — جزاء رأفتك — أن تنصح العربى الذى يتقدم إلى رتشارد

يطلب وصل دم بلا تاجنت بدمه الكريه ، بلبس خوذة تقوى على تلقي ضربة بالفأس كتلك التي دكت تحتها أبواب عكا ، وإلا فلا ريب أنه سوف يضع نفسه موضعا ينأى حتى عن حذقك ومهارتك » .

فقال الطبيب : « إذن فلقد اعتزمت عامدا مصرا على ألا تفر إلى صفوف الأعراب ؛ ولكن ألا فلتذكر أنك قد قلت إن في هذا قضاءك المحتوم ، وحدود شريعتكم — كحدود شريعتنا — تحرم على المرء أن يعتدى على حرم حياته » .

فرسم الأسكتلندى علامة الصليب على نفسه وقال : « حاشا لله ، ولقد حرم علينا كذلك أن نتحاشى ما يحق على ذنوبنا من جزاء ؛ ولكن عقيدتك في الله ضعيفة أيها الحكيم ، وإنه والله ليحفظني أنى وهبتك كلبى الكريم ، لأنه إن عاش فسوف يكون له صاحب جاهل بقدره » .

فقال الحكيم : « إن العطية إن ضمن بها معطيها فكأنه يستردها ، ولكننا معشر الأطباء قد أقسمنا أن لا نرد مريضا بغير علاج ؛ لأن شفى الكلب فلسوف يكون ثانية لك » .

فأجاب السر كنث وقال : « اذهب أيها الحكيم ، إن المرء لا يتحدث عن البراة والكلاب حينما لا يكون بينه وبين الموت غير ساعة من نهار ، دعنى أذكر ذنوبى وأتقرب إلى الله » .

فقال الطبيب : « إنى أدعك لعنادك ، إن الغيوم لتخفى وراءها المنحدر فلا يراه أولئك الذين كتب الله عليهم الهبوط من فوقه » .

ثم تسلل وئيدا ، ولبث يتلفت وراءه الفينة بعد الفينة ، كأنه يرقب عسى أن يستدعيه هذا الفارس المخلص بكلمة أو إشارة ، وأخيرا اختفى هذا الرجل المغمم بين تيه الخيام التي كانت تمتد في أسفل الجبل ويباضها ينصع في ضوء الفجر الشاحب — وقد اندحر أمامه شعاع القمر .

ولم يكن لكلمات « أدنبك » الطبيب على السر كنث ذلك الأثر الذى كان يرى إليه الحكيم ، إلا أنها بعثت في الأسكتلندى حب الحياة ، وقد كان منذ حين

يود لو يفارقها كأنها ثوب ملوث لم يعد يليق به ارتداؤه ، وذلك رغم أنه كان يحسب أنه يتسم بالخزى والهوان ، وعاد إلى ذاكرته كثير مما دار بينه وبين الناسك ، ومما شهد بين الناسك وشيركوه (أو الضريم) ، ومال به ما ذكر إلى تأييد ما خبره به الحكيم عن الشرط الخفي الذي ورد بالمعاهدة .

ثم صاح محدثاً نفسه : « ياله من محال في ثياب الشرف ^(١) ! ياله من منافق أشيب ! لقد تحدث عن الزوج المشرك كيف ترده عن شركة الزوجة المؤمنة ؛ وماذا عساي أن أعرف غير أن الخائن قد عرض على العربي ما جبا الله أدب بلاتناجت من جمال ، حتى يستطيع هذا الرجل أن يحكم إن كانت هذه الأميرة المسيحية تليق بأن تنخرط في سلك « حريم » رجل مسلم ؟ والله لو وقع ذلك الرجل « الضريم » — أو أيا كان اسمه — ثانية في قبضتي التي أمسكت عليه بها يوماً إمساكاً شديداً ، كما أمسك كلب الصيد بالأرنب ، فلن يأتي أحد ثانية — وهو خاصة — برسالة مشينة بشرف ملك مسيحي أو فتاة نبيلة فاضلة . . . إن ساعاتي تتناقص سريعاً إلى دقائق ، ولكن لا بد رغم ذلك من أداء عمل ما ، ولا بد من أدائه سريعاً ، ما دام في عرق ينبض ونفس يتردد » .

وسكت بضع دقائق ، ثم رمى بخوذته ، وانطلق مسرعاً من فوق الجبل ، وسار في الطريق المؤدية إلى سراق الملك رتشارد .

(١) الضمير يعود على الناسك .

الفصل الخامس عشر

نفخ الديك — وهو ذاك المنشد المريش —
في البوق ؛ يعلن للقروى الباكر إشراق الصباح .
ورأى إدوارد الملك خيوط الضياء الموردة
بتراجع من وهجها الظلام ،
واستمع إلى الغراب الأسخم ناعبا ،
ينادى بانصرام يوم من الزمان .
فقال الملك : « إنك لعلى حق ،
وإني لأقسم بالله الذى يتربع على العرش فى السماء ،
ليومتن اليوم (شارل بودوين) وصاحباه »
تشارترن .

فى الليلة التى استولى فيها السركنث على منصبه ، أوى رتشارد إلى فراشه بعد
ذلك الحادث العاصف الذى عكر صفو المساء ، وهو أشد ما يكون ثقة بالنفس ؛ وقد
أوحت إليه بهذه الثقة شجاعته التى لا تحد ، وذلك الفضل الذى أحرزه على غيره
حينما أصاب مرماه على مرآى من الجيوش المسيحية وزعمائها جميعا ؛ وكان يعلم
أن كثيرا منهم من كان يرى فى دخيلة نفسه أن المهانة التى لحقت بدوق النمسا إن هى
إلا انتصار عليه ؛ وإذن فلقد أشبع رتشارد كبريائه ، فإنه إذ كبح عدوا قذأذل مئين .
ولو أن هذا الأمر قد وقع لملك آخر لضاعف من حرسه فى المساء بعد هذا
الحادث ، ولأبقى جانبا على الأقل من جنوده بالسلاح مدججين ، ولكن قلب
الأسد صرف على أثر ما وقع حتى حرسه الذى اعتاد ، وخص جنوده بهبة من
النبذ ، كي يحفلوا بشفائه ، ويشربوا نخب راية سنت جورج ؛ ولولا أن سرتوماس
دى فو وإيرل سولزبرى ، وغيرهما من الأشراف ، قد اتخذوا الحيلة لحفظ السكينة
والنظام بين الحافلين ، لا نطبع على هذه الناحية من المعسكر التى يشغلها الملك طابع
الفوضى والاستهتار .

أما الطبيب فقد سهر على الملك مذ أوى إلى فراشه حتى انصرم الهزيع الأول

من الليل ، وفي هذه الفترة ناوله الدواء مرتين ، وهو في كل مرة يرقب في السماء ذلك البرج الذي يتربع فيه بدر التم ، فإن للبدر — كما يقول الطبيب — أثر على فعل عقاقيره ، يجعل فيها الحياة أو الهلاك ، وانقضت ثلاث ساعات بعد ما تصرم النصف الأول من الليل ، ثم تسلل الحكيم من السرادق الملكي إلى سرادق آخر ضرب له ولأتباعه ، وإذ هو في طريقه إلى هناك ، عرّج على خيمة السر كنه فارس النمر ، كي يرى حال مريضه الأول في معسكر المسيحيين ، وهو (ستروخان) ذلك الرجل المسن خادم الفارس ، ولما استعلم هناك عن السر كنه نفسه ، علم الحكيم على أى واجب كان يقوم ، وقد دفع به هذا الخبر إلى جبل سنت جورج ، حيث ألفاه وهو في ذلك الظرف المنكوب الذى أشرنا إليه في الفصل السابق .

وقبيل شروق الشمس ، نما إلى سرادق الملك وقع خطوات وثيدة دانية من قوم مسلحين ، وما إن هب دى ثو من مرقدته وتساءل « من القادم ؟ » — وكان ينام إلى جوار فراش سيده نوما خفيفاً ، ولم يأخذ الكرى بمعقد جفنيه إلا كما يأخذ بجفون كلاب الحراسة — حتى ولج الفسطاط فارس النمر ، تملو ملامح الرجولة فيه كآبة عميقة بعيدة المدى .

فقال دى ثو عابسا ، وفي نعم كلامه نبرة الاحترام لسبات سيده : « فيم هذا التهجم الجريء يا سيدى الفارس ؟ » .

فتيقظ رتشارد توا وقال : « صه يادى ثو ! لقد أقبل علينا السر كنه إقبال الجندى الكريم ، يقص علينا قصة حراسته — ولثل هذا ينبغى أن يكون سرادق القائد أبداً قريب المنال ، ثم نهض من نومه ، وارتكز على مرقدته ، ورمى المقاتل بعينه الواسعيتين البراقتين ، وقال : « تكلم ياسيدى الأسكتلندى ؛ لقد أتيت يتحدثني عن حراسة يقظة آمنة شريفة ، أليس كذلك ؟ إن حفيف ثنايا راية انجلترا قين وحده بحراسة العلم ، حتى دون أن يمثّل مثل هذا الفارس بشخصه فيراه كل ذى عينين » .

فأجاب السر كنه قائلاً : « كلا ، لن يرانى بعد اليوم أحد ، إن حراستى لم

تكن يا مولاي يقظة ولا آمنة ولا شريفة ، ولقد امتدت إلى راية أنجلترا يد واختطفها .

فأجاب رتشارد وفي صوته نبرة الازدراء والتكذيب وقال : « وما برحت على قيد الحياة تذكر ذلك ؟ عني ! إن هذا لن يكون . إني لا أرى أثراً لخدش على حياك . خبرني لماذا أنت مائل كذلك صامتا ؟ أصدقني واعلم أن المزاح مع الملوك خطير — ومع ذلك فلأعفون عنك إن كان كذبا ما تقول . »

فرد عليه الفارس البائس وقال : « لم يكن كذبا ما خبرتك يا مولاي المليك ! » وفي صوته نغم التأكيد الجاف ، وفي عينيه سهام من النار براقة نافذة متألقة ، كأنها وميض الصوان المتحجر البارد ، ثم قال : « ولكن ينبغي أن أصمد هنا كذلك — هذا هو الحق خبرتك به يا مولاي . »

فانفجر الملك في عاصفة من الغضب ، ما لبثت أن خمدت وسكن ثأرها ، وقال : « يا لله ! ويا لسنن جورج ! دى ثو ، إذهب إلى المكان وألق عليه بنظرة — لقد عكّرت هذه الحمى صفو ذهنه — إن هذا لن يكون — حسب شجاعة الرجل مناعة — إن هذا لن يكون ! — إذهب — عني سريعا — أو أرسل من لديك رسولا إن كنت لا تريد الانصراف . »

وهنا استوقف الملك السر هنرى ثقيل ، وقد أقبل متقطع الأنفاس يقول إن الراية قد اقتلعت ، وإن الفارس الذى كان يقوم على حراستها قد غلب على أمره ، وغالب الظن أنه قتل ، لأنه رأى بركة من الدماء إلى جوار رمح العلم المحطم . وما إن وقعت عينا ثقيل بغتة على السر كنث حتى تساءل « من ذا أرى هنا ؟ » فهب الملك على قدميه ، وأمسك بالفأس القصيرة التى كانت أبداً لا تبرح جوار فراشه ، وقال : « خائنا ، خائنا ! ولسوف تراه يموت ميتة الخونة » ثم جذب سلاحه إليه كأنه يريد أن يضرب به .

ووقف الاسكتلندى أمامه ممتنع اللون ، ولكنه رابط الجأش ، كأنه تمثال من المرمر ، ورأسه عار لا يقيه لباس ، وعيناه مطرقتان نحو الأرض ، وشفتاه

لا تكادان تبسان ، والراجح أنه كان يتمم بالدعوات ، ووقف الملك رتشارد قبالة على قيد رمح ، وقد ادثر جسمه الضخم بين طيات ثوب من الكتان فضفاض ، وتستريحه ، إلا حيث أزال انفعاله الشديد الدثار من فوق ساعده الأيمن وكتفه وجانبه من صدره ، وبدا للعيان كأنه مثال من صورة إنسانية جديرة بالصفة التي كان يتصف بها سلفه السكسوني وهي « جانب الحديد » . ولبت هنيهة متأهباً للضرب ، ثم أمال رأس السلاح صوب الأرض ، وصاح متعجباً وقال : « أفكانت هناك دماء يا ثقل — هل كان لدى المكان دم . استمع إلى ياسر كنه — لقد كنت بأسلا في يوم من الأيام ، ولقد شهدتك وأنت تقاتل ، فهلا قلت لي إنك جندلت لصين دفاعاً عن العلم — بل جندلت واحداً — بل قل لي إنك ضربت ضربة قوية في سبيل ، ثم انصرف عن المعسكر بحياتك وخزيك ! » .

فأجابه كنه رابط الجأش وقال : « مولاي الملك ؛ لقد دعوتني كاذباً ، ولقد أسأت إلي في هذا على الأقل ؛ أعلم أنه لم تُرق في سبيل النود عن العلم دماء ، اللهم إلا دم الكلب المسكين ، حين تصدى للدفاع عن الواجب الذي هجره صاحبه ، والكلب أشد إخلاصاً منه » .

فقال رتشارد : « بحق القديس جورج » ؛ وهمّ بساعده ثانية — ولكن دى ثورمى بنفسه بين الملك ومحط نغمته ، وشرع يدلي بذلك الصدق الصراح الذي يتخلق به ؛ قال : « مولاي ، لن يكون هذا ، لن يقع هذا الأمر هنا ، ولن تتلوث به يدك ؛ وكفى حقاً بين عشية وضحاها ، أن نكل أمر العلم إلى رجل اسكتلندي — ألم أقل لك إنهم أبداً على ظاهر من الحق وباطن من الباطل ؟ » ^(١) .

فأجاب رتشارد وقال : « أجل ، لقد فعلت يا دى ثورم ، ولقد أصبت ، وإني

(١) بهذه النعوت ألف الإنجليز أن يتحدثوا عن حيرانهم المساكين من أهل الشمال ، ناسين أن اعتداءهم على استقلال اسكتلندا قد أكره هذه الأمة الضعيفة على أن تدفع عن نفسها بالدهاء كما تدفع عنها بالقوة ؛ وينبغي أن يقسم الحزب في هذا لإدوارد الأول وإدوارد الثالث اللذان فرضا سلطانهما فرضاً على أمة حرة ، وأهل اسكتلندا الذين أكرهوا إكراهها على أن يقسموا يميناً وليس في عزهم أن يبروا بها .

بذلك أقر . كان ينبغي لى أن أعرفه خيراً من هذا ، وكان ينبغي أن أذكر كيف أن الثعلب وليم قد خدعنى فى أمر هذه الحرب الصليبية » .
فأجابه السركنت وقال : « مولاي ، إن وليم الأسكتلندى لم يخدعك ، ولكن الظروف لم تمكنه من حشد جنوده » .

فقال الملك : « مهلاً بعض هذا واستح قليلاً ! إنك تلوث اسم الأمير حتى إن لفظت به » ، ثم أردف بقوله : « ولكن ، مع هذا ، إنه لعجيب يادى قو مسلك هذا الرجل ، إنه إما جبان أو خائن ، ولكنه صمد — رغم ذلك — لضربة رتشارد بلا تاجت حينما ارتفع ساعدنا لوسم الفروسية على كتفه^(١) ؛ والله لئن كان قد أبدى أنفه دليل على خوفه ، والله لو كانت قد ارتعدت منه فريضة أو ارتجف له جفن ، لهشمت رأسه كما تهشم القدح من البلور ، ولكن ما كان لى أن أضرب حيث لا خوف هناك ولا صدود » .

ثم كان سكون .

ثم قال كنت : « مولاي . . . » .

فاعترضه رتشارد وأجابه قائلاً : « ها ! آلاآن عرفت الكلام ؟ أدع ربك الرحمة ولا تدعنى ، لقد لحق بانجلترا العار من جراء خطئك . ووالله لو كنت لى أخا ، ولولم يكن لى سواك أخ ، لما عفوت عن إثمك » .

فقال الأسكتلندى : « إني لم أتكلم طلباً للرفقة من إنسان فان ، إنما الأمر لجلالتكم إما جدتم أو ضننتم على بالوقت أ كفر فيه عن سوء آتى كما يكفر المسيحيون ؛ ولئن أنكر الإنسان على هذا فالله أرجو أن يهينى المغفرة التى أطلب من الكنيسة بعد الله ! وسواء مت الآن أو بعد هذا بنصف ساعة فإني ألتس من جلالتكم أن تهينى الفرصة لحظة واحدة أتحدث فيها إلى شخصك الكريم بما يمس ذكرك كملك مسيحي مساً شديداً » .

فأجابه الملك وقال : « هيا ، قل ما تريد » . ولم يشك فى أنه إنما كان يتأهب

(١) يشير إلى العادة التى كانت تتبع فى العصور الوسطى عند منح الرجل مرتبة الفروسية .

للإصغاء إلى شيء من الاعتراف في أمر يخص العلم .
قال السر كنث : « إن ما سوف أذكر يمس ملكية انجلترا ، وينبغي أن لا يتطرق إلى غير أذنك » .

فقال الملك لثقل ودي ثو : « اعزبا عني سيدي » .

فصدع أولهما بالأمر ، وصمد ثانيهما في حضرة الملك لا يبدى حراكا .
وأجاب دي ثو مولاه قائلاً : « ألم تقل مولاي إني على جادة الصواب ؟ إذن فلتعاملني كما ينبغي أن يعامل من هو على محجة الحق — وإذن فلتبق لي إرادتي ، وإني لن أتركك وحدك مع هذا الأسكتلندي الأفاك » .

فقال رتشارد غاضبا وهو يضرب الأرض بقدمه ضربا خفيفا : « كيف هذا يادي ثو ! وكيف لا تأمن على شخصنا مع خائن واحد ؟ » .

فأجاب دي ثو وقال : « عبثا يا مولاي أن تقطب جبينك أو تضرب بقدمك . إني لا آمن أن أترك رجلا مريضاً مع آخر معافي ، رجلاً مجرداً عن السلاح مع آخر مسلح ممتنع » .

فقال الفارس الاسكتلندي : « ليس هذا بأمر ذي بال ، إني لن أتلمس المذرة كي أستأخر الزمن ، ولأتكلمن في حضرة لورد جلزلاند فإنه سيد كريم صادق » .
فأجاب دي ثو وفي صوته رنة الأسمى ، وفيها مزيج من الحزن والحلق وقال :
« لقد كنت أقول عنك مثل هذا القول منذ نصف ساعة ! »

ثم استأنف السر كنث حديثه وقال : « إن الغدر يحيط بك يا ملك الانجليز » .
فأجاب رتشارد قائلاً : « قد يكون صدقاً ما تقول ، فإن أمانى لثالا محسوساً » .
فقال السر كنث : « إنها خيانة سيكون أذاها أشد وقعاً عليك من ضياع مائة راية في ساحة الوغى ، إن... إن... » وهنا تردد السر كنث ، ثم استأنف الكلام أخيراً وقد خفض من صوته وقال : « إن السيدة أدith... »

فاستجمع الملك نفسه بغتة ، واتخذ هيئة المنصب المتكبر ، وحقق بصره فيمن ظن فيه الإجرام ثم قال : « ها ! ما بها ؟ خبرني ما بها ؟ ما شأنها وهذا ؟ » .

فقال الاسكتلندى : « مولاي ، هناك دسيصة تدبر لتدنيس ذريتك الملكية الكريمة ، وذلك بمنح يد السيدة أديث للسلطان العربي ، وشراء سلم مشين بالعالم المسيحي بحلف هو وصمة شديدة في جبين المجلثا » .

وكان لهذا البلاغ أثر يختلف كل الخلف عما كان يتوقع السر كنث ، فلقد كان رتشارد بلاتاجنت أحد أولئك الذين لا يعملون لله انصياعاً لأمر الشيطان — كما يقول أياجو — ^(١) ولم يكن في غالب الأحيان ليتأثر بالنصح أو بالخبر بمقدار ما ينطويان عليه من صدق ، كما كان يتأثر بهما بمقدار ما يصطبغان به من شخصية المحدث ونظرته . ومن نكد الطالع أن أحبي ذكر هذه السيدة — وهي من ذوات قرباه — ذكرياته عن وقاحة فارس النمر في هذا الشأن ، حتى حينما كان في طليعة الفرسان . وقد بدا له أن في ما ذكر السر كنث — وهو في تلك الحال الراهنة — مهانة تكفي لأن تدفع بالملك ، وهو يشتعل غضباً ، إلى انفعال الجنون .

فقال : « ازم الصمت أيها الرذول الوقح ! وحق السموات لأمزقن لسانك بمقبض الحديد الحار لأنك ذكرت اسم سيدة من كرائم المسيحيات ! اعلم أيها الخائن الوضع ، أني كنت أعلم من قبل إلى أي حد بلغت بك الجرأة أن ترفع عينيك ، ولقد تحملت ذلك — رغم مافيه من قحة وجرأة — حتى حينما خدعتنا حتى ظننا أنك رجل له ذكر وصيت ؛ أما الآن وقد تقيحت شفتاك بما اعترفت به من خزيك — إذ كيف تجرؤ على أن تذكر الآن سيدة كريمة تربطها بنا صلة الرحم ، وكأنها سيدة لك في حظها سهم أو نصيب ! — ما شأنك إن هي تزوجت من عربي أو مسيحي ؟ — ما شأنك ونحن في معسكر الأمراء فيه أنزال نهاراً ولصوص مساء ، وبواسل الفرسان فيه خونة أدنياء يفرون من الواجب — أقول ما شأنك ، أو ما شأن غيرك ، إن أنا أردت أن أتخالف مع الصدق والشجاعة متمثلين في شخص صلاح الدين ؟ » .

فأجاب السر كنث متشجعاً وقال : « شأني في هذا قليل حقا ، وأنا رجل

(١) أياجو شخصية مشهورة بالحقد في رواية عطيل لشكسبير .

سوف تصبح الدنيا لى عما قريب هباء ؛ ولكن ، حتى ولئن كنت الآن موثوقا
بسرير العذاب ، أقول إن ما ذكرت لك يمس ضميرك واسمك مساً كبيراً ، إني
أقول يا مولاي الملك إنك إن قبلت — ولو فى خاطرك وحسب — أمر زواج قريبتك
هذه السيدة أدبث . . . » .

فقال الملك : « لا تذكر اسمها ، ولا تفكر فيها لحظة واحدة » وضغط على
فأسه القصيرة ثانية بقبضته ، حتى برزت العضلات فى ساعده المفتول تحيوط
الحبلاب حول أعضاء السنديان .

فأجاب السر كنبث قائلاً : « لا أذكر اسمها ! ولا أفكر فيها ! » وقد صق
وخيمت عليه الكآبة وتملكه انقباض النفس ، ثم أخذ يسترد مرونته بعد هذا
اللون من الحديث ، فقال : « والآن بحق الصليب الذى عقدت به آمالى ، ليكون
اسمها آخر ما يلوئ فى ، ولتكون صورتها آخر ما يخطر لذهنى ! جرب قوتك
— التى بها تفخر — على هذا الجبين العارى ، وانظر هل أنت بمانى عن مرماى ؟ » .
فقال رتشارد : « والله إنه ليدفعنى إلى الجنون » وردة ثانية عن هدفه
— راغماً — عزم لا يلين مَلَك على الجانى نفسه .

وقبل أن يحير توماس الجزلاندى جواباً ، نما إلى السراق شغب من الخارج ،
وأعلن المعلن من ظاهر الفسطاط قدوم الملكة .

فصاح الملك : « ردّها يا ثقيل ، ردّها ! ليس هذا بالمشهد الذى يليق بالنساء
— تبا ، تبا ، لقد عانيت من مثل هذا الخائن الوضع إغاظته لى كما ترون » ! —
ثم قال همساً : « ابعده عن مرآى يادى ثو ، واخرج به من المدخل الخلفى من
سرادقنا ، وضيقوا عليه أشد ضيق ، واعلم أن حياتك رهينة بحفظه فى محبسه ،
وضع نصب عينيك أنه عما قريب يفارق الحياة ، فأت له بأب روى فإننا لن
نقتل فيه الروح والجسد — البث قليلا واستمع إلىّ ، إنا لا نريد به خزيًا ولا عاراً
— لسوف يموتن ميتة الفرسان بنطاقه ومهازه ؛ فلئن كانت خيائته مظلمة كالبحيم
فإنه لىبارى باقدامه الشيطان نفسه » .

ولا نعدو الحقيقة إذا نحن قلنا إن دى ثو قد سر سروراً عظيماً بانتها ذلك الموقف دون أن يتنزل رتشارد إلى عمل لا يليق بالملك ، ويقتل بنفسه سجيناً لا يدفع عن نفسه ، ثم سارع إلى إخراج السر كنث من منفذ خاص إلى خيمة منفصلة ، حيث جرده من سلاحه وكبله في الأصفاد ، كي يأمن جانبه ، ووقف دى ثو ينظر إلى ما يجري رابط الجأش حزيناً ، وضباط السجن ، الذين بات السر كنث تحت إمرتهم ، يتخذون هذه الحيلة الشديدة .

ولما فرغوا قال للآثم التعس مكتئباً : « هي إرادة الملك أن تموت محتفظاً بشرفك — فلن نبتز جسدك أو نشوه ساعديك — وأن يفصل رأسك عن جذعك سيفُ الجلال » .

فقال الفارس : « إنها لرأفة منكم » وفي صوته نغم خافت ، فيه ذلة وخنوع ، كأنه رجل ظفر برضا غير منظور ، ثم قال : « إذن فأهلي لن يسمعوأ عني أسوأ القصص — آه يا أبتاه ! يا أبتاه ! »

وهذا الابتهاال الذى تتم به لم يغب عن الرجل الأنجليزى الجلف الطيب القلب ، فسح بظاهريده الكبيرة محياه الغليظ قبل أن يشرع فى الجواب . ثم قال أخيراً : « ويريدك الملك كذلك أن تتحدث إلى رجل من رجال الدين ، ولقد التقيت فى طريقى إلى هنا بقس من كرملى يليق بك وأنت تفارق هذه الدار الدنيا ، وهو ينتظر خارج الفسطاط حتى تتهيأ للقاءه » .

فقال الفارس : « سارع به إلىَّ ، إن رتشارد فى هذا كذلك لرؤوف بى رحيم ؛ لن أكون ساعة ما أكثر تأهباً للقاء القس الكريم منى الآن ، فلقد ودعت الحياة ، وافتقرت وأياها كراحلين بلغا مفترق الطريق ، ثم اختلف سبيل أحدهما عن الآخر » .

فقال دى ثو متندراً رزيناً : « هذا خير ، فوالله إنه ليضئبنى بعض الشيء أن أذكر لك خوى رسالتى : وذلك أن الملك رتشارد يريدك على أن تتأهب للموت العاجل » .

فأجاب الفارس صابراً : « لتكن إرادة الله ومشئته المليك ؛ إنى لا أعارض فى عدالة الحكم ، ولا أرغب فى تأجيل القضاء » .

وحينئذ شرع دى ثو يفصل عن القسطنطين فى أناته شديدة ، ثم وقف لدى الباب ، والتفت خلفه ، ونظر إلى الأسكتلندى الذى وقف وكأن آمال هذه الدار الفانية قد انتفت من خاطره انتفاء تاماً ، وكأنه رجل قد توجه إلى الله بكل نفسه ؛ ولم يكن البارون الإنجليزى البدين عامة من ذوى المشاعر الحادة ، ولكن عاطفته فى ذلك الموقف غلبت عليه — رغم ذلك — غلبة لم يعهدها فى نفسه من قبل ، فقفل راجعاً إلى فراش القصب الذى كان يرقده عليه الأسير ، وأمسك بإحدى يديه المغولتين وقال بنغم فيه من اللين بمقدار ما يستطيع صوته الأجش أن يلفظ : « سيدى كنت ، إنك ما زلت فى ريعان الشباب ، وإن لك لأباً ، وإن ابنى « رالف » الذى خلفته يدرب جواده الصغير الذى أتينا له به من (جالوى) على ضفاف (اردنج) قد يبلغ عمرك يوماً من الأيام — ولا أخفيك أنى ليلة أمس كنت أرجو الله أن أرى شبابه كشبابك — هلا تريدنى أن أقول شيئاً أو أفعل فعلاً نيابة عنك ؟ » فكان الجواب الحزين على ذلك : « لا شئ » ، لقد أهملت واجبى ، وفقد العلم الذى عهد به إلى — فإذا ما أصبح الجلال وباتت القصلة على استعداد ، فإن رأسى وجذعى كليهما على أهبة أن يفترقا » .

فقال دى ثو : « رحماك اللهم ، والله لوددت لو أنى قتت بحراسة العلم عوضاً عن رعاية جوادى الكريم . إن فى الأمر لسراً أيها الرجل الشاب ، سرا يلمسه الرجل الساذج وإن كان لا يدرك له كنهها ، هل كان جنباً منك ؟ كلا . ما قاتل جبان قط كما شهدتك تقاتل — هل كانت خيانة ؟ لا أظن الخونة يموتون فى حياتهم بمثل هذه السكينة . إنما صرفك عن مقرئ غدر بعيد المدى وخطة محكمة التدبير — إنما ملك عليك سمعك صياح فتاة منكوبة ، أو صرف عنك بصرك وجه ضاحك باش ، لا تستح من هذا ، فليس منا من لم يحده به يوماً مثل هذا الدافع عن جدته ؛ هيا ، هيا ، وبج لى عوضاً عن قسك بمكنون سريرتك — إن رتشارد

لرؤوف رحيم حينما تهدأ ثورته . أليس لديك ما تعهد به إلى ؟
فأشاح الفارس البائس بوجهه عن هذا المقاتل الرحيم ، وأجابه بغير تردد أن :
« لا شيء » .

ولما أن استنفد دى ثو كل حديث من أحاديث الإغراء ، نهض وفصل عن
الفسطاط مطبق الدراعين ، تعلوه كآبة ظن أنها أظلم مما تقتضى الحال ، بل وناقماً
على نفسه لأنه رأى أن أمراً تافهاً — كموت رجل أسكتلندى — له مثل هذا
الأثر العميق فى نفسه .

ولكن ، كما قال محدثاً نفسه : « لئن كان الأجلاف ذوو الأقدام الخشنه أعداء
لنا فى كمبرلاند^(١) فإننا فى فلسطين نكاد نحسبهم لنا إخواناً » .

(١) هى البلاد التى تقع بين انجلترا وأسكتلندا .

الفصل السادس عشر

ليس الأمر ما تدرك فتاتي ،
فهى فى إدراكها لا تعدو ما ألقم ،
وما فطنها إلا لقو ،
كغيرها من بنات حواء .
أنشودة

كانت برنجاريا العريقة النسب ابنة (سانشر) ، ملك نافار ملكة حليلة لرتشارد الباسل ، وتعد من أجمل النسوة فى زمانها ، قدّها نحيل ، وجسمها بارع الجمال فى صورته ، حباها الله ببشرة غير مألوفة بين بنات جلدتها ، ولها شعر كث يضرب إلى الصفرة ، وملاحظها غاية فى نضارة الشباب ، حتى إنها تبدو للعيان أصغر سنا من حقيقتها بسنوات عدة ، وإن تكن فى الواقع لما تعد الحادية والعشرين ، ولربما كان إحساسها بظهرها هذا البالغ فى حدّاته ، باعثاً لها على أن تصطنع ، أو أن تقوم على الأقل ، بقليل من أعمال النرق الصبانية وصلابة الرأى فى سلوكها ؛ وليس هذا — حسب ظنها — مما لا يليق بعروس شابة ، مرتبتها وسنها يعطيانها الحق فى أن تتمادى فى زواتها هذه ، وأن تأمر فتطاع ، وكانت بالسليقة غاية فى طيب القلب ، وإذا ما أسلم لها رفيقاتها — غير منازعة — بحظها من الإعجاب والولاء لها (وهو حظ كبير فيما كانت ترى) فلن تجد من يفضلها مزاجاً أو ميلاً إلى المحبة والوداد ؛ ولكنها — ككل حاكم مطلق — كلما نالت زيادة فى نفوذها من الناس طوعاً ، ازدادت شغفاً بمد سلطانها ؛ وإذا ما أشبعت جميع أطعما تراها تتظاهر أحياناً بانحراف صحتها وتعكير صفو مزاجها ، فيقدح الأطباء الأذهان ، ويبتدعوا لها أسماء لأمراض ما أنزل الله بها من سلطان ، وتشحذ وصفاتها الخيال حتى يجدن لها ألعاباً مبتكرة ، وأزياء جديدة للرأس ، وفضائح فى البلاط لم تسمع عنها من قبل ، تصرف بها تلك الساعات البغيضة — وهى ساعات لا يكون موقف

وصيقاتها فيها مما يغبطن عليه كثيراً . وأكثر ما كن يلجأن إليه ليسرين عن الملكة علتها خدعة أو عمل ضار تعمله إحداهن بالأخرى ؛ ولا نعدو الحق إن قلنا إن الملكة ذات القلب الطيب — وهى فى نشوة انتعاش مزاجها — كانت لا تتبلى كثيراً إن كان هذا المزاج الذى يمزج به الوصيفات مما يليق بكرامتها كل اللياقة ، أو كان الألم الذى يكابده أولئك اللاتى يصيبهن وقعه لا يتناسب والهو الذى تظفر به هى منه ؛ وكانت أبداً على ثقة من رضا زوجها ، ومن علو مرتبتها ، ومما كانت تفرض فى نفسها من حق الإفادة من المرح مهما كلف غيرها ؛ أو قل فى عبارة موجزة إنها كانت تثب من مكان إلى آخر حرة كأنها شبل من الأشبال لا يحس بثقل مخالفه على أولئك الذين تلهو بهم .

وكانت الملكة برنجاريا تحب زوجها حباً جماً ، ولكنها كانت تخشى من خلقه الكبرياء والخشونة ؛ ولما كانت تحس من نفسها أنها لا تباريه ذكاء ، فلم تكن لتطمئن إليه حين تراه وهو يكثر من التحدث إلى أديث بلانتاجنت ، راغباً فيها عنها ، لا لشيء إلا لأنه يجد فى حديثها لذة ، وفى إدراكها سعة ، وفى خواطرها وعواطفها سيما النبيل والشرف ، أكثر مما تبدى حليته الحسنة ؛ ولم تكن برنجاريا تبغض أديث من أجل هذا ، وما كان أبعدها عن أن تدبر لها أذى أو مضرة ، لأن خلقها — إن تهاونا فى شيء من حب الذات — كان على الجملة سمحاً بريئاً ؛ ولكن حاشيتها من السيدات — وهن بعيدات النظر فى مثل هذه الأمور — كن قد أدركن منذ حين أن التندر الصارم على حساب السيدة أديث كان لجلالته فيها شفاء من توعك المزاج ، وقد خلصن بهذا الإدراك من كثير من كد الخيال .

ولم يكن فى هذا شيء من كرم الخلق ، إذ كان يُعرف عن السيدة أديث أنها يتيمة الأم والأبوين ؛ وهى وإن كان يطلق عليها اسم بلانتاجنت ، وقتاة أنجو الحسنة ، ولئن كان رتشارد قد أذن لها أن تستمتع ببعض المزايا مما لا يمنح إلا لأعضاء الأسرة المالكة ، فكانت وفقاً لهذا تتبوأ مكانتها فى الأوساط والدوائر ، إلا أنه رغم ذلك قل من كان يعرف على أية درجة من صلة الرحم هى من قلب الأسد ؛ ولم

يجرؤ على السؤال في هذا أحد ممن له صلة ببلاط انجلترا . أتت مع « اليانور » أم ملك انجلترا الشهيرة ، واتصلت برتشارد عند « مسينا » على أنها ممن قدر لمن أن يكن من وصيفات برنجاريا التي كان زواجها إذ ذاك وشيك العقد ؛ وكان رتشارد يعامل قريبته هذه بكثير من الاحترام والرعاية ، وجعلت الملكة منها أئزم وصيفاتها ، وكانت تعاملها على الجملة بما يليق بها من إجلال رغم ما شهدنا فيها من أثر الغيرة . ولبت سيدات البلاط طويلا دون أن يكون لمن على أدب فضل ، اللهم إلا ما تهيئه الفرصة حينما يأخذن عليها عدم الحذق في وضع لباس رأسها ، أو سوء اختيارها لثوبها ، إذ كن يحكمن عليها بالخطوة والجهل بأسرار اللباس والتجمل ؛ ولم يمض ذلك إلا خلاص الصامت — الذي كان يحمله الفارس الاسكتلندي لها — دون التفات ، فكن يرقن عن كتب ما يرتدى من ثياب ، وما يبدى من دراية ، وما يظهر من حذق في الضرب بالسلاح ، وما يحمل من شعار ويدبر من مكائد ، وكثيرا ما اتخذن من هذا موضوعا لفكاهة عارضة ؛ وبقيت الحال كذلك حتى آن للملكة ووصيفاتها أن يحججن إلى عين جدة ، وهي رحلة قامت بها الملكة كي تبتهل إلى الله أن يرد لزوجها صحته ، وشجعهما على القيام بها رئيس أساقفة (صور) لغرض سياسى في نفسه ؛ وفي ذلك الحين ، في المبد القائم بذلك المكان المقدس ، الذى يتصل فوق الأرض بدير الراهبات في كرمل ، وتحت الأرض بكن الناسك ، لحظت إحدى وصيفات الملكة تلك الشارة الخفية التي أو مات بها أدب إلى عشيقها ، ولم يفهما أن تبلغ الملكة نبأها في الحال ، فعادت الملكة من حجها مزودة بهذا الدواء الناجع شفاء لها من الكآبة والضجر ، وقد انضم إلى حشمها قرمان شقيان وهبتهما إياها ملكة بيت المقدس المخلوعة عن العرش ، لها من تشويه الخلق والخلل (وهذا خير ما يتصف به هذا الضرب التمس من الناس) ما يحجبهما إلى أية ملكة من الملكات ، وكان من ضروب اللهو العقيم تلهو به برنجاريا أن تختبر ما لظهور هذه الصور الوهمية ، الشاحبة اللون ، على أعصاب الفارس من أثر ، حينما يخلو لنفسه في المبد ، ولكن تندرهما لم يفلح إذ أن الرجل الاسكتلندي قد صمد

للموقف ، كما أن الناسك اعترض الأمر ، ولم تتم الفكاهة ، فحاولت الآن فكاهة أخرى ، وهي تأمل أن تكون عواقبها أشد خطراً .

وبعد أن انصرف السركنت عن الفسطاط ، اجتمع السيدات ثانية ، ولم تهتز الملكة أول الأمر إلا قليلاً من غضب أديث وعتابها ، فلم تجبها بأكثر من عذرها على اصطناعها الحشمة والخفر ، ومن تماديها في التندر على حساب ثياب فارس النمر ، وعلى أمته ، وفوق هذا وذاك على فقره الذي سخرت منه كثيراً سخرآ تستشف من خلفه الحقد والضغينة ، وإن كان ممزوجاً بالبشاشة والمجون ؛ وبقيت على ذلك حتى اضطرت أديث أن تأوى إلى غرفتها المستقلة بهواجسها ولبالها ؛ ولما أشرق الصباح بعثت أديث بإحدى خادمتها تستعلم عما وقع ، فأتت إليها بنياً فخواه أن العلم قد افتقد وأن بطله قد اختفى ، فانطلقت أديث إلى غرفة الملكة ، وتضرعت إليها أن تهض وتخف إلى سرادق الملك بغير توان ، وأن تستخدم وساطتها النافذة كي تمنع العواقب الوخيمة التي نجمت عن مزاحها .

وارتاعت الملكة بدورها ، وأتحت كماداتها بالألعة في عبثها هذا على من كن يتحوظنها ، وحاولت أن تخفف من أسى أديث ، وأن تخمد فيها نأثر غضبها بألوف الأقوال المتضاربة ، وكانت على يقين من أن لم يحدث أذى ، وخيل إليها أن الفارس لا بد نأثم بعد سهره ليلاً ؛ وفيهم الخوف من غضب الملك إن كان الفارس قد فر بالعلم ؟ ليس العلم إلا قطعة من حرير ، وما الفارس إلا رجل جرىء معدم ؛ وإن كان كنت قد زج به في السجن إلى حين فلسوف تستصدر له من الملك العفو سريعاً — وما عليها إلا أن تترث حتى تمر برتشارد هذه السحابة الكئيبة ثم تنقشع .

وهكذا واصلت حديثها بغير انقطاع ، وتفوهت بكل ضروب التناقضات ، وهي ترجو عبثاً أن تخدع أديث وتخدع نفسها بأن الهولن ينتهي إلى أذى ، ولكنها كانت الآن من صميم قلبها نادمة أحر الندم على هذا العبث الذي عبثت . وبينما أديث تحاول دون جدوى أن تعترض هذا السيل الدافق من الحديث العقيم ، دخلت إلى غرفة الملكة إحدى السيدات فلكت على أديث بصرها ، إذ كان

الموت في مرآها المروع الخائف ؛ وما إن وقع بصر أدith على حياها حتى خرت على الأرض صريعة ، ولولا الضرورة الملحفة وعلو خلقها لما أمكنها أن تستبق على الأقل ظاهرا من رباطة الجأش .

وقالت للملكة : « مولاتي ، لا تنسى هباء بكلمة واحدة تلفظينها بعد هذا ، ولكن انقذى حياة .. » ثم أردفت وصوتها يخنق وهي تتكلم وقالت : « انقذى حياة إن كان للحياة من بعد هذا منجاة » .

فأجابت السيدة كالستا وقالت : « إن في النجاة لأملا ، فلقد نما إلى الآن أنه سيق إلى الملك — ولما ينته الأمر ولكن ... » ، ثم انفجرت في فيض من البكاء غزير ، كان لخاوفها الذاتية فيه نصيب وقالت : « ولكن الأمر عما قريب ينتهي إلا إن سلكتن طريقا أخرى » .

فقال الملكة محتدة : « نذرت للقبر المقدس قنديلا من الذهب ، ولسيدتنا صاحبة عين جدة حرما من الفضة ، وللقديس «توماس آرثر» بساطا للرحمة قيمته مائة بيزنط .. » .

فقال أدith : « هيا ، هيا يا مولاتي . ادعى القديسين إن شئت ؛ ولكن كوني أنت خير قديسة » .

فأجابت الوصيصة المرتاعة وقالت : « حقا مولاتي ، ما تقول السيدة أدith إلا صدقا ؛ انهضى مولاتي وهيا بنا إلى سرادق الملك رتشارد نطلب العفو عن حياة هذا الرجل الفاضل » .

فقال الملكة : « إني ذاهبة ، سوف أتوجه إليه توا » ، ثم نهضت وهي ترتعد ارتعادا شديدا ، والنسوة حوالها في مثل حيرتها وارتبا كها ، عاجزات عن أن يؤدين لها تلك الخدمات التي لم يكن عنها مندوحة لهذه الزيارة الرسمية ، وتقدمت أدith إلى الملكة هادئة رابطة الجأش ، إلا أن صفرة كصفرة الموت كانت تملأ جبينها ، وناولت بيدها الملكة ما أرادت ، وسدت وحدها ما قصر فيه الوصيقات العديدا .

ولم تستطع الملكة حتى آتئذ أن تنسى ما تميزت به من الاستخفاف والاستهتار
فقالت : « أية خدمة تؤدين أيتها النسوة ، كيف ترضين أن تقوم السيدة أديث
بواجبك في الخدمة ؟ هلا ترين يا أديث أنهن لا يعملن شيئا — ما أظننى بمستطاعة
أن أتم ارتدائى فى حينه ؛ لنبعثن إذن لرئيس أساقفة صور ونستخدمه لنا وسيطا » .
فصاحت بها أديث قائلة : « كلا ، كلا ، ربك لا تفعل ؛ اذهبي بنفسك
يا مولاتى ، لقد صدرت عنك الإساءة وعليك محوها » .

فقالت الملكة : « إذن لأذهبن ، ولكن إن كان رتشارد لما يزل غاضبا فلن
أجروا على التحدث إليه ، إنه ليقتلنى إن أنا فعلت ! » .

فقالت السيدة كالستا وهى خير من يعرف مزاج مولاتها : « ومع ذلك فلتذهبي
مولاتى الكريمة ، ولن ينظر إلى هذا الجبين وذاك الجسد ليث غاضب ثم يقوى
على استبقاء خواطره نائرة ، فما بالك بفارس محب شغوف كرتشارد الملك ، وما
أدنى كلمة منك إلا فريضة عليه ؟ » .

فقالت الملكة : « هل تظنين ذلك يا كالستا ؛ آه ، إنك لا تعرفين إلا قليلا
— ومع ذلك فأني ذاهبة ، ولكن استمعى إلى ؛ ماذا تعنين بهذا ! لقد كسوتنى
بكساء أخضر وهو لون بغيض إلى نفسه ؛ عني هذا ، وهات لى ثوبا أزرق واثت
لى بالبنيفة الياقوتية التى كانت بعض رداء ملك قبرص — وسوف تجدينها إما فى
صندوق الحديد أو فى مكان آخر » .

فقالت أديث ساخطة حانقة : « كل هذا وحياة الرجل فى خطر ! إن هذا
لفرق ما يصبر عليه المرء ؛ مهلا مولاتى ، سأذهب أنا إلى رتشارد ؛ إن هذا
الأمريهمنى — وسوف أعرف إن كان يجوز العث إلى هذا الحد بشرف فتاة
مسكينة من دمه ، وأن يُنتهك اسمها لصرف رجل فاضل عن واجبه ، والالتيان به
إلى دائرة الموت والعار ، وأن بيت مجد انجلترا ذاتها فى الوقت عينه سخرية
للجيوش المسيحية قاطبة » .

وأصفت برنجاريا إلى هذه العاطفة التى تفجرت على غير انتظار ، وكاد أن يطير

لها خوفاً وعجباً ، ولكنها ، وأديث توشك أن تغادر الفسطاط ، صاحت بصوت ضعيف خافت وقالت : « أوقفنها ، امنعنها عن الذهاب ! » .

فقال كالستا : « حقا يجب أن لا تذهبي أيتها السيدة النبيلة أديث » وأمسكت بذراعها في لين ورفق ثم قالت : « وإني على يقين من أنك يامولاتي الملكة سوف تذهبين ، وسوف تذهبين بغير توان بعد هذا ، ولئن ذهبت السيدة أديث وحدها إلى الملك ليثورن ثورة عنيفة ، وليبيتن رهينة غضبه الكثير من الناس » .

فقال الملكة وقد أذعنت للضرورة : « إذن لأذهبن » وتوقفت أديث عن السير ، غير مطمئنة ، ترقب ما سوف تفعل الملكة .

وأسرع النسوة جميعاً كما أرادت أديث ، ولفتت الملكة نفسها متعجلة في ملءة كبيرة فضفاضة ، وارت بها كل ما فاتها من أسباب التجميل ، وفي هذا الستار — وأديث ونسوتها يتبعنها ، ويتقدمها ويخلفها قليل من الضباط والرجال المسلحين — خفت إلى سرادق زوجها المستأسد .

الفصل السابع عشر

لو أن كل شعرة في رأسه حياة ،
ولو أن أربعة أمثال هذه الشعرات عدا
تتضرع لكل حياة منها ،
لبذلها جميعا حياة بعد حياة ،
وتناقص عديدها كالسكاك قبل منبثق النهار ،
أو كالمصابيح توقد في المآدب
وتشع الضياء على اللاهين في منتصف الدجى
ثم ينطفئ بريقها والحافلون يفصلون !
من رواية تمثيلية قديمة

تصدى للملكة بنجاريا عند ولوجها إلى داخل سرادق رتشارد أولئك الحجاب
القائمون على الحراسة في السرادق الخارجى ، وحقا لقد اعترضوا سبيلها باحترام
وتقدير ، إلا أنها تعطلت على أية حال ، واستطاعت أن تستمع إلى الملك وهو يأمر
من الداخل أمراً صارماً بمنع دخولهن .

فقال الملكة متوجهة إلى أديث ، كأنها استنفدت كل ما تملك من وسائل
الشفاعة « الآن ألا ترين أنى كنت به عليمه — إن الملك يأبى أن يستقبلنا » .

وسمعن إذ ذاك رتشارد يتحدث في الداخل إلى شخص ما ويقول : « اذهب
واصدع بما تؤمر الآن أيها المولى ، فإن في هذا لرأفة بك ، ولك عشر بيزنطات
لو قضيت عليه بضربة واحدة — استمع إلى أيها الشقى ، راقبه وقل لى إن امتنع
لون خده أو فترت عيناه ، وخبرنى بأدق ما تلاحظ من لحظة في طلعه أو طرفه في
عينه — إنى أحب أن أعرف كيف تلقى النفوس الجريئة الموت » .

وأجابه صوت أجش عميق يقول : « تالله لو رأى طباقى وهى تهتز عالية ولم
يتقهقر لكان أول من يفعل ذلك » . ولطف من حدة هذا الصوت إحساس
بالرعب لم يألفه ، وأحاله إلى نبرات أكثر خفصاً من نبراته الخشنة المعهودة .

فلم تستطع أدبث أن تلزم الصمت بعد هذا وقالت : « إذا لم تشقّ جلالتك لنفسها طريقاً فدعيني أفعل ذلك — وإن لم يكن لك ، فلي على الأقل — أيها الحجاب ؛ إن الملكة تريد أن ترى الملك رتشارد — الزوجة تريد أن تتحدث إلى زوجها » .

فقال الضابط وقد خفض عصاه « أيها السيدة النبيلة ، يحزنني أن أعترضك فيما تقولين ، ولكن جلالة الملك مشغول بأمور فيها حياة أو موت » .
فقلت أدبث « ونحن كذلك نريد أن نكلمه في أمور فيها حياة أو موت — سأجعل لجلالتك مدخلا » ، ثم أزاحت الحجاب جانباً باحدى يديها وأمسكت السجن بالآخرى .

فقال الحجاب وقد أذعن لخدمة هذه الحسنة صاحبة الحاجة « إني لا أجرؤ على معارضة رغبة جلالتها » وألفت الملكة نفسها — والحجاب يخلى الطريق — مضطرة إلى دخول غرفة رتشارد .

وكان الملك مستلقياً على سريرته ، وعلى مقربة منه يقوم رجل كأنه يرتقب أمراً جديداً ، ولم تكن مهمته مما يشقّ حدسه ، فلقد كان يرتدى سترة قصيرة من القماش الأحمر لا تتدلى دون كتفيه إلا قليلاً ، تاركاً ذراعيه عاريتين من منتصف ما فوق المرفق ، وكان يكتسى معطفاً أو صدرية بغير كم ، يرتديه فوق ذلك حين يهيم — كما هم الآن — بأداء واجبه الشاق ، وهو أشبه بمعطف الرائد مصنوع من جلد الثور المدبوغ ، ويلوث ظاهره نقط كثيرة كبيرة الحجم ولطخات حمراء قائمة ؛ والسترة والصدرة فوقها تبدليان حتى ركبتيه ، وجواربه السفلى — أو ما يغطي به ساقيه — من الجلد عينه الذي صنعت منه الصدرة ، وله تقيّة من الشعر الخشن ، يتخذها حجاباً للنصف الأعلى من وجهه الذي يشبه وجه البوم الصباح ، وتبدو عليه كالبوم الرغبة في الاختفاء عن النور — أما النصف الأدنى من محياه فتخفيه لحية كبيرة حمراء تختلط بنخصلات مشعثة لونها من لون اللحية ، أما ما بدا من ملامحه فعليه سيما الفظاظلة وبعض الناس ؛ أما قامته فقصيرة ، ولكنه

قوى البنية ، له رقبة ثور ، وكتفان عريضتان ، وساعدان بالغا الطول لا تناسق فيهما ، وجذع كبير مربع جدا ، وساقان غليظتان عوجاوان ؛ وكان هذا الموظف الشرس يرتكز على حسام تبلغ ظبائه نحو أربعة أقدام ونصف قدم طولا ، وطول مقبضه عشرون بوصة ، وتحيط بالمقبض حلقة من خيوط الرصاص كي توازن ثقل مثل هذا السيف ، ويرتفع القبض كثيراً فوق هامة الرجل ، وقد أسند الرجل ساعده فوق نصابه ينتظر إرشاداً جديداً من الملك رتشارد .

ولما دخل النسوة على حين غرة ، كان رتشارد مستلقياً على سريره ووجهه صوب الباب ، مرتكزاً على مرفقه وهو يتحدث إلى خادمه هذا البشع ، فارتمى على الجانب الآخر مسرعاً كأنه غاضب دهش ، وولى ظهره للمسكة وحاشيتها من النسوة ، والتحف بغطاء سريره وهو يتألف من جلد ليشين كبيرين ، دبغا في البندقية بمهارة تدعو إلى الإعجاب ، حتى أصبحت أشد نعومة من جلد الغزال ، وهذا الغطاء ربما كان من انتقاء رتشارد نفسه ، أو ربما كان على الأرجح قد اختاره له حجاب ملقا له ودهاناً .

وكانت برنجاريا كما وصفنا تعرف جيداً طريقها إلى الظفر — وأى امرأة لا تعرف الطريق إلى الظفر ؟ فبعد ما ألقت نظرة عجي ، فيها رعب غير خاف ولا مصطنع من هذا الرفيق المروع ، رفيق زوجها وهو في مجالسه الخاصة ، اندفعت توا إلى جوار سرير رتشارد ، وخرت على ركبتيها ، ونزعت ملاءتها عن كتفها ، فبدت منها جدائل شعرها الذهبية الجميلة وقد استرسلت بتمام طولها ؛ ومع أن طلعتها كانت تبدو كالشمس يشق ضياؤها ظلام السحب ، إلا أن جبينها الشاحب كانت — رغم ذلك — تبدو عليه آثار السنا قد انطفأ بريقه ؛ وبهذه الصورة أمسكت يمين الملك ، وكانت يمينه وهو يستعيد رقبته التي ألف مشتغلة بجذب غطاء السرير ، ثم أخذت تجذب إليها يد الملك شيئاً فشيئاً بقوة قاومها الملك مقاومة طفيفة ، حتى تملك الساعد ، وهو دعامة العالم المسيحي وفزع المشركين المنافقين ،

ولما أن استولت على زمام الساعد بين يديها الدقيقتين الجميلتين ، ثنت جبينها عليه ولثمته بشفتيها .

فقال الملك ولما يزل منصرفا عنها برأسه ، وإن تكن يده تحت سلطانها : « فيم هذا يا برنجايا ؟ » .

فتمتمت برنجاريا قائلة : « اصرف هذا الرجل ، إنه يقتلني بمرآه ! » .

فقال رتشارد وما عثم مشيحا بوجهه : « اعزب عنا أيها الخادم ، فيم بقاؤك هنا ؟ وهل يليق بك أن تنظر إلى هؤلاء السيدات ؟ » .

فقال الرجل : « لتكن مشيئة مولاي » .

فأجاب رتشارد : « عني أيها الوغد ! قاتلك الله » .

ثم اختفى الرجل بعد ما رمق بنظره الملكة الحسناء وقد خلعت عنها رداءها ، وبدا للعيان جمالها الطبيعي ، وعلى شفثيه ابتسامة الإعجاب ، وبسمته أبغض إلى النفس من عبوسه المألوف وكراهيته الساخرة لبني الإنسان .

ثم قال رتشارد : « والآن ما ذا تريدن أيتها المرأة الحمقاء » واستدار بجسمه في أناء وشبهه إباء نحو هذه الملكة المتضرعة .

وليس من الطبيعي لا يرى أيأ كان — بله رجل كرتشارد يعجب بالجمال ويحله في المحل الثاني بعد المجد -- أن ينظر بغير عاطفة إلى طلعة مخلوق جميل كبرنجاريا وإلى ترنحه وارتجافه ، أو أن يحس بشفتيها وجبينها وهما على يده ، وقد بللتها بالدموع ، دون أن تفعم العاطفة قلبه ، فأخذ الملك يلفت نحوها محياه المسترجل شيئا فشيئا ، وفي عينيه الكبيرتين الزرقاوين اللتين كثيرا ما يشع منهما ضياء لا يحتمل ، كل ما وسعتا من نظرات اللين والدعة ، وأخذ يمسح برأسها الجميل ، ويرسل أصابعه الكبيرة خلال فرعها الفاتن المسدول ، ثم رفع جبينها الملائكي ولثمه برفق وصاحبته تبدى رغبتها في إخفائه في يده ؛ وهذا الجسم الضخم ، وذاك الجبين النبيل العريض ، وتلك النظرات المهية ، وذاك الساعد والكتف العاريتان ، وجلود الأسد التي كان يستلق عليها ، وذلك المخلوق الضعيف الذي خر إلى جواره على ركبتيه ،

كل هذا يصح أن يكون تمثالا لهركيوليز^(١) ، وقد اتفق وزوجه « ديمانيرا » بعد ما وقع بينهما من خلاف .

« إنى لأتساءل ثانية ماذا تريد سيدة قلبي فى سرادق فارسها فى هذه الساعة الباكرة التى لم تألف ؟ » .

فقال الملكة : « العفو ، العفو ، سيدى الكريم » وقد تملكها المخاوف ثانية ، ولم يعد فى وسعها أن تؤدى واجب الشفاعة .

فسألها الملك : « فيم العفو ؟ » .

قالت : « العفو أولا عن مثولى لدى حضرتك الملكية بجرأة وبغير روية .. » . ثم سكنت عن الكلام .

فقال الملك : « أفتقولين إنك كنت جريئة ! إذن فللشمس أن تطلب العفو عن تسرب أشعتها خلال النوافذ إلى جب مظلم ذميم ؛ إنما أنا كنت مشتغلا بأمر لا يليق بك أن تشهده يا سيدتى الكريمة ، وفوق ذلك كنت لا أحب أن تخاطرى بصحتك العزيزة إلى حيث حل المرض من منذ حين » .

فقال الملكة : « ولكنك الآن بخير » وأرجأت التحدث فى الأمر الذى كانت تحشاه .

« نعم إنى بخير ، وأستطيع أن أحطم الرمح فوق قمة رأس ذلك البطل الجسور الذى ينكر أنك أجمل سيدة فى العالم المسيحى » .

« إذن فلن يتحدثنى هبة واحدة ليس غير ... تلك هى حياة رجل مسكين ؟ » فقال الملك وقد قطب الجبين : « ها ! قولى ما تريدن » .

فتمتت الملكة وقالت : « هذا الفارس الاسكتلندى البائس » .

فصاح بها رتشارد عابسا وقال : « لا تتكلمى بشأنه سيدتى ، لسوف يموتن — إن قضاءه محتوم » .

(١) هركيوليز رجل فى الخرافة اليونانية والرومانية ذو قوة عظيمة قام بالكثير من جسيم الأعمال .

« كلا يا سيدى المليك ويا حبيب قلبى ، ما هى إلا راية من حرير قد أهملها ،
ولسوف تعطيك برنجاريا راية أخرى طرزتها بيدها ، راية ثمينة كأية راية أخرى
داعبها الريح ، سوف أحليها بكل ما أملك من جواهر ، وسوف أذرف مع كل
جوهرة دمعة شكر لفارسى الكريم ! » .

فعارضها الملك غاضبا وقال : « إنك تهرفين بما لا تعرفين — جواهر !
أفتظنين أن جواهر الشرق جميعا تستطيع أن تكفر عن وصمة واحدة فى شرف
انجارتها ، أو أن كل ما بكت نساء العالم من دمع يحو لطحه لحقت برتشارد ؟ عنى
يا سيدتى واعرفى لنفسك مكانها وزمانها وحدودها ، أما الآن فلدينا من الواجبات
مالا تستطيعين أن تساهمى فيه » .

فهمست الملكة قائلة : « هل سمعت هذا يا أدith ؟ إنما نحن نثير كامن غضبه » .
فقالت أدith وقد تقدمت خطوة أو بعض خطوة : « ليكن ذلك ، سيدى !
أنا قريبتك المسكينة أطلب إليك عدلا ورحمة ؛ ولصوت العدالة يجب أن تفتح
أذان الملوك فى كل حين وفى كل زمان وتحت كل ظرف » .

فهب رتشارد من مرقدته ، واستقام فى جلسته على جانب السرير ، وأدثر بدثاره
الأحمر وقال : « هيه ! ابنة عمى أدith ؟ والله إنك لتنطقين أبدا بما ينطق الملوك ،
ولسوف أجيبك كما يجب الملوك ؛ إنك ما أتيت إلى بمطلب لا يليق بكرامتك » .
وكان جمال أدith عليه مسحة أشد فطنة وأقل شهوة مما يبدو على الملكة ،
ولكن الجزع والفرع قد رسما على محياها وميضها كانت تفتقر إليه أحيانا ، وكان
على طلعها سيما الوقار والنشاط ، حتى لقد فرضت بمرآها السكون لحظة من الزمن
على رتشارد نفسه ، الذى كان فيما يبدو على ملامحه يود لو يعارضها . قالت :
« سيدى ، إن هذا الفارس الكريم الذى توشك أن تريق دمائه قد أدى فى حياته
خدمة للعالم المسيحى ، وإنه لم يقصر فى واجبه إلا لأن مكيدة قد دبرت له فى
ساعة ساد فيها لهو عقيم أخرق ؛ بُعث إليه برسالة باسم سيدة — ومالى لا أفوه
باسمها ؟ — باسمى أنا — فأغوته هذه الرسالة على أن يترك مكانه لحظة — وأى

فارس في معسكر المسيحيين لا يتخطى واجبه إلى هذا الحد انصياعاً لإرادة فتاة ،
مهما كانت ضعيفة من بعض صفاتها ، فإن دم بلانتا جنت يجري في عروقها ؟ » .
فقال الملك وقد عض على شفتيه كي يكبح جماح غضبه : « وهل رأيته يا ابنة
عمي ؟ » .

فقالت أديث : « أجل لقد رأيته يا مولاي ، وليس لي الآن أن أبوح بما بعثني
على ذلك ، ولست هنا لأبري نفسي أو أعذل غيري » .
« وأنني صنعت فيه هذا الجليل ؟ » .
« في سراق جلالة الملكة » .

فقال رتشارد : « في سراق زوجي الملكة ! رب السماء ، وبالقديس جورج
الإنجليزي وبكل قديس صعد إلى القبة الزرقاء ، لقد أتيت شيئا إذا ! إنني
لحظت على هذا المقاتل قحته في إعجابه بسيدة تعلوه كثيرا وأغضيت عن ذلك ، ولم
أضن عليه بأن تسبغ عليه واحدة من ذوات قرباى مثل هذا الهوى وهي في عليائها
كما ترسل الشمس من علاها على الدنيا الضياء — ولكن وحق الأرض والسموات ،
كيف رضيت له أن يمثل لديك ليلا ، وفي خيمة زوجنا الملكية ! وكيف تجسرين
على أن تتقدمي بهذا معذرة له على عصيانته وإهماله في واجبه ! وروح أبي يا أديث
لتكفرن عن هذا حياتك في الدير ! » .

فقالت أديث : « مولاي ، إن عظمتك تجيز لك الظلم ؛ ولكن شرفي ،
يا سيدي المليك — كشرfk — لم يمسه أحد ، وتستطيع مولاتي الملكة أن
تشهد بذلك إن شئت . ولكني قلت لك من قبل إنني لست هنا لأبري نفسي
أو أتهم غيري ، إنني أضرع إليك أن تمد إلي رجل ارتكب إثمته تحت تأثير
الاغراء الشديد ، تلك الرحمة التي سوف تلتمسها أنت نفسك يا سيدي المليك يوما
من حكم أعلى ولا تأم ربما كانت أقل من هذى حقا بالفقران » .

فأجاب الملك بجرادة وقال : « أهذى أديث بلانتا جنت ، أديث بلانتا جنت
العاقلة النبيلة ؟ — أم امرأة مريضة بالحب ، لا تبالي بشرف اسمها من أجل

حياة عشيقها ؟ والآن أقسم بروح الملك هنرى لن يصرفنى شيء عن أن أمر بأن يؤتى بجمجمة حبيبك من المقصلة ، وأن تُعلق حلية دائمة على الصليب فى بيتك ! » .
فقلت أدith : « لو بعثت بها من المقصلة كى توضع على مرأى منى أبدا ،
فلسوف أقول إنها أثر لفارس كريم ساقه إلى الموت عنوة وجورا رجل ... » ، (ثم
كبحت جماح نفسها وقالت) : « ... رجل لا أقول عنه إلا أنه كان ينبغى أن يعرف
خيرا من هذا كيف يجزى الشهامة » ، ثم أردفت وقد زادت من حديثها وقالت :
« إنك تقول إنه كان عشيقى ؟ حقا لقد كان لى حبيبا ، وحبيبا غاية فى الإخلاص ،
ولكنه لم يتقرب إلى بنظرة أو كلمة ، واكتفى بمثل تلك الرعاية وذلك الخضوع
الذى يقدمه للقديسين الرجال — ولكن هذا الرجل الطيب ، هذا الرجل الجسور ،
هذا الرجل المخلص ، ينبغى أن يموت من أجل ذلك ! » .

فهمست الملكة قائلة : « مهلا ، مهلا ، ورققا به ، إنك إنما تريد من
الإساءة إليه ! » .

فردت أدith قائلة : « إنى لا أبالى ، إن العذراء البتول لا تخشى الليث الثائر ،
لينفذ فى هذا الفارس الكريم إرادته ، فإن أدith التى يموت من أجلها تعرف
كيف تندب ذكراه ؛ ولن يكلمنى أحد بعد هذا عن حلف سياسى ويطلب إلى
عقده بهذه اليد الضعيفة ، ما كان لى — وكيف يكون لى ؟ — أن أكون له
عروسا فى الحياة ، إن بينى وبينه فى المرتبة فراسخ ، ولكن الموت يزواج بين
الرفيع والوضيع — إنى منذ الآن قرينة قبره » .

وأوشك الملك أن يجيها غاضبا ، لولا أن راهبا من كرمل دخل الغرفة مسرعا
ورأسه مكم ، وجسمه مستتر فى عباءة طويلة وقلنسوة من القماش المخطط ذى
النسيج الخشن الذى يميز مذهبه الدينى ، وخر على ركبتيه أمام الملك ، وناشده بكل
كلمة وشارة مقدسة أن يقف إنفاذا للحكم .

فقال رتشارد : « أقسم بمهندي وصولجاني لقد تأمرت الدنيا على جنونى !

فكل غافل وكل امرأة وكل راهب يعترضنى فى كل خطوة أخطو ؛ كيف يعيش هذا الرجل حتى الآن ؟ » .

قال الراهب : « مولاي الكريم ، لقد توسلت إلى لورد جلزلاند أن يوقف الإعدام حتى أرتى لدى جلالتكم .. » .

فقال الملك : « وهل بلغت به صلابة الزأى أن يمنحك مطلبك ؟ ولكن ما هذا إلا جانب من عناده المألوف — والآن ماذا تريد أن تقول ؟ هيا وقل لى باسم الشيطان ! » .

« مولاي ، إن لدى لسرا عميقا — ولكنى أخفيه بحق الاعتراف — وإنى لا أجرو على التحدث به أو حتى على الإيحاء إليه — ولكنى أقسم لك بحياتى المقدسة — بهذا الرداء الذى أرتدى ، « بإلياس » المبارك الذى وضع لنا الأساس ، وهو ذلك الرجل الذى انتقل إلى جوار ربه دون أن يعانى ما يعانى الناس من آلام الموت ، أقسم لك إن هذا الشاب قد فشا لى سرا ، إن بحت به إليك عدلت عدولا تاما عن هذه الغاية القاضية التى فرضت عليه » .

فقال رتشارد : « أبى الكريم ، إن هذا السلاح الذى امتشق الآن من أجل الكنيسة ليشهد بإجلالى لها ؛ يح لى بهذا السر ، وسوف أفعل ما أراه لاثقا فى هذا الشأن ، ولكنى لست رجلا أعمى البصيرة أعمل بغير روية إن أهاب بى رجل من رجال الدين ، لست « كيارد » العاجز أقفز فى الظلام إذا استحثنى قس أو قسان » .

فطرح القس عنه قلنسوته وحلته الخارجية ، وكشف تحت الحلة عن كساء من جلد الماعز ، وتحت القلنسوة عن وجه استوحش ونخل من أثر الجو والصيام والتوبة ، حتى بات أشبه بصورة من هيكل عظمى تسرى فيه الروح منه بوجه الإنسان ، ثم قال : « مولاي ، لقد تقشفت عشرين عاما فى كهوف عين جدة ، حتى أضعفت هذا الجسد الذميم تكفيرا عن ذنب عظيم ارتكبت ، فهل تظن أنى — وأنا ميت فى هذه الدنيا — أدبر زورا أو بهتانا أعرض بهماروحى للخطر ، أو هل

تظن أن رجلاً أقسم يمينا غليظة على أن يجانب الإثم ، رجلاً مثلي ليس له في هذه الدنيا أمل واحد يعقد به رجاءه — وذلك أن نعيد للكنيسة المسيحية بناءها — هل تظن أن رجلاً مثلي يفشى سر الاعتراف ؛ إن كليهما بغيض لنفسى .

فأجابه الملك « إذن فأنت ذلك الناسك الذى يتحدث عنه الناس كثيراً ، إني أقر بأنك شديد الشبه بتلك الأرواح التى تسرى فى الأرض الخلاء ، ولكن رتشارد لا يخشى مardاً ولا عفريتاً ؛ وما إخالك إلا ذلك الرجل الذى بعث أمراء المسيحية إليه بهذا الجارم كي تفاوض السلطان فى وقت أنا فيه طريح فراش المرض ، وأنا أول من تنبئ مشورته فى هذا الأمر ؛ فلتطمئن وليطمئنوا ، إني لن أضع رقبتي فى سمّ نطاق رجل من كرملى ؛ أما رسولك فسوف يموت ، وهو بالموت العاجل أحق وأجدر بعد شفاعتك له وتضرعك » .

فقال الناسك وقد ملكت عاطفته نفسه : « بارك الله فيك يا مولاي الملك ! إنك والله لتخلق شراً ، سوف تود فى مقبل الأيام لو أنك أفلعت عنه ، حتى ولو كلفك هذا شلواً من أشلائك . ليكن رجلاً مندفعاً أو أعمى ، ولكنى أضرع اليك أن ترفق به » .

فصاح به الملك ، وقد ضرب الأرض بقدميه : « عنى ، عنى ! لقد أشرقت الشمس على عار انجلترا ولما ننتقم له — أيتها السيدات وأيتها القس ، اعزبوا إن أردتم أن لا تسمعوا أمراً يسئ إليكم ، لأنى بحق القديس جورج أقسم ... » .

فأجابه صوت رجل دخل إذ ذاك السرادق وقال : « لا تقسم ! » .

فقال الملك : « ها ! هذا طبيبي النطاسى قد أقبل يستجدى سخاءنا » .

كلا ، إنما أطلب التحدث إليك فوراً فى أمور ذات بال » .

« أنظر أيها الحكيم إلى زوجتى ، ودعها تعرف فيك رجلاً أبقى لها زوجها » .

فأطبق الطبيب ساعداً فوق الأخرى ، ليظهر التواضع والاحترام على الطريقة الشرقية ، وأطرق ببصره نحو الأرض ، ثم قال : « ليس لى أن أنظر إلى جمال لا يحجبه قناع ، جمال يذود عنه رونقه وبهاؤه » .

فقال الملك : إذن فلتتراجى يا برنجاريا ، وأنت يا أدith تراجى كذلك ؛ كلا ، لا تعيدى على مسمى لجأجتك ! هذا ما أمتحكا : ليق نفاذ الحكم حتى تبلغ الشمس رابعة النهار — إذهبا بهذا مطمئنتين — إذهبي يا عزيزتى برنجاريا » ثم ألقى نظرة بعثت الرعب حتى فى نفس أدith قريبته الجريئة وقال : « اذهبي إن كنت حكيمة » .

فانسحب النسوة ، أو قل خفن من السراق ، وقد نسين المراتب والرسوم وهن كسرب الطير البرى نزل به باز منذ حين فاختلط الحابل فيه بالنابل .
عدن من هنا إلى سراق الملكة ، كي يسترسلن فى أسفهن ومهاترتهن ، وليس فى هذا أو ذاك ما يجدى . وكانت أدith وحدها من بينهن تستخف بضروب الأسى هذه التى ألفن ، فوقفت بخدمة الملكة لا تنهد ولا تبكى ولا تنبس بكلمة لوم أو تأنيب ، وقد أبدت الملكة — لضعفها — أسفها ، فى نزوات كنزوات الجنون شديدة على النفس ، وفى صيحات حارة كأنها عليله آدتها العلة ، وفى غضون ذلك كانت أدith تقوم بخدمتها بكل ما وسعت من جهد ، بل وبكل ما فى نفسها من حب .

وقالت « فلوريس » إلى « كالستا » رئيستها فى خدمة الملكة « محال أنها أحبت هذا الفارس ؛ إنا كنا خاطئات ؛ ما هى إلا أسفة على قضائه كما تأسف على غريب حلت به المصائب من أجلها » .

فأجابتها زميلتها ، وهى أكثر منها خبرة وأشد تأدياً « صه ، صه ؛ هى من ذلك البيت الفخور ، بيت بلاتاجنت ، الذى ما يقر أبناؤه قط بأن الأذى يحزنهم . قد يصيب الواحد منهم جرح مميت يدمى حتى الموت ، ولكنك ترينه مع ذلك يضمده أخداشاً خفيفة يكابدها أقرانه من ذوى القلوب الواهنة — فلوريس ! لقد أخطأنا خطأ كبيراً ؛ وإنى من جانبى أود لو بذلت كل ما أملك من جواهر لو أصبحت فكاھتنا هذه كأنها لم تكن » .

الفصل الثامن عشر

هذا أمر يتطلب من الشمس والمشتري وساطة الكواكب ،
ولكن هذين النجمين العالين
بأنفيهما شاحنان ، وفي الخيال ساجحان ،
وما أكثر ما يكلفانا
حتى ينصرفا عن فلكيهما ،
وينزلا لرعاية الأحياء .

اليومازار

سار الناسك خلف النسوة من سرادق رتشارد ، يتبعهن كما يتبع الطفل شعاعاً
من الضياء حينما تنطلق السحب على وجه الشمس ؛ ولما بلغن الباب أدار وجهه
ورفع يده نحو الملك يحذره ، ووقف وقفة التهديد والوعيد وهو يقول : « الويل
لمن ينبذ مشورة الكنيسة وينصرف إلى « ديوان » الكفرة الدنس ! أيها الملك
رتشارد ، إنى لم أنفض التراب عن قدمي وأفضل عن مقامك — والسيف لما
يهو — وإنما هو معلق بشعرة — أيها الملك الغطريس ، سوف نلتقي ثانية »
فرد عليه رتشارد وقال : « ليكن ذلك أيها القس الغطريس ، وأنت في جلد
الماعز أشد صلفاً من الأمراء في لباس الكتان الأرجواني الرقيق » .
ثم اختفى الناسك عن الفسقاط ، وأردف الملكُ موجهها خطابه للعربي وقال :
« هل للدراويش في الشرق أيها الطبيب الحكيم مثل هذه الألفة مع الأمراء ؟ »
فقال (أدنك) مجيباً : « الدراويش إما حكيم أو مجنون ، وليست هناك
طريق بين بين لمن يلبس « الحرقه » ويسهر الليل ويصوم النهار ، ولنا فهو إما حكيم
يستطيع أن يتأدب ، ويحرص وهو في حضرة الأمراء ، أو رجل لا يحمل تبعه
ما يفعل لأن الله لم يمنحه نعمة العقل » .
فقال رتشارد : « يخيل إلى أن أكثر رهباننا قد اتخذوا لأنفسهم هذه الصفة

الأخيرة ، ولكن دعنا من هذا ولنتكلم فيما أتيت من أجله ، كيف لي أن أدخل السرور على نفسك أيها الطبيب العالم ؟ »

فامتلل الحكيم للملك امتثاله الشرق الخاشع ، وقال : « أيها الملك العظيم ، اسمح لخادمك أن ينبس بكلمة واحدة لا يموت بعدها ، إني أذكرك أنك مدين للوسطاء من الكواكب — ولا أقول لي ، فما أنا إلا أداة لها خاضعة ، أفيد منها وأنفع الأحياء وأرد لهم حياة . . . » .

فعارضه الملك قائلاً : « وأنا أكفل لك أن أجزيك حياة بحياة ، فهل هذا ما تريد ؟ » .

فقال الحكيم : « هذى ضراعتي المتواضعة للملك رتشارد العظيم — هي حياة هذا الفارس الكريم ، الذي قضى عليه بالموت من أجل إثم كذلك الذي ارتكب آدم أبو البشر » .

فعبس الملك قليلاً وقال : « وهلا ذكرك حكتك أيها الحكيم أن آدم قد مات من أجل خطيئته » ثم شرع ينقل الخطي في حيز فسطاطه الضيق ، وقد غلبه الانفعال وأخذ يحدث نفسه ، ثم قال : « رحماك اللهم ، لقد عرفتُ فيم أتى حيناً دخل الفسطاط ! هنا حياة واحدة بأئسة حكم عليها عدلاً بالإعدام ، وأنا ذلك الملك المقاتل الذي قتل الألوف بأمر منه ، والعشرات بيده ، ليس لي سلطان على تلك الحياة ، مع أن شرف سلاحي وبيتى ومليكتى قد لوثته جريمة الآثم — وحق القديس چورچ إن هذا ليضحكنى ! — وبحق القديس « لويس » إنه ليذكرني بقصة « بلندل والقصر المسحور » حيث وقفت في وجه الفارس البائس أشكال وجسوم متتابعة لا شبه بين بعضها وبعض ، ولكنها جميعاً تناصبه فيما أراد العداء ، ما إن اختفى واحد منها حتى بدا له آخر — زوجة ، ثم قرية ، ثم ناسك ، ثم حكيم ، — إذا ما انهزم منهم واحد تصدى للدفاع آخر — ماذا ؟ والله إني إذن لفارس أوحده ينازل حشداً بأسره في ساحة الوغى — ها ! ها ! ها ! » ، ثم أخذ رتشارد يضحك ضحكات عالية ، وبدأ فعلاً يبدل من حال نفسه حالاً أخرى ،

لأنه كان في حقه عادة شديدا عنيفا بحيث لا يستطيع أن يبق كذلك طويلا .
وإذ ذاك رناه الطبيب بنظرة دَهْشة لا تخلو من الازدراء والاستخفاف ، لأن
أهل الشرق لا يتسامحون في مثل هذه التغيرات المتقلبة في المزاج ، ويظنون
الضحك الصراح — مهما كان الظرف — محطا بكرامة الرجل ، ولا يليق إلا بالنساء
والأطفال ؛ وأخيرا لما أن استقرت نفس الملك ، خاطبه الحكيم وقال :
« إن حكم الموت لا يصدر عن شفتين ضاحكتين — وما يخال خادمك إلا
أنك قد منحت الرجل حياته » .

فقال رتشارد : « لك أن تنال الحرية لألف أسير عوضا عنه ، ولك أن تعيد
من شئت من بنى جلدتك إلى خيامهم وأهلهم ، وسوف أمتحك هذا بغير توان ،
ولكن حياة هذا الرجل لا تجديك شيئا ، وقد صدر فيها القضاء وانتهى الأمر »
فقال الحكيم وقد مد يده إلى قلنسوته : « إن حياتنا جميعا إلى الضياع ،
ولكن الإله الأعظم الذى وهبنا الحياة بنا رحيم ، وهو لا يسلبنا ودائعنا عنوة
وبغير أوان » .

فقال رتشارد : « وهل لك صالح خاص في التوسط بيني وبين إنفاذ العدالة
التي أقسمت لها كملك على رأسه تاج ؟ » .

فقال الحكيم : « إنك أقسمت أن تقيم الرأفة كما تقيم العدل ، وإنما أنت
أيها الملك العظيم ترمى إلى تنفيذ إرادتك الخاصة ، وتعلم أن حياة الكثير من
الرجال تتوقف على جودك بالعفو في هذا الأمر الذى أتضرع إليك فيه » .

فقال رتشارد : « أفصح عن القول ، ولا تظن أنك سوف تفرض على إرادتك
بباطل دعواك » .

فقال أدنوك : « ما أبعد خادمك عن هذا ، ولتعلمن إذن أن الدواء الذى
تدين له بالشفاء أنت يا سيدي الملك وكثيرون غيرك ما هو إلا طلسم ، تألف والسماء
في برج خاص ، ونجوم السماء ميمونة الطالع ، ولست إلا رسولا لفضائله ، أغمسه
في قدح من الماء ، وأرقب الساعة التى تليق بالمريض أن يتناولها فيها ، ثم تفعل الجرعة
فعلها بما فيها من قدرة على الشفاء » .

فقال الملك : « أندر بهذا من دواء وأنجح به ! ولما كان بوسع الطبيب أن يحمله في حقيقته ، فإنه يوفر عليه قافلة بأسرها من البعير قد يحتاج إليها لحمل العقاقير والأدوية — وإنى لأعجب إن كان هناك غير هذا الدواء دواء يتعاطاه الناس » .

فأجاب الحكيم في رزاة وغير اضطراب يقول : « لقد كتب على الناس ألا يسيثوا إلى الدواب التي تحملهم من ساحة القتال ؛ ولتعلم أن أمثال هذه التمام يمكن حقاً أن تُسطر ، ولكن قل من النطاسيين من جرؤ على الانتفاع بفضائلها ؛ إذ أن الحكيم الذى يستخدم هذا الضرب من العلاج ينبغى له أن يتعرض لقيود شديدة وشروط ألوية ، وللصوم والتكفير العنيف ؛ ولو فاتته أن يشفى ما لا يقل عن إثني عشر شخصاً كل شهر إهمالاً منه ، أو جبا للدعة والراحة ، أو لاسترساله في الشهوات الحسية ، فإن مزية هذه الهبة الإلهية تسقط عن التهمة ، ويتعرض الطبيب ومريضه الأخير كلاهما لنكد الطالع يحل بهما سريعاً ، ولن يبق بعد الحول أحدهما على قيد الحياة ؛ وقد بقيت لى حياة واحدة أبلغ بها العدد المضروب » .

فقال الملك : « اذهب أيها الحكيم الكريم إلى المعسكر حيث تجد هناك الكثير ، ولا تفكر فى أن تسلب جلادى أسراه ، فإنه لا يليق بطبيب له مكانتك أن يتدخل فى عمل غيره ، وفضلاً عن ذلك فإنى لا أرى كيف أن إنقاذ جازم من الموت الذى يستحق يُتم لدوائك هذا المعجز قصته » .

فقال الحكيم : « إن استطعت أن ترينى كيف أن جرعة من الماء البارد قد جلبت لك الشفاء حيث باءت بالفشل أنفس العقاقير ، إذن فلك أن تفكر فى العجائب الأخرى التى تتعلق بهذا الأمر ؛ أما أنا فلست قميناً بهذا العمل العظيم ، إذ أنى لست هذا الصباح حيواناً دنساً ، وإذن فلا توجّه إلى بعد هذا سؤالاً ، وحسبك أن تعرف أنك إن استبقيت لهذا الرجل حياته إذعانا لرجائى ، أنقذت خادمك ونفسك أيها الملك العظيم من خطر جسيم » .

فأجاب الملك قائلاً : « استمع إلى يا « أدنبك » ، إنى لا أعترض على الأطباء يراوغون فى الحديث ويزعمون أنهم يستمدون من النجوم علماً ، ولكنك

حينما تريد رتشارد بلا تاجنت على أن يخشى خطرا ينزل به من طيرة سقيمة ، أو لا إهمال في الموصفات ، فلسبت تخاطب رجلا سكسونيا جاهلا ، أو امرأة عجوزا خرفة تتخلى عن هدفها لأن أربنا يعبر الطريق ، أو لأن غرابا أسخيم ينعب أو قطا يعطس » فقال أدنبك : « ليت بوسعى أن أقف بينك وبين ريتنك فيما أقول ، ولكن ليعلم سيدى المليك أن الحق على لسان خادمه ؛ هل ترى عدلا أن تحرم الدنيا وكل بائس يعانى مما أصابك أخيرا من آلام ألزمتك الفراش ، من نفع هذه التيمة ذات الفضل العظيم ، ولا تمتد عفوك إلى رجل واحد آثم بائس ؟ هل ترى يا جلالة الملك أنك — وقد استطعت أن تقتل الألوف — لاتستطيع أن ترد إلى رجل واحد صحته ؛ إن للملوك لقوة الشيطان على التعذيب ، ولللحكماء قدرة الله على الشفاء ، إن كنت لا تستطيع أن تفعل الخير للإنسانية فذار أن تقف في سبيلها ؛ إنك تستطيع أن تفصل الرأس عن الجسد ، ولكنك لاتستطيع أن تعالج سنا موجهة » .

وتكلف الحكيم في حديثه نغمة الترفع ، بل الإشراف والتسلط ، فشد الملك من أزر نفسه وقال : « إن هذه لقحة منك ، بل وأكثر من قحة ، لقد اتخذناك لنا طبيا لا ناصحا ولا على الضائر قائما » .

فقال الحكيم : « وهل هكذا يرد أعلى أمراء الفرنجة فضلا أصاب شخصه الكريم ؟ » وبذل من وقفته الخاشعة الدليلة ، التي وقف حتى ذاك متضرعا إلى الملك ، وقفة الشامخ الأمر ، ثم قال : « فلتعلم إذن أنى سوف أذيع في كل بلاط في أوروبا وآسيا — لكل مسلم ونصرانى ، ولكل فارس وسيدة — وحيثما يضرب على وتر أو يمتشق حسام — وأننى يستحب الشرف ويمقت الخزى والعار — أن الملك رتشارد جحود ضيق الفكر ، وستبلغ فضيحتك هذه كل بلد لم يسمع باسمك — إن كان هناك منها ما هو كذلك ! »

فأجاب رتشارد وقد أفج في خطاه نحوه غاضبا وقال : « هل هذه شروط تشرطها على أيها الرجل ؟ هل كللت من حياتك ؟ » .

فقال الحكيم : « دق عنق ! إذن ليخسن عملك قدرك أكثر مما تستطيع كلماتي ، وإن كان لكل منها لدغ الزنبور » .

فأشاح رتشارد عنه بوجهه هائجا ، وقد أطبق ساعديه ، وعبر السراوق من جانب إلى آخر كما فعل من قبل ، ثم صاح : « جحود ضيق الفكر ؟ إذن فلتصمني بالجن والكفر ! — أيها الحكيم ، لقد أعطيت سؤالك ، وإني وإن كان خيرا لي أن تطلب إلى جواهر تاجي ، ليس لي كملك أن أنكر عليك ما أردت ؛ خذ هذا الاسكتلندي إذن تحت حفظك ، وسيسلمك إياه السجان على هذه البينة » :

ثم خط مسرعا سطورا أو سطرين وسلمهما إلى الطبيب .

ثم قال : « واستخدمه لديك عبداً رقيقاً ، وتصرف في أمره كيفما شئت — ولكن حذره من أن يأتي تحت بصر رتشارد ؛ استمع إليّ ، فأنت رجل حكيم ، إنه جاوز المرأة بين أولئك اللائي نودع شرفنا في جميل محياهن وضعف كلمهن ، كما تودعون أنتم أهل الشرق كنوزكم في صناديق من سلوك الفضة دقيقة رقيقة تكيوط الشمس » .

فاستعاد الحكيم لتوه في أسلوب خطابه ذلك الاحترام الذي بدأ به وقال : « إن خادمك يدرك كلمات مليكة . إذا تلوث البساط النفيس أشار الأحمق إلى ما يشوبه ، وستره الرجل الحكيم بعباءته ؛ لقد سمعت ما يريد مولاي ، وما سمعي إلا طاعة » . فقال الملك : « خير له أن يُبقى على سلامته ، وألا يظهر في حضرتي بعد هذا — هل هناك أمر آخر أستطيع أن أدخل به السرور على نفسك ؟ » .

فقال الحكيم : « والله لقد ملأ الملك بسخائه كأسى حتى حاقها . أجل لقد كان جودك غزيرا كنتلك العين التي انبثقت وسط نخيم بني إسرائيل حينما ضرب موسى بن عمران الحجر بعصاه » .

فقال الملك باسمًا : « أجل ولكن هذا الجود قد تطلب — كما تطلبت الصحراء — ضربة قوية فوق الصخر قبل أن يُخرج ما به من كنوز ، والله لو ددت لو أني عرفت ما أسرك به ، إذن لو هبتك طائعا كما تلفظ العين الطبيعية ماءها » .

فقال الحكيم : « دعني ألمس هذه اليد الظافرة ، ليكون في ذلك دليل على أن أدنبك الحكيم ، لو طلب بعد هذا إلى رتشارد ملك انجلترا مطلباً ، فله أن يفعل ذلك على أن يتوسل ويضرع فيما يريد » .

فأجابه رتشارد قائلاً : « لك يدى وقفازها فوقها أيها الرجل ، ولكنك إن استطعت أن تتم قصة مرضاك سليمة دون أن تطلب إلى أن أنقذ من العقوبة من حقت عليه ، لدفعت إليك ديّنى في صورة أخرى ، وأنا أشد رغبة وأكثراً اختياراً » .

فأجاب الحكيم قائلاً : « مد الله في أيامك ! » ثم خرج من الغرفة بعد ما امثل خاضعاً خاشعاً كما ألف .

ولما هم بالرحيل ، نظر إليه الملك رتشارد نظرة لا تنم عن الرضا بكل ما فات . ثم قال : « ما أعجب هذا الحكيم في إصراره ، وما أغرب هذه الفرصة التي ساقته كي يتدخل بين ذلك الاسكتلندي الجريء وبين ما حق عليه من جزاء هو الحق ، ولكن ليعش هذا الرجل ! فإنه شجاع يستحق الحياة — والآن ما بال ذلك النمساوى — ها ! هل بارون جلزلاند خارج الفسطاط ؟ » .

وما إن صاح الملك هكذا بتوماس دى فو ، حتى هرول وأظلم مدخل السرادق بجسمه الضخم ، ووراءه ناسك عين جدة بصورته الوحشية ، متلفعاً في عباءة من جلد الماعز ، يتسلل كأنه طيف من الأطياف ، لم يدعه للمثول أحد ولم يعارضه أحد . ولم يلحظ رتشارد وجوده ، فصاح بالبارون في صوت مرتفع وقال : « أى سر توماس دى فو صاحب (لانركست) و (جلزلاند) ، أصحب معك البوق والمنادى ، واذهب توا إلى خيمة ذلك الذى يسمونه أرشدوق النمسا ، وارتقب حتى يكون احتشاد فرسانه وأتباعه حواليه على أشده — وهو ما سيكون ، على ظنى ، في هذه الساعة ، لأن هذا الخنزير الألمانى يتناول طعام الإفطار قبل الصلاة — وامثل لديه بقليل من الاحترام بقدر ما تستطيع ، وأتهمه باسم رتشارد ملك انجلترا بأنه قد اختطف هذا المساء بيده ، أو بيد غيره ، راية انجلترا من فوق عصاها ، ثم

قل له إنا نريد — قبل أن تنقضى ساعة بعد هذه اللحظة التي أحدثك فيها — أن يعيد الراية بكل احترام ، وأن يعيدها بنفسه مصحوباً بكبار الأمراء المحيطين به برؤوس عارية وبغير ثياب الشرف ؛ وأنه فوق ذلك ينبغي أن يضرب إلى جوار رايتنا من ناحية رايته — راية النمسا — مقلوبة ، كأنها أشينت بالسرقة والخيانة العظمى ، وأن يضرب من الناحية الأخرى رحماً يحمل رأس ذلك الرجل اللعين الذي نصح له بهذه الإساءة الدنيئة ، وقل له إنه إن قام بإفئادنا هذه في حينها ، فسوف نغفو عن خطاياه الأخرى ، حفظاً لليمين التي أقسمنا ، ومراعاة لخير الأرض المقدسة » .

فقال توماس دى قو : « وماذا لو أن دوق النمسا أنكر كل صلة له بهذا العمل السيء الأثيم » .

فأجاب الملك قائلاً : « إذن فقل له إنا سوف نثبت على جثمانه — أى والله ، حتى ولئن كان بطلاه الجريئان بنصرته ؛ إنا سوف نثبت عليه هذا ونحن كالفرسان على ظهور الخيل ، أو ونحن راجلين ، في الفلاة أو في الميدان ، وله أن يختار الزمان والمكان والسلاح كما يريد » .

فقال بارون جازلاند : « فكر يا مولاي في سلامة الله والكنيسة ، وفي أولئك الأمراء المشتغلين بالحرب الصليبية المقدسة » .

فأجابه رتشارد وقد نفذ منه الصبر : « فكر أنت يا مولاي الكريم كيف تصدع بأمرى ، والله إنى لا أخل الرجال يظنون أنهم سوف يصرفوننا عن مرمانا بأنفاسهم ، كما تنفخ الأطفال الريش فتطوح به هنا وهناك — سلامة الكنيسة ! — بربك قل لى من ذا الذى يرمى لها حرمة ؟ ، إن سلامة الكنيسة بين الصليبيين معناها محاربة العرب ، وقد هادنهم الأمراء ، وفي هدتهم قضاء على سلامة الكنيسة ، وفضلاً عن ذلك هلا ترى كيف أن كل أمير منهم يرمى إلى غرضه الخاص ؟ فسوف أقصد أنا كذلك إلى مرماى ، وما ذاك إلا الاحتفاظ بشرفى ؛ وما أتيت إلى هنا إلا من أجل الشرف ، فإن لم أنه على حساب الأعراب ، فلا أقل من ألا أضيع

ذرة منه من أجل هذا الدوق الحسيس ، حتى وإن تحصن واحتوى بكل أمير في الحرب الصليبية .

فهم دى ثوبالانصراف إذعانا لأمر مليكه ، ولكنه هز بكتفيه ، إذ أنه — لصراحة طبعه — لم يستطع أن يخفى أن مشيئة الملك لا تتفق وما يرى ؛ ولكن ناسك عين جدة تقدم إلى الأمام ووقف وقفة رجل يحس بعلو مرتبته على مراتب الملوك ؛ وحقا لقد كان بزيه الخشن الجلدى ، ولحيته وشعره الأشعث غير المشذب ، وملاحمه الهزيلة الوحشية المعوجة ، وتلك النار التى توشك أن تكون نار الجنون تشع من تحت حاجبيه الكثين ، كان بكل هذا أشبه ما يكون بالصورة التى ترسم فى أذهاننا عن هيئة نبي من أنبياء الكتاب المقدس ، وقد كُلف برسالة عالية يبلغها ملوك (يهودا) أو بنى إسرائيل الآثمين ، فهبط من ثنايا الصخور وظلام الكهوف التى كان يقطنها منعزلا فريدا ، كي يخزى الظالمين فوق الأرض وهم فى معممات كبريائهم ، وذلك بأن ينزل بهم من رب السماء سخطه ونقمته ، كما يرسل من السحاب الصواعق يسوقها وينزلها فوق الحصون والقصور ، قمها وبروجها . وكان رتشارد مهما — اشتد عناده وصلابته — يحترم الكنيسة ورجالها ، ولئن ساء دخول الناسك سرادقه فلقد حياه — رغم ذلك — باحترام وإجلال ، ولكنه أشار إلى سر توماس دى ثو فى ذات الوقت أن يسارع برسالته .

ولكن الناسك ، بالإشارات والنظرات والكلمات ، منع البارون من أن يسير فى رسالته هذه ذراعا واحدة ، ورفع ساعده العارية — وقد سقطت عنها عباءة جلد الماعز — وانطرحت إلى الخلف من عنف حركته — وهز بها إلى أعلى ، وهى من قلة الغذاء نخيلة ، ومن أثر السياط فى تكفيره الشديد جريحة . ثم قال :

« باسم الله وأينما الذى يتقدس فى السماء ، وباسم خليفة الكنيسة المسيحية فى الأرض ، أنا أنهى عن هذا التحدى الدموى الوحشى الدنس بين أميرين مسيحيين ، ترسم على كتفهما العلامة التى أقسما تحتها ليحافظان على الإخاء . الويل لمن يحنث فى هذى اليمين ! أى رتشارد ملك إنجلترا ، ارجع عن هذه الرسالة التى

حملتها هذا البارون ، فإنها حرام ما بعده حرام — إن الخطر والموت على كذب منك — والخنجر مصوب نحو حلقك — ! » .

فأجاب الملك شامخا بأنفه وقال : « الخطر والموت زميلان يلعب معهما رتشارد ، وكم من ضربة سيف لم يكثر لها ، فهو لا يخشى بعد هذا الخناجر » .

فقال الكاهن مجيبا : « الخطر والموت منك قريبان » ، ثم انخفضت نغمات صوته ، وأصبحت جوفاء كأنها من غير هذه الدنيا وقال : « وبعد الموت الحساب ! » . فقال رتشارد : « أيها الأب الصالح المقدس ، إنى أجل شخصك وطهارتك — » .

فعارضه الناسك وقال : « لا تجلّنى ، وإنما أجلّ من قبلى أدنى حشرة تحرف على شيطان البحر الميت وتطعم على مدرها الكريه ، وأجل ذلك الذى أبلغك أمره — أجل ذلك الذى أقسمت لتنقذن قبره — وأجل يمين التضامن التى أقسمت ، ولا تقطعن خيط الوحدة والإخلاص الفضى الذى ربطت نفسك به مع زملائك الأمراء » .

فقال الملك : « أيها الأب الصالح ، إنما أنتم رجال الكنيسة تزعمون لأشخاصكم المقدسة — إن جاز لرجل علمانى أن يقول بهذا — شيئا من الكرامة ، وإنى — دون أن أنازعكم حقكم فى السيطرة على ضمائرنا — أرى أنه يجدر بكم أن تتركونا نسهر على شرفنا » .

فكرر الناسك لفظ الملك وقال : « نزعم لأنفسنا ! ليس لى أيها الملك رتشارد أن أزعم ، وما أنا إلا جرس مطواع فى يد خادم الكنيسة — ما أنا إلا بوق لا يحس ولا قيمة له ، يبلغ صوت ذلك الذى ينفخ فيه ؛ انظر إلى ، هاذا آخر أمامك على ركبتى متضرعا إليك أن ترأف بالعالم المسيحى وبأنجلترا وبفسك ! » . فقال له رتشارد وقد أكرهه على الوقوف : « انهض من مكانك ، انهض . لا يليق بركبتيك اللتين جثوت عليهما لله كثيرا أن يمسا الأرض إجلالا لإنسان من البشر . أى خطر ذلك الذى يرتقبنا أيها الأب المبجل ؟ ومتى كانت قوة

انجلترا بهذه الذلة بحيث تنزعج ، أو يأبه ملكها ، لهذا الشعب الصاحب يشيره غضب هذا الدوق المحدث ؟ » .

« لقد أرسلت النظر من برجى فوق الجبل إلى جيوش النجوم في السماء ، وكل واحد منها ينس بالحكمة للآخر وهو يدور دورته في منتصف الليل ، وينطق بالعلم للقليل من بنى الإنسان الذين يدركون أصوات النجوم . مولاي الملك ، إن في (منزل الحياة) عدوا لك يتربص بكرك وبرفاهيتك — وينبعث من زحل نذير يتهددك بالخطر العاجل الدامى ، وإن لم تسلم جبروت إرادتك لحكم الواجب فسيسحقك سريعا ، وأنت في عنفوان كبرك وصلفك » .

فقال الملك : « عنى ، عنى ، إن هذا إلا علم المشركين ، علم لا يمارسه المسيحيون ولا يصدق به الحكماء — وإنما أنت أيها الرجل الهرم تهرف وتقول هراء » .

فأجاب الناسك قائلا : « أنا لا أهرف يارتشارد ، ولست بالرجل السعيد ، وإنما أنا أعرف حالى ، وأعرف أنى ما فتى لى شعاع من نور العقل أستخدامه لالنفعى ، وإنما لصالح الكنيسة ورفع الصليب . أنا ذلك الرجل الأعمى الذى يحمل النور لغيره ولا يستضيء به ؛ سلى عما يتعلق بخير العالم المسيحى والحرب الصليبية أحدثك كأحكم ناصح ما فارقت لسانه قط الهداية والإرشاد ، وحدثنى عن حياتى التعسة تجدد كلماتى كلمات المعتوه النبوذ ، وما أنا إلا كذلك » .

فقال رتشارد وقد خفض من نغم كلامه وأسلوب حديثه : « لن أفصم عرى الوحدة بين الأمراء الصليبيين ، ولكن أية معذرة يقدمون لى للظلم والإهانة التى عانيت ؟ » .

« وفى ذلك أنا على أهبة أن أتحدث إليك ، وقد فوضنى فى هذا الشأن المجمع ، بعد أن التأم على عجل — بدعوة من فيليب ملك فرنسا — وأصدر فى هذا الأمر قراره » .
فأجاب رتشارد : « عجيب أن يتشاور الآخرون فى أمر هو من حق جلالة انجلترا الجريحة ! » .

وأجاب الناسك بقوله : « هم يريدون أن يتعرفوا مطالبك إن أمكن هذا ، وهم جميعا متفقون على أن راية انجلترا ينبغي أن ترد إلى جبل سنت جورج ، ويجبون أن يحكموا بالإدانة والحرمان على ذلك الآثم الجريء — أو أولئك الآثمين الجسورين — الذين انتهكوا حرمتها ، وسيعلمون عن ثواب جزيل لمن يفضح جرم الآثم ، ثم يقدمون لحمه طعاما للذئاب والغربان » .

فقال رتشارد : « وما رأى في دوق النمسا الذى تلابسنا أقوى الظنون بأنه هو الذى فعل ذلك الصنيع ؟ » .

فرد عليه الناسك قائلا : « إن دوق النمسا سوف يخضع لما يفرض عليه بطريق بيت المقدس من محن ، كي يزيل ما يحيط به من الظن والريبة ، وذلك كي لا ينشب في صفوف الجيش خلاف » .

فقال الملك رتشارد : « وهل بالنزال يرى نفسه ؟ » .

فأجاب الناسك : « إن اليمين التى أقسمَ تحرم عليه ذلك ، فضلا عن هذا فإن جميع الأمراء ... » .

فعارضه رتشارد وقال : « إن مجمع الأمراء لا يبيح قتال الأعراب ولا قتال أحد من غير الأعراب ؛ حسبك هذا أيها الأب ، لقد أبنت لى عن الخطأ في متابعة هذا الأمر كما رسمت من قبل . والله لأقرب إليك أن توقد في حمأة الأمطار مشعلك من أن تستخرج من هذا الجبان ذى الدم البارد شرارة من نار ؛ إن النمسا لن تنال شرفا ، ولذا فلندعه وشأنه — ولكنى — مع ذلك — سوف أجعله يحنث في يمينه ، وسوف ألح في امتحانه — والله لسوف يضحكنى أن أستمع إلى أصابعه تطلق حينما يقبض على كرة الحديد المصهورة ! — أى نعم ولسوف يضحكنى أن أرى فيه الكبير يتشقق ، وحلقه ينتفخ من الاحتناق وهو يحاول أن يتلع الخبز المقدس ! » (١) .

(١) كانوا في العصور الوسطى يعرضون التهم لهذه المحن وأشباهاها ، فإن أصابته بسوء فهو آثم ، وإن نجا منها سليما فهو برىء .

فقال الناسك : « مهلا ، مهلا يارتشارد ، هدى نائرة نفسك خجلا إن لم يكن إحسانا ! من ذا الذى يمدح أو يكيل الشرف للأمرء الذين يسبون ويثلبون بعضهم بعضاً ؟ وأسفاه على مخلوق نبيل مثلك ، شب على خواطر الملوك وجسارتهم ، وخلق به أن يشرف العالم المسيحى بعمله ، وأن يحكمه بحكمته ، وهو أهدأ منك الآن مزاجا . وأسفاه على رجل مثلك يصيبه غضب الأسد الهمجى المتوحش ، ممزوجا بالوقار والإقدام وهما من صفات ملك الغاب ! » .

ولبت لحظة يتدبر ويتأمل وعيناه صوب الأرض ، ثم استأنف حديثه وقال : « ولكن الله الذى يعرف عجز طبائعنا ، يتقبل منا طاعتنا على نقصها ، وقد استأخر نهاية حياتك الجريئة الدامية ، ولكنه لم يعدل عنها . لقد وقف ملك الموت ساكنا — كما وقف فى قديم الزمان إلى جوار المكان الذى كان يدق فيه (أرونا جيبوست) الحنطة — ويده ظبابة مجردة ، سوف يكون بها عما قريب رتشارد قلب الأسد وضيعاً كأحط فلاح من المزارعين » .

فقال رتشارد : « وهل نهايتى هكذا قريبة جدا ! إذن ليكن ذلك . اللهم إن كانت حياتى قصيرة فلتجعلها مضيئة مستنيرة » .

فقال الرجل صاحب الخلوة ، وكأن دمعة — وهى له زائر غير معهود — كانت تتجمع فى عينه البراقة الجافة : « وأسفاه أيها الملك النبيل ! إن المدى الذى يفصل ما بينك وبين القبر مظلم ، عليه سمات الفناء والنكبة والأسر ، والقبر فاغر فاه ليلتلعك ، وهو قبر سوف تُوارى فيه دون أن يعقبك خلف ، أو يذرف عليك شعبك الدمع رثاء عليك ، وقد أنهكته بحروب موصولة غير مقطوعة ، ولم تمد فى علم رعيتك أو تفعل شيئاً يزيد من سعادتها » .

« ولكن حياتى لم تخل من بعض الصيت أيها الراهب ، ولم تحرم دمعات المرأة التى أحب ! وإن فى هذا لعزاء لرتشارد حتى مماته ، عزاء لا تستطيع أنت أن تعرفه أو تدركه » .

فأجاب الناسك فى نبرة كان لها — مدى برهة من الزمن — رنين أشبه ما يكون

بنبرة رتشارد نفسه وحميته ، وقال : « أنا لا أعرف ذلك ، ولا أستطيع أن أدرك قيمة ما يمتدحك به الشعراء ، وما لحب غادتك من قدر ! » ثم واصل حديثه وقد مد ذراعه الهزيلة وقال : « أى ملك أنجلترا ، إن الدم الذى يغلى فى عروقك الزرقاء ليس أشد نبلا من ذلك الذى يركد فى عروق ، ولئن كانت قطرات دى قليلة فهى من دم (الوزجان) الملكى — هى من دم (جدفرى) البطل المقدس . أنا (ألبريك مورثار) — أو لقد كان هذا اسمى حينما كنت فى هذه الدنيا » .

فقال رتشارد : « أنت ذلك الرجل الذى تتمسّدق بذكره الأبواق ! أفهنا صحيح ؟ وهل يجوز ذلك ؟ هل يمكن لضوء كضوءك أن يهبط من أفق الفروسية ، ويبقى — مع ذلك — الناس وهم بالمكان الذى استقر فيه هذا الضياء جاهلون ؟ » .

فقال الناسك : « لئن بحثت عن نجم إذا هوى ، ما وجدت إلا سديما قائما كانت له — وهو يشق الأفق — صورة زاهية بهية برهة من الزمن . أى رتشارد ، تالله لو كنتُ بتمزيق الحجاب الدامى ، الذى أستر به سرّا مفزعا أستطيع أن أطأ طي قلبك الشامخ لنظام الكنيسة ، إذن لألفيتُ فى صدرى قصة أقصها عليك ، وقد أبقيتها حتى الآن تقرر فى عروق الحياة فى الخفاء ، وأنا كالشاب الوثنى الذى كرس لدينه قلبه . اصغ إلى إذن يارتشارد ، جعل الله للأسى واليأس — وهما لن يجديانى فتىلا — من القوة ما يجعلها مثلا لكائن مثلك ، كائن هو رغم توحشه نبيل شريف ؛ نعم ، لأكشفن عن جراح لبثت فى الخفاء أمدّا طويلا ، لأكشفن عنها رغم أنها ربما تدمى حتى أموت وأنا فى حضرتك ! » .

ثم أخذ الملك رتشارد يستمع — وكله احترام — إلى موجز قصة فيها ما يكفى للإبانة عن سبب شبه الجنون الذى أصاب ذلك الإنسان الفريد البائس ؛ وقد كان لتاريخ (ألبريك مورثار) على رتشارد فيما مضى أثر قوى فى سنيّه الباكورة ، حينما كان المنشدون يملأون قاعات أبيه طربا وسرورا بما يروون من قصص عن الأرض المقدسة .

وقال الناسك : « لستُ بحاجة إلى أن أخبرك بأنى كنت كريم المولد ، سعيد الطالع ، قوى السلاح ، حكيم المشورة ، فلقد كنت كذلك ، ولكن بينما كان أنبل السيدات فى فلسطين يتسابقن : أيهن تضفر الأكاليل لرأسى ، كان حبى معقوداً بفتاة من مرتبة وضيفة انعقاداً لا يحول ولا يلين ، هى فتاة أبوها جندى قديم من جنود الصليب ، رأى ما بين قلبينا من عاطفة ، وعرف ما بيننا من فرق ؛ فلم ير لشرف ابنته ملاذاً غير أن يسوقها إلى ظل الدير . ولما عدت من حملة بعيدة محملاً بفنائم الشرف ، ألفت سعادتي وقد تهدمت إلى أبد الآبدين ! . فقصدت أنا كذلك إلى الدير ، ونفخ الشيطان فى قلبى — وكان يظننى من أتباعه — نفساً من من روح الكبرياء ، وما إخاله إلا منبعثاً من أعماق جحيمه ، وارتفعت إلى مرتبة عالية فى الكنيسة ، كما ارتفعت فى الدولة من قبل — ولقد كنت حقاً رجلاً حكماً مستقلاً منزهاً عن الخطأ ! — وأنى لى أن أخشى الإغراء ؟ ياويلتى ! لقد بت معرفاً^(١) للراهبات ، وبين هاتيك الراهبات ألفت تلك التى أحببت طويلاً ، وفقدت من زمن بعيد . ربك إلا أغنيتنى عن الاعتراف بأكثر من هذا ! — إن راهبة ساقطة كفرت عن إثمها بالانتحار ترقد هادئة فى لحدها فى عين جدة ، وفوق قبرها يتمم ويئن ويزار مخلوق لم يبق له من العقل إلا ما يكفى لأن يجعله يحس بشقائه كل الإحساس ! » .

فقال رتشارد : « أتعس بك من رجل ! إني لن أعجب لبؤسك بعد هذا ؛ قل لى كيف خلصت من الحكم الذى يقضى به الشرع فى مثل جرمك هذا ؟ » .
فقال الناسك : « سل فى هذا رجلاً ما برح شغوفاً بهذه الدنيا المريرة يحدثك عن حياة بقيت لأسباب خاصة ولا اعتبار النسب الكريم ، ولكن إن سألتنى أنا يارتشارد أقل لك إن العناية الإلهية قد أبقتنى كى ترفعى إلى العلا مناراً وهدى ، وبعد ما يحترق منى هذا الوقود الدنيوى تتبدد رفاتى فى النار . هذا الجسد الذى تراه ذاويًا ضامراً يسرى فيه روحان ، أحدهما فعال ثاقب نافذ يدفع عن قضية

(١) المعروف هو القس الذى يعترف له المسيحيون بخطاياهم .

الكنيسة في بيت المقدس ، والآخـر وضيـع حقير بائس ، يتذبذب بين الجنون والبؤس ، يبكي شقائى ويسهر على الآثار المقدسة ، والآثار التى إن أنا رمتها بعينى كنت آثماً جارماً . ربك لا تشفق على ! إن هو إلا إثم إن تشفق على ضياع شىء دنىء كهذا — لا تشفق على وأفد من مثالى . أنت تقف فوق أعلى قمة يشغلها أمير مسيحي ، ولذا أنت فى أشد المواقف خطراً . أنت متكبر فى نفسك ، متهاون فى حياتك ، دام فى يدك ، أبعد عنك الذنوب التى هى منك بمثابة البنية ؛ أنف من صدرك هذا الغضب وذلكم الكبرياء والترف والتعطش للدماء ، مهما تكن هذه العواطف عزيزة على الإنسان الآثم فيك ! » .

فتحول رتشارد يبصره عن هذا الرجل الناسك ، والتفت إلى دى فو ، كأنه أحس ببعض الألم من هذا التهم الذى لم يستطع له رداً ، وقال : « إنه يهذى » . ثم التفت إلى الناسك فى سكونة وهدهوء ، وفى شىء من الازدراء والاستخفاف ، وقال : « إنك قد وجدت أيها الأب المبجل سرباً من حسان البنات (١) لرجل لم يتزوج إلا منذ أشهر قلائل ، ولما كان من واجبي أن أبعدهن عن ظل بيتى ، فقد زودتهن بأزواج يليقون بهن ، كما يفعل الآباء ببناتهم ، فتخلت عن كبريائى لشرف الكنيسة الكريم ، وعن ترفى — كما تقول — لرهبان الدير ، وعن تعطشى للدماء لفرسان المعبد » .

فأجابه الناسك وقال : « إن لك قلباً من الصلب ، ويدا من الحديد ، لا يجديهما نصيح أو مثال ! — ومع ذلك فلسوف نعطيك فرصة من الزمن ، ربما تحولت بعدها وفعلت ما يرضى الله فى سمائه — أما أنا فينبغى لى أن أعود إلى مكائى — رحماك اللهم ! أنا ذلك الرجل الذى تحترقه أشعة الرحمة الإلهية — كما تحترق أشعة الشمس العدسة الحارقة ، ثم تتجمع فوق جسوم أخرى فتشتعل الجسوم وتأتب ، بينما تبقى العدسة باردة ما بها أثر — رحماك اللهم ! لقد نبذ الغنى المادية ، فللفقير أن يتقدم — رحماك اللهم ! » .

(١) مشيراً إلى التهم التى وجهها إليه الناسك : « تشفق على دى فو » .

ولم يكديتم حديثه حتى انطلق من السراق يصيح صياحا عاليا ؛ وهذه الصيحات الجنونية من الناسك تحت من ذهن رتشارد شيئا من الأثر الذي تركه تفصيل ما ضيه وأرزائه الخاصة ، فقال الملك : « تالله إنه لقس معتوه ! اتبعه يا دى فو ، وراقبه كي لا يصيبه أذى ، لأننا وإن كنا صليين ، إلا أن للمشعوذين سوقتنا تقدير فوق تقدير القس أو القديس ، وربما ألحقت به السوقة بعض المهانة . » فصدع الفارس بالأمر ، وأفسح رتشارد لتوه في المجال للخواطر التي أوجت بها نبوءة الراهب الساذجة ، فقال محدثا نفسه : « هل أموت عاجلا ولا يخلفنى من بعدى ولد ، ولا يبكى على باك ؟ » . أثقل به من حكم ، والحمد لله على أنه حكم لم يصدر عن قاض كفاء قدير ؛ ومع ذلك فالأعراب ، الذين بلغوا الذروة في علم الروح ، كثيرا ما يقولون إن الله — الذى ليست حكمة الحكماء في تقديره إلا حقا وجهلا — يوحى بالحكمة والكهانة في ثنايا الجبل البادى على المعتوهين من الرجال . إن ذلك الناسك يقال عنه كذلك إنه يقرأ النجوم ، وهو فن كثيرا ما يُمارس في هذه البلاد التي كانت فيها جيوش السماء من قديم الزمان موضع العبادة . وددت والله لو أنى سألته في شأن ضياع رايتى فليس (تَشْبِيَتْ) المبارك ذاته مؤسس مذهبه بأكثر منه صراحة وسذاجة ، أو يتكلم مثله بلسان أشبه ما يكون بلسان نبى — والآن ما ذا رأيت يا دى فو ، وما خبر هذا القس المعتوه ؟ » .

فأجابه دى فو قائلا : « هل تقول عنه يا مولاي إنه قس معتوه ؟ والله إنى لأخاله أشبه ما يكون (بالمعمدان) نفسه حينما خرج من القفر مباشرة ، لقد اعتلى آلة من الآلات الحربية ، وأخذ من فوقها يعظ الجند موعظة لم ينطق بها منذ بطرس الناسك إنسان ، وقد دُعر المعسكر من صياحه ، فتجتمع الخلق حوله ألوفا ألوفا ، وهو بين الحين والآخر يحيد عن مجرى حديثه الأول ، ويخاطب الشعوب العديدة كلا بلسانه ، ويرميهم بأحسن ما يستفهم من برهان كي يثابروا على تخليص فلسطين » .

فقال الملك رتشارد : « وحق هذا النور إنه لناسك نبيل ! ماذا عسى أن

يصدر من دم (جدفرى) غير ذلك ؟ هل هو من السلامة يائس لأنه عاش بالحب
فى سالف أيامه ؟ لأطلبن إلى البابا أن يبعث إليه بالمغفرة الكاملة ، ولن أكون أنا
نفسى أقل رغبة فى أن أتوسط له ، حتى وإن كانت معشوقته الحسناء
من الراهبات .

وإذ هو يتحدث كذلك إذا بأسقف صور يلتمس المثل لديه ، كي يرجوه أن
يحضر — إن سمحت له صحته — جلسة سرية سوف يعقدها زعماء الصليبيين ،
وكى يشرح له الحوادث الحربية والسياسية التى وقعت إبان مرضه .

الفصل التاسع عشر

إذن فلنقدم سيوفنا ولما ترل ظافرة ،
ولنرجع إلى الوراء بخطانا بعد أن سرنا بها قُدُما ،
ووطأنا بها طريق المجد صعدا ،
فوق رقاب الخصوم .
ولننزع من فوق أكتافنا زرد الحديد ،
وقد أفسمنا أغلظ الأيمان في بيت الله لنحملنه ،
عينا لم توفى ،
كوعد الحاضنات لأطفالهن في القرى ،
يهدئنهم به حيناً ،
ثم من بعد لا يذكرن .

من مأساة « الحروب الصليبية » .

كان أسقف صور خير رسول لا لبلاغ رتشارد نبأ لو سمعه الملك قلب الأسد
من رجل آخر ما أطاق سمعه دون أن ينفجر غاضبا انفجارا لا حد له ، وحتى هذا
الأسقف الحكيم الجليل لم يكن باليسير عليه أن يغرى الملك بالإصغاء إلى ذلك
النبأ الذى هدم كل آماله فى استرداد القبر المقدس بقوة السلاح ، والفوز بتلك
الشهرة التى كان صوت العالم المسيحى قاطبة يتأهب لنحبه إياها كبطل الصليب .
ولكن بلاغ الأسقف كان يتبين منه أن صلاح الدين كان يجمع قوى قبائله
المائة جميعا ، وأن ملوك أوروبا — وقد كانوا من قبل لكثير من بواعث هذه
الحملة كارهين ، هذه الحملة التى دلت الأيام على أنها مغامرة شديدة ، والتى كان
خطرها يتفاقم يوما بعد يوم — قد اعزموا أن يتنحوا عن مقصدهم ، وشد من
أزرهم فيما قصدوا إليه ممثل فيليب ملك فرنسا ، الذى أعرب عن غزومه على العودة
إلى أوروبا ، بعدما قدم البرهان على احترامه لأخيه ملك إنجلترا ، وأكد أنه سوف
يطمئن على سلامته قبل الرحيل ؛ وبات على مثل هذا العزم تابعه الأكبر أمير
شبنانيا ، وليس عجيبا أن يرحب ليوبولد أمير النمسا — وقد ألحق به رتشارد الدلة

والإهانة — بفرصة تمهد له هجران هذه الحرب التي كان يُعدّ خصمه المتصلف لها زعيما؛ وأعلن الآخرون مثل هذه النية، حتى بات جليا أن ملك إنجلترا إن أحب البقاء فسيخلونه، ولا معين له غير أولئك المتطوعين الذين قد ينضمون إلى الجيش الإنجليزي في مثل هذه الظروف السيئة، وغير معونة غير أكيدة يقدمها كثراد منتسرا والجنود من رجال المعبد ورجال القديس يوحنا، وهؤلاء جميعا — رغم أنهم قد أقسموا ليظهرن حربا على الأعراب — كانوا على الأقل لا يقلون عن سواهم غير من أي ملك أوروبي تتم له الغلبة على فلسطين، حيث كانوا، من قصر النظر ومن سياسة تقوم على حب الذات، يطمعون في إنشاء ولايات مستقلة لهم.

ولم يحتج الأسقف إلى نقاش طويل كي يبين لرتشارد حقيقة موقفه، وبعدها انفجر الملك ثائرا غاضبا أول الأمر — استوى على مقعده هادئا ساكنا؛ وبنظرات كثيبة ورأس مطاطي، وذراعه على صدره منطبقتان، أخذ يصغي للحجج التي أدلى له بها الأسقف على استحالة مواصلة الحرب الصليبية بعد تخلي أقرانه عنه، بل لقد أمسك الملك عن اعتراض الأسقف، حتى حينما بلغت بهذا الرجل الجرأة على أن يلعب في عبارة متزنة إلى أن اندفاع رتشارد كان من الأسباب القوية التي بغضت الأمراء في الحملة.

فنظر رتشارد نظرة كثيبة، وابتسم ابتسامة حزينة، وأجاب قائلا: «إني أقرّ أيها الأب الوقور، بأنه ينبغي لي في بعض الظروف أن (أعترف بخطئي)، ولكن ليس شديدا على أن ألقى على ضعف جبلتي مثل هذا الجزاء، وأن يُقضى عليّ، لثورة أو ثورتين انفجرت بهما لانفعال طبيعي في نفسي، بأن أرى مثل هذه الثمار النفيسة، ثمار المجد لله والشرف للفروسية، تتبدد قبل أن تتجمع؟ — ولكنها سوف لا تتبدد — أقسمت بروح المنتصر الجبار لأرفعن الصليب فوق بروج بيت المقدس أو ليُرفعن فوق قبر رتشارد!

فقال الأسقف: «لك أن تفعل هذا، ولكن لن تراق بعد اليوم في هذا الصراع قطرة واحدة من دماء المسيحيين».

فقال رتشارد : « إنك يا سيدي الأسقف تتحدث عن الصلح — ولكن
دماء الكلاب المنافقين ينبغي كذلك أن تتوقف عن السريان والتدفق » .

فأجاب الأسقف قائلاً : « حسبنا فخارا أن نستخلص من صلاح الدين بقوة
السلح ، وبما يوحيه ذكرك من تقدير ، شروطا نسترد بمقتضاها القبر المقدس
توا ، ونفتح للحجاج الأرض المقدسة ، ونضمن لهم سلامتهم بقوى الحصون ،
وفوق هذا وذاك نوكد سلامة المدينة المقدسة بأن يمنح رتشارد لقب ملك بيت
المقدس وحاميه » .

فتطاير الشرر من عيني رتشارد بدرجة غير مألوفة وقال : « كيف هذا ! أنا !
أنا — أنا أكون ملك المدينة المقدسة وحاميا ! إن هذا إلا النصر عينه ، ولن
نكسب بالظفر في القتال أكثر من هذا ، بل وقل أن نبلغ هذا بقوانا المشتتة
التي لا إرادة لها . ولكن صلاح الدين ما برحت له مآرب يرمى إلى الاحتفاظ بها
في الأرض المقدسة ، أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الأسقف : « إنما يحتفظ بها كملك شريك وحليف ، أقسم ليخلصن
لرتشارد العظيم — وإن شئت فقل لصهره بصلة الزواج » .

فدهش لهذا الخبر رتشارد دهشة أقل مما كان يتوقع الأسقف وقال : « بصلة
الزواج ! ها ! — أى نعم ، أنت تعنى أدبث بلاتجنت ، هل نما إلى هذا في حلم
من الأحلام ؟ أم هل نبأني به إنسان ؟ والله إن عقلي ما يزال من أثر الحمى مضطربا
ثأراً ضعيفا — ترى من ألع لي بهذه الصفقة الهمجية ؟ ألا سكتلندي ، أم الحكيم ،
أم ذلك الناسك المقدس ؟ »

فقال الأسقف : « الراجح أنه ناسك عين جدة ، لأنه جاهد في هذا الأمر
كثيراً ، ومذتبين له تبرم الأمراء ، وأن تشتت قواهم أمر لا مناص منه ،
أكثر من الاجتماع بالمسيحيين والمسلمين للتشاور معهم ، كي يمهّد لهذا الصلح الذي
يحقق للعالم المسيحي جانباً على الأقل من أغراض هذه الحرب المقدسة » .

فتطير الشرر من عيني رتشارد وصاح عاجبا : « امرأة من دى لرجل مسلم
— ها ! »

فسارع الأسقف إلى صرفه عن غضبه وقال :
« لا ريب أنه ينبغي لنا أن نحصل أول الأمر على رضا البابا ، وسوف يفاوض
أبانا المقدس في هذا ذلك الناسكُ القديس المعروف في روما . »
فقال الملك : « كيف يكون هذا قبل أن يصدر منا الرضا والقبول ؟ »
فقال الأسقف وفي صوته نغمة التهدة والإيعاز : « كلا لن يكون ذلك إلا
بتصديق خاص منك . »

فقال رتشارد : « تريدون رضاي عن زواج فتاة من دى لرجل من المنافقين ؟ »
ولكنه كان يتكلم بنغمة تلمس فيها الشك أكثر مما تلمس اللائمة الصريحة على
هذا المقترح ، ثم قال : « والله ما حملت بمثل هذا التآلف حينما وثبت من مقدم
سفينتي ووطأت أرض سوريا كما يثب الليث لفريسته ! والآن — ولكن دعني
من هذا ، وواصل حديثك فسوف أستمع إليك صابرا . »

وقد سُرَّ الأسقف حين ألقى مقصده من الملك أشد يسرا مما كان يخشى ،
فبادر إلى عرض الأمثلة لرتشارد من أشباه هذا التحالف في أسبانيا مما لم تتم بغير
رضا السدة البابوية ، وإلى سرد المزايا العديدة التي سوف يظفر بها العالم المسيحي
من توثيق العرى بين رتشارد وصلاح الدين برباط له كل هذه القداسة ؛ وفضلا
عن ذلك كان الأسقف يتكلم بحماسة شديدة وروح ديني عن احتمال اعتناق
صلاح الدين للمسيحية لو تم هذا الحلف المقترح .

فقال رتشارد : « وهل أبدى السلطان ميلا إلى اعتناق المسيحية ؟ إن كان
هذا كذلك ، فليس على وجه الأرض ملك أمنحه يد قريبتى ، بل أختى ، قبل أن
أقدمها لصاحبي صلاح الدين النبيل — أى والله ، حتى وإن جاء الأول يقدم التاج
والصولجان تحت قدميها ، وجاء صلاح الدين خالي الوفاض لا يملك غير سيفه الكريم
وقلبه الطيب ! » .

فقال الأسقف مراوغاً بعض المراوغة : « لقد استمع صلاح الدين إلى معلمينا المسيحيين ، وأصغى إلى شخصي الضعيف كما أصغى إلى غيري ، ولما كان يصغى صابراً ، ويجيب هادئاً ، فما إخال ذلك إلا لأنه كان ينتزع نفسه كما ينتزع الميسم من النار ، ولقد قيل : « ما أعظم الحق وما أشد سلطانه » وفضلاً عن ذلك فإن ناسك عين جدة — وهو ذلك الرجل الذي قلما صدرت عنه كلمات لم تثمر — على يقين تام بأن بين الأعراب ومن إليهم من الشركين رأياً بأن هذا الزواج سوف يكون له أثره ؛ إنه يقرأ مسالك النجوم ، ولما كان يقطن ، زاهداً في شهوات الجسد ، في تلك الأماكن المقدسة التي وطأها القديسون في قديم الزمان ، فقد تلبس بروح (أليجا تَشَبَّهت) مؤسس مذهبه المبارك ، كما تلبس بها من قبل (اليشع) الرسول حينما نشر فوقه عباءته » .

وأصغى الملك رتشارد للحجج التي أدلى بها الأسقف بعين كسيرة ، ونظرة كلية .

ثم قال : « إنى لا أستطيع أن أقول ما شأن هذا بي ، ولكنى أظن أن هذه الآراء الباردة ، آراء أمراء العالم المسيحي ، قد أصابتني كذلك بفتور روحي ؛ لقد انقضى وقت لو أن رجلاً علمانياً تقدم لى فيه بمثل هذا الحلف لطرحت أرضاً — ولو تقدم لى به رجل من رجال الكنيسة لبصقت فى وجهه على أنه كافر ومن قساوسة (بعل) ، ولكن هذا الرأى منهم الآن ليس غريباً على مسمى ، وإنى لأقول : ما لى لا أسعى فى إخاء العربى ومحالفته ، وهو رجل شجاع عادل كريم ، يجب عدوه الفاضل ويحمله ، كأنه له صديق ، بينما يتنحى أمراء العالم المسيحي عن جانب حلفائهم ويهجرون قضية الله والفروسية الطيبة ؟ ولكنى سوف أتمالك الصبر ولا أفكر بعد فيهم ، لن أقوم بعد هذا إلا بمحاولة واحدة كي أبقى على تماسك هذه الأخوة السامية إن أمكن ذلك ، ولو فشلت فيها ياسيدى الأسقف ، فلنتحدث معاً فى أمر مشورتك ، التى لا أقبلها الآن فى الظرف الراهن ولا أنبذها كل النبذ . هيا بنا إلى المجمع يا سيدى — إن الوقت ينادينا . إنك تقول إن رتشارد عجول

متفطرس — سوف تراه يذل نفسه كذلك العشب الوضع الذى يشتق منه لقبه » .

ثم خف الملك يساعده رجال غرفته الخاصة ، وارتدى صدره وعباءة سوداء لونها رسمى ، ولم يلبس من شارات الأبهة الملكية غير حلقة من ذهب يطوق بها رأسه ، ثم سارع وأسقف صوركى يحضر المجمع الذى كان منعقدا ينتظر قدومه كي يبدأ جلسته .

وكان السرادق الذى يلتئم فيه المجمع فسطاطا فسيحا ، تنتشر أمامه راية كبيرة عليها شارة الصليب ، وأخرى ترسم عليها امرأة جاثية على ركبتها ، شعرها غير ممشوط ، وزياها غير مهندم ، قصد بها أن تمثل كنيسة بيت القدس المقفرة المنكوبة ، وكانت تحمل هذا الشعار : « لا تنس محنتك » ، ووقف لدى هذا الفسطاط جماعة من الحراس عنى باختيارهم ، واتخذوا جميعاً أمكنة بعيدة عن السرادق كي لا يتسرب الجدل — وكان أحيانا يعلو ويعصف — إلى آذان غير تلك التى أريدت به » .

وفى هذا المكان اجتمع الأمراء الصليبيون ، ولبثوا ينتظرون قدوم رتشارد ؛ وحتى هذا التأخير الوجيز الذى اعترض رتشارد ، فسره خصومه تفسيراً لا يرضيه ، وأخذوا يتداولون فيما بينهم أمثلة عديدة من تكبره واستعلائه عليهم استعلاء لا مبرر له ، حتى إن هذا التأخير الراهن القصير ، الذى لم يكن للملك مندوحة عنه ، قد سبق مثالا لذلك ، وأخذ الرجال يجاهدون فى تأييد بعضهم بعضاً فى هذه الآراء السيئة عن ملك انجلترا ، ويررون الأخطاء التى ارتكبوها من قبل بالبالغة فى أتفه الأمور ؛ وربما كان ذلك كله لأنهم كانوا يحسون بتقدير غريزى لهذا الملك البطل ، تقدير يتطلب لمغالته مجهوداً غير عادى .

ولذا فقد قر بينهم الرأى على أن يستقبلوه حين مقدمه بقليل من الرعاية ، ولا يولونه احتراماً أكثر من مجرد ما ينبغى للمحافظة على حدود الحفاوة الباردة ؛ ولكنهم ما إن رأوا تلك الهيئة النبيلة ، وتلك الطلعة الملكية وعليها أثر من

شحوب المرض الذى انتابه أخيرا ، وتلك العين التى أطلق عليها المنشدون اسم النجم اللامع فى مواقع القتال والظفر ، وما إن هاجمت ذا كرتهم مآثره التى تكاد تفوق شجاعة الإنسان وطاقته البشر ، حتى هب مجمع الأمراء جميعا فى آن واحد — وحتى ملك فرنسا الغيور ، ودوق النمسا المكتئب المستاء هبّا راضيين — وانفجر الأمراء الحاشدون جميعا فى صوت واحد مهلين هاتفين : « سلام الله على الملك رتشارد ملك إنجلترا ! — وليحى قلب الأسد الجسور ! » .

وبجبين واضح جلى كشمس الصيف المشرقة ، أخذ رتشارد ينثر شكره يمنة ويسرة ، وهنأ نفسه على عودته ثانية بين إخوانه أمراء الحرب الصليبية .

ثم خطب الحاشدين وقال : « إنه كان يريد أن يقول كلمة موجزة حتى وإن تكن فى أمر — كمثل — تافه زهيد ، مخاطرا بتأجيل تشاورهم فى صالح العالم المسيحى بضع دقائق ، وبإيقاف تقدمهم فى مشروعاتهم المقدسة » .

فعاد الأمراء المجتمعون كل إلى مقعده ، وسار بينهم جميعا سكون عميق .

واستطرد ملك إنجلترا الخطاب وقال : « اليوم عيد كبير للكنيسة ، وما أجد

رجالا مسيحيين — فى مثل هذا الطرف — أن يزيلوا ما بينهم وبين إخوانهم من خصومة ، وأن يعترف كل منهم بخطئه ؛ أيها الأمراء النبلاء ويا آباء الحملة المقدسة ، إن رتشارد إلا جندى ، ولقد كانت يده أبدا أخف من لسانه — وقد ألف لسانه خشن اللفظ — ولكنى أتوسل إليكم أن لا تنتحوا عن الغرض النبيل الذى قصدتم ،

عن تخليص فلسطين ، لما يُلقى بلا تاجنت من كلام طائش ، ويعمل من فعال تخرج عن اللياقة ؛ بالله لا تنبدوا حسن الذكر فى الدنيا والخلاص فى الآخرة — ولكم هنا مجال لإحرازهما إن كان لا إنسان أن يحرزهما — من أجل جندى قد يكون عجولا فى فعالة ، شديدا فى كلامه كالحديد الذى لبسه منذ نعومة أظفاره . إن كان

رتشارد قد قصر فى حق أحدكم ، فرتشارد سوف يعوض ذلك بالفعل واللفظ —

أى أخى ملك فرنسا النبيل ، هل كان من سوء طالى يوما أن أسأت إليك ؟ » .

فأجاب فيليب وعليه جلال الملك : « إن جلالة فرنسا لا تطلب الكفارة من

جلالة إنجلترا « ، ثم صافح بيده يد رتشارد — وقد مدّها إليه — وقال : « ومهما يكن رأيي في شأن مواصلة ما شرعنا فيه ، فهو رأي يقوم على أسباب نشأت عن حال مملكتي ، ولا ريب في أنه لم يقم على غيرة أو بغض لأخي الملك أشجع الشجعان » .

ثم سار رتشارد نحو دوق النمسا ، وفي نفسه مزيج من الصراحة والوقار ، بينما نهض ليوبولد من مقعده ، وكأنه كاره ، وتحرك كما تتحرك الآلة الميكانيكية يتوقف مسيرها على دافع خارجي ؛ وقال الملك : « إنما دوق النمسا يحسب أن لديه ما يبرر استيائه من ملك إنجلترا ، وملك إنجلترا يرى أن لديه من الأسباب ما يدعو إلى الشكاية من النمسا ، إذن فليتبدل العفو حتى يبقى السلم في أوروبا ، ويبقى التضامن بين هذه الصفوف سليما لا ثلثة فيه ؛ نحن الآن جميعا نصراء لراية أعلى مجدا من أية راية رفرفت يوما أمام أمير من أمراء هذه الدار الفانية ، تلك هي راية الخلاص ؛ فلا تجعلوا إذن للإحزن سبيلا إلى قلوبكم ، من أجل هذا الرمز ، رمز شرفنا في الدنيا ، وليرد ليوبولد علم إنجلترا إن كان تحت سلطانه ، وسيقول رتشارد إنه نادم على طبعه العجول الذي حدا به أن يسىء إلى علم النمسا ، ولن يبعثه على هذا القول غير محبته للكنيسة المقدسة » ، فوقف الأرشدوق ساكنا مكتئبا غير راض ، حاسر الطرف مطأطيء الرأس ، يكتم في نفسه الغضب ، ويمتنع الوجه وخشية الشذوذ أن ينفس عن نفسه بكلمة .

فسارع بطريق بيت المقدس إلى ثلم هذا السكون وتلك الحيرة ، وشهد لأرشدوق النمسا بأنه قد برأ نفسه يمين غليظة من كل علم مباشر وغير مباشر بالاعتداء الذي لحق براية إنجلترا .

فقال رتشارد : « إذن فلقد أسأنا إلى الأرشدوق النبيل أشد الإساءة ، ونحن نطلب إليه العفو عن اتهامنا إياه بالعدوان والجبن ، ونمد إليه يدنا إشارة إلى تجديد السلم والمودة بيننا — ما هذا ؟ دوق النمسا يرفض يدنا هذه العارية كما رفض من قبل قفازنا الحديدي ؟ ماذا ! ألسنا له أقرانا في السلم ولا أعداء في القتال ؟ ليكن

ذلك ، ولسوف نعدُّ ضعف تقديره لنا وخطه من مكانتنا كفارة لأى صنيع ربما اندفعنا إليه ساعة ونحن فى حمية الغضب ، وسنعد الأمر بيننا بهذا قد انتهى .
وبعد أن أتم حديثه ، أشاح بوجهه عن الأرشدوق وعليه من علامات الوقار والحشمة أكثر مما عليه من الازدراء والاستخفاف ، وترك الدوق — وقد بدا عليه الفرج بعد ما صرف الملك عنه بصره — كالتلميذ المكتئب الشارد عن الدرس حينما يصرف عنه معلمه القاسى نظرتة .

« أى إيرل شبانى النبيل — أى مركيز منتسرا الأمير — أى رئيس الفرسان الأعظم الجسور — اعلموا جميعاً أنى هنا نائب معترف بخطئى ، فهل منكم من له على إيدانة ، أو من يطلب منى ترضية ؟ » .

فقال كنزاد صاحب اللسان الناعم : « والله إني لا أدري على أى أساس نقيم إيدانتك ، اللهم إلا إن كان ملك انجلترا يأخذ من إخوانه فى الحرب المساكين كل صيت كانوا يطعمون فى إحراره من هذه الحملة » .

وقال رئيس فرسان المبد : « لو سألتنى أن أدئك فإدانتى إياك أشد وأخطر من إيدانة مركيز منتسرا لك ، وقد تظنون أنه لا يليق براهب عسكري مثل أن يرفع صوته حين يبقى العدد العديد من الأمراء صامتين ؛ ولكن الأمر يخص صفوفنا جميعاً ، ويهم ملك انجلترا هذا النبيل — كما يهم غيره — أن يستمع إلى رجل يدينه علانية فى وجهه تبهم هناك الكثير من الناس ممن يكيلونها له كيلا فى غيبته ؛ نحن جميعاً نحمد ونحمد فى ملك انجلترا شجاعته ورفيع أعماله ، ولكننا يسوءنا منه أن يستولى أبداً فى كل ظرف على السبق والرفعة علينا جميعاً ، وليس يليق بالأمراء المستقلين أن يستكينوا لذلك ؛ نحن نسلم راضين بالكثير لبسالته وغيرته وثروته وسلطانه ؛ ولكن ذلك الذى يختطف منا كل شئ على أنه حق من حقوقه ، ولا يترك لنا شيئاً يمنحه إيانا عن رضا وطواعية ، يحط بنا من مرتبة الأحلاف إلى مرتبة الخدام والأتباع ، ويعتم فى أعين جنودنا ورعيتنا بريق نفوذنا ، إذ يرون أننا لا نباشره مستقلين ؛ وحيث أن رتشارد الملك قد سألنا أن نصدقه ، فينبغى له أن لا يدهش أو يغضب إن سمع رجلاً حرّمت عليه أبهة الدنيا ،

وليس للسلطان الدنيوى لديه وزن إلا بمقدار ما يزيد به من نجاح بيوت الله وإذلال الأسد الذى يتجول هنا وهناك يبحث عمن يفترس — أقول يجب ألا يدهش أو يغضب إن استمع إلى رجل مثلى يصدقه القول ردا على سؤاله ، وهو ذلك القول الحق ، الذى يؤيده بقلبه فى هذه الآونة التى أتحدث فيها إلى كل مصغى لى ، مهما كظم صوته احترام المليك .

وبينا كان رئيس الفرسان الأعظم يهاجم مسلك رتشارد هذه المهاجمة المباشرة ، التى لا يسترها من اللفظ طلاء ، علا الدم فى وجنتى الملك علوا شديداً ، وتمتم الحاضرون إثر الخطاب بالرضا ، مما كان يدل أوضح دلالة على أنهم يكادون جميعاً يؤيدون هذه التهم ، وأحنق الملك هذا ، بل كاد يقتله كدأ ، ولكنه مع ذلك رأى بثاقب بصره أنه إن استسلم لما فى قلبه من ضعيفته ، وأطلق نفسه على سجيته ، أعطى ذلك المدعى الحذر حقاً له عليه ، وهو أهم ما كان يرمى إليه رئيس فرسان المعبد ، ولذا فقد لبث رتشارد صامتا — رغم شدة وقع الحديث على نفسه — إلى أن أتم دعاء « أبانا الذى فى السماء ... » سرا ، وهى الطريقة التى نصح له قسيسه باتباعها كلما أوشك الغضب أن يملك منه زمام نفسه ، ولما هدأت ثائرة الملك ، شرع يتكلم كلاماً لا يخلو من نغم مرير ، وبخاصة فى مستهل الخطاب ، قال :

« هل بلغ الأمر هذا المبلغ ؟ وهل بلغ من إخواننا ألم النفس حدا يجعلهم يلحظون ضعف مزاجنا الطبعى ، وغلظتنا فى التعجل والغيرة اللذين قد يدفعاننا أحياناً إلى إصدار الأمر حينما يضيق الوقت عن عقد المجلس للتشاور ؟ ما كنت أحسب أن الإساءة — إن كانت عارضة وبغير إصرار سابق — تجدها فى قلوب أحلافى مرتعاً خصيباً فى هذه القضية المقدسة التى نسمى لها ، وأنهم من أجلى يسقطون المحراث من أيديهم ، بعد ماخط الأخدود حتى قرب نهايته ، وأنهم من أجلى يحيدون عن الطريق المستقيمة التى تؤدى إلى بيت المقدس ، والتى بسلاحهم شقوها ؛ حقاً لقد كنت أخدع نفسى حينما كنت أظن أن خدماتى القليلة ترجح أخطائى الطائشة — وأنكم إن ذكرتم أنى خففت إلى الطليعة مهاجماً فما نسيت أنى كنت أبداً فى

ذيل المتهقرين - وإني إن رفعت رايتي فوق بلد مقهور ، فإن في ذلك لكل
الجزء الذي أرجو ، تاركاً لغيري اقتسام المغانم ؛ كنت أستطيع أن أطلق
اسمي على المدائن التي نغزو ، ولكني أسلمت لغيري البلاد ، وإن كنت عنيداً صلب
الإرادة ، أفرض الرأي بجرأة وإقدام ، فما أحسب أنني ضننت بدمي ودم قومي في إنفاذ
ذلك الرأي بمثل تلك الجرأة وذلك الإقدام ؛ وإن كنت في عجلة المسير أو في ساعة
القتال زعمت لنفسي على جنود الآخرين سلطاناً ، فقد كنت أبداً أنظر إلى هؤلاء
الجنود وكأنهم جندي ، أشتري لهم بمالي المؤونة والدواء إن قصر أربابهم عن
إحرازها ؛ وإنه والله ليخجلني أن أذكركم بما يبدو لي أنكم جميعاً من دوني قد نسيتموه ،
ولخير لنا أن ننظر قُدماً إلى مستقبل أعمالنا ، وصدقوني أيها الإخوان . . . »
وهنا واصل الملك خطابه ، وقد اشتعل وجهه حماسة وغيرة ، وقال : « صدقوني إنكم لن
تجدوا في كبرياء رتشارد أو غضبه أو أطماعه إساءة تقف لكم حجرة عثرة في السبيل
التي نناديكم إليها الدين والمجد نداءً عالياً ، كأن الملك الأعلى ينفخ في الصور كلا !
كلا ! والله إني ما أستطيع العيش لو عرفت أن ضعفي ووهني كانا سبباً في التفرقة
بين هؤلاء الإخوان الكرام من الأمراء الحاشدين ، والله لأقطعن يميني
يساري لو كان لديكم دليل ينهض شاهداً ضد إخلاصي ، ولسوف أزل لكم طائفاً
عن كل حق لي في قيادة الجيوش ، بل وفي رعتي الخاصة من أتباعي ، وليسير
بهم أي نديتم من الملوك ، ومليكمهم - وما كان أحب إليّ أبداً من أن - يستبدل
بعضا القائد رمح المقاتل - وسوف ينضوي تحت لواء (بوسان) يخدم بين أصحاب
المعبد ، أي والله ، بل وتحت لواء النمسا ، لو أتت النمسا رجل مقدام يقود
جيوشها . أما إن كنتم أنتم أنفسكم قد ملتم هذه الحرب ، وتحسون بسلاحكم
يعقر بضّ جلودكم ، فما عليكم إلا أن تتركوا رتشارد ونحو عشرة آلاف ، أو خمسة
عشر ألفاً من جنودكم ، يعمل لكم على البرّ يمينكم » ثم صاح بهم وقد هز برأسه
إلى أعلى كأنه ينشر علم الصليب فوق بيت المقدس وقال : « وإذا ما ظفرنا
بصهيون ، فسوف لا نكتب على أبوابه اسم رتشارد بلاتاجنت ، وإنما أولئك

الأمراء الأكرمين الذين عهدوا إليه بوسائل الظفر والانتصار .
هذه الفصاحة الجاهلية ، وذلك القول الباسم الذى ألقاه الملك العسكرى ، أثار
فى الصليبيين خائر العزيمة ، كما بعث الحياة من جديد فى إخلاصهم ، وتنبهت أذهانهم
إلى الغرض الأول من حملتهم ، فعرا أكثرهم الحياء من تأثرهم بتافه الشكاوى التى
غمرتهم أمثالها من قبل ، وانتقلت النار من عين إلى عين ، وسرت الحمية من صوت
إلى صوت ، فكفروا — وكأنهم مجمعون — نداء الحرب الذى سبق لهم أن ردّدوا به
ضراعة بطرس الناسك ، وصاحوا بصوت مرتفع : « سرّ بنا قلب الأسد المهام —
ليس لأحد أن يتقدم إن تخلف الشجعان ؛ سرّ بنا إلى بيت المقدس ! هذه هى
إرادة الله ! هذه هى مشيئة الرحمن ! بارك الله فيمن يقدم لإنجازها سلاحه ! » .
هذه الصيحة ، التى صاحوا جميعا على حين غرة ، نمت إلى ما وراء حلقة الحراس
القائمين على سرادق المجمع ، وانتشرت بين جند الجيش ، الذين فتّ من قواهم
المرض والجو حتى باتوا متعطلين خائرى العزيمة ، وأخذوا كزعمائهم يهين منهم العزم ؛
ولكن ظهور رتشارد ثانية فى نشاطه المتجدد ، وتلك الصيحة المعروفة التى تردد
صداها بين مجمع الأمراء ، أثارت فيهم الفيرة بغتة ، وأجابت الألوف وعشرات
الألوف مرددين الصيحة عنها : « صهيون ، صهيون ! — الحرب ، الحرب ! —
هيا توا إلى قتال الكفار ! هى إرادة الله ! هى مشيئة الرحمن ! » .
وهذا الهتاف فى الخارج ضاعف بدوره الفيرة التى سادت داخل السرادق ،
وخشى أولئك الذين لم تشتعل النار فى قلوبهم فعلا أن يظهر أقل حرارة من
غيرهم ؛ ولم يعد هناك حديث آخر غير حديث الزحف نحو بيت المقدس بأثوف
شاحخة بعد انقضاء الهدنة ، وحديث الوسائل التى تتبع فى عين الوقت لإمداد
الجيش وإعداده بالرجال ؛ ثم انفض المجمع وظاهرهم جميعا الإيمان التام بغرض
واحد — غرض سرعان ما ذوى فى صدور أكثرهم ، وما كان له البتة وجود فى
صدور الآخرين .

ومن هذه الجماعة الأخيرة كان المركيز كنزاد والرئيس الأعلى لفرسان
المعبد ، فأويا معا إلى كنفيهما على مهل ، غير راضيين عما أسفر عنه يومهم هذا .

وقال ثانيهما وعليه سيما الاستخفاف البارد الذى عرف به : « كم من مرة
ذكرت لك أن رتشارد يستطيع أن يشق طريقه وسط الجبال الرقيقة التى تنشر
له ، كما يشق الأسد نسيج العنكبوت ؛ أفلم تر أنه ما إن تكلم حتى لعبت أنفاسه
بأولئك الحمقى المترددين ، كما يلعب الإعصار بالهشيم المنثور فيجمعه أو يبدده كيفما
شاء » .

فقال كنزاد : « إذا ما انقشع الإعصار استقر الهشيم فوق الأرض ثانية بعد
هبوبه على متن الرياح » .

فأجابه رئيس المعبد وقال : « لكن هلا علمت فوق ذلك أنه يرجح — إذا ما
انتهينا من هذا المقصد الجديد الذى قصدنا بالغزو ، وقضى الأمر ، وعاد كل أمير
جليل يسترشد بما يهديه إليه عقله الضعيف — أن يمضى رتشارد برضا من الأمراء
ملكاً على بيت المقدس ، وأن يقبل حدود المعاهدة مع صلاح الدين ، التى ظننت
أنت نفسك أن ليس أقرب منه أحد بازدرائها والغض منها » ؟

فقال كنزاد : « والآن بعد ما أصبحت الأيمان المسيحية عتيقة بالية ، أستحلفك
بمحمد وبرب محمد إلا قلت لى إن كنت تحسب أن ملك إنجلترا العاقى سوف يربط
دمه بدم السلطان المسلم ؟ لقد كان من سياستى أن أدخل فى المعاهدة هذا الشرط ،
حتى أجعلها بأسرها بغيضة إلى نفسه — وكلا الأمرين شر لنا ؛ إن أصبح سيداً
علينا بالغبلة والنصر ، أو بالاتفاق والرضا » .

فأجاب صاحب المعبد قائلاً : « لقد أخطأ دهاؤك مرمى رتشارد ، أنا أعلم
هوى الملك مما وسوس لى رئيس الأساقفة ، ومن ضربتك القاضية التى ضربت
بذلك العلم ؛ ألم تنقض بتقدير لا يزيد عما تستحق ذراعان من الحرير المزركش ؟ !
— أى مركيز منتسرا ، لقد خبت منك شعلة ذكائك ، وسوف لا أثق بعد اليوم

في مكائدك الدقيقة الحبك ، ولا عمدن إلى حيلتي . هلا سمعت بأولئك القوم الذين يسميهم الأعراب بالخوارج ؟ »

فأجاب المركز بقوله : « لا مرأ في أنهم قوم تملك اليأس قلوبهم ، وسلبت الغيرة عقولهم ؛ وقفوا حياتهم على نصرته الدين — وبينهم وبين أصحاب المعبود في هذا بعض الشبه — إلا أنا ما عرفنا عنهم قط أنهم وقفوا لحظة عن السير في سبيل دعوتهم . »

فأجاب الراهب عابساً مقطب الوجه وقال : « صاح لا تمزح ، واعلم أن واحداً من أولئك الرجال قد ذكر — في يمين غليظة أقسمها — اسم عاهل الجزيرة ذاك ، وأقسم لينادين به ألد أعداء دين الإسلام . »

فقال كنزاد : « أعدل به من أمي مشرك ، وما أجدره بمجنات الخلد جزاء له ! »

فقال الرئيس الأعظم : « لقد هداه إلى المعسكر واحد من أتباعنا ، ولما سئل سرا أقر إلى صراحة بمرماه الثابت الذي اعتزم . »

فأجاب كنزاد : « اللهم اغفر لأولئك الذين وقفوا في سبيل هذا (الخارجي) العادل ! »

فرد عليه صاحب المعبود وقال : « هو الآن سجين ، وأظنك تعلم أنه قد حُرِّم عليه أن يتحدث إلى غيره ؛ ولكن السجون قد هوجمت ^(١) و .. »

فأجاب المركز : « ... وكانت السلاسل مسترخية ، فلاذ الأمرى بالفرار — وقديماً قيل : ليس من جب أكيد غير القبر . »

ثم استأنف القس العسكري حديثه وقال : « ولما ينفك إيساره يواصل مسعاه ، فانه من طبع هذه الطائفة من السفاكين ألا يتخلى الواحد منهم أبداً عن طريق الفريسة بعد أن يشتم رائحتها . »

(١) هذه هي المكيدة التي يدبرها رئيس فرسان المعبود

فقال المركز : « حسبك هذا ، إني ألس سياستك ، إنها لهيئة ، ولكن سبيل الخلاص قريية » .

فقال صاحب المعبد : « إنما ذكرتها لك حتى تأخذ لنفسك حذرهما ، إذ سوف يكون الضجيج مروعاً ، ولن تدرى على من يصب الإنجليز جام غضبهم — أى والله وإن هناك لخطر آخر — إن حاجبي يعرف ما بدخيلة هذا (الخارجى) ، وفضلا عن ذلك فإنه أحمق ، سريع الغضب ، قوى الإرادة ؛ وددت والله لو خلصت منه فهو يعترض سبيل ، ويزعم أنه يرى بعينه لا بعيني ؛ ولكن طائفتنا المقدسة تخول لى أن أزيل أمثال هذه الحواجز . البث قليلا — قد يجد العربى خنجراً طيباً فى جبهه ، وأنا قمين لك أنه سوف يعتمد إليه حينما يريد الانطلاق ، وهذا أمر لا مريية فيه إذا ما دخل عليه الحاجب بالطعام » .

فقال كتراد : « هذا يلبس الأمر بالشبهات ولكن ... »

فأجاب صاحب المعبد : « إنما (ليت) و (لكن) من كلمات الحق الأغبياء ، ولكن الحكماء العقلاء لا يترددون ولا يتراجعون — إنهم إذا قالوا فعلوا » .

الفصل العشرون

إذا أوقعت الليث في جبالها الحسناء ،
سحرته فلا ينتفض غضباً ،
ولن ينشر من مخالفه رعباً .
وقديما جعل من عصاه مغزلاً .
(السديز العظيم) وبات (لأمقال الحسناء) .
بغزل كي يسر قلبها .

لشاعر غير معروف

كان رتشارد لا تداخل قلبه الريبة ، ولا يعلم بتلك المؤامرة التي كانت تدبر له في الظلام والتي فصلنا في مختتم الفصل السابق ، وقد نجح الآن على الأقل في الظفر بتوحيد الأمراء الصليبيين ، معزماً أن يواصل الحرب بعنف وشدة ، ولو لم يكن أحب إلى قلبه بعد هذا من أن يقر السكينة بين أهله ؛ والآن ، وقد أخفى في حكمه أشد اتزاناً ، أراد أن يدقق البحث في الظروف التي أدت إلى ضياع رايته ، وفي طبيعة العلاقة بين ذات رحمه أديث والمخاطر الاسكتلندي الطريد .
ومن أجل هذا باغت السر توماس دي فو الملكة ووصيفاتها بالزيارة ، يطلب مشول السيدة (كالستا منتفوكن) أول رفيقات الملكة في مخدعها ، لدى الملك رتشارد .

فقال كالستا للملكة وهي ترتجف : « ماذا عساي أن أقول يامولاتي ، إنه سوف يقتلنا جميعاً » .

فأجابها دي فو وقال : « كلا . لا تخشى ياسيديتي ، لقد أبقى جلالته للفارس الاسكتلندي حياته ، رغم أنه كان أشد من أساء إليه ، وخلعه على الطبيب المغربي فلن يكون جلالته شديداً على سيدة حتى وإن كانت خاطئة » .

وقالت برنجاريا : « ابتكرى لك قصة ماكرة أيتها المرأة ، فإن زوجي وقته يضيق بالبحث وراء الحقيقة » .

وقالت أدِيث : « قصى عليه القصة كما وقعت وإلا قصصتها نيابة عنك » .
وقال دى فو : « إني ألتبس من مولاتي المليكة خاضعا أن تأذن لي أن أقول
بأن السيدة أدِيث قد أصابت فيما أشارت به ؛ فالملك رتشارد قد يسره أن يعتقد فيما
يلد لجلالتك أن تقصى عليه ، إلا أنني أشك في أنه يقيم للسيدة كالستا مثل هذا
الاحترام ، وبخاصة في هذا الأمر الذى نحن به » .

وخطر لكالستا ما سوف يجرى من بحث وتدقيق في هذا الشأن ، فعراها
اضطراب شديد وقالت : « لقد أصاب لورد جلزلاند . وفضلا عن ذلك فإنه لو كان
لي من حضور الذهن ما يكفي للخداع بقصة معقولة ، فصدقوني إني لأحسب أنى
سوف لا أجد من نفسى الشجاعة على قصها » .

وبهذا الميل إلى الصراحة في القول ساردى فو بكالستا إلى الملك حيث أقرت —
كما اعتزمت — بإقراراً صريحاً بالخدعة التى أغرى بها فارس النمر التعس على أن يهجر
مقر واجبه ؛ وبذا برأت السيدة أدِيث ، وكانت تعلم أنها لن تقصر في تبرئة نفسها ،
وألقت بالعبء كله على عاتق الملكة سيدتها ، وكانت تعرف حق المعرفة أن حظها في
هذا المزاج بالفارس سوف يكون في عيني قلب الأسد أشد ما هو جدير بالعفو .
وحقا لقد كان رتشارد زوجاً متبهاً ، بل خاضعاً لوجه ذليلها ؛ وقد طال الأمد مذ
انفجر غاضباً أول الأمر ، ولم يعد الآن يميل إلى اللوم الشديد في أمر لا سبيل إلى
تقويمه ؛ وكانت السيدة كالستا الخبيثة قد تعودت منذ نعومة أظفارها أن تسبر
غور دسائس البلاط ، وترقب ما قد يدل على إرادة المليك ، نخفت كالطائر مسرعة
تحمل أمر الملك إلى وجهه بأن تتأهب لزيارة مباغته منه ، وزادت على هذا الأمر
رفيقة الملكة في مخدعها تعليقاً من عندها ، يقوم على ملاحظاتها الخاصة ، أرادت
أن تبين به أن رتشارد لم يقصد إلا إلى أن يظهر ببعض الشدة ، كي يحمل زوجه
المليكة على أن تقر بندمها على مزاحها ، ثم يحبوها هى وكل من له يد في الأمر
بعفوه الكريم .

وسرى هذا النبأ عن الملكة كثيرا فقالت : « هل هذا كل ما في الأمر أيتها

المرأة ؛ صديقى إن رتشارد قائد عظيم ، لكنه سوف يتعسر عليه أن يراوغنا فى هذا الشأن ، وهو فى هذا ينطبق عليه قول رعاة (البرانيس) المؤلف فى وطنى (نافار) : « ما أكثر من أتى طلبا لصوف الأغنام وعاد بغنمه مجزوزا » .

وبعد ما ألمت الملكة برنجاريا بكل ما حدثها به كالستا من خبر ، ارتدت فاخر الثياب ، ولبثت هادئة الحاطر ، مستقرة النفس ، ترقب قدوم رتشارد الجسور . ولما أن قدم الملك ألقى نفسه وهو فى موقف الأمير الذى يدخل إقليما أساء أهله إليه (إلى الأمير) ، وهو على ثقة من أن عمله سوف لا يعدو توقيع الملامة وتلقى الخضوع ، فإذا به يجد أهل الإقليم — على غير ما كان ينتظر — فى أشد حال من المناوأة والعصيان ؛ فلقد كانت برنجاريا تعرف حق المعرفة سحر جمالها ، ومبلغ حب رتشارد لها ، وتحس بالثقة فى أنها تستطيع أن تتفق معه على ما يرضيها بعد ما انقشعت عنه ثائرة الغضب المخوفة الأولى دون أن يصدر عنه أذى أو ضرر ، وما كان أبعدا عن أن تستمع إلى ما اعتزم الملك من عدل حق عليها لرعوتها فى مسلكها ، فقد أخذت تلتمس العاذير عما اتُّهمت به ، بل وتدفع عنه على أنه مزاح لا ضرر منه ، وقد أنكرت — وكانت صيغة الإنكار جميلة حقا — أنها بعثت بكتبانس كى يغرى بالفارس إلى أبعد من حافة الجبل الذى وقف حارسا على قمته ؛ وحقا لقد صدقت فيما قالت ، إذ أنها لم ترد بالسر كنه أن يدخل فسطاطها ؛ ولئن كانت الملكة فى سياقها لدفاعها ذلقة فصيحة ، فلقد كانت أفصح وأذلق فى اتهامها لرتشارد بالقسوة لضنه عليها بمنحة حقيرة يمنحها إياها ، وتلك هى حياة فارس بائس ، ساقه إلى خطر القانون العسكرى مزاح غير مقصود ، ثم بكت ونشجت وبالغت فى وصفها لعناد الملك فى هذا الأمر ، وقالت إن صرامته تهددها بالشقاء فى حياتها ، كلما فكرت فى أنها كانت — على غير قصد منها — الباعث الأول على هذه المأساة ، فلسوف يتتابها فى أحلامها مرأى الفريسة الصريعة ، ولسوف يقف إلى جوار سريرها شبحه بعينه ويحرمها النوم ، وما تعرف لهذا من سبب ، ولكن هذا هو ما يحدث فى غالب الأحيان ؛ ولن تستهدف

لهذا الشقاء النفسى إلا من قسوة رجل ، بينما هو يزعم أنه يموت هوى فى أدنى إشارة منها ، لا يتخلى عن نغمته على ذلك الرجل المسكين مهما نجم عن ذلك من شقاء لها .

وصحبت كل هذه الفصاحة النسوية المتدفقة لغة الدموع والحسرات ، وكان فى حديث الملكة من النغم والحركات ما يدل على أن استيائها لم ينشأ عن كبر أو نزع ، وإنما عن شعور انتم حينما أدركت أن نفوذها على زوجها أضعف مما كانت تظن .

وكان رتشارد الملك الصالح شديد الحيرة والارتباك ، وعبثا حاول أن يتفاهم وامرأة أعجزتها غيرتها على محبته عن الإصغاء للحديث ؛ ولم يستطع الملك أن يعتمد إلى ماله من نفوذ شرعى يسيطر به على سيدة لها هذا الجمال ، وهى فى شدة الحزن الذى ليس له ما يبرره ، فتراجع إلى حدود الدفاع ، وحاول متلطفا أن يعذلها على ربيتها ، ويخفف من غلوائها ، ويذكرها أن لا حاجة بها إلى ذكر الماضى بالندم أو بالخوف الشديد ، مادام السر كنت مابرح على قيد الحياة وما به من سوء ، فقد خلعه الملك على الطبيب النطاسى العربى ، وهو رجل — من دون الرجال لاريب — عرف كيف يحفظ له حياته ؛ ولكن هذه الكلمة الأخيرة كانت أشد كلمات الملك على نفسها وقعا ، فتجددت للملكة أحزانها حينما ذكرت أن عرييا طبييا قد نال هذا العطاء الذى طلبته هى إلى زوجها جاثية على ركبتها ، ورأسها حاسر ، ولكن بغير جدوى ؛ وما إن فرغت من هذه الهمة الأخيرة حتى نفذ صبر الملك ، وقال فى نغمة الجذ : « أى برنجارى ، اعلمى أن هذا الطبيب قد أنقذلى حياتى ، فإن كان لحياتى فى عينيك وزن فلن تضنى عليه بجزء خير من هذا الجزاء الوحيد ، الذى استطعت أن أحمله على قبوله » .

وسرت الملكة لبلوغها بر السلامة بعد غضبها ودلالها .

فقلت : « حبيبى رتشارد ، لم كم تأت لى بهذا الحكيم ، حتى تستطيع ملكة انجلترا أن تبين له قدره فى عينها ، وقد أنقذ من الخبو مصباح الفروسية ،

ونغار انجلترا ، ونور حياة برنجاريا الضعيفة ، وأملها ورجاءها ؟ .
وهكذا انتهى النزاع الزوجي ، ولكن الملك والملكة كليهما ارتأيا أن العدالة تتطلب بعض العقاب ، واتفقا على صب اللوم بأسره على عاملهما نكتبانس ، وكانت الملكة إذ ذاك قد ملت نكات القزم المسكين ، فأصدرت مع الملك حكما عليه وعلى حليته الملكة جنفرا بإبعادهما عن البلاط . وما كان للقزم التعس أن ينجو من الضرب بالسياط ، لولا أن الملكة قد أكدت أنه قد نال عقوبته الشخصية من قبل ؛ وكذلك أصدر صاحبا الجلالة إرادتهما بأنه لما كان لابد من بعث رسول إلى صلاح الدين في وقت قريب لإخطاره باعترام المجمع على مواصلة العداء بعد انتهاء الهدنة مباشرة ، ولما كان رتشارد يفكر في إرسال هدية قيمة للسلطان اعترافاً بالجميل الكبير الذي ناله على يدى الحكيم ، فإن ذينك الشخصين البائسين ينبغي أن ينضما إلى الهدية طرفتين تصلحان للإهداء من ملك إلى ملك ، لما لهما من ظاهر غاية في الغرابة ، وعقل موزع شتيت .

وكان على رتشارد ذلك اليوم أن يكابد مقابلة نسوية أخرى ، ولكنه تقدم إليها قليل الاكتراث غير آبه ، وذلك لأن أدبث وإن كانت جميلة يحلها قريبها الملك محلا رفيعاً ، بل ولئن كانت قد عانت فعلا من جراء شكوكه الجائرة ذلك الأذى الذى تظاهرت برنجاريا بالشكاية منه ، إلا أنها لم تكن لرتشارد زوجاً ولا حظية ، فكان يخشى عتابها — على ما فى عتابها من حق — أقل مما كان يخشى عتاب الملكة ، رغم مافيه من جد وشذوذ . وبعد ما طلب الملك أن يتحدث إليها منفردة ، سيق إلى غرقها المتاخمة لحجرة الملكة ، وما برح جارياتها القبطيتان جاثيتين على الركب فى أقصى زاوية طوال المقابلة ؛ وكان يستر هذه الفتاة الكريمة النسب حجاب أسود رقيق ، تتدلى ثناياه الكثيفة على قدها الفاتن المشوق ، ولم تتحل بأية زينة مما يتجمل به السيدات ، وما إن دخل عليها رتشارد حتى نهضت وانحنى إجلالا ، ثم عادت إلى مقعدها بعد ما أشار إليها بذلك ، ولما جلس إلى جوارها لزم الصمت ، ولم تنبس بىنت شفة ، حتى يبدأها الحديث بما يريد .

وقد ألف رتشارد مع أدith الصراحة التي تخولها لها صلة الرحم ، إلا أنه أحس ببرودة هذا اللقاء ، وافتتح الحديث في شيء من الحيرة والارتباك .
وأخيراً قال : « إن ابنة العم الحسنة غاضبة منا ؛ وأنا نقر بأن ظروفنا قاسية قد حدث بنا - لغير ماسبب - إلى أن نعزو إليها مسلكاً لا يتفق وما عرفنا من قديم عن سيرتها في حياتها ، ولكننا إذ نسير في وادي الإنسانية المظلم نخطئ الأشباح نحسبها جسوماً ، فهلا صفحت ابنة العم الحسنة عن ابن جلدتها رتشارد ، الذي يشوبه شيء من الشدة والعنف ؟ » .

فأجابت أدith وقالت : « من ذا الذي يضمن بالصفح عن رتشارد ، إن كان رتشارد الرجل يأتي بالعفو من رتشارد المليك ؟ » .

فأجابها قلب الأسد قائلاً : « تعالى قريبتى ، هذا جد صارم ، أقسم بالسيدة العذراء إن هذه النظرات الكئيبة ، وهذا الحجاب القاتم الطويل ، لتحذو بالرجال إلى أن يحسبوك أرملة محدثة ، أو على الأقل امرأة فقدت عشيقها وخطيبها ، سرتى عن نفسك - ألم يبلغك أن ليس هناك سبب حق للحزن والأسى - فلماذا تظهرين بمظهر الحداد ؟ » .

« أظهر به أسى على شرف بلانتاجنت الضائع ، وعلى الجلال الذي خلف بيت أبى » .

فقطب رتشارد الجبين ، وكرر قولها غاضباً وقال : « الشرف الضائع ! والجلال الذى خلف بيتنا ؟ ولكن ابنة عمى أدith على حق ، فلقد حكمت عليها متعجلاً ، فمن حقها إذن أن تغلظ على وتقسو ، ولكن لا أقل من أن تخبرينى فيم كان خطئى » .

فقالت أدith : « كان على بلانتاجنت إما أن يتسامح فى الإساءة أو يجازيها ، وما يليق به أن يكبل فى قيود الكفار رجالاً أحراراً من المسيحيين وبواسل الفرسان ، وما ينبغى له أن يفاوض ويساوم ، أو أن يمنح الحياة على أن يسلمها حريتها ؛ والله لو أنك قضيت على هذا البائس بالموت لكان قسوة منك وغلظة ، ولكنها

الغلظة في ثياب العدالة ؛ أما أن تحكم عليه بالرق والنفي فهذا ظلم صراح .
فقال رتشارد : « ما أحسب ابنة عمي الحسنة إلا من أوليا تكن الغيد اللواتي
يرين بُعد العاشق وموته سواء ؛ صبراً فتاتي ، إن عشرة من خفاف الفوارس
يستطيعون أن يتبعوا الرجل ويصلحوا ما أخطأنا ، إن كان لدى محبك هذا سر
من الأسرار يجعل موته خيراً من نفيه » .

فاشتد احمرار أديث وقالت : « كفاك بداءة في المزاج ، واعلم أنك كي تسترسل
في هواك بترت من هذا المشروع العظيم عضواً كريماً ، وحرمت الصليب دعامة
من أقوى دعاماته ، وأسلمت خادماً من خدام الإله الحق إلى أيدي الكفرة المشركين ؛
وأعطيت كذلك لعقول مرتابة — كعقلك الذي أبديت في هذا الشأن — بعض
الحق في القول بأن رتشارد قلب الأسد قد نفي من معسكره أشجع جنوده ، خشية
أن يبارى باسمه في القتال اسمه » .

فصاح بها رتشارد ، وقد غلت ثأرته الآن حقاً ، وقال : « أنا — أنا ! أفتحسيني
ممن يغارون من الذكر وبعد الصيت ؟ — وددت لو كان هنا وأقرّ بمساواته بي !
إذن لنفضت عنى شرفي وتاجي ، ولاقيته كما يلاقى الرجل الرجل في ساحة النزال ،
حتى يبدو للعيان إن كان رتشارد بلاتاجنت لديه مجال للحسد أو للخوف من جرأة
إنسان فانٍ أيا كان . تعالى أديث ، إنك لا تعتقدين بما تقولين ؛ لا تكوني لفضبك
أو حزنك على غياب عشيقك لقريبك ظالمة ، وهو — رغم هياجك وثورتك —
يحمل لحسن طويتك تقديراً كبيراً لا يعلوه تقدير لأي امرئ على قيد الحياة » .
فقالت السيدة أديث : « غياب عشيق ؟ أي نعم ، تستطيع أن تسميه عشيق
بعد أن دفع لهذا الاسم ثمننا غالياً ؛ إني يامولاي — وإن كنت غير قينة بولائه هذا —
إلا أنني كنت له كالضياء أهديه سبيله قُدماً في طريق الفروسية النبيلة ؛ أما أنني
قد نسيت مكانتي ، وأما أنه قد زعم لنفسه ما ليس له فوزور وبهتان ، حتى وإن
كان مَلِكاً من يقول بهذا » .

فقال رتشارد : « لا تتقولني على يا ابنة العم الحسنة بما لم أقل ، أنا لم أذكر

أنك حبوت هذا الرجل بأكثر مما قد يكسبُ فارس كريم من رضا — حتى من أميرة — مهما يكن منبته . ولكني أقسم لك بالسيدة العذراء إنى أعلم شيئا عن هذا الضرب من الحب . إنه يبدأ بالاحترام مع الصمت ، والتقدير مع البعد ؛ ولكن ما إن تسنح الفرصة حتى تنمو الألفة ، ثم . . ولكن دعينا من هذا ، فليس من الكياسة أن أتحدث إلى سيدة ترى نفسها أحكم العالم طرا » .

فقال أدith : « يسرنى أن أصغى عن طيب خاطر لما يشير به قربي ، إن كانت مشورته لا تنطوى على المهانة لكانتى وخلقى » .

فأجابها رتشارد وقال : « إن الملوك يا ابنة عمى الحسناء لا ينصحون ، وإنما هم يأمررون » .

فقال أدith : « حقا إن السلاطين ليأمررون ، وما ذلك إلا لأن لهم رقيقا يحكمون » .

فرد عليها الملك وقال : « هيا أدith ، ولا تزدري السلطنة جانبا ، ما دمت ترفعين رجلا اسكتلنديا إلى هذه المرتبة العالية . والله إنى لأرى صلاح الدين أبر بكلمته من وليم صاحب اسكتلندا ، الذى يلقب بالليث ؛ لقد أساء إلى إساءة شنعاء بتقصيره فى إرسال المدد والمعونة التى وعدنى ؛ دعينى أخبرك يا أدith أنك قد تحيين حتى يأتى يوم تؤثرين فيه تركيا صادقا على اسكتلندى كاذب » .

فأجابته أدith قائلة : « كلا . أبدا ! إن رتشارد نفسه لن يعتنق الدين الكاذب الذى عبر البحار لإقصائه عن فلسطين » .

فقال رتشارد : « لك الكلمة الأخيرة ، وسوف تُعطينها ، ولتظنى بى ما شئت يا أدith الحسناء ، فلن أنسى أنا بنو عمومة قريية وعزيرة » .

وما إن أتم حديثه حتى انصرف فى رقة وكياسة ، ولكنه قليل الرضا بما انتهت إليه زيارته .

وفى اليوم الرابع مذأبعد السر كنت عن المعسكر ، جلس الملك رتشارد فى مرادقه يستمتع بنسيم المساء يهب من الغرب ، ويحمل على جناحيه برودة غير

معهودة فيه ، كأنه يصاعد من انجلترا الطروبة لائعاش مليكها المخاطر ، وهو يسترد شيئا فشيئا كامل القوى الضرورية لائفاذ مشروعاته الخطيرة ؛ وكان وحيدا لأنه بعث بدى ثو إلى عسقلان كي يأتى بالمدد والمؤونة من الذخيرة الحربية ، وكانت الكثرة الأخرى من حاشيته مستغلة بمختلف المهام ، كلهم يتأهبون لفتح باب العداوة من جديد ، ولاستعداد عظيم إعدادى لجيش الصليبيين يقام فى اليوم التالى ؛ وجلس الملك منصتا للطنين والضجيج بين الجند ، وللططقة المنبعثة من الأكوار ، حيث كانت الخيل تُعد بمخوافر من حديد ، وللشغب يصدر من صانعى الأسلحة الذين كانوا يصلحون عدة الخيول ؛ وكذلك كانت أصوات الجند — وهم يسرون جيئة وذهابا — عالية مرحلة ، فى نبراتها ما يؤكد الهمة القعساء والبسالة الثائرة ، وما يبشر بالنصر القريب ؛ فاهتزت أذنا رتشارد طربا لهذه الأصوات واسترسل لأحلام الظفر والمجد التى أثارها فى نفسه هذا الصخب . وبينما هو كذلك إذا برئيس الحجاب يخبره أن رسولا من صلاح الدين ينتظر واقفا بالباب . فقال الملك : « أدخله توا ، وأدِّ له ما يجب من الاحترام يا جوسلين » .

فصدع الفارس الانجليزى بالأمر ، وأقبل ومعه رجل تدل هيئته على أنه لا يعلو على العبد النبوى مرتبة ، ولكن ظاهره — رغم ذلك — يسر الناظرين . كان طويل القامة ، سمح البزة ، ملامحه نافذة حالكة ، ولكنها لا تنم عن شئ من سلالة الزنوج ؛ وكانت تغطى خصلات شعره الفاحم عمامة ناصعة البياض ، وعلى كتفيه وشاح قصير من لون العمامة ، منفرج من مقدمه ومن كفيه ، ويظهر من تحته صدر من جلد النمر المدبوغ ، يتدلى إلى ما فوق الركبتين بعرض الكف ، وأما ما بقى من أطرافه المقتولة ، ساقيه وساعديه ، فقد كان عاريا ؛ اللهم إلا خفين فى قدميه ؛ وكان يلبس طوقا على رقبته ، وسواراً من فضة ، ويتدلى من خصره سيف مستقيم عريض النصل ، له مقبض من خشب البقس ، وغمد يكسوه جلد الأفعوان ، وييمينه نشابة قصيرة ، رأسها عريض لامع صلب ، طولها شبر ، ويساره يقود كلبا كبيرا نبيلاً يجذبه برباط من خيوط الذهب والفضة المقتولة .

وخر الرسول ساجدا ؛ وقد عرّى جانبنا من كتفيه إشارة إلى خضوعه ؛ وما إن لمس الأرض بجبينه حتى نهض جاثيا على ركبتيه ، وناول الملك منديلا من الحرير يضم آخر من قماش من صفائح الذهب ؛ بداخله خطاب من صلاح الدين ، عربى أصله ، ومصحوب بترجمة إلى الانجليزية النورماندية تعريبها كما يلي :

« من صلاح الدين ملك الملوك ، إلى الملك رتشارد ليث انجلترا ؛ نما إلينا من رسالتكم الأخيرة أنكم قد آثرتم الحرب على السلم ، وعداوتنا على صداقتنا ، وما نحسبك في هذا إلا رجلا أعمى الله بصيرته ، وإنا على يقين أنا عما قريب سوف نقنعك بخطئك ؛ تعاونا في ذلك جيوش ألف قبيل لا تقهر ؛ وسيفصل الله فيما بيننا من خصومة . وأما ما خلا ذلك فنحن نعتقد في نبل خلقك ؛ ونقدر الهدايا التي بعثت بها إلينا قدراً كبيراً ؛ كما نقدر القزمين الفريدين في تشويه خلقهما كأن كلا منهما (عيسو) ، الطرويين كقيثارة إسحق ؛ ردا على هذه الهدايا التي بعثت من كنوز جودك ، نرسل إليك عبدا نوبيا اسمه (زوهاق) لا تحكم عليه ببشرته كما يحكم الأغبياء في هذه الدنيا ، فإن الثمر إذا اسودت قشوره حلا مذاقه ؛ واعلم أنه يقوى على تنفيذ إرادة سيده ، كما كان (رسم زبلاستن) . وإن تعلمت مخاطبته ألفيته حكما في مشورته ، وإذ كر أن (رب الفصاحة) قد أصابه المي وهو بين جدران قصره العاجية . نحن نسلم لرعايتك آمين أن لا يطول الأمد قبل أن يؤدي لك خدمة طيبة ؛ ونحن مع هذا نقرئك السلام راجين أن يمن عليك نبينا صلى الله عليه وسلم بإدراك الحق ، ولئن فاتك نور الحق فرجاؤنا لك أن تسترد صحتك العزيزة عاجلا ، حتى يحكم الله بيننا وبينك في ساحة الوغى » .

وكانت الرسالة مذيبة بتوقيع السلطان وخاتمه .

وحدد رتشارد في النوبى صامتا ، والرجل مائل أمامه ، خافض الطرف ، وقد أطبق ذراعيه على صدره ، يشبه في وقفته تمثالا من المرمر الأسود ، دقيق الصنع ، ينتظر الحياة من ملمس (بروميتيس^(١)) ؛ وقد قال هنرى الثامن خليفة ملك انجلترا

(١) إله من آلهة اليونان يخلق الإنسان من الطين ، ويسرق النار من فوق (أولمب) ويعلم الناس استخدامها كما يعلمهم فنونا أخرى .

بصيفة التأكيد عن رتشارد إنه يجب النظر إلى الرجال ، وحقا لقد سره كثيرا أن يشهد من ذلك المائل أمامه عصبه ومفتول عضلاته واتساق جسمه ، ووجه إليه السؤال باللغة الفرنجية ، وقال له : « هل أنت وثني ؟ » .

فهز العبد رأسه ، ورفع إصبعه إلى جبينه ، ورسم علامة الصليب على نفسه دليلا على إيمانه بالمسيحية ، ثم عاد إلى وقفته خاشعا لا حراك به .

فقال رتشارد : « لا مشاحة في أنه نوبي مسيحي ، وقد حرمه القدرة على الكلام هؤلاء الأوغاد المتافقون ، أليس كذلك ؟ » .

فهز الرجل الأبكم رأسه ثانية في تودة وأناة دلالة النفي ، وأشار بسبابته إلى السماء ، ثم وضعها على شفتيه .

فقال رتشارد : « إنني أدرك ما ترمي إليه ، إنك تعاني من الله بلواه ، ولا تشكو قسوة الإنسان . هل تستطيع أن تجلو السلاح وتنظف النطاق ، وتعهده عند الحاجة ؟ » .

خفّض الأبكم رأسه ، ثم سار نحو الزرد الذي كان معلقا — مع درع الملك الفارس وخوذته — بدعامة من دعامات السراقد ، وأمسك به بهوادة ورفق ، وكان في ذلك دليل كاف على أنه كان يعرف حق المعرفة واجب حامل السلاح .

فقال الملك : « حقا إنك لهذا لكفاء ، ولا ريب في أنك تصلح خادما نافعا . عليك أن تقف بحجرتي وتقوم على خدمتي ، حتى يرى الناس كم ذا أنا أقدر عطية السلطان الملوكي ؛ وليس لك لسان ، فجلي إذن أنك لا تستطيع رواية ما ترى ، ولن تستغفني فأتعجل بجواب غير لائق » .

نحر النوبي ساجدا ثانية حتى مس جبينه الأرض ، ثم انتصب قائما بعيدا عن الملك يبضع خطوات ، كأنه يرتقب ما يأمر به سيده الجديد .

فقال رتشارد : « أي والله ، لتبدأن عملك توا ، فإنني أرى أثرا من صدي يسوّد وجه هذا الدرع ، وأنا أوده — إذا ما هزرت به في وجه صلاح الدين — أن يكون براقا لا قتام فيه ، كشرفي وشرف صلاح الدين » .

وفي تلك الآونة نفخ في البوق نافخ خارج السرادق ، ودخل في الحال السر هنرى ثريل ومعه ثلثة من الرسائل ، قال وهو يقدمها : « هذه الرسائل من إنجلترا يا مولاي » .

فكرر رتشارد قوله بنغمة التلهف الحزين وقال : « من إنجلترا ! من بلادى العزيزة ! وأأسفاه ! إنهم لا يفكرون إلا قليلا كيف حاق بملكهم المرض العضال والأسى الشديد — ما أوهى صداقتهم وما أجراً عداوتهم ! » ثم فض الرسائل ، وقال عاجلا : « ها ! ليست هذه الرسائل من بلد آمن ، إن أسباب الشحنة بينهم كذلك — اعزب عني يا ثريل — ينبغي أن أطلع هذه الأخبار وحيدا وعلى مهل » .

فانسحب ثريل على إثر ذلك ، وسرعان ما انهمك رتشارد في تفصيل الأمر الأليم الذى جاءه نبأه من إنجلترا ، وهو يتعلق بالخصومات الحزبية التى كانت تمزق وطنه إربا إربا من جراء الخلاف بين أخويه (جون) و (جوفرى) ، والنزاع الذى نشب بينهما من ناحية ، وبين كبير القضاة (لنجتشامب) أسقف (إيلي) من ناحية أخرى ، كما يتعلق بالمظالم التى يفرضها النبلاء على أهل القرى ، وثورة هؤلاء على أولى الأمر منهم ثورة نجمت عنها ضروب من الخسومة فى كل مكان وإراقة الدماء هنا وهناك ، ووردت إليه فى الرسائل أنباء مفصلة عن حوادث قاتلة لكبريائه ، ومحطة بنفوذه ، يصحبها النصيح الشديد من أحكم مستشاريه وأقربهم إليه ، يشيرون عليه بالعودة إلى إنجلترا عاجلا ، إذ أن فى وجوده بينهم الأمل الوحيد فى إنقاذ المملكة من مخاوف الخسومة الأهلية جميعا ، تلك الخسومة التى يرجح أن تنفد منها فرنسا واسكتلندا ؛ وجزع رتشارد لهذه الأنباء أشد الجزع ، فقرأ تلك الرسائل المشؤمة مرة تلو الأخرى ، ووازن بين ما يحتويه بعضها من خبر وبين الحقائق عينها كما سيقت فى بعضها الآخر سياقا آخر ، وسرعان ما أضى وهو لا يحس بما كان يدور حوله ، رغم أنه كان يجلس قريبا من مدخل فسطاطه قصد الانتعاش بالهواء البارد ، وقد أمر برفع السجف حتى يمكنه أن يرى الحراس وغيرهم من الواقفين فى الخارج ويرويه .

وفي ظل السراشق كان العبد النوبي يجلس مستغرقاً في عمله ، مشغلاً بالواجب الذي فرضه عليه سيده ، مولياً ظهره شطر المليك ، وكان قد فرغ من إعداد الزر والدرع وتنظيفهما ، وشرع يشغل بدرقة عريضة كبيرة الحجم مكسوة بصفايح الصلب ، كثيراً ما يستخدمها رتشارد ، حينما يخرج لاستطلاع الأماكن الحصينة أو لضربها فعلاً ، حمايةً له وذريعة تقيه قذائف الأسلحة أكثر مما يقيه الدرع الضيق الثلاثي الذي كان يستخدمه وهو على ظهر الجواد ؛ ولم تتسم هذه الدركة ، لا بأسد انجلترا ، رمز سلطانها ، ولا بأى رسم آخر فتجذب أنظار الدائدين عن الجدر التي كانت الدركة تنطلق صوبها ؛ فكانت إذن عناية خادم السلاح مقصورة على إجلاء وجهها حتى يضئ ضياء البلور اللامع ، وقد نجح الخادم في هذا العمل غاية النجاح . وإلى ما وراء النوبي كان يرقد الكلب الكبير ، وتكاد لا تراه العين من الخارج ، وتستطيع أن تقول عن هذا الكلب إنه صنو النوبي في رقه واستعباده ، وكان كأنه يحس بالخوف من الانتقال إلى حيازة الملك ، فاستلقى ملاصقاً لجوار الرجل الأبكم ، ورأسه وأذناه إلى الأرض ، وذيله وأطرافه متجمعة قريب بعضها من بعض تحته وحواليه .

وبينا كان الملك وخادمه الجديد مشغولين بما هما فيه ، انضم إلى هذا المنظر الذي وصفنا رجل آخر ، واختلط بجماعة العامة من الإنجليز ، وكان نحو العشرين منهم يقومون بالحراسة أمام سراشق الملك صامتين — خلافاً لما عهد فيهم — نظراً لهيئة التأمل والتفكير العميق والانهماك الشديد الذي استرسل فيه مليكهم استرسالاً لم يألوه فيه من قبل ، ولكنهم — رغم هذا — لم يكونوا في حراستهم أشد يقظة منهم في أى وقت آخر ، فكان بعضهم يلعب بالحصي الصغير مقاصراً ، وبعضهم يتهايمسون عن يوم القتال القريب ، وكثيرون منهم قد استلقوا وأغرقوا في النعاس ، وأطرافهم الجسمية منطوية في برودهم الخضر .

تسلل وسط هؤلاء الحراس الغافلين رجل تركى هرم ، صغير الجسم ،

الهيئة ، حقير اللباس ، يشبه بزيه وليا أو شيخاً من شيوخ الصحراء
محمسين للدين ، الذين كانوا أحياناً يقتحمون معسكر الصليبيين ، رغم ما كانوا
يلاقون دائماً من سخرية ، بل ومن قسوة وشدة في غالب الأحيان . وحقا لقد
كان الترف والانغماس في الملاذ الذي يسرف فيه زعماء المسيحيين يأتي إلى خيامهم
بمجد خليط من المطربين والعاهرات والتجار اليهود والأقباط والترك ومختلف
الرجال من أمم الشرق ، وجميعهم من سقط المتاع ، حتى باتت العمامة والقفطان
شيئاً مألوفاً في معسكر الصليبيين ، رغم ما كان يسود بينهم من أن الحملة إنما ترمى إلى
إقصائهما من الأرض المقدسة ؛ ولما دنا هذا الرجل الصغير الحجم ، الزرى
الهيئة ، الذي وصفنا ، وبات على مقربة من الحراس ، حتى وقفوا في سبيله ، طرح
عمامته الداكنة الخضراء عن رأسه ، وظهر للرأى أنه حليق الدقن والحاجبين
كأنه مهرج محترف ، وأن سيما ملاحه الملتوية العجيبة ، وعينه الصغيرتين السوداوين
اللتين كانتا تتألقان كالكهرمان الأسود ، تم عن خيال شارد مخبول .

وكان الجند يعرفون أساليب هؤلاء المعتوهين المتجولين ، فصاحوا بالرجل :
« ارقص لنا أيها الشيخ ، ارقص وإلا ضربناك بحبال نبالنا حتى يدور جسمك كما
يدور الخدروف يحركه الصبي بسوطه » . وهكذا علا صياح الحراس الطائشين ،
فرحين جذلين لأنهم وجدوا بينهم رجلاً يغيظونه ، كما يفرح الطفل حيناً يمسك
بالفراشة ، أو التلميذ إذا كشف عن عش طائر .

وكأن الشيخ قد سره أن يصدع بما أمر فقفز من الأرض واستدار بجسمه
المائد أمامهم بخفة ما بعدها خفة ، إذا قرنت بها جسده النحيل الهزيل ، ومظهره
الضئيل ، ألفيته شبيها بورقة زاوية من أوراق الشجر ، تترنح على هوى ريح الشتاء
العاصف ، وله ذؤابة من الشعر تمتد من رأسه الأصلع الحليق إلى أعلى ، كأن عفريتاً
من الجن يعلقه بها . ويظهر أن فنا سماويا كان يلزمه للقيام بهذا الرقص الهمجي
الدائر ، الذي توشك معه أن لا ترى أطراف قدمي الراقص وهي تمس الأرض ؛
وبينا كان الرجل يرقص هذا الرقص العجيب ، كنت تراه يتأيل يمناً ويسرة ، وينتقل

من مكان إلى آخر ، مقتربا شيئا فشيئا من مدخل السرادق الملكي ، بحيث لا يكاد
الرائي يدرك منه ذلك ، حتى إنه لما خر على الأرض أخيرا منهوك القوى ، بعد
ساقفز قفزتين أو ثلاث أعلى من كل وثبة وثبها من قبل ، لم يكن بينه وبين شخص
الملك ما ينيف على ثلاثين ذراعا .

فقال أحد العامة : « اعطه ماء . إنهم جميعاً يتشوقون إلى الشراب بعد
الرقص والطرب » .

فأجابه نبال آخر بصيغة التأكيد والازدراء بهذا الشراب الحقير وقال :
« آه ! أتقول ماء يا (لنج ألن) وكيف تحب أنت شرابا كهذا بعد رقص مغربي
كذلك الذي رأيته » .

وقال ثالث : « لن نعطي الوغد قطرة ماء ، ولنسوف نعلم هذا المنافق الهرم
الخفيف القدم أن يكون مسيحيا صالحا ويحتسى نبيذ قبرص » .

وقال رابع : « أي والله ، ولئن كان شموسا فلتأت بكأس (دك هنتر) التي
يسقي بها فرسه » .

وسرعان ما أحاط (بالدرويش) — وهو منهوك طريح الأرض — حشد من
الرجال ، ورفع واحد منهم طويل القامة جسم الرجل المهزبل عن الأرض ، بينما
قدم له الآخر قدحا كبيرا من النبيذ ، ولكن الرجل الهرم ، وقد عي عن الكلام ،
هز رأسه وأبعد بيده الشراب الذي حرمه عليه النبي ؛ ولكن القوم الذين أرادوا
به العذاب ما كانوا بهذا يرجعون .

فصاح أحدهم : « الكأس ، الكأس ! ما أشبه الرجل التركي بالجواد التركي ،
ولسوف نعامله معاملة الخيول » .

وقال (لنج ألن) : « أقسم بالقديس جورج إنكم لتخنقنه ! وإنه لإثم أن
تموا وغدا وثنيا بمقدار من النبيذ يغني رجلا مسيحيا عن ثلاثة أضعاف ما يحرز
من سكرة النوم » .

فرد عليه (هنري ودستول) وقال : « إنك لا تعرف طباع هؤلاء الأتراك

الملحدين يا (لنج ألن) ؛ إعلم أيها الرجل أن قدحا من نبيذ قبرص تلعب برأسه وتديره في اتجاه غير الاتجاه الذي تدرج إليه وهو يرقص ، فيثوب إلى رشده ، ويعود كما بدأ — الحجر تخنقه ؟ إنها لا تخنقه إلا كما يخنق رطل من الزبد كلب (بن) الأسود .

فقال (تالين بلاكلين) : « وهل تضنون على هذا الشيطان المسلم المسكين بقطرة من شراب في هذه الدار ، وأنتم تعلمون أنه لن ينال قطرة يرطب بها طرف لسانه في دار البقاء ؟ » .

فأجاب (لنج ألن) يقول : « تالله إن هذه لشريعة صارمة ، أفكل هذا لأنه تركي كما كان أبوه من قبله ؛ إني أؤكد لكم أن أشد الأرباء حرارة لتكونن عليه بردا وسلاما لو أنه كان مسيحيا مرتدا » .

فقال (هنري ودستول) : « ائزم الصمت يا (لنج ألن) ، وصدقني أن لسانك ليس بأقصر جوارحك ، وإني أتنبأ لك أنه ليسوقنك إلى الخزي من أينا (فرنسيس) كما حدث مرة للمرأة السورية الحوراء — ولكن دعنا من هذا فها هي ذى الكأس قادمة — أنشط قليلا أيها الرجل ، وافتح فمه عنوة بنصاب خنجرك » .

فقال (تومالين) : « ارجعوا عن هذا . إنه طبع غير عصى ، انظروا تجدوه يشير إلى القدح . افسحوا له أيها الرجال . أى والله ، إنهم قوم إن شرعوا يشربون ما تركوا الحجر حتى ثملوا ؛ إن هذا التركي لا يسعل في الكأس ، ولا يترث في الشراب » .

وحقا لقد شرب ذلك (الدرويش) — أو سمه ما شئت — القدح الكبير حتى ثملته في جرعة واحدة ، أو تظاهر بذلك على الأقل ، ولما رفع الكأس عن شفتيه ، بعد ما غاض كل ما به ، تهدهد عميقا وتمتم قائلا : « الله كريم » ، ففسرى الضحك بين العامة الذين شهدوا الرجل وهو يجترع الكأس في شربه ، وكانت فحكاتهم عجاجة سخابة حتى هب الملك من نومه مضطربا ، ورفع إصبعه وقال

غاضبا : « ما هذا أيها اللئام ، أما لديكم لغيركم احترام ، وهل لا ترعون لنا حرمة ؟ » فسكت الجميع ولزموا الصمت ، إذ كانوا يعرفون مزاج رتشارد ، الذى كان يسمح بالكثير من الألفة الحربية أحيانا ، وأحيانا أخرى يتطلب أجل الاحترام ، وقلما كان هذا المزاج الأخير يملك عليه نفسه . وبعدئذ سارع الرجال إلى مكان قصى عن شخص الملك حتى يبقى له جلاله ، وحاولوا أن يجذبوا معهم الشيخ الولى ، الذى بدا عليه الإنهاك من المشقة السابقة ، أو غلبته الجرعة القوية التى غلبها غبا منذ حين ، فقاوم إبعاده عن هذا المكان تارة بالنضال وطورا بالأين .

فهمس (لنج ألن) لزملائه قائلا : « خلوا سبيله أيها الغافلون ؛ ناشدكم القديس « كرسطوفر » لتخلفن الرجل وإلا طاح منه خنجره ، وشق رؤوسنا عاجلا ، خلوا سبيله ، فإنه سوف ينام كالسنجاب بعد دقيقة » .

وفى تلك الآونة رمى الملك بسهم آخر من سهام نظراته إلى مكان الزحام ، فكروا جميعا قافلين ، مخلفين الشيخ فوق الأرض عاجزا — كما يبدو — عن أن يحرك عضوا أو مفصلا من جسمه . وما انقضت لحظة حتى ساد الهدوء والسكينة ، وعادت الأمور كما كانت قبل قدوم الشيخ .

الفصل الحادى العشرون

أنا القاتل الواهن ،

وهذا الذئب يعوى كأنه يرقبني ؛

بخطى خفيفة الوطاء تخطى « تاركوين » (١)

أسير نحو الفريسة كما تسير الأشباح .

من « ماكبت » لشكسبير

ما انقضى ربع ساعة أو ما يزيد بعد الحادث الذى رويناه حتى ساد السكون التام أمام مسكن المليك ، وجلس الملك لدى مدخل السرادق بين القراءة والتأمل ، وكان العبد النوبى ما يزال يحلو الدرقة الضخمة ، مولياً ظهره باب القسطاط . وأمام هذا المشهد — على بعد نحو مائة خطوة — وقف بعض من عامة الحراس ، وجلس بعضهم الآخر أو رقدوا مستلقين فوق العشب ، لا يحفلون بغير قصفهم وطربهم ، ويتبعهم فى صمت وسكون ذلك الشيخ لا يحس به أحد ، وما فتى فى الرحبة التى تمتد بين الحراس والسرادق ، ما تكاد تميزه عن حزمة من الخرق البالية .

وكان النوبى يستخدم الدرقة كالمرآة ، إذ كان لوجهها بريق وهاج تنعكس عليه المرئيات انعكاساً واضحاً ؛ ولشد ما كانت دهشته وذعره حينما رأى فيها أن الشيخ قد رفع رأسه قليلاً عن الأرض حتى يرى كل ما كان يدور حواليه ، وأخذ يتحرك بحذر وإحكام لا يتفقان ألبتة وما كان عليه من ثمل ، ثم انعكس رأسه فى الحال ، وكأنه اطمأن إلى أن أحداً لم يكن يرقبه ، وشرع يزحف وما يكاد الرأى يلمس فى حركته جهداً تلقائياً ، كأنه يتقدم عفواً نحو الملك شيئاً فشيئاً ، ولكنه بين الحين والحين يقف ويلبث ساكناً ، كالعنكبوت يسير نحو غايته ثم تراه وكأن معين الحياة قد نصب منه ، إذا ظن أنه بات محط النظر ؛ فارتاب النوبى فى هذا الضرب من الحركة ، وتأهب من جانبه — مسرعاً على قدر ما يستطيع —

(١) اسم فارس من فرسان قصة أرثر الخيالية المعروفة فى الأدب الإنجليزى .

حتى يتدخل في اللحظة التي يمسي تدخله فيها أمراً لا مندوحة عنه .
وواصل الشيخ الزحف شيئاً فشيئاً كالأفعى أو القوقعة ، وما يكاد الرائي يحس به ، حتى بات على بعد عشر أذرع من شخص رتشارد ، ثم نهض على قدميه ، ووثب قدماً كما يشب النمر ، ووقف إلى ظهر الملك في أسرع من لمح البصر ، ولوح بخنجره في الهواء ، وكان قد أخفاه في كفه ، وما كان جيش رتشارد بأسره حينئذ بمستطيع أن ينقذ ملكه البطل ، ولكن النوبي كان — كذلك الشيخ المتهوس — يسير بقدر ، فما إن هم الثاني بالطعن حتى أمسك الأول بذراعه المرفوعة ، فحول «الخارجي» — وظاهره كالأولياء — ثورة غضبه نحو ذلك الذي اعترض ما بينه وبين مرماه فجاءة وبغير انتظار ، وطعن النوبي بخنجره طعنة سحجت ذراعه ، بينما انقض عليه النوبي وطرحه أرضاً ، وما أيسر ما هشمه بقوة التي ترجح قوة الشيخ أضعافاً مضاعفة ؛ وحينئذ أدرك رتشارد ما دار بين الرجلين ، فنهض ، وما عراه من الدهشة والغضب ، أو ارتسم على محياه انفعال ما ، غير ما يبدى الرجل العادى حينما يبعد عن نفسه زنبورا دخيلاً أو يسحقه . ثم أمسك بالمقعد الذي كان يستوى عليه ، وما زاد على أن صاح قائلاً : « ها ! وغد دنى ! » ، ثم هشم رأس القاتل تهشماً ، وصاح الرجل وقال : « الله اكبر ، الله اكبر » مرتين ، مرة بنغم عال ، ومرة بصوت متهدج ، ثم أسلم الروح عند قدمي المليك .

هذا الشغب الذي صحب ما وقع ، نبه النباليين من أتباع رتشارد ، فاندفعوا إلى السراشق مرتاعين صاخبين ، فصاح بهم رتشارد في صوت فيه نغم العتاب والتهمك وقال : « حقاً إنكم لحفظة ساهرون ، وحراس نابهون ، فلقد تركتموني أقوم بعمل الجلال يبدى لا بيد عمرو — أنصتوا جميعاً ، وقفوا ضيحيكم هذا الذي لا ينطوى على شيء ! هلا رأيتم أبداً من قبل رجلاً تركيا قتيلاً ؟ هو ذا — انبذوا هذه الحيفة من المعسكر ، وافصلوا الرأس عن جذعه ، وعلقوه فوق رمح ، وولوا وجهه شطر مكة ، حتى يتيسر له أن يقول لذلك المدعى الدنس ، الذي أوحى له أن يأتي إلى هنا ، كيف بلغ الرسول رسالته » . ثم قال وقد التفت نحو الأتيوبي : « أما أنت

يا صاحبي الأسود الصامت — ولكن ما هذا؟ — إنك جريح — وبسلاح في ظبانه السم لا ريب ، إذ أن حيوانا ضعيفا كهذا لا يستطيع بقوة الطعن وحدها أكثر من أن يصيب إهاب الليث — ليمتص السم من جرحه أحكم — إن السم قاتل إذا اختلط بالدماء ، ولكنه لا يؤذى الشفاه إن مسته .

فأخذ عامة الحراس يتبادلون النظر مضطربين مترددين ، وغلب الرعب من هذا الخطر الداهم أولئك الرجال الذين ما كانت الخشية تنطرق إلى قلوبهم .

ثم واصل الملك حديثه وقال : « ثم ماذا أيها الرجال ؟ هل أنتم ذوو شفاه رقيقة ، أم هل تخشون الموت فتتأخرون ولا تتقدمون ؟ » .

فقال (لنج ألن) وكان الملك ينظر إليه وهو يتكلم : « نحن لا نخشى موت الرجال ، ولكني لا أحب أن أموت كما تموت الفأر المسمومة في سبيل تلك الكتلة السوداء الملقاة هناك ، التي تباع وتشتري في السوق كثور (مارتلناس) » .

فتمتم رجل آخر وقال : « إن جلالة الملك يطلب إلينا مص السم وكأنه يقول لنا هيا احتسوا من هذه الحجر ! » .

فقال رتشارد : « كلا ، والله ما سألت يوما رجلا أن يعمل ما لم أعمل » .
ثم وضع الملك شفتيه على جرح العبد الأسود ، غير آبه ولا مكترث بأصوات الاحتجاج ممن أحاط به ، ولا بمعارضة النوبي نفسه الذي كان يبجل سيده ، فلقد هزأ رتشارد بكل عتاب وغلب كل مقاومة ، وما إن توقف لحظة عن هذا العمل الفريد الذي أقدم عليه ، حتى امسك منه النوبي ، ورمى فوق ساعده وشاحا ، وألمع — بشارات تم عن الحزم كما تم عن إجلاله للملك — إلى عزمه على أن لا يسمح للملك أن يعود إلى هذه الخدمة المحطة به ؛ وتعرض (لنج ألن) كذلك وقال : إن كان لا بد من إبعاد الملك عن الاشتغال بمثل ذلك العلاج فإنه يقدم شفتيه ولسانه وأسنانه لخدمة العبد (وكان يسمى الأتيوبي كذلك) ، وإنه ليلتهم جسده التهاما قبل أن يلمسه الملك رتشارد بفمه .

ثم دخل ثقيل مع ثلة من الضباط ، وضم صوت احتجاجه إلى أصوات الآخرين .

فقال الملك « كلا ، كلا ، لا تصيحوا صياحا لا طائل منه بعد أن يفلت الظبي من كلاب الصيد ، أو بعد ما يقبل الخطر ثم ينقضى . سوف يكون الجرح طفيفا لأنى لم أكدم أمتص من الدماء قطرة . وإله لو كان قطا غاضبا لكان خدشه أشد وأعمق — أما أنا فحسبى أن أتناول حبة من بلسم شاف أتقى بها ، وإن تكن لا حاجة لى بها » .

وهكذا كان يتكلم رتشارد غير مستح من تنازله من عليائه ، بل لقد كساه جلالا حنوه واعترافه بالجميل ، ولما واصل ثقيل اللوم والعتاب على تعريض الملك ذاته الكريمة للخطر ، فرض عليه الملك أن يلزم السكون .

وقال : « أرجوك الصمت وأن لا تذكر هذا الأمر بعد هذا — إنما فعلت ذلك كي أبين لهؤلاء السفلة الجهلة المتحاملين كيف يستطيعون أن يعاون بعضهم بعضا إذا ما هاجمنا أولئك الأعداء الأذال بحبالهم ونبالهم المسمومة » ، ثم قال : « خذ هذا النوبى إلى مسكنك يا ثقيل ، لقد عدلت عن رأيى فى أمره ، وأسبغ عليه رعاية كافية ، ولكن اسمع منى هذا فى أذنك — تنبه كي لا يفر منك — إن مخبره خير من مظهره ؛ أعطه الحرية كاملة كي لا يترك المعسكر ، وأما أنتم أيها الأوغاد الإنجليز أكله اللحوم ونهله الخمر ، فعودوا إلى أماكن حراستكم ثانية ، واستوثقوا من زيادة الحذر فى رقابتكم . لا تحسبوا أنكم الآن فى بلادكم حيث الصراحة فى المعاملة ، وحيث يتكلم الرجل قبل أن يضرب ، ويصافح قبل أن يحز الرقاب . إنما الخطر فى بلادنا يسير صراحا وظبانه مسنونة مسالولة يتحدى العدو الذى يريد به الهجوم ، وأما هنا فنحصمك يستهدك وعلى يديه قفاز من الحرير لا من الحديد ، ويحز رقبتك بربيش اليمام ، ويطعنك بطرف دبوس القس ، أو يخنقك برباط ثياب الغيد . اذهبوا وافتحوا أعينكم وأغلقوا أفواهكم ، وأقلوا من شراككم ، وأحدوا من أبصاركم ، واشهدوا ما حوالىكم ، وإلا قصرت فى إطعام بطونكم الكبيرة حتى يشكو الجوع أشد الاسكتلنديين صبرا » .

فجبل الحراس وخارت نفوسهم ، ثم عادوا إلى أماكنهم ، وبدأ ثقل يعتب على سيده مخاطرته بتهاونه في إهمال الحراس لواجبهم ، وضربهم لغيرهم مثلاً سيئاً في أمر بالغ الخطر كما بهم لرجل مريب كالشيخ أن يدنو حتى يصير من شخص الملك قاب قوسين ، وهنا عارض الملك ثقل وقال : « لا تذكر هذا الأمر يا ثقل ، أفكنت تريدني على أن أتقم لنفسى من خطر زرى كهذا بأشد من نعمتى على ضياع راية إنجلترا ؟ لقد انتزعت وسرقها لص ، أو اختطفها خائن ثم أسلمها ، ولم تُرق في سبيلها قطرة من دم — أى صاحبي الأسود ، يقول السلطان المجيد إنك تدرك من الأمور خفيها ، والآن لو استخدمت رجلاً أشد منك حلوكة ، أو أى وسيط آخر أردت ، كى تكشف لى عن اللص الذى ألحق بشرى الإساءة ، أعطيتك وزنك ذهباً ، ماذا تقول فى هذا ؟ ها ! » .

وبدت على الرجل الأبكم الرغبة فى الكلام ، ولكنه تم بصوت خافض متقطع ، صادر عن نفس حزينة كثيفة ، ثم أطبق ذراعاً فوق الأخرى ، ونظر إلى الملك بعين فيها لمحة الأريب ، ونكس رأسه إجابة على ما سئل . فقال رتشارد جازعاً متلهفاً : « ماذا تقول ! هل تأخذ على نفسك أن تكشف عن هذا الأمر ؟ » .

فكرر العبد النبوى الإيماء الأولى .

وقال الملك : « كيف لنا أن نتفاهم ؟ هل تستطيع الكتابة أيها الرجل الكريم ؟ » .

فنكس العبد رأسه ثانية إيجاباً .

فقال الملك : « أعطوه ما يكتب به ، لقد كانت أداة الكتابة أبداً فى فسطاط أبى أقرب منالاً منها فى فسطاطى ، ولكن إن بحثتم وجدتموها هنا أو هناك ، اللهم إلا إن كان هذا الجو المحرق قد جفف المداد — والله يا ثقل إن هذا الرجل لجوهرة ، بل لؤلؤة سوداء » .

فقال ثقل : « هل لا يأذن لى مولاي أن أقول ما أرى ، والله ياسيدى

ما أحسب هذا الأمر إلا صفقة خاسرة ، وما أحسب هذا الرجل إلا ساحراً ،
والسحرة ينضمون إلى الخصوم الذين يريدون أن يدسوا لنا السم في الدسم ، وأن
يبتثوا الشقاق في صفوف مجامعنا و . . . » .

فقال رتشارد : « صه يا ثريل ، إذا ما دنا كلبك الشمالى من ردف الغزال فصح
به وارح تلييته ، ولكن إذا ما كان بلانتاجنت يأمل أن يسترد شرفه فلا تحاول
أن تقف في سبيله » .

وفي غضون ذلك الحديث كان العبد يكتب وكأنه قد حذق فن الكتابة ، ثم
نهض ورفع ما سطر إلى جبينه ، وخر ساجداً — كمادته — قبل أن يسلم
المكتوب إلى يدى رتشارد ؛ وكان المخطوط بالفرنسية ، رغم أن رتشارد كان يتكلم
بالفرنجية حتى ذلك الحين .

« إلى رتشارد الملك الظافر الذى لا يقهر ، ملك إنجلترا ، يقدم هذا أشد
رقيقه خضوعاً . إنما الأسرار الخفية صناديق السماء المغلقة ، ولكن الحكمة قد
تفتق الوسيلة لفض ما أوصد . لو كان لعبدك أن يقف حيث زعماء الجيش المسيحى
يسرون أمامه واحداً تلو الآخر ، فكن على يقين أنه إن كان بين مجموعهم من
صدرت عنه الإساءة التى يشكوها الملك ، فسوف يبدو للعيان إثمهم ، حتى وإن كان
مستوراً وراء حجب سبعة » .

فقال الملك رتشارد : « أقسم بالقديس جورج لقد تحدثت بأحسن حديث ،
ثريل ! أنت تعرف أنا سوف نحشد جنودنا غداً ، وقد اتفق الأمراء أن يسير
الزعماء برايتنا الجديدة وهى ترفرف فوق قمة سنت جورج ، ثم يحيونها بما يليق من
إجلال ، تكفيراً عن الهوان الذى لحق بإنجلترا من ضياع العلم . صدقنى إن الخائن
المتستر لن يجرؤ على التغيب عن هذا المشهد الرائع الذى تمحى به الإهانة ،
خشية أن يكون غيابه موضعاً للريبة . هنالك سوف نقيم هذا الرجل الأسود
صاحب رأى السيد ، وإذا استطاع بفنه أن يكشف عن الوغد الدنىء ، فدعنى
أفعل به ما أريد » .

فقال ثقيـل في صراحة البارون الانجليزى : « مولاي ، احذر ما أنت شارـع فيه ، لقد تجدد الوثام بين أفراد عصبتنا المقدسة ، وهو أمر لم يكن في الحسبان ، فهل تريد على أساس واه من الريـة ، بيعـها عبد أسود ، أن تـلم جراحاً ما اندملت إلا منذ عهد قريب ، أم هل تريد أن تجعل من الموكب الهيب — الذى سوف يحتشد لاسترداد شرفك وتأسيس الوحدة بين الأمراء المتنافرين — وسيلة جديدة لإيجاد سبب آخر للأذى ، أو إحياء إحن قديمة في النفوس ؟ وما كان أغنانى عن هذا القول ، فما هو إلا لمحة من البيان الذى أدلت به جلالـتكم لمجمع الصليبيين الحاشد » .

فعبس الملك واعترض ثقيـل وقال : « أى ثقيـل ، لقد جعلتـك غيرتـك وخفـاً لا خلاق لك ، إني ما وعدت قط أن أحجم عن السير في أية سبيل تؤدى إلى الكشف عن ذلك الرجل المقوت الذى ابتعث تهجم على شرفى . والله ما كان أجدرنى أن أنزل عن ملكى — بل عن حياتى — قبل أن أفعل ذلك . إن كل بيان أدليت به كان لا يخلو من هذا الشرط الضرورى الحاسم ، وما كنت لأعفو عن دوق النمسا من أجل العالم المسيحى إلا إن تقدم وأقر بإثمه إقرار الرجال » . ثم استأنف البارون حديثه جازعاً والهـماً وقال : « ولكن أى أمل لنا في أن هذا العبد المحتال لن يخدع جلالـتكم ؟ » .

فقال الملك : « صمّماً ثقيـل ، إنك تحسب نفسك حكيماً قديراً ، وما أنت إلا أحمق جاهل . فإن ذكرت أمرى مع هذا الرجل فخاذل — واعلم أنه أسحق غوراً من أن تدرك كنهه بفطنتك وذكائك ، ذكاء « وستمورلاند » ؛ وأما أنت أيها الأسود الصامت ، فأعدّ عدتك لتتجز العمل الذى وعدت ، وخذها كلمة من ملك أنك سوف تختار لنفسك جزاءها . صه ، صه ! لقد عاود الكتابة » .

وخط الرجل الصامت إذ ذاك ورقة أخرى ، قدمها إلى الملك ماثلاً كما فعل أول مرة ، وجاء في مكتوبه هذه الكلمات : « إن إرادة الملك شريعة عبده ، ولا يليق للعبد أن يطلب الجزاء على أداء واجبه » .

فتوقف الملك عن القراءه وقال متعجباً : « الجزاء ، والواجب ! » ثم وجه

الخطاب إلى ثقيل ، وكله باللسان الانجليزى وبصيغة التأكيد قائلا : « سوف يفيد أهل الشرق هؤلاء من الصليبيين — إنهم يتعلمون منهم لغة الفروسية ! — أنظر يا ثقيل إلى هذا الرجل كيف هو مضطرب جازع ، ولولا لونه الأسود لبدأ الاحمرار على وجنتيه . والله ما عجبت لو أنه أدرك ما أقول ، فهم في حذق اللغات بارعون » .

فقال ثقيل : « ليس فى الأمر إلا أن هذا العبد المسكين لا قبل له بنظرة جلالتك » .

ثم واصل الملك كلامه ، وضرب على الورقة بإصبعه وهو يقول : « ولكن هذا المكتوب الجرىء يذكر أن رجلنا هذا الصامت ، الذى وثقنا فيه ، يحمل رسالة من صلاح الدين إلى السيدة أديث بلاتاجنت ، وهو الآن يرجو الوسيلة والفرصة لإبلاغ ما يحمل ، فماذا ترى يا ثقيل فى هذا المطلب المتواضع ؟ » .

فقال ثقيل : « إنى لا أدرى كيف تستسيغ جلالتك مثل هذه الحرية ، ولكنى ما أشك فى أنك لو بعثت من لدنك رسولا يحمل إلى السلطان مثل هذا المطلب ما استقام على كتفى رسولك رأسه طويلا » .

فقال رتشارد : « الحمد لله على أنى لا أشتهى واحدة من حسانه اللائى لفحتمن الشمس ، وأما أنى أجازى هذا الرجل على أداء رسالة سيده ، وأن أجازيه بعد ما أنقذ حياتى بزمى وجيز ، فما أحسب إلا أن هذا عمل جائر . سوف أبوح لك بسر يا ثقيل ؛ ولئن كان خادمنا الأسود الصامت واقفاً إلا أنه لا يستطيع — كما تعلم — أن يعيد الكلام ، حتى وإن أدرك ما نقول ؛ اعلم يا ثقيل أنى فى الأسبوعين الماضيين كنت تحت تأثير تعويذة عجيبة ، وكم وددت لو خلصت من سحرها ، وما تقدم لى رجل بخدمة طيبة حتى مما عمل من خير بأذى بالغ ، وما استحق الموت على يدى لخيانة أو إهانة إلا — رجل من بين الرجال جميعا — صنع بى جميلا يرجع كل ما به من مثالب وأصبح له — رغم ما يستحق من جزاء — دين على شرفى ؛ وهكذا ترى أنى حرمت خير جانب من جوانب وظيفتى ، فأنا لا أستطيع أن أجرى خيرا

ولاشراً ؛ والله إلى أن يبدل الله الأرض غير الأرض ، لن أقول عن مطلب خادمنا هذا الأسود إلا أنه مطلب جرىء جرأة ما بعدها جرأة ، وإن خير فرصة له لكسب عفونا ورضانا ، هي أن يحاول أن يكشف لنا عن الجارم كما عرض ، وحتى آتئذ أو له رعايتك يا ثقیل واسع في العناية به عناية لاثقة . ثم قال الملك في صوت خافت : « واستمع إلى مرة أخرى ، اذهب في طلب ناسك عين جدة وتعال به إلى توتا ، قديساً كان أو همجياً ، عاقلاً أو مجنوناً ، ودعني أكله خفية وسراً » .

ففصل ثقیل عن السراق الملكی ، وأشار إلى النوبي أن يتبعه ، وهو شديد العجب مما رأى وسمع ، وبخاصة من مسلك الملك مسلکاً غير معهود . ولم يكن على الجملة هناك أيسر على المرء من أن يكشف عن مشاعر رتشارد وإحساساته المباشرة العاجلة — وإن يكن عسيراً في بعض الأحيان أن تعرف كم ذا يطول بقاؤها ، فلقد كان الملك لعواصف انفعاله أطوع من الريشة في مهب الريح القلب ، ولكن طبعه في هذا الظرف كان — على غير المعهود — هادئاً غامضاً ، ولم يكن من اليسير أن تحكم أيها غلب عليه في معاملته لهذا الرجل الذي انضم إلى حاشيته أخيراً : الغضب أم الشفقة ، أو أن تعرف بأي عين كان ينظر إلى الرجل الفينة بعد الفينة ؛ ولقد كان في الخدمة العاجلة ، التي أداها الملك للنوبي كي يقيه ما قد ينجم عن جرحه من سى الأثر ، كفاء للجميل الذي صنعه العبد فيه ، حينما تعرض لضربة القاتل المغتال ، ولكن يظهر أن حساباً طويلاً ما برح بينهما رهن التصفية ، وكان الملك في شك هل سيخرج من هذه التصفية على الجملة دائماً أو مديناً ، ولذا فقد اتخذ في ذلك الحين طريقاً وسطاً تليق به إن كان هذا أو ذاك ؛ أما عن النوبي وأنى تعلم فن كتابة اللغات الأوروبية ، فقد كان الملك يعتقد أنه لم يحذق اللسان الإنجليزى على الأقل ، لأنه راقبه عن كذب خلال ما دار أخيراً ، ورأى أنه يستحيل على رجل يفقه حديثاً يدور بشأنه أن يظهر وكأنه لا يأبه البتة بالحديث .

الفصل الثاني والعشرون

من هناك ؟ — هيا اقترُب — إنه فضل منك —
هو طبيبى الحكيم ، وصديقى الحميم .
السر يوستاس جرى

والآن ننود بروايتنا إلى الفترة التى سبقت ما ذكرنا أخيراً من حوادث بَمدَة وجيزة ، وذلك حينما أبعد فارس النمر البائس عن معسكر الصليبيين ، وقد تميز بين صفوفه امتيازاً كبيراً ؛ ووهبه الملك رتشارد الطبيب العربى — كما يذكر القارىء — وهو إلى مرتبة الرقيق أقرب منه إلى أى شىء آخر . تبع الفارس سيده الجديد — كما يصح لنا الآن أن نسمى الحكيم — وقصدوا خيام المغاربة التى كانت تضم حاشيته وأملاكه ، وشعوره فاقد الرشد كرجل سقط من قمة جبل ونجا بحياته على غير انتظار ، وهو لا يقوى إلا على أن يسير متخاذلاً من المكان الذى صرع فيه ، ولكنه لا يستطيع أن يسير مدى ما لحق به من أذى وضرر ؛ وما إن بلغ الفسطاط حتى ارتدى دون أن ينبس ببنت شفة فوق فراش من جلد الجاموس المدبوغ ، دله عليه مرشده ، ثم أخفى وجهه بين يديه ، وأخذ يئن أنينا عالياً وكأن قلبه يوشك أن يتفطر ، وقد سمعه الطبيب — وهو يلقى بأوامره على خدمه العديدين كي يستعدوا للرحيل صبيحة اليوم التالى قبل منبثق النهار — فتحركت فى نفسه الشفقة ، وتوقف عما كان مشغولاً به ، ثم جلس ملقياً ساقاً فوق الأخرى إلى جانب سريره ، وأخذ يواسى الرجل كما يفعل أهل الشرق عادة .

وقال : « أى صديقى ، هوّن على نفسك ، فلقد قال الشاعر ما معناه : « خير للرجل أن يكون خادماً لسيد شقيق من أن يكون عبداً لشهواته القوية الخاصة ، وتشجع ، فإن يوسف بن يعقوب قد باعه إخوته إلى فرعون ملك مصر ، ولكن مليكك وهبك رجلاً سوف يكون لك كالأخ الشقيق » .

وجاهد السر كنه أن يشكر الحكيم ، ولكن قلبه كان مفعاً ، فصدرت عنه أصوات غامضة وهو يحاول دون جدوى أن يجيب ، فدفعت هذه الأصوات الطبيب الشفيق إلى أن يكف عن محاولاته المتسرة لتغذية الفارس ، وخلف خادمه هذا الجديد — أو قل ضيفه هذا — وادعاً ساكناً يسترسل في أحزانه . وبعد ما أمر بكل ما يلزم من إعداد للرحيل صبيحة الغد ، جلس على بساط الفسطاط ، وتناول وجبة وسطا بين بين ، ولما انتعش بالطعام قليلاً ، قدم للفارس الاسكتلندي قوتاً كقوته ؛ ورغم أن العبيد قد أفهموا السر كنه أنهم لن يقفوا في اليوم التالي للطعام إلا بعد أن تتقدم من اليوم ساعات عديدة ، فإن الرجل لم يستطع أن يتغلب على النفور الذي كان يحس به من تناول القوت ، وعبثاً ألحفوا عليه أن يتذوق شيئاً لهم إلا جرعة من الماء البارد .

واستيقظ السر كنه بعد ما أدى مضيفه فريضة الصباح ثم أوى (المضيف) إلى فراشه بزم من طويل . ولم يزر الكرى جفنى العربى حتى انتصف الليل ، وسرت بين خدمه حركة لم يصحبها حديث ولا نحيب كثير ، ولكنه علم منها — رغم ذلك — أنهم كانوا يحمّلون البعير ويتأهبون للرحيل ، وبينما هذا الإعداد قائم على قدم وساق ، كان فارس اسكتلندا آخر من هب من رقادته إذا استثنينا الطبيب . ولما كانت الثالثة صباحاً أو ما إلى ذلك ، قال له رئيس الخدم إنه ينبغي له أن ينهض ، ففعل دون أن يحير جواباً ، وتبعه في ضياء القمر حيث الجمال قائمة ، وأكثرها يحمل على ظهره عبئه ، ولم يبق منها غير واحد أنأخ حتى يتم تحميله .

وعلى كنه من النوق وقف عدد من الخيل ملجمة مسرجة ، ثم أقبل الحكيم نفسه وامتنطى واحداً منها برشاقة تتفق ورزانه مكره ، وأشار إلى آخر كي يساق إلى السر كنه ، وكان بانتظارهم ضابط انجليزى كي يخفرهم خلال معسكر الصليبيين ويتثبت من رحيلهم آمنين ؛ وكان كل شيء على أهبة للسفر ، ثم أقتلع السراقذ الذي خلفوه بخفة عجيبة ، وكان حمل الناقة الأخيرة يتألف من أغطية الفسطاط وقوائمه العشرة ، ثم كرر الطبيب هذه العبارة في مهابة وخشوع « الله

يهدينا ومحمد يقينا في البر والبحر » ثم فصلت القافلة بأسرها في الحال .
واعترض سبيلهم — وهم يشقون المعسكر — الخفراء العديدون الساهرون على الحراسة هناك ، وإذا ما مرت القافلة بحجى من أحياء الصليبيين الغيورين ، سار رجالها اضطرابا في سكينته وهدوء ، أو استمعوا إلى اللعنات تنصب على نبههم تتممة فغضوا عنها الطرف كارهين ؛ وأخيرا تخطوا آخر العقبات ، والتأمت جماعتهم وهي تسير سيرا عسكريا حذرا ، وتقدمهم اثنان أو ثلاثة من الركبان طليعة لهم ، يتبعهم واحد أو اثنان على قيد رمح ، وكلما تهيأت الظروف انفصل بعض منهم ليرقب الجناحين ، وهكذا سار الجميع قُدُماً ، ونظر السر كنث وراءه إلى المعسكر يفضضه ضياء القمر ، فأحس إحساساً قويا بحرمانه من الشرف والحرية ، وبإقصائه عن الأعلام الخفاقة التي كان يأمل أن يحظى تحت ظلها ببعده الصيت ، وأحس كذلك يبعده عن خيام الفروسية والمسيحية و... عن أديث بلانتاجنت .

وكان الحكيم راكبا جواده إلى جواره ، فأخذ بنغمه المألوف يسرى عن السر كنث بسديد الحكم وقال : « إن كان السفر أمامك فليس من الحكمة أن تتطلع وراءك » وبينما هو يتكلم زلّ جواد الفارس في مشيته زلة خطيرة كأنها درس خلقى عملى يتمم قصة العربي .

وقد اضطرب الفارس من هذه العثرة أن يشتد في إمتلاك زمام الجواد ، واضطر أكثر من مرة أن يلجأ إلى العنان ويستعين به ، وأما فيما عدا ذلك فلم يكن ثمة أسلس قيادا ولا أخف حركة من هذه الفرس وهي تسير وخذاً بخطى مترنة .

وقال الطبيب صاحب الأمثال : « ما أشبه جوادك هذا بحظ الإنسان . لا بد للراكب — والجواد يخف به بخطى هينة لينة — أن يحذر من السقوط ، وكذلك الأمر إن بلغ بنا الجُدُّ ذروته ، ينبغي لحكمتنا أن تتيقظ وتنبه كي ننجو من سوء الطالع » .

ولكننا إذا ما امتلأت منا البطون ، نفرنا حتى من أقراص الشهد ؛ فليس عجيبا إذن أن يضيق بالفارس الصبر — وقد أذله نكد الطالع ، وخارت عزيمته مما

لحقه من الهوان — فلا يستمع إلى شقوته وقد باتت في كل مناسبة مضرًا للحكمة
والمثل ، مهما صدق المثل وأصاب .

فقال متبرما : « ما أحسبني بحاجة إلى زيادة الإيضاح عن تذبذب الجَدِّ ،
ولأشكرنك ياسيدي الحكيم على حسن انتقائك لجوادي لو أنه زل زلة قاضية
تنكسر فيها رقبتى ورقبته » .

فأجاب الحكيم العربي مهيبا رزينا رابط الجأش وقال : « أخى ! إنما أنت تتكلم
كما يتكلم الحقى ؛ أنت تقول فى سريرتك إن الحكيم كان ينبغى له أن يعطيك
— كضيف له — خير الجوادين وأصغرهما ، وأن يحتفظ بالفرس العجوز لنفسه ،
ولكن اعلم أن مثالب الفرس العجوز يقابلها نشاط الراكب الشاب ، وأن شدة
الجواد الفتى يكسر من حدتها طبع الشيخ البارد » .

هكذا تكلم الحكيم ، ولكن السر كنت لم يحر لهذا الخاطر جوابا مما قد يؤدى
إلى مواصلة الحديث بينهما ؛ ولعل الطبيب قد كلَّ من التعزية يتقدم بها إلى رجل
لا يقبل التعزية ، فأشار إلى واحد من حاشيته .

وقال : « أليس لديك ، يا حسن ، شىء نقتل به ملل الطريق ؟ »

وحسن هذا قصاص شاعر ومحترف ، دفعه هذا السؤال إلى أن يجيب إلى
ما سئل ، فقال محدثا الطبيب : « أى مولاي ، ياسيد دار الفناء ، أنت ذلك الذى
إن رآه الملكُ غزرائيل نشر جناحيه وطار ، أنت أحكم من سليمان بن داود الذى
انطبع على خاتمه (اسم الجلالة) ، هذا الاسم الذى يسيطر على الأرواح فى هذه
الدنيا — أنت تسير على جادة الخير تحمل حيث تحمل الشفاء والأمل ، فحاشا لله
أن تكتئب حياتك من قلة القصص أو الفناء . إستمع إلى ! ما دام خادمك إلى
جوارك ، فسوف تتدفق كنوز ذاكرته كما يتدفق من النبع فى الدرب تيار الماء
ينتعش به كل من سار على الطريق » .

وبعد هذه الديباجة ، رفع حسن صوته ، وشرع يقص قصة حب وسحر ،
تخللها مآثر الظفر والقتال ، وتحليها المقتبسات من شعر الفرس ، والمحدث بأقوالهم

عليم ، وإذ ذاك احتشدت حول القصص حاشية الطبيب كلها ، ما خلا أولئك الذين كان لا بد لهم من التخلف لرعاية البعير ، وتراحوا — على قدر ما يسمح لهم احترامهم لسيدهم — كي ينعموا بتلك اللذة التي يجدها أبدا أهل الشرق في هذا الضرب من الرواية .

ولربما لذ للسركنت في ظرف غير هذا أن يستمع إلى هذه الرواية ، التي كانت شديدة الشبه بقصص الفروسية الخيالية الدائعة في أوروبا في ذلك الحين ، وذلك رغم عجزه عن فهم اللسان العربي فهما صحيحا ، ورغم أن هذه القصص كانت من إملاء خيال أشد إسرافا ، ومسوقة في لغة أكثر مبالغة ، وملئمة بالاستعارة والكنائية ، لكنه — في هذا الظرف — لم يكديحس حتى بأن رجلا قد توسط القافلة وأخذ ينشد ويغنى في نغم خافت نحواً من ساعتين ، مترنماً بصوته ترنما يقابل به شتيت العواطف وألوانها المختلفة التي ساقها في قصته ؛ وهو يستمع لقاء ذلك مرة إلى الإعجاب به في دمدمة خافته ، ومرة إلى استحسانه في تمتة خافضة ، وحيناً إلى النحيب والبكاء ، وحيناً إلى إثابته بالبسات ، بل وبعالي الضحكات — والضحك على قلوب سامعيه ثقيل .

ومهما بلغ بالرجل الطريد من شرود الدهن والاسترسال في الأحران ، فقد كان يوقظ انتباهه الفينة بعد الفينة خلال هذا القصص نباح خافت يصدر عن كلب وضع في صندوق من الصفصاف يتدلى من إحدى النوق ؛ وفارسنا — كالحاطب الحنك — لم يتردد في معرفة الكلب ، فلقد كان كلبه الأمين بعينه ، ولم يشك من نباح الكلب وأنيته أن الكلب كان يدرك قرب سيده ويناشده — بطريقته — العون على إنقاذه وتحريره .

فقال : « وا أسفاه يا (رزوال) المسكين ، أنت تطلب النجدة والعطف من رجل مكبل في أصفاد أضيّق مما أنت فيه . سوف أظاھر بعدم الاكتراث لك ، ولن أجوابك المحبة ، ما دام ذلك لن يؤدي إلا إلى اشتداد المرارة عند الفراق » . وهكذا انقضت ساعات الليل ، وانقشع الفجر المعتم القاتم الذي يسبق تبشير

الصباح في سوريا ، ولكن ما إن أشرق الخيط الأول من قرص الشمس وعلا فوق الأفق ، وما إن اندلع الشعاع الأول وتألق في قطرات الندى — التي كانت تنتثر فوق القفر الذي بلغه الركب إذ ذاك — حتى علا صوت الحكيم الجمهوري على صوت القصاص ، وقطع عليه روايته ، وأخذ يردد فوق الرمال ذلك النداء المهيب الذي يدوى به المؤذنون في المساجد فوق المنائر كل صباح ، ويقول : « حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، لا إله إلا الله — حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، محمد رسول الله — حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، هذه الدار إلى الفناء — حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، إن يوم الحساب قريب »^(١)

وفي أسرع من لمح البصر ، نزل المسلمون جميعاً من فوق الجياد ، وولوا وجوههم شطر مكة ، وتيمموا بالرمال عوضاً عن الوضوء بالماء ، ودعا كل منهم ربه ونبيه — في عبارة موجزة حارة — أن يشمله بالرعاية ويغفر له ذنوبه وآثامه .

ولما رأى السر كنت أقرانه يقومون بعمل لا يحسبه إلا الوثنية بعينها ، تألم في قلبه وفي نفسه ، ولكنه رغم ذلك لم يسعه إلا أن يجل فيهم إخلاصهم وحماسهم هذه ، وإن يكن في طريق الضلال ؛ واستحثته حرارة إيمانهم على أن يضرع إلى الله هو ذاته بدعاء أظهر من دعائهم ، ولكنه عجب — مع ذلك — من هذا الإحساس الجديد الذي دفع به إلى مشاركة أولئك الأعراب في الصلاة — حتى وإن يكن بابتهاال غير ابتهالمهم — أولئك الأعراب الذين رأى في صلاتهم إجراماً مشيناً بالأرض التي قامت فيها عجائب المعجزات ، وأشرق فيها نجم الخلاص^(٢) .

هذا الابتهاال — الذي تضرع به السر كنت في هذه البيئة الغريبة — كان يتفجر من شعور طبعي خالص بالواجب الديني ، وكان له الأثر المهود في تهدئة الخواطر التي اضطربت طويلاً من هذه النكبات التي توالى عليها واحدة إثر الأخرى ؛ وتقرَّب المسيحي إلى عرش الواحد القهار مخلصاً جاداً يعلمه خير درس في الصبر تحت الأرزاء ، لأننا إن كنا نبرم بحكم الله فنحن إذن نسيء إليه ، وإن كنا نسيء

(١) ليست هذه صيغة الأذان المشروعة في الإسلام . (٢) يقصد أرض فلسطين .

إليه فكيف لنا أن نتظاهر بالضراعة إليه ؟ أو إن كنا في صلواتنا نقر في كل عبارة بعث هذه الدار الفانية وهبائها إذا قيست بما في دار الخلود والبقاء ، فكيف لنا أن نأمل في خداع علام الغيوب ونسمح للدنيا وللشهوات الدنيوية أن تملكنا في كل حين ، بل وبعد الدعاء الخاشع لله توا ؟ ولكن السر كنث لم يكن من هؤلاء ؛ فلقد أحس بالراحة والقوة ؛ وشعر بأنه أكثر استعداداً للخنوع أو للقيام بما تتطلبه الظروف من العمل والعناء .

وكان جماعة الأعراب إذ ذاك قد عادت إلى ظهور الجبال ، واستأنفت المسير ، وواصل حسن القصاص جبل روايته ، ولكن سامعيه لم يعودوا — كما كانوا — مصغين منصتين ؛ وكان أحد الخيالة قد صعد على نشز من الأرض إلى عيين الصف القصير ، والآن عاد يهرول مسرعاً إلى الحكيم وأخذ يحادثه ، وعلى إثر ذلك بعث بأربعة أو خمسة من الفرسان ، وشرعت القافلة الصغيرة — وعدتها نحو من عشرين أو ثلاثين رجلاً — تتبعهم بالنظرات ، كأنهم قوم في شاراتهم أو تقدمهم أو تقهقرهم ما يبشر بالخير أو ينذر بالشر . ولما رأى حسن أن سامعيه غير منصتين ، أو قل لما صرفته هو نفسه هذه المظاهر المريبة في جناح القافلة ، وقف عن الغناء ، وسار الركب في صمت لا يضطرب إلا حيناً يحدو البعير الصابر راكب من الركبان ، أو حيناً يتحدث رجل قلق من أتباع الحكيم إلى جاره في همس خافت وعلى عجل . وبقوا على هذا الركود حتى أتوا سفح رابية من الرمال أخفت عن قافلتهم ما كان قد حدا بطلائعهم إلى الذعر ، واستطاع السر كنث إذ ذاك أن يرى على بعد ميل أو ما ينيف ، شيئاً أسود يتحرك في قلب الصحراء سريعاً ، نظر إليه بعين المحنك فأدرك أنه قافلة من الفرسان أوفر من قافلتهم عديداً ؛ وكان الوميض الكثيف المتلاحق الذي يعكس الأشعة الأفقية من الشمس المشرقة يدل على أن تلك الجماعة كانت ثلة من الأوروبيين في كامل عدتهم وسلاحهم .

فألقي فرسان الحكيم على زعيمهم نظرات جازعة قلقة ثم عن خوف في النفوس شديد ، أما الحكيم فلبث رزيناً رابط الجأش كما كان حينما دعا قومه

للصلاة ، ثم بعث باثنين من خيار فرسانه الركبان وأمرهما أن يدنوا — ما سمح لهما الحذر — من أولئك المسافرين في الصحراء ، وأن يرقبا عديدهم على وجه دقيق ، وأن يتعرفا صفاتهم ومراميمهم إن استطاعا إلى ذلك سبيلا ؛ وهذا الخطر — أو شبه الخطر — كان وهو يقبل على القافلة حافزاً يحث كل غافل ، فتنبه السر كنهت إلى نفسه وإلى موقفه .

وقال للحكيم : « ما إخال أولئك الرجال إلا فرساناً مسيحيين ، فإن كانوا كذلك ، فم أنت خائف ؟ » .

فرد عليه الحكيم قائلاً : « خائف ! » مرددا لفظ السر كنهت باستخفاف وازدراء ، ثم قال : « إن الحكيم لا يخشى غير الله ، ولكنه أبدأ يرتقب من أشرار الرجال أسوأ ما يفعلون » .

فقال السر كنهت : « إنهم مسيحيون ، ونحن في وقت الهدنة ، فلماذا نخشى الحث في اليهود ؟ » .

فقال الحكيم : « هم جنود العبد من القساوسة الذين تحظر عليهم عهودهم أن يعرفوا مهادنة المسلمين أو الثقة فيهم ؛ أصبهم بالوباء يارسول الله جذورا وفروعا وأغصانا ! — سلمتهم حرب ، وعهودهم بهتان وزور ؛ إن غيرهم من غزاة فلسطين لهم فترات وأحوال تُشرب فيها قلوبهم بالشفقة والرحمة ؛ فرتشارد الأسد إذا ظفر عفا ، والنسر فيليب يخفض جناحه إذا أصاب الفريسة — وحتى دب النمسا إذا امتلأت بطنه أوى إلى النوم ؛ ولكن هذه العشيرة من الذئاب الجياع لا تعرف السكون ولا الشبع فيما تسلب وتغتصب — أما ترى أنهم قد فصلوا عدداً من جماعتهم ، وأنهم يسرون شرقاً ؟ هنالك ترى غلمانهم وأتباعهم الذين ينشئونهم على مبادئهم الخفية اللعينة ، والذين بعثوا بهم — لحقتهم — كي يحولوا بيننا وبين الماء ؛ ولكن والله ليوءن بالخفية والفسل ؛ أنا أعلم منهم بحرب الصحراء » .

ثم وجه إلى كبير ضباطه بضع كلمات ، وتبدل مسلكه ومحياء في الحال من الاسترخاء والوقار — وهما في الشرق من صفات الحكماء الذين تعودوا التأمل أكثر

ما تعودوا الحركة — إلى الظهور بالهمة والكبرياء — وهما من صفات الجندي الباسل يستفز نشاطه دنو الخطر يلحجه من بعيد ويستخف به .

ولكن هذا الخطر المقبل كان له في عيني السر كنه وجه آخر ، فلما أن قال له (أدبك) : « عليك أن تتمهل وتلزم أبداً جواري » أجابه بالنفي مطمئناً رابط الجأش .

وقال : « هنا لك أرى صحابي بالسلاح مدججين ، هنالك أرى رجالاً أخذت على نفسي أمامهم أن أقاتل أو أموت — وعلى رأيهم تتألق علامة خلاصنا المبارك — إنني لا أستطيع أن أفر من الصليب إلى حجة الهلال » .

فقال الحكيم : « أحمق بك من جاهل ! والله لو استطاعوا إخفاء الحنث في شروط الهدنة ، لكان أول ما يقطعون به من عمل هو أن ينزلوا بك الموت » .

فأجاب السر كنه قائلاً : « على أن آخذ لنفسي حذرهما من ذلك ، ولكنني إن استطعت أن أنزع عني قيود الكفار فلن أتكبل بها لحظة واحدة بعد ذلك » . فقال الحكيم : « إذن فانا أمرك أن تتبني » .

فأجابه السر كنه غاضباً وقال : « تأمرني ! والله لولا جميل صنعت بي ، ولولا أنك أردت بي خيراً ، ولولا أنني مدين لثقتك بحرية هاتين اليدين اللتين كان بوسعك أن تكبلهما بالأصفاد ، لولا ذلك لأريتك أن إرغامي — وإن كنت من السلاح أعزل — ليس بالأمر الهين أو اليسير » .

فأجاب الطبيب العربي وقال : « حسبك هذا وكفي ، إننا نضيع الوقت وهو نفيس » .

وما إن أتم حديثه حتى لوح بساعده في الفضاء ، وصاح صياحاً عالياً أجش ، نذيراً لمن كان في حاشيته ، ففرقوا على الفور جميعاً على صدر البادية ، وكانهم عقد انقطع حبله ، وانتثرت حياته كل منها في ناحية . ولم يكن لدى السر كنه من الوقت ما يمكنه من أن يرقب ما جرى بعده ذلك ، لأن الحكيم في تلك اللحظة عنها أمسك بزمام فرسه وأطلق لجواده العنان ، وانطلقاً معاً كالبرق الخاطف ،

وبسرعة كادت أن تسلب الفارس الاسكتلندى القدرة على الشهيق ، ولئن أراد أن يوقف قائده عن المسير لعجز كل العجز ؛ والسر كنهت مدرب على الفروسية منذ نعومة أظفاره ، ولكن أخف ما امتطى من جواد — رغم ذلك — لم يكن إلا كالسلحفاة إذا قيس بنحيل الحكيم العربى . وأثار الجوادان وراءها النقع ، وكأتهما ينهبان الفلاة نهباً ، ويطويان الفراسخ فى لحظات ، ومع ذلك فإن قوتيهما لم تفترأ ، وبقيت أنفاسهما خالصة كما كانت حينما بدءا هذا العدو العجيب . والحركة كلها ييسرها وخفتها كانت بالتحليق فى الهواء أشبه منها بالركض على الأديم ، ولم يصحبها شعور أليم اللهم إلا ذلك الرعب الذى يحس به المرء بطبيعته وهو يتحرك بسرعة فائقة ، وعسر التنفس الذى ينشأ عن شق الفضاء بسرعة الريح .

ومضى ما ينيف على الساعة بعد هذا الركض الرائع ، الذى يقصر مجهود البشرية بأسرها عن اللحاق به ، ثم أرخى الحكيم من سيره وأبطأ من خطى الخيل ، حتى بات عدوؤها محتلماً ، وشرع يحدث الاسكتلندى حديثاً طويلاً عن جدارة خيوله فى صوت هادئ مطمئن ، كأنه إنما كان يمشى على قدميه فى الساعة التى انقضت ، والاسكتلندى مقطوع الأنفاس ، أعشى البصر ، قليل السمع ، وجسمه كله فى دوار شديد من سرعة هذا العدو الشديد ، فلم يكده يفهم الكلمات التى كانت تتدفق من صاحبه تدفقاً .

قال العربى : « هذه الخيول من سلالة تعرف (بذات الجناح) تبارى بسرعتها كل شيء عدا براق النبى ، وهى تطعم شعير اليمن الذهبى ممزوجاً بالتوابل ، وقليلاً من لحم الضأن المجفف ؛ وكمن ملك بذل ما يملك ليظفر بها ، وهى فى شبيها نشيطة كما فى شبابها ، وأنت أيها النصرانى — إذا استثنينا المسلمين — أول من علا بمتنه جواداً من هذه الفصيلة الكريمة ، وهى من هدايا النبى لعلى كرم الله وجهه ، وهو قريبه وخليفته ويسمى بحق (أسد الله) ؛ هلا عرفت أن الزمن لا يمس هذه الخيول الكرام إلا مساً خفيفاً ، وأن الفرس التى تمتطى صهوتها الآن قد عمرت خمسة وعشرين عاماً وما تزال تحتفظ بقوتها وبسرعتها الفطرية ،

ولو كان عنانها في يد أكثر حنكة من يدك ، ما احتاجت في مسيرها إلى أكثر من أن يمسك الراكب بزمامها ؛ صلى الله على نبينا الكريم الذى خلع على المؤمنين وسائل يتقدمون بها ويتأخرون ، وسائل تجعل خصوصهم المتشجين بالحديد ينهكون من ثقل ما يحملون ! كم ذا نفخت خيول أولئك الأوغاد أصحاب المعبد ، وتصادت منها الأنفاس ، بعد ما جاهدت وضربت بحوافرها في رمال الصحراء كي تطوى عشر معشار ما نهبت بخطاها هذه الجياد الفوارس دون أن تنهد مرة أو تعلق ظهورها الناعمة اللساء قطرة واحدة من عرق ! » .

والآن حينما بدأ الفارس الاسكتلندى يسترد أنفاسه ، ويستجمع قوة انتباهه ، لم يسهه إلا أن يعترف في نفسه بالميزة التى يتميز بها هؤلاء المقاتلون من أهل الشرق في الركض بالخيول مهاجمين أو متراجعين ، وهى ميزة تلتئم كل الملاءم والصحارى الرملية المستوية في بلاد العرب وسوريا ؛ ولكنه لم يرد إلى أن يزيد من كبرياء ذلك المسلم بأن يقر له بما كان يزعم لنفسه من فضل ، ولذا فقد توقف عن مواصلة الحديث ، وتلفت حواليه ، واستطاع حينئذ — بعدما أبطأ وصاحبه في المسير — أن يحس بأنه إنما يشق بلادا ليست غريبة عنه .

فتخوم البحر الميت الجرداء ، ومياهه الكثيبة ، وسلسلة الجبال الشاهقة المعقدة التى كانت ترتفع إلى يساره ، والنخيل المتلاصقة التى يتألف منها المكان الوحيد الأخضر على صدر القفار الجرداء — وهى مشاهد إن وقعت عليها العين مرة لن تغيب عن الذكر أبدا — كل ذلك دل للسركنث على أنه وصاحبه كانا يقتربان من العين المعروفة باسم (درة الصحراء) ، التى التقى لديها فيما مضى بالأمر العربى شيركوه أو (الضريم) ، وبعد قليل من اللحظات أوقف الرجلان جواديهما إلى جوار العين ، ودعا الحكيم السركنث أن ينزل عن ظهر الحصان ، وأن يأوى إلى الراحة كأنه فى دار مطمئنة ، وجردا جواديهما من زماميهما ، ورأى الحكيم فى ذلك ما يكفيهما من عناية ، لأن بعضا من خيار الفرسان من عبيده سوف يقدم عما قريب ويقوم بما تقتضيه الضرورة بعد ذلك .

ثم قال وقد طرح فوق العشب قليلا من طعام : « الآن اطعم واشرب يا صاح ولا تيأس ، فالمرء قد يعلو نجمه وقد يأفل ، ولكن عقل الحكيم والجندى ينبغى أن يعلو سلطان النجم » .

وحاول الفارس الأسكتلندى أن يبين عن شكره بوداعته ولين عريكته ؛ وجاهد أن يأكل شيئا تأدبا ومجاملة ، إلا أن البون الشاسع بين موقفه حينذاك ، وموقفه حينما كان بهذا المكان من قبل رسولا من الأمراء ، وظافرا في النزال ، مرّ بخاطره مر السحاب ، واسترخت قواه البدنية من أثر الصوم والإعياء والكلال ، ففحص الحكيم نبضه السريع ، وعينه الملهية الحمراء ، ويده الحارة ، وأنفاسه المتلاحقة . وقال : « كلما سهر العقل زادت حكمته ، ولكن الجسد — وهو صنو العقل وأحسن منه مادة — يحتاج إلى معونة الراحة ؛ فلتقم يا صاح ، ولكي يصح نومك خذ جرعة من ماء ممزوجة بهذا الإكسير » .

ثم أخرج من صدره قارورة صغيرة من البلور في صندوق من الفضة المخرمة وصب قليلا من سائل قائم أسود في قدح صغير من الذهب .

ثم قال : « هذا مما أنبت الله لنا في الأرض من خيرات ، ولكن الإنسان بضعفه وبما ركب فيه من سوء كثيرا ما أحاله إلى الشر ؛ هذا الشراب قوى كنيذ النصراني ، يسدل على العين الساهرة حجاب النوم ، ويخفف العبء عن الصدر المؤود ، ولكنه إن استخدم في أغراض الاستهتار والتهتك ، فهو يفتت الأعصاب ، ويهدد القوى ، ويضعف العقل ، ويقوض الحياة من أساسها ، ولكن لا تخش أن تستغل فضائل هذا الشراب إذا دعتك الحاجة ، فالرجل الحكيم يدق نفسه بعين الجذوة التي يحرق بها الأحق خيمته » ^(١) .

فقال السر كنث : « لقد شهدت كثيرا من حذقك أيها الحكيم العاقل ، وإنى لا أجادل في نصحك » وابتلع الخدر ممزوجا بماء من العين ، ثم التف في برده وكان موثوقا برمانة سرجه ، واستلقى وفقا لإرشاد الطبيب مسترخيا في

(١) الظاهر أن الإشارة هنا إلى بعض مركبات الأفيون .

الظل يرتقب الراحة المرجوة ؛ ولم يزر عينيه الكرى أول الأمر ، وتوالت عليه سلسلة من الإحساسات اللذيذة ، لا هي إلى اليقظة ولا هي إلى النهوض ، ثم عرته بعد ذلك حال شعر فيها — ولما يزل يحس بوجوده وما صار إليه — بأنه يستطيع أن يتأمل ما مر به بغير زعر أو أسف ، بل وبطأ نينة كأنه يشهد قصة نوابه ممثلة على المسرح ، أو كأنه روح بغير جسم ينظر إلى ما عمل في ماضى حياته . ثم انتقل بخواطره من هذا الهجوع ، الذى كاد أن يفقد فيه الشعور بالماضى ، إلى المستقبل الذى كان — رغم كل ما يخيم عليه من سحب معتمة ليس وراءها من رجاء — يتألق بألوان زاهية ، ما كان لخياله الضيق المحدود — وهو فى ظرف خير من هذا الظرف — أن يبدع خيرا منها ، حتى حينما يكون الخيال فى أشد حالاته إرهافا ؛ فإن هذا الطريد الأسير ، هذا الفارس المهين ، بل هذا المحب اليائس ، الذى عقد رجاء سعادته على مدى بعيد عن مجال الأمل ، فى أيدي القدر القاسى الذى لا يشد أزره فيما يريد ، كان يرجو رجاء أكيدا أن يظفر فى وقت غير بعيد بالحرية وبعد الذكر والحب الموصول . ثم أخذت هذه الصورة الذهنية تظلم شيئا فشيئا ، وأصبحت هذه الأحلام المرحلة مهمة غامضة كأشعة الشمس تذوى ساعة الغروب ، حتى هوت أخيرا فى وهدة النسيان السحيق ؛ وبقى السر كئث مستلقيا لدى قدمى الحكيم ، ولولا أنفاسه العميقة لحسبه الرأى جسدا بغير روح ، كأن الحياة فعلا قد فارقتة .

الفصل الثالث والعشرون

وسط هذه المشاهد الموحشة

مد السحر يديه ،

يغير وجه هذه الأرض ذات السر العجيب ،

حتى تبدى ما حوالتنا من فيافي القفار

عبثاً أبدعته ترهات الأحلام .

من روايات خيالية لأستلفو

لما هب فارس النمر من هذا السبات الطويل العميق ، ألقى نفسه في بيئة تخالف تلك التي نام في أحضانها ، ولم يدر هل هو ما فتى مستغرقاً في الأحلام ، أم هل بدل السحر من بيئته ، فقد رأى نفسه بعد العشب الرطب ملقى على فراش دونه فُرُش الشرق الوثيرة ، وقد امتدت إليه خلال نعاسه يد رحيمة ، ونزعت عنه ثوب الجلد الذي كان يرتدى تحت درعه ، وألبسته عوضاً عنه رداء للنوم من الكتان الرقيق وثوباً فضفاضاً من الحرير ؛ وما كان من قبل يظلمه غير نخيل الصحراء ، أما الآن فهو يرقد في سرادق من الحرير ، يتألق بأزهى ألوان نسيج الضيق ؛ وقد انتشر حول سريره ستار خفيف من الحرير الرقيق يقي نعاسه من الحشرات التي وقع لها — مذ حل في هذه الأقاليم — فريسة دائمة لا حول له ولا طول ؛ وتلفت الفارس حواليه كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يقظ حقاً ، فكان كل ما وقع تحت بصره ينم عن سناء مخدعه وجلاله ، فقد أعد طست من السدر فضض داخله ، خفيف الحمل ، يفوح منه عبق العطور التي أُلقيت فيه ، وإلى جوار السرير على قائم صغير من الأبنوس وضع إناء من الفضة يحوى شراباً من أنقى الأصناف ، بارد كالثلج ، مذاقه بعد الظمأ الذي عقب تناول المخدر القوي شهى فائق اللذة ؛ ولكي ينفض الفارس كل أثر من آثار التمل الذي خلفه الدواء ، اعترم أن يستخدم الحمام ، وكانت له في ذلك لذة وانتعاش ، وبعد ما جفف جسده

بقطيلة من صوف الهند ، لم يكن أحب إلى نفسه من أن يعود إلى ارتداء ملبسه الخشن ، حتى يستطيع أن يخرج ويرى إن كان العالم في الخارج قد بدل وجهها غير وجهه ، كما تبدل مقر نومه ؛ ولكنه لم يعثر على هذا اللباس ، بل وجد في مكانه رداءً أعربيا من النسيج النفيس ، ومعه حسام وخنجر ، وكلها مما يليق بأمر جليل ، ولم يستطع أن يتخربص بالباحث على هذه العناية الفارطة ، ولشد ما كان يخشى أن يكون القصد من هذه الرعاية أن يترشح عن دينه وعقيدته ، فلقد كان يعرف حقا عن السلطان أنه يقدر العلم الأوروبي والبسالة الأوروبية قدرا عاليا ، فكان يكيل العطايا بغير حساب لأسراه ويفريهم بلبس العامة ، ولذا فقد رسم السر كنث علامة الصليب على نفسه متورعا خاشعا ، واعتزم أن يتحدى كل هذه الشباك والأحاويل ، ولكي يتم له ذلك تماما عقد النية عامدا على أن يفيد مما كيل له بسخاء من أسباب الترف والرفاهية بقدر يسير ، ولكنه كان يحس بدوار في رأسه ، وثقل في جفونه ، وكان يدرك أنه لا يليق به أن يظهر خارج القسطنطين وهو عار ، فاستلقى على الفراش ، وطوقه الكرى بذراعيه مرة أخرى .

ولكن نعاسه هذه المرة لم يكن متصلا ، فقد أبقظه صوت الطبيب وهو لدى مدخل القسطنطين يستفسر عن صحته ، ويسأل هل أخذ بقسط وافر من الراحة ، ثم ختم كلامه بقوله : « إنى أرى الستار مسدولا على الباب ، فهل لى أن أدخل خيمتك ؟ » .

واعتزم السر كنث أن يظهر له أن الدهشة لم تبلغ به حدا ينسيه مركزه فأجاب قائلا : « ليس السيد بحاجة إلى أن يطلب الإذن كي يلج قسطنطين العبد » . فأجاب الحكيم دون أن يدخل وقال « وهب أنى ما أتيتك سيدا ؟ » .

فقال الفارس : « للطبيب أن يدخل إلى سرير مريضه بغير قيد » .

وقال الحكيم : « وما أتيتك الآن طبيبا ، ولذا فاني ما زلت أطلب إليك الإذن قبل أن أدخل تحت خباء خيمتك » .

فأجاب السر كنث وقال : « بيت الصديق مفتوح على مصراعيه لمن جاء صديقا ، ولقد أريتني حتى الآن أنك لى صديق » .
فقال الحكيم الشرقى بأسلوب الكناية المألوف بين بنى قومه : « وهب أنى ما أتيتك صديقا ؟ » .

ولما نفذ صبر الفارس الاسكتلندى من هذه المراوغة قال : « تعال كما شئت — وكن من شئت — فإنك تعرف أنى لا أستطيع ، بل ولا أحب ، أن أمنعك عن الدخول » .

فقال الحكيم : « فإنى آتيك إذن بصفى عدوك القديم ، ولكنى الآن عادل كريم » .

ثم دخل وهو يتكلم ، ولما وقف إلى جوار سرير السر كنث بقى فى صوته « أدنبك » الطبيب العربى ، ولكن هيئته زرية وملاحه كلها كانت تدل على أنه « الضريم » الكردستانى المعروف باسم (شيركوه) ، فخدق فيه السر كنث وكأ أنه ينتظر من هذا الشبح أن يختفى كما تختفى الصورة التى يخلقها الخيال .

فقال (الضريم) : « هل يدهشك — وأنت مقاتل معروف — أن ترى جنديا يعرف شيئا من فن الشفاء ؟ اعلم أيها النصرانى أن الفارس الكامل ينبغى له أن يعرف كيف يضمد جراح جواده كما يعرف كيف يمتطى صهوة ، وأن يعرف كيف يرهف سيفه فى كور الحداد كما يعرف كيف يستخدمه فى ساحة الوغى ، وأن يعرف كيف يجلو السلاح كما يعرف كيف يمتسقه ؛ وفوق كل ذلك يجب أن يعرف كيف يشفى الجراح كما يعرف كيف يثخنها » .

وكان الفارس المسيحى يغلط عينيه بين الآونة والأخرى والعربى يتكلم ؛ ثم أغمض جفنيه ، وتمثل فى مخيلته صورة الحكيم فى ثيابه الطويلة الفضفاضة السود ، وعمامته التترية المرتفعة ، وحياه الثابت الرصين ؛ وما إن فتح عينيه حتى عرف من العمامة الرشيقة المرصعة بالجواهر ، والقميص المصنوع من حلق الحديد المجدول بالفضة ، الذى كان يتألق ويلمع كلما تريح الرجل بجسمه ، ومن الطلعة التى لم يعد بها أثر من

وقار العلم ، ومن الوجه المشرق الذى لم يعد يظلمه الشعر الكث ، (ولم يبق منه الآن سوى لحية مشدبة جميلة) عرف أن المائل أمامه هو الجندى لا الحكيم .
وقال الأمير : « أفأفتئت ذاهلاً ؟ عجباً ! كيف سرت فى هذه الدنيا ولم تلحظ أن الرجال ليسوا دائماً كما يدل عليهم ظاهرهم ! انظر إلى نفسك — هل أنت كما ينم عنك ظاهرُك ؟ » .

فصاح الفارس قائلاً : « كلا ، وحق القديس أندراوس . إن ظاهرى فى معسكر المسيحيين بأسره ظاهر الجندى الخائن ، وأنا أعرف أنى رجل مخلص رغم ذنوبى » .

فأجابه (الضريم) وقال : « والله لقد عرفتُك كذلك ، ولما كنا قد تناولنا من ملح الطعام معاً فقد رأيت أن فى ذمتى أن أنقذك من الموت والعار — ولكن هلا خبرتنى لماذا أنت ما تزال على فراشك ، أفأ تعلم أن الشمس قد ضربت فى كبد السماء ؟ أم هل الثياب التى بعثتُ إليك على ظهر ناقى لا تليق بملبسك ؟ » .
فأجابه الفارس وقال : « كلا إنها تليق بى ، ولكنى لست بها خليفاً . أعطنى ثياب الرق أيها (الضريم) النبيل أرتدها جذلاً مسروراً ، ولكنى لا أطيق ارتداء زى المقاتل الشرقى الحر ، ولبس عمامة المسلمين » .

فأجاب الأمير قائلاً : « أيها النصرانى ؛ إنكم أمة اتخذتم الرية ديدنكم حتى حق لنا أن نرتاب فيكم ؛ ألم أقل لك إن صلاح الدين لا يجب أن يدخل فى حظيرة الإسلام سوى أولئك الذين يهدهم النبى الكريم لأن يدينوا بشريعته ؟ إنما الشدة واللين كلاهما ليسا من سياسته فى نشر الدين الحنيف . استمع إلى يا صاح ! لما ارتد للأعمى بصره بمعجزة من ربه سقطت عن عينيه الغشاوة بإرادة الله — أفظن أن طبيباً من هذه الدار كان قادراً على أن يزيل الحجاب عن عيني الرجل ؟ كلا . ما كان لمثل هذا الطبيب إلا أن يعذب المريض بعدته وآلاته ، أو أن يخفف عنه بيلسمه ومنبهاته ، ولكن الضرير سوف يبق ضريراً ؛ وما أعمى البصيرة إلا كذلك ؛ إن كان بين الفرنجة من لبس العمامة واتبع شريعة الإسلام ، كى

يجنى المال الحرام فهو آثم لا ضمير له ، وهو الذى سلك طريق الغواية ، وما شقها له السلطان . وإذا ما لاقى فى الدار الآخرة جزاء نفاقه وزُج به فى أسفل سافلين ، فى جحيم تحت جحيم النصارى واليهود والسحرة وعبدة الأوثان ، وقضى عليه أن يأكل من شجرة الزقوم ، وهى شجرة طلعتها رؤوس الشياطين ، فأثمه وجزأوه فى عنقه لا فى عنق السلطان . وإذن فلتترد ما أعد لك من لباس ، ولا تداخلك ريبة أو شك ، لأنك إن سرت إلى معسكر صلاح الدين فإن زيك الوطنى يعرضك للمشقة والرقابة ، بل وللمذلة والمهانة .

فقال السر كنت مردها ألفاظ الأمير : « إن سرتُ إلى معسكر صلاح الدين ؟ واحسرتاه ! خبرنى هل أنا رجل طليق ، وهل لى أن لا أذهب حيثما شئت ؟ » . فقال الأمير : « سر أنسى شئت ، وانطلق حراً كالريح التى تلعب بالرمال فى الصحراء وتثيرها حيثما أرادت ؛ ما كان للعدو النبيل الذى تلقى مهندي ، وكاد أن ينزعه من كفى ، أن يكون لى عبداً كمن خر تحت ظباته . والله لو كان المال والسلطان يحضنانك على أن تنضم إلى أمتنا لكفلتهما لك ، ولكنى أخشى أن الرجل الذى أبى على نفسه هبات السلطان ، والسيف مشهور على رأسه ، أن لن يقبلها الآن ، وأنا أقول له إنه حر فيما يريد » .

فقال السر كنت : « أتم على نعمتك أيها الأمير النبيل ، واجتنب أن تبنى طريقاً للمثوبة يأبى على ضميرى أن أسلكها ، واسمح لى أن أعبر لك — وقد طوقتنى برفقك — عن عرفانى لهذا السخاء الكريم ، وهذا الجود الذى لست به قينا » . فأجابه الأمير (الضريم) قائلاً : « لا تقل إنك لست به قينا ، ألم يكن حديثك معى ، وما رويت لى عن الحسان اللأئى يجهلن بلاط الملك رتشارد هو مادفع بى إلى أن أسير متخفياً إلى هناك ، وأظفر بمنظر هو أروع ما رأيت ، وما سوف أرى ، إلى أن تكتحل عيناي بجلال الجنان ؟ » .

فتناوبت وجه السر كنت الحمرة مرة والشحوب أخرى ، وكأنه أحس بأن الحديث قد أخذ يضرب على وتر حساس أليم ، ثم قال : « إني لا أفهمك » .

فصاح به الأمير : « لاتفهمنى ! إن كان المنظر الذى شاهدت فى مرادق الملك رتشارد قد فاتك أن تراه ، إذن فبصرك أكل من حدّ العضب الخشبي فى يد المهرج . نعم إنك كنت إذ ذاك تحت حكم الموت ، أما أنا فوالله لو كان رأسى يسقط عن جذعى لصوبت من مقلتى لمحاتهما الأخيرة الكليّة على تلك الصور الحسناء وكلّى جبور ، ولتدحرج رأسى صوب أولئك الحور البارعات جمالا ، يلثم بشفتيه المرتعدتين أهذاب أردتيهن -- هنالك شهدت ملكة إنجلترا ، وهى بحسبها الفاتن جديرة بأن تكون ملكة على العالم بأسره — أى رقة تلك التى تشع من عينها الزرقاء ! وأى بريق ذلك الذى يتألق فى فرعها الذهبى المتهدل ! أقسمت بالرحمن ما أحسب الحوراء التى سوف تقدم لى كأس الخلود اللؤلؤى بأحق من هذى بأحر العناق » .

فقال السر كنث عابسا مقطب الجبين : « أيها العربى ، إنك تتحدث عن زوج رتشارد ملك إنجلترا ، وهى امرأة ليس للرجال أن يفكروا فيها أو يذكروها كما تذكّر النساء اللواتى تجوز حيازتهن ، وإنما يذكرونها كملكة احترامها واجب » . فقال العربى : « ناشدتك الرحمة ، والله لقد نسيت إجلالكم الخرافى الذى تحملون للنساء اللاتى تحسبونهن بالإعجاب والعبادة أقن منهن بالعشق والمواتاة ، وإنى على يقين أنك إن كنت تكنّ هذا الإجلال الرفيع لتلك المخلوقة الرقيقة الضعيفة ، التى تتم كل حركة وكل خطوة من خطاها ، وكل نظرة تنظر ، على أنها امرأة حتى الصميم ، فإن ذات الجدائل السود ، والعين التى تتم عن النبل والشرف ، جديرة منك بما لا يقل عن العبادة الخالصة ؛ وإنى لأقر حقا أن لها فى قدها وسيهاها الجليل شيئا من العفة والثبات — ولكن صدقتى أن المرأة لو أقدم عليها محب جرى ، وضاعت بها الحيلة ، لشكرت من أعماقها ذلك المحب الذى يعاملها كمخلوق فان لا إله باق » .

فقال السر كنث فى نعمة بينة الغضب : « احترم قرية قلب الأسد » . فأجاب الأمير هازئا : « أحترمها ! وحق الكعبة لو احترمتها لجعلتها عروسا لصلاح الدين » .

فصاح المسيحي وقد هب من مرقدده وقال : « إن هذا السلطان الكافر ليس قيناً بأن يلثم الأرض التي تطوَّها أدِيث بلاتناجنت بقديمها ! » .

فصاح به الأمير وقال : « ها ! ماذا تقول يا منافق ؟ » ووضع يده على مقبض خنجره ، وتألَّق جبينه كما يتألَّق النحاس البراق ، وارتجفت شفاته وخداه حتى لسَّان كل خضلة من خضلات لحيته قد أخذت تهتز وتلتوى كأنها أحست بالغضب الفطري ، ولكن الفارس الاسكتلندي ، الذي وقف في وجه الليث الغاضب رتشارد ، لم يرتع لهذا العربي الهائج ، وما هو في ثورته إلا كالنمر الحانق .

ثم واصل السر كنت حديثه وذراعه مطبوقتان ، ولا أثر للجبين في عينيه وقال : « والله طالما كانت يداي طليقتين لأقفن مدافعا عما قلت — راجلاً أو راكباً — في وجه الأحياء جميعاً ؛ وليس كثيراً على سيفي هذا العريض الكريم أن يحطم عشرين من هذه المناجل والثاقب » مشيراً إلى سيف الأمير المعقوف ، وخنجره الصغير .

فهدأت نائرة العربي والمسيحي يتكلم ، ورفع يده عن سلاحه كأن حركته الأولى لم يكن لها معنى ، ولكنه ما فتى في وطيس ثورته .

وقال : « وحق سيف النبي ياصاح ، وهو مفتاح الجنة والنار ، إن من يقول بقولك هذا لا يقيم حياته وزناً ! صدقني أن لو كانت يداك طليقتين — على حد تعبيرك — فإن مسلماً واحداً مؤمناً قد يشغلها طويلاً حتى لتود لو تكبلتا في أصفاد الحديد من جديد » .

فأجاب السر كنت قائلاً : « والله لأن أبترها بعظام اللوح خير لي من هذا » . فقال له العربي في نعم أكثر تودداً : « إذن فهذه العاطفة الرقيقة تغل يديك الآن ، وليس في غزيمي أن أطلق سراحهما ؛ لقد كنا قبل الآن متكافئين قوة وبسالة ، وربما نلتقي ثانية في ساحة النزال العادلة — ويا لعار من يفصل من خصمه قبل أخيه ! أما الآن فنحن صديقان ، وإنى لأنتظر منك العون لا شديد العبارة والتحدى » .

فأجابه الفارس مررداً عبارته : « أجل نحن صديقان » ، ثم كانت بينهما فترة من السكون ، أخذ العربي المتقد يحوب فيها الفسطاط بخطاه ، كالليث يشد هياجه ثم يثوب إلى إطفاء حرارة دمه قبل أن يستلق للراحة في عرينه ؛ أما الأوروربي — وهو أكثر من صاحبه برودة — فقد لبث في وقفته وهيئته لا يبدل منهما ، ولكنه كان — لاريب — رغم ذلك يكابد إطفاء مشاعره وقد توقدت غضبا واشتعلت على غير انتظار .

ثم قال العربي : « دعنا نفكر في هذا الأمر هادئين . إني كما تعلم طبيب ؛ ومن أراد لجرحه التئاما ينبغي له أن لا ينقبض إذا جاءه الطبيب يسبر جرحه ويضع فيه الفتيل . أما ترى أنى أوشك أن أضع إصبعي على مكن الداء ؛ أنت تحب هذه المرأة قريبة الملك رتشارد — فلتمزقن ذلك الحجاب الذى يستر خواطرك — أو إن شئت فلا تمزقه ، فإن عيني تنفذان إلى ما وراء الحجاب » .

فسكت السر كنث هنيهة ثم قال : « لقد أحبتها كما يحب الرجل رحمة ربه ، وطلبت رضاها كما يطلب الجاني غفران السماء » .

فقال العربي : « أو ما تحبها بعد ؟ »

فأجاب السر كنث قائلاً : « واحسرتاه ! إني لم أعد بحبها قيناً . بربك إلا قطعت هذا الحديث ، إن كلماتك على فؤادى كالخناجر » .

ثم استأنف (الضريم) حديثه وقال : « عفوك لحظة ، وقل لى أفلم ترج أن يشر لك هذا الحب حينما جسرت — وأنت جندى مسكين مجهول — على أن تعقد حبك بهذه الفتاة الكريمة » .

فقال الفارس : « ليس هناك حب بغير أمل ، ولكن حبي كاد أن يكون حليف اليأس ، ومثلى فى ذلك مثل الملاح الذى يريد لنفسه الحياة فيسبح ويسبح ويطوى موجاً إثر موج ، وأمام بصره شعاع من ضوء ناء يراه الفينة بعد الأخرى فيعلم أن فى الأفق مرسى ، ولكن قلبه الواهن وأطرافه المهوكة تؤكد له أنه لن يبلغه » .

فقال (الضريم) : « والآن غاص الأمل وانطفأ ذلك الضوء الفريد إلى الأبد ؟ »
فأجاب السر كنث بنغم كالصدى يصدر عن جوف أطلال القبور وقال :
« أجل إلى الأبد » .

فقال العربي : « أحسب إن كان ما ينقصك لمحة من السعادة خاطفة بعيدة
كتلك التي كانت لك من قبل ، فإن الضوء الذي عقدت به الرجاء قد يتقد ثانية ،
والأمل الذي غاص منك في لجج الأمواج قد يطفو ، وتعود أيها الفارس الكريم
إلى الاستمتاع بتغذية عواطفك الخيالية بغذاء كضياء القمر شفوفا ورقة ؛ فلئن
بقيت إلى الغد طيب الأحذوثة — كما كنت أبداً — فسوف ترى معشوقتك في
مكانة لا تقل عن مكانة بنات الأمراء ؛ سوف تراها عروس صلاح الدين المنتقا » .
فقال الأسكتلندي : « وددت لو تم ذلك ، وإذن فوالله إن لم ... » .

ثم سكت عن الكلام كرجل يخشى المفارقة في ظروف لا تسمح له بأن يثبت
بالفعل صدق ما يقول ، فابتسم العربي وعقب قائلاً : « هل أنت تتحدى السلطان
للسجال ؟ »

فأجابه السر كنث شامخاً بأنفه وقال : « ولئن تحديته فما عمامة صلاح الدين
بأولى العمام ولا خير ما طعنت برمحي » .

فقال الأمير : « أجل ، ولكنني أحسب أن السلطان قد يرى هذه وسيلة غير
عادلة ، يستهدف فيها للخطر حفظه في العروس الملكية ونهاية الحرب الضروس » .
فتألفت عينا الفارس بالخواطر التي أوحى بها إليه هذا الرأي وقال : « قد
ألاقيه في طبيعة معركة من المعارك » .

فقال (الضريم) : « لقد كان أبداً في الطبيعة ، وما كان من سجيته أن
ينصرف بجواده عن منازل جرى . ولكنني ما كنت أريد أن أحدث عن
السلطان . وموجز القول إن كان يرضيك أن تنال من الذكر ما يستحق من
يكشف عن اللص الذي سرق راية انجلترا ، فإنني أستطيع أن أرشدك إلى خير

سبيل تؤدي بك إلى القيام بهذا العمل — أعني إن أردت أن تنساق لي ؟ ولقد قال لقمان : « إن أراد الصبي أن يسير فليسترشد بمربيته ، وإن أراد الجاهل أن يفهم فعلى العاقل أن يعلمه » .

فأجابه الأسكتلندي بقوله : « وإنك لعاقل أيها (الضريم) ، عاقل رغم عروبتك ، وكريم رغم كفرك ، ولقد شهدت فيك الخلتين ، إذن فلتكن في هذا الأمر رائدى ؛ وما دمت لا تسألني شيئاً يتنافى وإخلاصى أو يناقض مسيحيتي فلاصعدن بأمرك في حينه ، افعل كما قلت ثم خذ منى حياتي بعد ذلك » .

فقال العربي : « إذن فاستمع لي ، لقد عوفي كلبك الكريم ببركة ذلك الدواء السماوى الذى يشفى الإنسان والحيوان ، وسوف يكشف لك بحكمته عن هاجميه » . فضحك الفارس وقال : « والله لقد أدركت ما تعنى ، وما كان أغباني ألا أفكر في ذلك ! »

فأردف الأمير وقال : « ولكن خبرني ، هل لك في المعسكر من الأتباع أو الخدم من يعرف الكلب ؟ »

فقال السر كنث : « لقد عزلت خادمى العجوز مريضك الذى باشرت ، والصبي الذى كان يرعاه حينما كنت أتوقع أن الموت سوف ينالني ، وأعطيته رسائل يبلغها أصدقائي في أسكتلندا ؛ ولا يألف الكلب غير هذين ؛ ولكني إن ذهبت بنفسى فأنا جد معروف ، وسيفضحنى كلامي في معسكر لعبت فيه دوراً شريفاً عدة شهور » .

فقال العربي : « سوف تتخفيان كلاكما ، ولن يعرفكما أحد حتى وإن أمعن فيكما عن كذب ؛ وصدقني أن زملاءك في السلاح ، بل وإخوتك الذين هم من لحكم ودمك ، لن يكشفوا أمرك لو استمعت لنصحي ؛ ولقد شهدتني أقوم بأمور أشد من هذه عسراً ؛ إن من يخرج الميت من ظلام ظلال الموت يسير عليه أن يسدل حجاباً من الظلمة على أعين الأحياء ؛ ولكن استمع إليّ ، إن هناك شرطاً يرتبط

بهذه الخدمة ، وذلك أن تحمل من صلاح الدين رسالة إلى قرية الملك رك (رتشارد) ،
واسمه على لساننا وشفاهنا الشرقية عسير ، كما أن جمالها في أعيننا بهيج .
فسكت السر كنت هنية قبل أن يجيب ، ولحظ العربي تردده ، فسأله إن كان
يخشى أن يؤدي هذه الرسالة .

فقال السر كنت : « كلا ، حتى وإن كان في أدائها الهلاك ؛ إنما سكت كي
أفكر إن كان يليق بشرفي أن أحمل رسالة صلاح الدين ، أو يليق بشرف السيدة
أديث أن تتسلمها من أمير مشرك » .

فقال الأمير : « بحق محمد ، وبشرف الجندي وبحرم الكعبة ، وبروح أبي
أقسم لك إن الرسالة لا تحمل بين سطورها إلا الشرف الرفيع ، والاحترام السامي ،
ووالله لتغريد البلبل أقرب إلى إفساد العش الوردي الذي يعشق من أن تسيء
كلمات السلطان إلى أذني قرية ملك انجلترا الحسنة » .

فرد عليه الفارس وقال : « إذن فسوف أحمل خطاب السلطان مخلصاً كما نرى
ولدت له عبداً — ولتعلم أنني ، فيما عدا هذا العمل الساذج وهذه الخدمة التي
سوف أقوم بها صادقاً أميناً ، أبعد الرجال قاطبة عن أن يرتقب مني السلطان وساطة
أو نصحاً في أمر هذا العشق الغريب » .

فأجابه الأمير قائلاً : « إن صلاح الدين رجل نبيل ، ولن يحفز جواداً كريماً
على أن يثب وثبة لا قبّل له بها » .

ثم قال : « تعال معي إلى فسطاطي ، وسوف أعدك في الحال بزي تنكرك به ،
وكأنه ظلام الليل الدامس لا ينفذ إلى ما وراءه أحد ، وبعدئذ تستطيع أن
تسير في معسكر النصاري وكأن على إصبعك خاتم جيوجي ^(١) » .

(١) ربما كان العربي يشير إلى جيجيز ، وجيجيز هذا من ملوك ليديا عاش في القرن
السابع قبل الميلاد ، ويعرف في القصص الخرافية بخاتمه السحري وثروته الطائلة .

الفصل الرابع والعشرون

إن خالطت كؤوسنا ذرةً من تراب ،
لفظنا الشراب عيافة
وقد كنا لرَّيه ظمأى ؛
وإذا ما جانب المسار الصدىء
إبرة الملاح — وهي دقيقة —
أمالها عن الحق ، وتحطم السفين .
وهكذا أدنى باعث للغضب والنفور
يقطع بين الأمراء حبل المودة
ويحطم فيهم أنبل الأغراض .

من « الحرب الصليبية »

لا يشك القارىء بعد هذا إلا قليلا في من كان ذلك العبد الأتوبى في حقيقته ،
ولأى غرض سعى إلى معسكر رتشارد ، ولماذا وبأى رجاء وقف على كشب من
شخص ذلك الملك الذى أحاط به أمراؤه الشجعان من الإنجليز والنورمان ، على
كشب من قلب الأسد وهو على قمة جبل سنت جورج ، وإلى جواره راية إنجلترا
يرفعها خير رجال الجيش جميعا ، أخوه الطبى ، ولیم صاحب السيف الطويل إيرل
سالزبرى سليل هنرى الثانى من محبوبته (روزامند) الشهيرة ابنة (ودستك) .

وقد دار بين الملك وثقى في اليوم السابق حديث تبين للنوبى من خلال
الكثير من عباراته ما أدخل في نفسه الشك والقلق على أن تنكره قد انكشف ،
وبخاصة حينما بدا على الملك أنه يدرك الأسلوب الذى سوف يكشف به الكلب
الوسيط عن اللص الذى سرق الراية ، وذلك رغم أن الظروف التى أدت إلى جرح
الكلب فى حادث العلم لم يكدر لها ذكر فى حضرة رتشارد ؛ ولكن الملك لبث
— رغما عن كل هذا — يعامل الرجل المعاملة التى يتطلبها مظهره ، فبقى النوبى فى
شك من اكتشاف أمره ، واعتزم أن لا يطرح زى التنكر عنه طوعا .

وإذ ذاك توالى على سفح الجبل الصغير جيوش الأمراء الصليبيين المتعددين

في خط طويل ، مصطفىين خلف زعمائهم من الملوك والأمرء ؛ وبينما كانت جنود الدول المختلفة تسير متتابعة ، تقدم زعمائهم خطوة أو خطوتين إلى أعلى التل ، وقدموا دلائل المجاملة لرتشارد وللراية الإنجليزية « إشارة إلى الاحترام والمحبة » كما جاء النص صريحا في الاتفاق الذي عقد بشأن هذا الحفل « لا إلى الخضوع أو التبعية » ؛ أما رجال الدين الروحانيون — وكانوا في تلك الأيام لا يطأطئون الرؤوس لمخلوق كائن — فقد خلعوا على رتشارد وعلى شارة زعامته بركاتهم بدلا من أن يقدموا له ولاءهم وطاعتهم .

وهكذا أخذت الصفوف الطويلة تسير ، ورغم تناقص عديدها لأسباب عدة ، كان ظاهرها ظاهر الجيش المسلح الذي ليس غزو فلسطين له إلا عملا سيرا . وكانت تسرى بين الجند روح الإحساس بوحدة القوى ، فيجلسون منتصبى القامة على سروجهم الصلبة ، وينفخون في الأبواق بأنغام طروبة . أما الخيول فبعد أن اتعشت بالراحة والعلف ، أخذت تفرك أزمتها ، وتضرب في الأرض مرحا ؛ وسار الجمع فيلقا إثر فيلق ، والأعلام تخفق والرماح تتألق ، والريش يرقص وهم يسيرون صفا صفا ؛ وكان جيشا يتألف من أمم مختلفة وبشرات متباينة ولغات عديدة وأسلحة متنوعة ومظاهر متلونة ، ولكنهم كانوا جميعا إذ ذاك يشتعلون حماسة لذلك الغرض المقدس الخيالي ، وهو إنقاذ ابنة صهيون المنكوبة من ذل الاستعباد ، وتخليص الأرض المقدسة ، التي وطأها أقدام الأنبياء ، من نير الوثنيين المنافقين . وينبئ لنا هنا أن نذكر أنه إن كان في الطاعة يقدمها إلى ملك إنجلترا — في ظرف غير هذا الظرف — مثل هذا العدد العديد من المحاربين الذين ما كان له عليهم حق الخضوع الطبعي ، نقول إنه إن كان في طاعتهم له شيء من الذلة والخنوع ، فإن طبيعة الحرب التي هم فيها وبواعثها كانت تلائم صفة الفروسية الممتازة فيه ، كما تتفق ومآثره المعروفة في القتال ، حتى إنه لو كان لأحد في وقت غير هذا أن ينازعه أو يدينه فما كان له إذ ذاك إلا أن يتناسى أسباب الإذانة والنزاع ؛ فتقدم الشجاع طوعا بالولاء إلى من هو أشجع منه في حملة يتطلب نجاحها إقداما لا يفتر ولا يلين .

وكان الملك الصالح على صهوة الجواد في منتصف الطريق إلى قمة الجبل ، وعلى رأسه خوذة مفتوحة يعلوها تاج ، وملامح الرجولة فيه بادية لعين الرائي ، وهو بنظرة ، فيها استهانة وفيها إمعان ، يطالع صفوف الجيش وهي تمر به ، ويرد للقواد التحية ؛ وقيصه من الحمل ، لونه لون السماء ، تغطيه صفائح الفضة ، وجواربه من الحرير القرمزي المحلى بالذهب ، وإلى جواره يقف الرجل الذي كان ظاهره ظاهر العبد الأتوني ممسكا الكلب النليل بمقود ، كذلك الذي كان يستخدم وفقا لقواعد الصيد في تلك العصور ؛ ولم يكن في وجود هذا الرجل ما يلفت النظر ، إذ أن كثيراً من الأمراء الصليبيين كان يستخدم الرقيق الأسود في حاشيته محاكاة لأبهة العرب الوحشية .

وكانت ثنایا العلم الكبيرة ترفرف فوق هامة الملك ، وهو ينظر إليها الفينة بعد الفينة وكأنه يرى في خفقاتها احتفاء لم يوجه إليه ، ولكنه ذو خطر لأنه كان بمثابة التكفير عن المهانة التي لحقت بالملكة التي يسود عليها . ووراء هذا كله ، على رأس الجبل وفوق قمته ، أقيم برج من الخشب لهذا الطرف كي تأوى إليه الملكة برنجاريا وكبريات سيدات البلاط ، وكان الملك يتطلع إلى هذا البرج حيناً بعد الآخر ، ثم يوجه بصره من وقت لآخر صوب النوبي والكلب كلما دنا قائد ، ممن عرف فيهم من قبل سوء الطوية فارتاب في مساهمتهم في سرقة العلم ، أو رأى فيهم القدرة على مثل هذا الجرم الوضع .

وعلى ذلك لم يرفع بصره إلى قمة الجبل حينما دنا فيليب أغسطس ملك فرنسا على رأس جنده الباهر من فرسان الغال — كلا ، بل لقد كان يرتقب مجيء ملك فرنسا فهبط من الجبل وفيليب يصعده ، حتى التقيا في منتصف الطريق ، وتبادلا التحية بلطف ، حتى إن الرائي ليحسب أن في المقابلة مساواة الإخاء ؛ وهذا المنظر ، منظر أعظم أميرين في أوروبا مرتبة وسطوة وهما يعلنان للآلأ الوثام بينهما ، دفع بالجيوش الصليبية على بعد أميال إلى أن تنفجر بهتاف كهزيم الرعد ، كما جعل كشافه الصحراء من العرب الجواله تسارع إلى معسكر صلاح الدين تنذره بزحف

جيوش المسيحيين ؛ ولكن مَنْ غير ملك الملوك يستطيع أن يعلم ما تخفى أفئدة الملوك ؟ وتحت هذا المظهر الرقيق من الملاطفة كان رتشارد يكنّ لفيليب السخط والرية ، وفيليب يفكر في الانسحاب بجنوده من جيش الصليب ، مخلفا بعده رتشارد كي يتم المشروع أو يفشل فيه بجيوشه وحدها من غير معين .

وتغيرت ملامح رتشارد حينما دنا رجال المعبد ذوو الأسلحة السوداء من فرسان وأتباع ، وهم رجال اسنارت بشرتهم حتى باتوا بسواد أهل آسيا على شبه عظيم ، وذلك من أثر الشمس في فلسطين ، وخيولهم الباهرة وأزيائهم الفاخرة تفوق كثيراً ما لخيار الجنود الفرنسية والانجليزية ؛ وحينئذ رنا الملك جانباً بنظرة عجلي ، ولكن النوبي لبث صامتا ، وقبع كلبه الأمين لدى قدميه ، يرقب بعين مستبشرة حكيمة ، تلك الصفوف التي كانت تسير تحت بصره ، ثم عرج الملك ببصره ثانية صوب رجال المعبد الفرسان حينما مر به كبيرهم واستغل صفته المزوجة — الدينية والحربية — وجبا رتشارد بيركاته كقفس بدلا من أن يقدم له الولاء كقائد من قواد الحرب .

فقال رتشارد إلى إيرل سولزبرى : « إن هذا الوغد المتصلف ، هذا الرجل المتلون يقابلني راهبا ، ولكن دعها تذهب يا (لنجسورد) ؛ لا ينبغي لنا أن نضيّع على المسيحية من أجل هذه التقاليد خدمات هؤلاء المقاتلين المدربين الذين أدخل الظفر في قلوبهم الغرور — صه يا صاح ! ها هو ذا قد أقبل خصمنا الباسل دوق النمسا ، انظر إلى صورته وهيئته يا (لنجسورد) ، وأنت أيها النوبي دع الكلب يملأ ناظريه ، وحق السماء لقد أتى نديمه معه ! » .

وحقا لقد أقبل ليوبولد يتبعه المحدث والمهرج ؛ إما لأنه تعود محبتهم ، أو لأنه — على الأرجح — أراد أن يُلمع إلى استخفافه بالحفل الذي أوشك أن ينضم إليه ، ثم تقدم إلى رتشارد وأخذ يصفر صغيراً أراد أن يدل به على قلة اكتراثه ، ولكن رزاة ملامحه كانت تم عن اكتئاب في نفسه يمازجه خوف نخوف الصبي الهارب من المدرسة وهو يقترب من أستاذه .

أقبل الدوق في حشمة ووقار ، وأدى التحية وهو كاره ، وفي عينيه التجهم والعبوس ، فهز المحدث بعصاه ، وأعلن كما يعلن الرائد أن أرشدوق النمسا ، وهو يقدم لرتشارد الخضوع والولاء ، لا ينزل عن امتيازهِ ومرتبته مرتبة الملك الأمير ، فأجابه المهرج بصوت جهورى وقال : « اللهم آمين ! » فأثار الضحك بين الواقفين . وتطلع الملك رتشارد إلى النوبى وإلى كلبه أكثر من مرة ، ولكن النوبى لم يبد حراكا ، ولم يجذب الكلب مقوده ، حتى إن رتشارد قال للعبد فى شيء من السخرية والازدراء :

« إنى لأخشى أن نجاحك فى هذا المشروع يا صاحبي الأسود — وقد أتيت بكلك يؤيدك بحكمته — لن يرفعك إلى مرتبتك بين السحرة ، ولن يزيد من حقك علينا » .

فلم يجب النوبى كعادته بأكثر من انحناء قليل .

ثم سارت بعد ذلك أمام ملك إنجلترا جنود المركز منتسرا متتابعين حسب مراحلهم ، ولكى يعرض هذا البارون القوى الماكر صفوف جيشه عرضا يبهر الأبصار ، قسمهم كتيبتين ، ووضع أخاه (انجراند) على رأس أولاهما ، وهى تتألف من أنصاره وأتباعه الذين جمعهم من أملاكه فى سوريا ، ثم جاء بنفسه يتبع أخاه على رأس فرقة بأسلة من مائتين وألف مقاتل من خفاف الفرسان الذين جمعهم أهل البندقية من أملاكهم فى دلماشيا وأسلموا قيادتهم للمركز ، وهو يرتبط بالجمهورية بروابط عدة . وكان هؤلاء المقاتلون يرتدون أزياء نصف أوروبية ، عليها كثير من سمات اللباس الشرقى ؛ كانوا يلبسون الزرد ويغطونه بجلباب من فاخر الثياب بهيج اللون ، ويلبسون السراويل الفضفاضة والأحذية القصيرة ، وعلى رؤوسهم قلنسوات مستقيمة معتدلة تشبه قلنسوات الإغريق ، ويحملون تروسا صغيرة مستديرة ، وسهاما وقسيًا وخناجر وسيوفا ، وكانوا يمتطون جيادا غنى بانتقاها وأعدت كامل الإعداد على حساب دولة البندقية ، وسيوفهم وعددهم تشبه ما يستخدمه الأتراك ، وكانوا كذلك — كهؤلاء — يضعون أقدامهم على ركابات قصيرة

ويجلسون على مقاعد مرتفعة ؛ وكان هؤلاء الجند ذوى نفع عظيم فى مناوئة الأعراب ، ولكنهم ما كانوا يقدرّون على الحرب السجال ، مثلهم فى ذلك مثل رجال الحرب فى غرب أوروبا وشمالها المدجّجين بالسلاح .

وفى طبيعة هذه الفرقة الرائعة أقبل كَنزاد فى زىّ كأزياء الجند ، ولكنه أنخر ثيابا ، حتى لقد بدا للرأى وكأنه يتألق ذهباً وفضة ، وقد علق بقلنسوته ريشة ناصعة البياض ، ووثقها بمشبك من الماس ، وهى تكاد بطولها تناطح السحاب ، وكان الجواد النبيل الذى يمسك بعنانه يقفز ويدور يمنة ويسرة ، مبدىا خفته ورشاقتة على صورة ربما كلّ منها فارس أقلّ مهارة من المراكز الذى ملك زمامه برشاقة بإحدى يديه ، ورفع بالأخرى عصاة لها من مطلق النفوذ على صفوف جيشه ما للمراكز على جواده ، ولكن سلطان المراكز على محاربيه — رغم هذا — كان ظاهرا أكثر منه حقيقة ، إذ كان يسير الهوينى إلى جواره رجل ضئيل الجسم ، يستر جسمه كله بالسواد ، أجرد اللحية والشارب ، ومظهره على الجملة وضيع زرى إذا قيس بالأبهة والعظمة التى تحيط به ؛ ولكن هذا الرجل المسن الزرى الهيئة كان أحد أولئك المندوبين الذين كانت حكومة البندقية تبعث بهم إلى المعسكرات كي يرقبوا مسلك الزعماء الذين وكلت إليهم القيادة ، ولكي ييقنوا على الغيرة ويحافظوا على نظام التجسس والرقابة اللذين تميزت بهما سياسة الجمهورية زمنًا طويلا .

وكان كَنزاد قد أخذ عن رتشارد روح الفكاهة فأحرز شيئا من رضاه ، وما إن اقترب من رتشارد حتى هبط ملك أنجلترا خطوة أو خطوتين كي يقابله ، وصاح به فى الوقت ذاته قائلاً : « ها ، أفقد أتيت أيها اللورد مراكز على رأس جندك ، وظلك — كمادته — يتبعك سواء أشرقت الشمس أو لم تشرق ! —

هل لى أن أسألك إن كانت إمرة الجند بيدك أم بيد ظلك ؟ »

فهمّ كَنزاد بالجواب وعلى شفثيه ابتسامة ، حينما أخذ رزوال ذلك الكلب النبيل ينبح نباح الهأجج المستشرى ، ثم قفز إلى الأمام ، وأفلت النوى زمام الكلب من يده ، فانطلق الكلب ووثب على جواد كَنزاد النبيل ، وأمسك بالمراكز من حلقه

وأنزله عن صهوة الجواد ، فأخذ الراكب ذو الريشة يتدحرج فوق الرمال ، وفر الحصان — وهو يرتعد — يعدو عدواً ثائراً خلال المعسكر .

فقال الملك للنوبي : « أشهد لقد أصاب كلبك الفريسة الحق فيمن أنزل ، وإني لأقسم بالقدّيس جورج إنه حيوان نبيل ! — أبعد خشيّة أن يخنق الرجل » .

فباعد النوبي ما بين الكلب وكنزاد ، ولم يتم له ذلك دون مشقة ، ووثق الكلب وما برح في حمى هياجه يناضل كي يفلت من مقوده ؛ وإذ ذاك احتشد لدى المكان جم غفير ، وبخاصّة من أتباع كنزاد وضباط جيشه الذين ما إن رأوا قائدهم مستلقياً يحدق في السماء وهو ثائر مهتاج ، حتى رفعوه وهم يضجون صاخبين ، ويقولون : « بالعبد وكلبه ومزقوها إرباً إرباً » .

ولكن صوت رتشارد علا إذ ذاك ورن رنينه وتميز واضحاً جهورياً فوق كل صياح وهتاف ، واستمع إليه الجميع وهو يقول : « من أصاب الكلب بأذى فجزأؤه الموت الزؤام ! إنعاقم الحيوان الجسور بواجبه ورأئده الحكمة التي حباها بها الله والطبيعة — أي كنزاد مركز منسراً ، تقدم ، إنك مخاتل خدّاع ، وإني أتهمك بالغدر والخيانة » .

وحينئذ أقبل كثير من القواد السوريين ، فصاح كنزاد — والغضب والفضيحة والارتباك تصارع حدة العاطفة في صوته وأسلوب كلامه — وقال : « مامعنى هذا ؟ بم تدينوننى ؟ وفيم هذه المعاملة الوضيعة ، وهذه الألفاظ التي تنطوى على اللوم والتأنيب ؟ هل هذا هو عهد الوفاق الذي جدّدته أنجلترا منذ زمن غير بعيد ؟ » فقال كبير رجال المبد في صوت كأنه ينبعث عن القبور : « هل انقلب الأمراء الصليبيون في عيني الملك رتشارد أرايب أو غزلانا يرسل الكلاب في طلب صيدها ؟ »

وقال فيليب ملك فرنسا ، وقد أقبل إذ ذاك راكباً : « لا بد أن يكون حادثاً فريداً أو إثماً مميتاً » .

وقال رئيس أساقفة صور : « خدعة من العدو » .

وقال هنرى أمير شبنانيا : « إنها مكيدة من الأعراب ، ما أجدر هذا الكلب بالإعدام وذلك العبد بالعذاب » .

فقال رتشارد : « لا يمدد أحدكم عليه يده فهو يجب الحياة ! أى كنزاد ، تقدم إن جرؤت ، وأنكر التهمة التى رماك بها هذا الألبم بغريزته النبيلة ، تهمة الأذى أصبته به ، والمهانة الدنيئة ألصقتها ببلاد الانجليز ؟ »
فقال كنزاد متعجلاً : « إني ما مسست الراية قط » .

فقال رتشارد : « إن كلماتك تفضحك يا كنزاد ! إذ أنى لك أن تعرف أن الأمر يتعلق برايتنا ؟ اللهم إلا إن كنت بالجريمة تحس ! »
فأجاب كنزاد قائلاً : « أئن أجل هذا الباعث وحسب أثرت فى المعسكر هذا الاضطراب ؟ وهل أنت تعزو إلى أمير وحليف جرمًا ربما ارتكبه آثم دنىء طمعاً فى الخيط الذهبى ^(١) ؟ أم هل أنت الآن تتهم أخاك على شهادة كلب ؟ »
وحينئذ عم بين الحشد الذعر وذاع ، حتى تدخل فيليب ملك فرنسا فى الأمر .

وقال : « أيها الأمراء النبلاء ، إنكم تتكلمون على مسمع من رجال سوف يسارعون إلى المقارعة بالسيوف إذا هم أنصتوا إلى زعمائهم وقد توترت بينهم العلائق ؛ فبالله ناشدكم أن تصرفوا جندكم إلى شكناتهم ، ثم نلتق نحن جميعاً بعد ساعة فى سرادق المجمع كي نتخذ قراراً فى هذه الحال الجديدة المضطربة » .
فقال الملك رتشارد : « إني بهذاراض ، وإن كنت أحب أن أسائل هذا الوغد وهو فى ثوبه الزاهى يتمرغ فى الرمال ، ولكن لتكن إرادة فرنسا فى ذلك إرادتنا » .

ثم تفرق الزعماء كما أشار فيليب ، كل أمير على رأس جنده ، وعلا الهتاف بالحرب من كل جانب ، ونفخ فى الأبواق ، وتردد صداها نداءً لكل هائم وكل شارد كي يتطوى تحت راية أميره ؛ وسرعان ما اضطرب الجند وسلك كل منهم

(١) يقصد الخيط الذى علقت الراية به .

سبيله نحو ثكناته خلال المعسكر ؛ وهكذا امتنع كل عمل عنيف مباشر ، إلا أن الحادث الذى وقع ترك — رغم ذلك — أثره فى كل ذهن ، وعاد الآن إلى التحامل على كبرياء رتشارد وشدة أولئك القوم الأغراب الذين هتفوا صباحا لرتشارد على أنه أجدر من يقود الجيوش ؛ أما الانجليز فلما كانوا يرون أن شرف بلادهم يتعلق بالنزاع الذى ذاع أمره بين الناس ، فقد كانوا يرمون أهل البلاد الأخرى بالغيرة من صيت انجلترا واسم مليكها ، وبالميل إلى إحاطتهما بأحط ضروب الدسائس ؛ وما أكثر الاشاعات التى انتشرت فى هذا الظرف وما أشدها اختلافا ، وكانت منها واحدة تجزم بأن الملكة وصاحباتها قد أصابهن من الضجيج ذعر شديد ، وأن واحدة منهن قد سقطت مغشيا عليها .

وفى الساعة المضروبة التأم الجمع ، وكان كتراد قد نزع عن نفسه رداءه الذى انتبهت حرمة ، وخلص بخلعه من خزيه وبلبلته اللذين غلبا عليه — رغم ذكائه وسرعة خاطره — نظراً لغرابة الحادث ومفاجأة الاتهام ، وكان الآن يرتدى ثياب الإمارة ، ودخل غرفة الاجتماع وفى ذيله أرشدوق النمسا ، وكبير رجال العبد ورهبان القديس يوحنا ، وكثير غيرهما من ذوى النفوذ الذين تظاهروا بتأييده والدفاع عن قضيته ، وكان أشد ما حفزهم إلى هذا باعث سياسى ، أو أنهم هم أنفسهم يكتنون لرتشارد عداوة شخصية .

هذا المظهر — مظهر الاتحاد فى صف كتراد — كان أبعد ما يكون عن أن يؤثر فى ملك الانجليز ؛ فلقد دخل إلى المجمع وعليه سيما الاستخفاف الذى ألف ، وهو بزيه الذى نزل به عن ظهر جواده منذ حين ، ثم رنا بنظرة فيها عدم المبالاة وشيء من الازدراء ، رعى بها الزعماء الذين اصطفوا حول كتراد يؤيدونه فى كثير من التكلف والتصنع ، وفى صريح العبارة رعى كتراد منتسرا بسرقة الراية الانجليزية وجرح الكلب الأمين الذى وقف للدفاع عنها .

فنهض كتراد للجواب بشجاعة ، وأعلن براءته من الجريمة التى رُمى بها متحديا فى ذلك — على حد قوله — الإنس والوحش والملوك والكلاب .

وتطوَّع فيليب لأن يقف في المجمع موقف التوسط والاعتدال وقال : « أى أخى ملك أنجلترا ! إن هذه التهمة شنعاء ؛ إنا لا نسمعك تتحدث بما تعرف أنت نفسك في هذا الشأن ، وإنما عقيدتك تستند إلى مسلك هذا الكلب نحو مركز منتسرا ، ولا مراء في أن كلمة الفارس والأمير ينبغي أن تنصره على نباح الكلب » . فرد عليه رتشارد وقال : « أخى المليك ، أذكر أن الله القدير الذى خلق الكلاب لتكون لنا رفقا في السراء والضراء ، قد جباها بطبع نبيل لا يحتمل الخداع ؛ إن الكلب لا ينسى صديقه ولا عدوه ، وإنه ليذكر النفع والضرر أدق الذكر ، إنه يشارك الإنسان في ذكائه دون أن يكون له في نفاقه نصيب ، وإنك لتستطيع أن ترشو الجندي ليقتل بسيفه امرأ ، أو الشاهد ليقتصب الحياة يباطل التهم ، ولكنك لا تستطيع أن تحث الكلب على أن يسيء إلى من أحسن إليه ؛ إنه صديق الإنسان ، إلا إن جلب الإنسان على نفسه عداوته ، ولا تثريب على الكلب في هذا — استر المركز بما شئت من زاهي الثياب — احجب عن العين ظاهره — بدّل من لون بشرته بالمساحيق والأصباغ — خبئه وسط مئين من الرجال — فوالله — رغم ذلك — إنى لأطرحن عنى صولجاني إن لم يميزه الكلب ويعبر عن استيائه كما شهدت اليوم ؛ وليس هذا الحادث بمجيد ، وإن يكن غريبا في بابه ، فلقد أدين من قبل القتلة واللصوص وكابدوا الموت على مثل هذا البرهان ، وقال الناس إن ليد الله في الأمر نصيب ، وجرى مثل ذلك في بلادك ذاتها يا أخى المليك ، وفي مثل هذا الظرف ، وقضى في الأمر بمبارزة الرجل والكلب ، كأنهما مدع ومدافع في قضية قتل ، وانتصر الكلب وجوزى الرجل ، واعترف بالجرم ؛ صدقتى يا أخى الملك إن خفيّ الجرائم كثيرا ما يبرزها إلى الضياء والنور شهادة حتى من الجملاد ، بله الحيوان الذى هو أدنى في حكمته الغريزية من الكلب صديق الإنسان وزميله » .

فأجابه فيليب قائلا : « أجل ، لقد وقعت هذه المبارزة يا أخى الملك ، وكان ذلك في عهد أحد أسلافنا عليهم رحمة الله ، ولكن ذلك كان في قديم الزمان ، ولا نستطيع

أن تتخذه سابقة نقيس عليها هذا الحادث ؛ وكان المتهم في ذلك الحادث رجلا من عامة الناس وضيع المرتبة ، قليل الهيبة ، ولم يكن من أسباب الاعتداء إلا عصا ، ومن أسباب الدفاع إلا سترة قصيرة من الجلد ؛ ولكن لا يسعنا أن نخط من قدر أمير ونشينه باستخدام مثل هذا السلاح الساذج ، أو نسوقه إلى عار مثل هذا النزال . فقال الملك رتشارد : « إنني ما فكرت في ذلك قط ، وإنما لصفقة خاسرة أن نخاطر بحياة الكلب العزيز في سبيل خائن ذى وجهين — كما برهن كتراد على أنه كذلك ؛ ولكن هاهو ذا قفازى ، وإني أدعوه للنزال بناء على التهمة التى وجهناها إليه ، ولا أقل من أن يكون الملك خيرا من صنو المركز » .

ولكن كتراد لم يخف إلى مجاوبة هذا التحدى الذى قذف به رتشارد وسط الجماعة ، فتوفر الوقت للملك فيليب لأن يجيب قبل أن يتحرك المركز لرفع القفاز . فقال صاحب فرنسا : « الملك أكبر من أن يكون ندا للمركز كتراد ، كما أن الكلب أقل من أن يكون له قرينا ؛ أى رتشارد يا صاحب الملك ، إن هذا لا يجوز ؛ أنت قائد حملتنا ، أنت درع المسيحية وسيفها » .

فقال الضابط البندقى : « إنى أحتج على مثل هذا النزال إلى أن يرد ملك إنجلترا الخمسين ألف بيزنط التى يدين بها للجمهورية ؛ حسبنا أنا فى خطر من خسران ديننا لو أن مديننا وقع فى أيدي المنافقين ، فكيف نزيد الطين بلة ونعرضه للموت فى هذه المنازعات تقوم بين المسيحيين من أجل الكلاب والأعلام » .

فقال وليم صاحب السيف الطويل إيرل سولزبرى : « وأنا بدورى أحتج على أخى المليك بخاطر بحياته فى مثل هذا الأمر ، وحياته مملكت لأهل إنجلترا — أى أخى النبيل ، هذا قفازك نغذه ثانية ، وسأرمى بقفازى بديلا عنه ؛ إن ابن الملك حتى وإن كان فى درعه ما يدل على أنه ليس ابنا شرعيا — ند على الأقل لهذا المركز القرد » .

وقال كتراد : « أيها الأمراء النبلاء ، إنى لا أقبل من الملك رتشارد التحدى ، لقد انتخبناه قائداً لنا فى وجه الأعراب ، وإن كان ضميره يستطيع أن يجيب

على تهمة التحرش بحليف ، واستفزازه إلى ساحة النزال على نزاع طفيف كهذا ، فإن ضميرى أنا ، على الأقل ، لا يسعه أن يحتمل التأنيب على قبولها ؛ أما فيما يخص أخاه ابن الزنا ، ولیم أف ودستك ، أو أيا غيره ممن يحتضن هذه التهمة الباطلة أو يجسر على مؤازرتها ، فإنى سوف أدفع عن شرفى ، وأثبت أن من يكيلها إن هو إلا كذاب أشر .

وقال رئيس أساقفة صور : « لقد تكلم مر كيز منتسرا كما يتكلم الرجل الكريم العاقل العادل ، وإنى أرى أن هذا الجدل قد يقف عند هذا الحد دون أن يصيب أحد الطرفين خزى أو عار » .
فقال ملك فرنسا : « أرى أن ينتهى الجدل عند هذا على شريطة أن يسحب الملك رتشارد تهمة على أنها بنيت على أساس واه » .

فأجاب قلب الأسد : « أى فيليب ملك فرنسا . إن كلمائى لن تسيء إلى ضميرى إلى هذا الحد ، لقد اتهمت كزاد هذا كلص استتر تحت جنح الليل ، وسرقشارة الشرف الإنجليزى من مكانها ، وإنى ما زلت أعتقد فيه ذلك وأتهمه بهذا ، وإذا ما حددنا للنزال يوما فلا تشكّن يا صاح فى أنى سوف أجد بطلا يؤيد دعواى ما دام كزاد لا يحب أن يلقانى ، أما أنت يا ولیم فلا ينبغى لك أن ترج بسيفك الطويل فى هذا النضال دون إذن خاص منا » .

فقال فيليب ملك فرنسا : « إن مرتبتى تجعل منى حكما فى هذا الأمر الأليم ، ولذا فإنى أحدد لكم اليوم الخامس بعد اليوم لحسم النزاع بالنزال وفقا لتقاليد الفروسية ، وعلى رتشارد ملك إنجلترا أن يأتى وبطله كمدّع ، وكزاد مر كيز منتسرا بشخصه كمدافع ، ولكنى لا أعرف أنى أجد أرضا محايدة بين بين يقوم عليها هذا الصراع ، فهى لا تنبغى أن تكون إلى جوار هذا المعسكر ، حيث يختصم الجند وينضم كل فريق إلى حزب » .

فقال رتشارد : « ما أجدرنا أن نعمد إلى كرم السلطان صلاح الدين ، فهو وإن يكن وثنيا إلا أنى لم أعرف فارسا مثله يتوفر فيه النبيل ؛ ونستطيع أن

نكل إلى عدله وكرمه أمرنا يقطع فيه ، وإني إنما أقول بهذا لأولئك الذين قد يرتابون في سوء العواقب — أما أنا فإني حيثما لقيت عدوى كان موضع اللقاء ساحة نزالي .

فقال فيليب : « ليكون ذلك ؟ سوف نخطر بهذا الأمر صلاح الدين ، وإن يكن في ذلك ما يكشف للعدو عن الروح السيئ ، روح التفرقة الذي نود أن نستره حتى عن أنفسنا إن استطعنا ؛ وأنا الآن أفض هذا الاجتماع ، وأكلفكم جميعا — بصفتم رجالا مسيحيين وفرسانا نبلاء — ألا تولدوا من هذه الحصومة الأليمة شغبا جديدا في المعسكر ، ولتركوا الأمر لعدالة الخالق خاشعين ، وتضرعوا لله أن يجعل النصر في النزال حليف الحق في أسباب الحصومة ؛ ولتكن مشيئة الله ! » .

فرددت الأصوات من كل جانب : « آمين ، آمين ! » ووسوس كبير رجال المعبد للمركز وقال : « كنزاد ، هلا طلبت إليهم أن تخلص من سلطان الكلب كما جاء في (المزامير) ؟ » .

فأجاب المركز : « أنصت يا ؟ إن بظاهر الفسطاط عفريتنا من الجن أماط عن نفسه اللثام ، وقد يأتينا نبأ من الأنباء ويخبرنا إلى أي حد أنت تؤمن بشعار هيئتكم الذي يقول : « لا تخش الأسد » .

فقال كبير رجال المعبد : « وهل تستطيع أن تقف في معمعان النزال ؟ » . فأجابه كنزاد وقال : « لا ترتب في أمري ، حقا إني ما كنت لألقى — طائعا — الحديد من رتشارد ؛ وإني لا أستحي أن أقر بأنني قد اغتبطت لخلاص من لقائه ؛ أما أخوه ابن الزنا ومن دونه جميعاً من صفوف الجيش ، فليس من بينهم رجل يتنفس أخشى لقاء » .

فعاود كبير رجال المعبد حديثه وقال : « ما أحسن هذه الثقة في نفسك ، وإذن فقد عملت مخالب هذا الكلب على تفكيك عرى عصبة الأمراء أكثر مما عمل مكرك ودهاؤك ، وأكثر مما عمل خنجر العربي (الخارجي) . ألا ترى كيف

أن فيليب — رغم السحب القائمة التي يتكلف إظهارها فوق جبينه — لا يستطيع أن يخفى ما يحس به من رضا لما لاح له من الأمل في التحلل من الحلف الذي كان على نفسه ثقيلًا ؟ انظر كيف أن هنرى صاحب شبنانيا يسم لنفسه كقدحه الوهاج الذى يحتسى فيه النبيذ ؟ وانظر إلى دوق النمسا تراه يكتف الضحك والسرور وهو يظن أن خصومته توشك أن تنال ثأرها دون أن يتعرض لخطر أو مشقة ؛ أنصتوا ، إنه يقترب — أى دوق النمسا الملكى ! ما أسوأ الظرف الذى تكون فيه هذه الشقوق فى جدر صهيون .

فأجاب الدوق قائلا : « إن كنت تعنى هذه الحرب الصليبية ، فوالله كم ووددت لو تشئت إجماعها وآب كل منا إلى وطنه آمناً مطمئناً ! — وإني لأقول بذلك واثقاً » .

فقال مركز منتسرا : « ولكن ما أشد على النفس أن تتم هذه التفرقة على يدى الملك رتشارد ، وما رضينا أن نكابد كل ما كابدنا إلا فى سبيله ، وما خضعنا له خضوع العبد لسيده إلا لىستخدم بسالته ضد خصومنا ، ولا يوجهها إلى أصدقائنا ! »

فقال الأرشدوق : « إني لا أرى أنه أكثر من غيره شجاعة بكل هذا ، وإني على يقين أن المركز النبيل لو التقى وإياه فى ساحة النزال لغلبه على أمره ، فلئن كان رجل الجزيرة يضرب بفأسه ضرباً شديداً فهو لا يحذق الطعن بالرمح ، والله ما كان أخف على نفسى من أن ألقاه بنفسى — على ما بيننا من خصومة قديمة — لو كان خير العالم المسيحي يسمح للأمرء الملوك أن ينفسوا عن أنفسهم بالنزال . وإن شئت ، أيها المركز النبيل ، نبت عنك فى هذا النزال . »

وقال كبير رجال المبد : « وأنا كذلك » .

فقال الدوق : « إذن فلتأتيا سيدى إلى فسطاطى ، وتقضيا لدى قبوله هذا النهار ، حيث نستطيع أن نتحدث فى هذا الشأن على مائدة الشراب الرقيق » .
فدخلوا إثر قوله فسطاطه .

وكان المحدث قد استغل حرите ودنا من سيدة بعد ما افرقع الجميع ،
ووقف المهرج « جوناك شوانكر » على بعد احتراماً لسيدة ، وقال لصاحبه
المحدث : « ماذا كان بين مولانا وهذه الجموع الغفيرة ؟ »
فقال المحدث : « خفف من تشوفك يا ابن التهريج ؛ لا يليق بي أن أخبرك
بمشورة مولانا » .

فقال جوناك : « لقد أخطأت يا رجل الحكمة ؛ إنما نحن كلانا خادمان
ملازمان لولئ أمرنا ، ويهم اثنائنا سواء أن نعرف أينأ أكثر به اهتماماً من أخيه ،
أصاحب الحكمة أم رجل التهريج ؟ »
فقال المحدث : « لقد قال للمركيز ولرئيس رجال المبد إنه كَلَّ من هذه
الحروب وكم يسره أن يعود إلى وطنه آمنًا » .

وقال المهرج : « ما هذا بالأمر الهام وما به من خطر ، ومن الحكمة أن
يخطر له هذا الرأي ، ولكن من الحق الشديد أن يخبر به الآخرين —
أتم حديثك » .

فقال المحدث : « ها ، ثم قال لهما بعد ذلك إن رتشارد ليس بأشد من غيره
شجاعة أو أكثر حذقا في الطعان » .

فقال شوانكر : « أشدد بهذا من حمق يا قرة عيني ، ثم ماذا ؟ »
فأجابه رجل الحكمة قائلا : « قاتل الله النسيان ؛ لقد دعاها كذلك إلى
كأس من النبيذ » .

وقال جوناك : « في هذا ظاهر من الحكمة ، وهو من فضل مشورتك ؛ ولكنه إن
أكثر من الشراب وهو الراجح — فسوف يكون ذلك من فضلي أنا — ثم ماذا ؟ » .
قال الخطيب : « ليس بعد هذا ما يستحق الذكر إلا أنه ودلو أنه حظي ببقاء
رتشارد في ساحة النزال » .

فقال جوناك : « مرحى ، مرحى ! إن هذا إلا هراء من الباطل ، وإني
لأستحي أن أظفر عن هذه السبيل ، ولكننا رغم حمقه سوف نتبعه أيها المحدث
الحكيم ، وسوف نأخذ بنصيئنا من شراب النبيذ » .

الفصل الخامس والعشرون

هذا حيود عنك تجليته قرّة عيني ،
فأأحببتك وأفرطت فيك حبا ،
إلا لأني للشرف أشد حبا وأقوى .

من شعر منتروز

لما عاد الملك رتشارد إلى سرادقه أمر أن يؤتى له بالنوبي ، فدخل الرجل يقدم آيات الاحترام التي ألف ، وانكبّ على وجهه ، ثم لبث مائلا أمام الملك كما يقف العبد يرتقب ما يأمر به سيده ؛ وربما كان من حسن طالعهِ أن القيام بواجبه كان يتطلب منه أن يغض الطرف ، فلو أنه تلقى كل مارمقه به رتشارد من نظرات حادة صوبها نحوه فترة وهو صامت ، لما كان له قِبَل باحثها .

وبعد هنيئة قال الملك : « إنك تعرف قواعد الصيد حق المعرفة ، وقد شرعت في مطاردة الفريسة حتى أوقفقتها عند حدها بجدارة كأن (ترسترم) نفسه قد علمك هذا^(١) ؛ ولكن ليس هذا كل ما في الأمر — إنما ينبغي أن نسحق الصيد مسحقا ، ما كان أحب إلى نفسي من أن أصوب رمح صيدي نحوه ، ولكن يظهر أن هناك أسبابا تحول دون ذلك ؛ إنك توشك أن تعود إلى معسكر السلطان برسالة نطلب فيها إلى عظمتهِ أن يعين مكانا على الحيات تقوم عليه أعمال الفروسية ، وأن يُجمع معنا على مشاهدتها إن شاء ؛ والآن ما أحسب — رجما بالغيب — إلا أنك واجد في ذلك المعسكر فارسا يقبل تزال هذا الخائن (منتسرا) حبا في الحق ورغبة في الزيادة من شرفه » .

فرفع النوبي بصره ، وصوبه نحو الملك وهو ينظر نظرة فيها حرارة وغيره ، ثم رفع عينيه إلى السماء يحمده الله من الأعماق حتى تألق الدمع في مقلتيهِ ، ثم طأطأ

(١) هذه أسطورة غالية تعزى إلى السر (ترسترم) الذي عرف بحبه للملكة (إيزلت) الجميلة — وقد كانت الفوائد المتعلقة بالصيد ذات خطر كبير في العصور الوسطى .

رأسه تأييدا لإرادة رتشارد ، وعاد إلى وقفته الأولى ، وقفة الخادم الخاضع .
وقال الملك : نَعَمْ هذا ؛ إنى أراك راغبا في التكرم علىّ في هذا الشأن ، وينبغى لى أن أقول إن في هذا فضل خادم مثلك ليس له لسان يجادل به أغراضنا ، أو يطلب شرحا لما اعتزمنا . لو كان مكانك خادم انجليزى لنصح لى وأصر على أن أكل بالزبال إلى رمّاح متين من أتباعى ، وهم جميعا من أخى (لنجسورد) فنازلا يتحرقون للقتال فى صفى ؛ ولو كان فرنسيا ثرثارا لحاول ألف مرة أن يعرف لماذا أنا أبحث عن بطل فى معسكر المسلمين ؛ أما أنت أيها الوسيط الصامت ، فستطيع أن تؤدى رسالتى دون أن تجادل فيها أو تفهمها ، السمع لديك طاعة .
فكان الجواب اللائق من الأتيوبى على هذا التعليق أن انحنى بجسمه وجثا إجلالا واحتراما .

وقال الملك وقد تكلم مفاجئا ومسارعا : « والآن لتكلم فى شأن آخر ، هل رأيت أديث بلانتاجنت ؟ » .

فرفع الصامت بصره كأنه يوشك أن ينبس بكلمة — بل انفرجت شفثاه عن نقى صريح — ولكن هذه المحاولة العقيمة — محاولة الكلام — تلاشت فى متممة الأبكم متممة ملتوية .

وقال الملك : « ما هذا ! والله لكأن رنين اسم العذراء الملكية ذات الجمال البارع ، ابنة عمنا الحسنة ، له من السلطان ما يكفى لأن ينطق الأبكم ؛ أى المعجزات إذن تصنع عينها بمثل هذا الرجل ! لأقومن بالتجربة يا صاحبي العبد ، ولسوف ترى هذا الجمال المصطفى من بلاطنا ، ثم تؤدى للسلطان المليك الرسالة » .

هذا والنوبى تارة ينظر نظرة فيها النشوة والسرور ، وطورا يجثو إجلالا ؛ وما إن نهض حتى وضع الملك يده ثقيلة على كتفه ، وفى رزانه رصينة استأنف الكلام وقال : « دعنى أحذرك يا رسولى الأسود من أمر واحد : لو أحسست بأن لتلك التى سترها عما قريب أثرا على نفسك شقيقا يحل عقدة لسانك — وهو ، على حد تعبير السلطان الكريم ، ينحبس الآن فى قلعة جدرانها من

العاج^(١) — لو أحسست بهذا ، فاحذر أن تبدل من نفسك هذه الكتومة نفساً أخرى ، وحذار أن تنبس في حضرتها بينت شفة ، حتى وإن استعدت قوة منطقك استعادة تدعو إلى الإعجاب ؛ إذن فصدقني لأخرجن لسانك من جذوره ولأحطمن جذره العاجية — وما أحسبها إلا صفوف أسنانك — واحداً بعد الآخر ؛ وإذن فلتلزم الصمت والحكمة .

وما إن رفع الملك قبضته القوية عن كتف النوبي ، حتى طأطأ الرجل رأسه ، ووضع يده على شفثيه إشارة صامتة إلى طاعته .

ولكن رتشارد وضع يده فوقه ثانية ثم قال : « هذا الأمر نكلفك به بصفتك مولى ؛ ولو أنك كنت فارساً ورجلاً كريماً لطلبنا إليك أن تعدنا بالصمت ، وهو من أسباب ثقتنا فيك الآن » .

فاتصّب النوبي بصلف وكبرياء ، وحدث في الملك ، ووضع يمينه على قلبه . ودعا بعد ذلك رتشارد كبير حجابيه وقال : « اذهب وهذا العبد يا ثقیل إلى فسطاط زوجنا الملكة ، وقل إننا نريد به أن يمثل وحيداً أمام ابنة عمنا أديث ، فإن لديه رسالة لها ؛ وتستطيع كذلك أن تدله إلى الطريق إن احتاج إلى إرشادك ، وإن يكن — كما رأيت — قد بات يعرف كل ما جاور معسكرنا معرفة تدعو إلى الإعجاب » . ثم واصل الملك الحديث وقال : « وأنت كذلك يا صاحبي الأتيوبي اصنع ما أنت صانع على عجل ، وعد إلى هنا بعد نصف ساعة » .

ولعب الشك في نفس النوبي المزعوم ، وظن أن الملك قد كشف أمره ، وتبع خطى ثقیل العاجية نحو فسطاط الملكة برنجاريا وهو مطرق البصر ، مطبق الذراعين وقال محدثاً نفسه : « لا مرية في أن الملك رتشارد قد كشف أمرى ، وعرف حقيقتي ولكني لا أرى رغم ذلك أن بغضه لى شديد ؛ إن كنت لم أخطئ فهم كلماته ، — ومحال أنى فعلت — فلقد أعطاني فرصة سعيدة أسترد بها شرفى على رأس هذا المركز الخداع ، الذى قرأت إثمه في عينيه الواهنتين ، وشفثيه المرتجفتين ، حينما

(١) يقصد منه وأسناؤه البيض .

وُجِّهَتْ إليه التهمة — أَى (رزوال) ، لقد خدمت صاحبك مخلصاً ، ولسوف يدفع الثمن غالياً ثأراً لك ! — ولكن ماذا عسى أن يكون الغرض من الإِذْن لى بأن أنظر إلى من يُؤسَّت من رؤيتها ثانية حياتى ؟ ولماذا وكيف يرضى بلانتاجنت المليك بأن أشهد قريبتة الإلهية ، سواء كنت رسولا من صلاح الدين المشرِك أو آتماً طريداً أقصاه عن معسكره أخيراً — وقد كان اعترافه الجرىء بحبه الذى يفخر به هو أشد ما يدعو إلى العجب من جرمه — ؟ أما أن رتشارد يرضى لها بأن تتسلم مكتوباً من محب منافق ، ومن يد رجل مثلى وضيع المرتبة ، فكلهاها أمران تصديقهما عسير ، ويناقض أحدهما الآخر . ولكن رتشارد ، إذا كان لا يندفع بثأرة نفسه ، رجل سمح كريم ونبيل حقاً ، ولسوف أجازيه على صفاته هذه وأعمل وفقاً لما يأمر به تصريحاً أو تلميحاً ، ولن أسمى فى أن أعرف أكثر مما يتكشف لى شيئاً فشيئاً دون أن أستعلم بالفضول عن شيء ؛ وإنى حقاً لمدين له بالطاعة والخضوع ، إذ أعطانى هذه الفرصة الباسلة أبرى بها شرفى الملوث ، ومهما يكن عسيراً على النفس فلسوف أرد الدين » ، ثم انتفض قلبه انتفاضة الكبرياء ، وخطر له ما يأتى ، وقال محدثاً نفسه : « إن قلب الأسد — كما يدعونه — ربما كان يقيس مشاعر الآخرين بمشاعره ؛ كيف لى هذا وأنا لم أوجه إليها كلمة حينما ناولتنى بيدها الهبة الملكية — حينما كنت لا أعد من أدنى الرجال فى أعمال الفروسية بين حماة الصليب ! كيف لى أن أدنو منها وأنا فى تنكر وضيع وفى لباس خسيس ! يا ويلتى ! إن حالى حقاً لحال العبد ، يلطخ العار شرفى ، وقد كان يوماً درعى وحمائى ! كيف لى أن أفعل ذلك ؟ إنه لا يعرف عنى إلا القليل ، ولكننى أشكره على هذه الفرصة التى قد تقرب بين قلوبنا » .

وما إن استقر به الرأى على هذا ، حتى كان وصاحبه يباب سرادق الملكة ، فأدخلهما الحراس ، بطبيعة الحال ، وخلف ثقيل النوبى فى غرفة صغيرة للانتظار كان يذكرها تمام الذكر ، ثم انسل إلى الغرفة التى كانت تستقبل الملكة فيها زائريها ، وبلغها إرادة مولاه المليك فى صوت خافت النغم يرن بالأجلال ، ويخالف

أشد المخالفة إقدام توماس دى ثو ، الذى كان له رتشارد كل شيء ، وبقية البلاط (وفيه برنجاريا ذاتها) لاشيء ، وما إن أتم إبلاغ رسالته حتى علت الأصوات بالضحك . وارتفع صوت قوى ، سرعان ما أدرك أنه صوت برنجاريا ، وقال : « وما هيئة هذا الرقيق النوبى الذى أنا سفيراً فى مثل هذه الرسالة من السلطان ؟ أليس يا ثقيل عبداً أسود الجلد ، شعره مجعد كشعر الكبش ، وأنفه أفطس ، وشفته غليظتان — أليس كذلك يا سر هنرى ، يأبها الرجل الكريم ؟ » .

وقال صوت آخر : « ولا تنس جلالتك منه عظم الساق المنحنى إلى الأمام كظبابة الأحبب العربى » .

فقالت الملكة : « بل كسهم (كيويد) إذ قد أنا فى رسالة محب عاشق . أى ثقيل يا كريم النفس ! إنك أبداً متأهب لأن تدخل السرور على قلوبنا نحن السيدات المسكينات ، اللاتى ليس لديهن إلا القليل من أسباب المرح نصرف بها ساعات الخمول ؛ ينبغى أن نرى رسول الحب هذا ، فلقد شهدت كثيراً من الأتراك والمغاربة ، ولكنى ما رأيت عبداً أسود قط » .

فقال الفارس الظريف : « إنما خلقت لأن أطيع أمر جلالتك ؛ وإنك سوف تنيلينى الخطوة لدى سيدى إن سمحت لى أن أفعل ذلك ؛ ودعنى أؤكد لجلالتك أنك سوف ترين رجلاً يخالف ما تتوقعين » .

« خير لنا هذا — هل هو أقبح مما يتصور خيالنا ، وهو مع ذلك رسول الحب المصطفى من هذا السلطان الباسل المجيد ! »

وقالت السيدة كالستا : « مولاتى صاحبة الجلالة ، هل لى أن أتوسل إليك أن تسمحى للفارس الكريم أن يذهب وهذا الرسول رأساً إلى السيدة أديث التى ينبغى له أن يوجه إليها الخطاب ؛ إننا ما كدنا ننجو من مثل هذا المزاح » .

فكررت الملكة كلمتها هازئة وقالت : « ننجو ؟ أى والله ، وقد تكونين مصيبة فى حذرِك يا كالستا ؛ ليؤد هذا النوبى — كما تسمينه — رسالته أولاً إلى ابنة عمنا — وفضلاً عن ذلك فهو أبكم ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب الفارس قائلاً : « أجل مولاتى الملكة » .

فقالت برنجاريا : « إنه للهو ملكى تتلهى به نساء الشرق ، إذ يقوم بخدماتهن رجال يستطعن أن يقلن بحضرتهم ما شئن ، وما يقدرن على رواية شئ منه ؛ أما فى معسكرنا ، فالطيور فى سمائها تحمل الأخبار ، كما يقول أسقف سنت جود » .

فقال دى شيل : « ذلك لأن جلالتك قد نسيت أنك تتكلمين داخل جدران من الوب » .

وما إن قال كلمته هذه حتى خفت الأصوات ، وبعد قليل من الهمس عاد الفارس الأنجليزى ثانية إلى الأتيوى ، وأشار له أن يتبعه ، ففعل ، وسار به ثقيل إلى سراق ضرب على بعد من سراق الملكة ، وأعد — كما يبدو — لايواء السيدة أديث وحاشيتها ، وقد تسلمت إحدى وصيفاتها القبطيات الرسالة التى حملها هنرى ثقيل ، وبعد بضع دقائق سيق النوبى إلى حضرة أديث ، وبقي ثقيل خارج الفسطاط ، وأشارت السيدة إلى الملوكة التى قدمت الرجل بالانسحاب ، ثم جثا الفارس البائس — وهو فى هذا التنكر العجيب — على إحدى ركبتيه خاضعاً خاشعاً لا بوقفته فحسب ، بل ومن صميم قلبه وفؤاده ، ورنأ يبصره نحو الأرض ، وأطبق ذراعيه فوق صدره كأنه جرم يرتقب قضاءه وقدره . وكانت أديث ترتدى الرداء عينه الذى استقبلت به الملك رتشارد ، وحجابها الطويل الشفاف يتدلى حوالىها كالظل فى ليلة من ليالى الصيف على أرض جميلة المنظر ، والحجاب يخفى بعض جمالها ويعتم بعضه الآخر الذى لا يخفيه ، وكانت تمسك بيدها مصباحاً من الفضة يتقد بسائل عبق يتلألأ حين يحترق تلالؤا غير معهود .

وما إن دنت أديث من العبد الساكن الجائى ، وأصبحت منه على قيد خطوة ، حتى صوبت الضوء على وجهه كأنها تريد أن تستشف ملامحه بدقة ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، ووضعت مصباحها بحيث يرتقى ظل وجه العبد من أحد جانبيه على

سجاف يتدلى جانبا ، وأخيراً تكلمت بصوت فيه الطمأنينة ، ولكن رنين الأسي فيه شديد .

وقالت : « أفهذا حقاً أنت فارس النمر الباسل — السر كنت الاسكتلندى الشهم — أفهذا أنت حقاً ؟ — تنكرت هذا التنكر المشين ، وأحاطت بك مئين المخاطر ؟ »

وما إن سمع الفارس نبرات صوت معشوقته ، وقد وجهت إليه الخطاب على غير انتظار ، وبنغم فيه من العطف ما يوشك أن يكون خفة ورقة ، حتى استبق الجواب إلى شفتيه ، وكاد أن يرد ويخرج على ما أمره به رتشارد وما وعد من صمت ؛ فلقد كان المنظر الذى رأى ، والصوت الذى سمع ، يكفيانه عوضاً عن رق مدى الحياة ، وأخطار يستهدف لها فى كل حين ؛ ولكنه استجمع قواه ، ولم يزد جوابه على سؤال أديث ابنة البيت الكريم عن تنهد عميق شديد الانفعال .

واستأنفت أديث حديثها وقالت : « أجل لقد أصاب حدسى ، إني عرفتك منذ ظهرت أول الأمر قريبا من المنصة التى وقفت عليها مع الملكة ، وعرفت كذلك كلبك الجسور ؛ إن كان تنكر الزى أو تغير اللون يخفى عن فتاتك خادما مخلصا أمينا ، فهي ليست سيدة مخلصة ، وليست قميئة بخدمات أمثالك من الفوارس . تكلم إذن ولا تخش أديث بلاتجنت ، فهي تعرف كيف ترفق بالفارس الكريم وهو فى محنته ، ترفق بالفارس الذى أدى واجبه وأحرز الشرف وأصاب المرمى من أجل اسمها حينما كان الخطر له حليفا — أما زلت صامتا ! أمن الخوف أو العار أنت لا تنطق ؟ ينبئ لك ألا تعرف الخوف ، أما العار فليصب أولئك الذين أساءوا إليك » .

فيئس الفارس من الإبقاء على الصمت فى مثل هذا اللقاء الممتع ، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن خزيه بغير النهد العميق ، ووضع إصبعه على شفتيه ، فتراجعت أديث كأنها مستاءة .

ثم قالت : « ما هذا ! هل أنت أبكم آسيوى فى فعالك ، كما أنت فى ردائك ؟

إني ما كنت أرتقب هذا ؛ ولربما ازدريتني لأنني اعترفت لك صراحة بأنني لحظت .
ولاءك لي واكثرثت له ، ولكن ناشدتك السماء ألا تسيء الظن بأديث من أجل
هذا ! إنها تعرف جد المعرفة الحدود التي تنحصر فيها بنات البيوت الكريمة ،
والخفر الذي يحق عليهن ، وهي تعرف متى وإلى أي حد ينبغي لتلك الحدود وذلك .
الحفر أن يفسح في المجال للاعتراف بالجميل — لرغبتها الصادقة في أن تتمكن من
إثباتك على خدماتك ، وأن تخفف من آلامك التي نالتك من جراء الإخلاص .
الذي حملته لها ، كما يفعل الفارس الكريم — لماذا تطبق ذراعيك وتضغط عليهما
بكل هذا الانفعال ؟ » ، ثم قالت وقد خطر لها خاطر اقشعر بدنها منه : « أخفا
بلغت بهم القسوة حدا يحرمك فعلا من نعمة الكلام ؟ إنك تهز رأسك ؛ لأن
كان هذا سحرا أو عنادا ، فلن أسألك بعد هذا ، وسوف أتركك تؤدي رسالتك .
كما تحب ، فإني أستطيع كذلك أن ألزم الصمت » .

فتحرك الفارس المتنكر حركة تدل على أنه يندب حاله ويستعيز من غضبها ،
وقدم لها في نفس الوقت رسالة صلاح الدين مطوية كالعادة في حرير رقيق وقماش
من ذهب ، قسستها وتصفحها بغير اكتراث ، ثم طرحها جانبا وصوبت بصرها
بعدها ثانية نحو الفارس ، وقالت بنغم خافت : « أفما تقول ولو كلمة واحدة وأنت
تؤدي الرسالة لي ؟ »

فضغط الفارس بكتفاييه على جبينه ، كأنه يشير إلى الألم الذي أحس به لأنه
لا يستطيع أن يصدع بأمرها ، ولكنها انصرفت عنه غاضبة .

وقالت : « اعزب عني ، لقد تكلمت كثيرا — بل وكثيرا جدا — إلى رجل
لا يريد أن يصرف في سبيلي كلمة واحدة جوابا علي . اعزب عني ! — وقل إن
كنت قد أسأت إليك من قبل ، فقد كفرت الآن عن إثمي ؛ فلئن كنت أنا ذلك
السبب التعس الذي هوى بك من منزلة الشرف ، فلقد نسيت في هذه المقابلة
مكانتي ، وحططت من قدر نفسي في عينيك وفي عيني » .

ثم سترت عينيها بيديها ، وبدا عليها الارتباك الشديد ، وكاد السر كنث أن .

يدنو منها ، ولكنها أشارت إليه أن يعود وقالت : « قف بعيدا ! لقد أعدت
السوء روحك لأمر جديد ! لو كنت أقل غباء ورعبا من عبد أيكم لنطقت بكلمة
شكر تواسينى بها فى حظى وعارى — لماذا تترث ؟ اعزب عني ! »
وكأن الفارس المتنكر قد وقع بصره على الرسالة عفواً إذ ذاك ، فخدق فيها
معتذراً بها عن إطالة بقاءه ، فاحتطفت الفتاة الرسالة ، وقالت بلهجة التهمك
والازدراء : « أجل لقد نسيت — إن العبد الطائع ينتظر رداً على رسالته —
ما هذا — أهى رسالة من السلطان ! »

وتصفحت فحوى الرسالة على عجل ، وكانت مكتوبة بالعربية والفرنسية ، وما إن
فرغت من قراءتها حتى ضحكت ضحك الغضب المرير .

ثم قالت : « إن هذا لفوق ما يبلغ الخيال ! ما أظن أن هناك مشعوذاً يستطيع
أن يرينا مثل هذه الألاعيب الحاذقة ! قد يستطيع بحيلته أن يحيل نقد تركيا
ويزنطة إلى نقد هولندا وأسبانيا ، ولكنه لا يستطيع بفنه أن يقلب الفارس
المسيحي — الذى كان أبداً موضع التقدير بين أشجع الشجعان فى الحرب الصليبية
المقدسة — إلى عبد يلثم الأديم للسلطان المشرك ، وإلى رجل يحمل الخطبة من
مسلم وقح إلى فتاة مسيحية ؛ كلا بل وينسى قواعد الفروسية الشريفة وقواعد
الدين ! ولكن ماذا عسى أن يجدى الحديث مع عبد مخلص لكذب مشرك ؟ قل
لمولاك ، حينما يحل بسوطه عقدة لسانك ، ما رأيتنى أفعل » — وما إن أتمت
حديثها هذا حتى رمت برسالة السلطان فوق الأرض ، وداستها بقدميها ثم قالت :
« وقل له إن أدبى بلانتاجت تزدري ولاء مسلم لم يعتنق دين المسيح » .

وأوشكت بعد هذه الكلمات أن تنطلق من الفارس ، ولكنه جثا لدى
قدميها ، وهو يعانى صرارة الألم ، ثم استجمع جرائه ، ووضع يده على ثوبها معترضاً
رحيلها عنه .

فقال : وقد التفتت إليه التفاتة يسيرة ، وتكلمت بلهجة التأكيد « أفلم
تسمع ماقلت لك أيها العبد الغبي ؟ قل للسلطان المتأفق مولاك إنى أزدري خطبته ،

كما أحتقر انكباب رجل زرى خرج على الدين والفروسية — ارتدّ عن الله وعن
حبية قلبه ! » — .

وما إن فرغت من كلامها حتى فصلت عنه وتمزق ثوبها من قبضته ، ثم
خلفت الفسقاط .

وأنشد علا صوت ثقیل من الخارج يستدعى صاحبه ، فخرج الفارس البأس
وتبع البارون الأنجلیزی ، وهو يتعثر في مشيته منهوكا مسترخيا من المحنة التي كابد
عناءها خلال المقابلة التي ما خلص منها إلا بعد أن حث في العهد الذي أخذ على
نفسه أمام الملك رتشارد ، وهكذا سار الرجلان معاً حتى بلغا السرادق الملكي ،
وكانت أمامه جماعة من الخيالة نزلت عن ظهور الجياد ، وكان داخل الفسقاط
ضياء وحركة ، ولما دخل ثقیل وتابعه المتنكر ألفيا الملك وكثيراً من النبلاء
مشتغلين بالترحيب بالقادمين .

الفصل السادس والعشرون

« لأذرفن الدمع دهر الداهرين ،

فإني ما أبكي عاشقاً غائباً ؛

فقد يعيد الزمن ساعات الهناء ،

ويلتقي بعد الفراق العاشقان .

وما أبكي الموتي الصامتين ؛

فقد انقضت آلامهم ، وانتهت أحزانهم ،

وسوف يتبعهم من أحب خطاهم ،

ويجمعهم الموت ، وما بعده من فراق . »

ولكنها بكت شرا من الفراق وشرا من الموت ،

بكت في حبيبها ذكراً ملطخاً ،

وبكت في الجندي اسمه الجريح ،

وكرم أرومتها يشعلها ناراً موقدة .

من أغنية شمية

علا صوت رتشارد الجمهوري الصريح وهو يحيي القادمين مستبشراً مسروراً ،

ويقول : « أي توماس دي فو ! يا توم جاز البدين ! أقسم برأس الملك هنري إنك

لرغيب إلى نفسي كقدح النبيذ إلى مدمن الخمر المرح ! والله ما كان لي أن أعرف

كيف أرتدى زى القتال إلا إن كان جسمك البدين ماثلاً أمام عيني أسترشد به

في تنسيق هندامى ؛ وسوف نقتل عما قريب يا توماس إن جانا القديسون بالرضا ،

ولن يتم القتال في غيبتك إلا إن كنت معلقاً بشجر السيسبان . »

فقال توماس دي فو : « إذن لاحتملتُ الفشل بجلد المسيحي أكثر مما

أحتمل لو أنى مت ميتة المارق عن دينه ، ولكنى أشكر جلالتك على ترحيبك بي ،

وقد أسرفت فيه إكراماً لأنى أتيتك بشأن النزال - وأنت متأهب أبداً لأن

تأخذ فيه بأكبر نصيب . ولكنى أتيتك برجل أعرف أن جلالتك سوف توليه

ترحيباً أحر مما أوليتني . »

وتقدم للخضوع إلى رتشارد رجل صغير السن ، قصير القامة نحيل القوام ، متواضع في زيه ، لا تؤثر في الرائي بزته ، ولكنه يلبس على قلنسوته مشبكاً من الذهب ، وجوهرة لا يباريها بريقاً إلا تألق العين التي كانت تظلمها القلنسوة ، وتلك العين كانت الملمح الوحيد الذي يلفت النظر في طلعه ؛ وما إن رآها الناظر مرة حتى أثرت فيه تأثيراً قوياً متواصلاً ؛ وكان يتعلق برقبته وشاح من الحرير في زرقه السماء ، عليه مفتاح من الذهب الخالص لإحكام النغم على القيثارة .

وكاد الرجل أن يجثو على ركبتيه إجلالاً لرتشارد لولا أن رفعه الملك بعجلة وبشر ، وضمه إلى صدره بحرارة وقبله في وجنتيه .

وصاح مسروراً : « مرحباً (يلندل دي نزل) الذي أتانا من قبرص ، مرحباً بملك المنشدين ! على الرحب والسعة عند ملك إنجلترا الذي لا يرفع كرامته الشخصية فوق كرامتك . لقد أصابني المرض يارجل ، وبروحى ما كان مرضى إلا افتقارك ؛ فوالله لو أنى كنت في منتصف الطريق إلى أبواب السماء ، لردتني إلى الأرض أصوات أنعامك — والآن ما وراءك من بلد القيثارة يا سيدى الكريم ؟ هل من جديد عن منشدى بروفس ؟ هل من نبأ عن المغنين في بلد النورماندى الطروب ؟ وفوق هذا وذاك — خبرنى هل كان وراءك ما يشغلك ؟ — ولكن لا حاجة بى إلى سؤالك — إنك لا تستطيع أن تلبث خاملاً حتى إن أردت — إن صفاتك النبيلة كالنار ، تحترق في أحشائك وتكرهك على أن تخرجها من بين جنبيك غناء وموسيقى » .

فأجاب بلندل الشهير قائلاً : « هذا شيء تعلمته فقلته أيها الملك النبيل » . وتراجع تواضعاً ولم يستطع رتشارد — بكل حماسه — وإعجابه بمحذقه ، أن يزيل عنه الحياء .

وقال الملك : « سوف نستمع إليك أيها الرجل — لنصغين إليك الآن » ثم لس كتف بلندل برفق وقال : « ذلك إن لم تسكن متعباً من السفر ، وإلا فوالله

إنه لأحب إلى نفسي أن أمتطي صهوة جوادى وأسير نحو الموت من أن أؤذى
نعمة من نعمات صوتك » .

فرد عليه بلندل وقال : « صوتى — كما كان أبداً يا مولاي المليك — فى
خدمتك » ثم لمح بضعة أوراق على المائدة وقال : « ولكن يبدو لى أن جلالتك
مشتغل بما هو أهم ، ونحن فى ساعة متأخرة من النهار » .

« كلا يارجل ، كلا يا عزيزى بلندل ؛ إنما كنت أرسم زيا للقتال أرتديه حين
الاق الأعراب ، ولن يشغلنى هذا أكثر من لحظة قصيرة ، وسوف لا يستغرق
أكثر مما تستغرق هزيمتهم » .

وقال توماس دى ثو : « ولكنى أظن أنه كان من اللائق بجلالتك أن تستعلم
كذلك عن الجند الذين سوف تعدهم معك ، لقد أتيت نبأ فى هذا الشأن
من عسقلان » .

فقال الملك : « والله يا توماس إنك لمار ، حمار فى غبائك وعنادك ! تعالوا
أيها النبلاء — افسحوا جميعا ، افسحوا ! التفوا حوله — أعطوا بلندل هذا
المقعد — أين حامل قيثاره ! أو — مهلا — أعيروه قيثارتى ، فلربما أتلف
السفر قيثارته » .

وقال توماس دى ثو : « وددت لو أن جلالتك استمعت إلى نبئى ؛ لقد
سافرت على مطيتى طويلا ، وأنا الآن إلى الفراش أشوق منى إلى العبث بأذنى » .
قال الملك : العبث بأذنيك ! إن هذا إنما يكون بريش الدجاج لا بحلو النعم ،
استمع إلى يا توماس ، هل تفرق أذنك بين غناء بلندل ونهيق الحمار ؟ » .

فأجابه توماس قائلا : « حقا مولاي أنى لا أستطيع الجواب ، ولكننا إن
أبعدنا عن دائرة الحديث بلندل ، وهو رجل كريم المولد وذو صفات عالية بغير
مراء ، فإنى من أجل صالح جلالتك لن أنظر إلى منشدا إلا وكأنى أنظر إلى حمار » .
فقال رتشارد : « أفما كان من أدب اللياقة أن تستثنيى ، وأنا رجل كريم المولد
كبلندل ، وزميل مثله فى نقابة المطربين ؟ » .

فأجابه دى فو باسمًا وقال : « لنذكر جلالتك أنه من العيب أن تتطلب آداب اللياقة من حمار » .

فقال الملك : « لقد أصبت القول ، وإنك لحيوان زرى الهيئة . ولكن تعال هنا يا سيدي الحمار ، واطرح عنك عبئك حتى تستطيع أن تأوى إلى مخدعك دون أن نضيع في سبيلك شيئًا من الموسيقى ؛ وأنت ، أخى صاحب سولزبرى ، إلى أن ينتهى دى فو من ذلك ، اذهب إلى فسطاط مليكتنا وقل لها إن بلندل قد أتانا وجعبته مفعمة بأحدث الأغاني ، ومررها أن تأتى توا إلى هنا ، وقم على حراستها ، ولا حظ أن ابنة عمنا أدبث بلا تاجنت لا تتخلف عن الحضور » .
ثم رنا النبى هنيهة بنظره ، وفى محياه معنى الشك والارتباب ، الذى يبدو على ملامحه عادة حيناً يرمقه .

وقال : « أو قد عاد رسولنا الصامت الكتوم ؟ قف أيها العبد وراء ظهر دى ثريل ، وسوف تطرق أذنيك عما قريب أنغام تحمد الله من أجلها على أنه قد أصابك بالكم لا بالصمم » .

وما إن أتم حديثه حتى أشاح عن بقية الجماعة ، وقصد دى فو ، واسترسل معه فى الحين عن دقائق الشؤون العسكرية التى عرضها عليه هذا البارون .

وحينما أوشك اللورد جلزلاند أن ينتهى من حديثه ، دخل رسول يعلن أن الملكة ووصيفاتها دانيات من السراق المكي — فقال الملك : « هيا ، وآتوني بقدر من النبيذ ! آتوني بقدر الملك إسحق القديم ، ملك قبرص ، الذى عاش طويلا فى أمن وطمأنينة ، ذلك القدر الذى غنمناه حين اقتحمنا (نجمستا) ؛ املاؤا السكاس للورد جلزلاند البدين يا كرام الرجال ؛ تالله ما أحرز أمير خادما مثله أشد عناية وأكثر إخلاصا » .

وقال توماس دى فو : « يسرنى أن جلالتك قد ألفت فى الحمار عبدا نافعا ، وإن يكن صوته أقل فى موسيقاه من أنغام الأسلاك وشعر الخيل » .

فقال رتشارد : « ماذا تقول ؟ أفلم تقبل هذه النكتة عن الحمار ؟ إذن فلتمحمها

« يار جل بكأس مفعمة حتى حافتها ، وإلا غصصت بها . عجباً ! أجل — لقد أجدت الاحتساء ! والآن استمع إلى ، إنك جندى مثلى ، وينبئ لنا أن نطيق ما بيننا من نكات فى الإيوان كما نطيق الضراب فى المباراة ، وأن نوثق ما بين قلوبنا من محبة كلما احتدم النزال ؛ تالله إن لم تردّ على نكاتى بمثل الشدة التى ضربتك بها حينما التقينا أخيراً ، إذن فلقد أسلمت كل ما بك من فطنة للطعان ؛ ولكن هنا الفارق بينك وبين بلندل ، ما أنت إلا زميل — بل تلميذى — فى فن القتال ، أما بلندل فأستاذى فى فنون الغناء والموسيقى ؛ فلك أسمع بحريه الإخاء الحميم ، أماله فعلى الاحترام ، لأنه أرفع منى منزلة فى فنه . تعال يار جل ، ولا تكن ضجورا ، والبلث واستمع إلى جذلنا وجبورنا » .

فقال لورد جزلاند : « إن كان لا بد أن أشهد جلالتك وأنت فى نشوتك ، فوالله لألبثن حتى يسرد بلندل قصة الملك آرثر الخيالية بأسرها ، وهى تستغرق ثلاثة أيام » .

فقال الملك : « كلا ، إننا لن نحمّلك مالا تطيق عليه صبراً ؛ ولكن انظر ، هنالك ترى وميض المشاعل خارج السرادق إيذاناً بمقدم مليكتنا — اخرج أيها الرجل واستقبلها ، وأصب لنفسك الرضا فى أشد العيون بريقا فى العالم المسيحى طرا — كلا ، لا تترث حتى تحكم عباءتك ؛ انظر ! لقد سمحت لنفيل أن يحول بينك وبين أداء واجبك ! » .

ولم يرق لدى ثو أن يسبقه كبير الحجاب — وهو (نفيل) أوفر منه نشاطا — فقال : « إنه لم يسبقنى قط فى ميدان القتال » .

فقال الملك : « كلا ، هنالك لم يسبقك لا هو ولا أحد غيره يا أخى العزيز توم جلز ، اللهم إلا أنا بين الحين والآخر » .

فأجاب دى ثو وقال : « أجل مولاي ، ودعنا لا نغمط التعساء حقهم ؛ لقد سبقنى كذلك مرة فارس النمر الشقى ، لأنه خفيف على ظهر الجواد ، ولذا ... » . فعارضه الملك بصيغة الجزم وقال : « صه ! لا تذكره بكلمة واحدة ! » ثم

تقدم في الحال لتحية زوجه الملكة ؛ وبعدما فعل ذلك ، قدم إليها (بلندل) باعتباره ملك الغناء وأستأذه في فن اللهو والمرح ، وكانت برنجاريا تعلم جيداً أن عشق زوجها الملك للشعر والموسيقى يكاد يوازي حبه للشهرة الحربية ، وأن بلندل هو عزيزه الحميم ، فعنيت واهتمت بلقائه لقاء فيه من الملق والإطراء ما يليق برجل يسر الملك أن يعلو شأنه ، ورد بلندل بما يليق على ما أمطرته به صاحبة الجمال الملكي من وابل الثناء ؛ ولكنه لا مرء في أنه تلقى التحية الساذجة النبيلة من أديث بإجلال من الأعماق ، وبالشكر والامتنال ، وبدا له أن ترحيبها الرقيق ربما كان خالصاً رغم إيجازه وبساطته .

وكانت الملكة وزوجها الملك كلاهما يعلمان بهذه التفرقة ، ولما رأى رتشارد أن زوجه قد أغضبها ما خُصت به ابنة عمه من فضل ، لم يرض عنه هو نفسه كثيراً قال على مسمع منهما : « نحن المنشدين ، يا برنجاريا ، كما ترين من مسلك أستاذنا بلندل ، نحترم الحكم الصارم كقريبتنا هذه أكثر مما نحترم صديقاً متميزاً رقيقاً مثلك ، يطيب له أن يسلم بقدرنا جدلاً » .

فثارت نفس أديث لهذا التهمك من قريبها المليك ، وترددت في الجواب ، ولكنها قالت : « ما حكى الصارم الجازم بالصفة التي أتصف بها وحدي من بين أبناء بلانتاجنت جميعاً » .

وأديث فتاة عليها مسحة من مزاج ذلك الليث الذي يشتق اسمه وشعاره من عشب وضيع^(١) زعموا أنه شارة الذلة والخضوع ، ولكنه من البيوتات الشديدة الأنفة ، الشائخة ، التي حكمت أنجلترا ، ولذا فلربما تفوهت بأكثر مما قالت ، لولا أن عينيها — وهي تتقد في جوابها — التقتا بغتة بعيني النبوي رغم محاولته التخفي وراء النبلاء الحاضرين ، فارتعت على مقعد ، وشحب لونها شحوباً اضطر الملكة أن تطلب الماء والمطور ، وأن تقوم بغير ذلك من الشعائر التي تليق بسيدة سقطت

(١) (بلانتاجنت) عشب تصنع منه الكناس .

مغشياً عليها ؛ أما رتشارد ، فكان يقدر قوى أدب العقلية خيراً من ذلك ، فأومأ إلى بلندل أن يعود إلى مقعده ويشرع في النشيد ، معلناً أن الغناء خير من كل دواء آخر لإعادة الرجل أو المرأة من بيت بلانتاجنت إلى الحياة — ثم قال : « غننا أنشودة (الثوب الدامي) التي حدثتني عنها مرة قبل أن أغادر قبرص ، ولا بد وأن تكون الآن قد بلغت بها حد الإيقان ، أو انكسرت قوسك — كما يقول العامة — » .

ولكن عيني النشد الشفيقتين اتجهتا نحو أدب ، ولم يطع أوامر الملك المتكررة إلا بعد أن رآها تسترد احمرار خديها ، فأخذ حينئذ يتغنى — وكأنه يتلو قصة محفوظة — بإحدى مغامرات الحب والفروسية القديمة التي كانت أبداً في قديم الزمان تملك على الناس قلوبهم ، وحبب صوته بالضرب على القيثارة ضرباً يحلو معه معنى النشيد ولا يغيض الصوت . وما إن شرع في الديباجة حتى اختفى عن الرائي ظاهره الزرى ، وتألفت ملامحه بالنشاط والوحى ، وأطرب الآذان والقلوب بصوته العريض المسترجل اللين الذي كان مشبعاً كل التشعب بالدوق الرفيع ، فابتهج رتشارد وتهلل كما تهلل بعد النصر ، ونادى بالصمت نداء يليق بالمقام وقال : « أنصتوا يا كرام القوم في المخادع والأبهاء »

وبحسب الحامى للفن والمتلمذ فيه صف الحاضرين في دائرة ، وألزمهم الصمت وأسكتهم ، وجلس هو نفسه وعلى محياه أمارات التسمع واللذة ممزوجة ببعض الشيء برزاة الناقد الفنى ، وحول رجال البلاط أبصارهم نحو الملك حتى يكونوا على استعداد لتقنى ما قد يبدو على ملامحه من عواطف ثم محاكاته ، وتشاءب توماس دى فو طويلاً كأنه يستسلم — كارها — لكفارة شاقة ، وكانت أنشودة بلندل بطبيعة الحال باللسان النورماندى ، ولكننا فيما يلي نعرّبها معنى وأسلوباً .

الثوب الدامى

على مقربة من مدينة ، (بَنَفْتُ) الجميلة ،
والشمس تغيب فوق الأغصان والشنايا ،
والفوارس تتأهب فى المخادع والخيام
ليلة الاستباق إلى العاد ،
حينما أرسلت الأميرة غلاماً فتياً
يلبس حرير « لنكن » الأخضر اللامع ،
ويحكى بزيه الحاجب ،
فجاس خلال الخيام
باحثاً أنى سار عن الإنجليزى « توماس بن كنت »

فأمن فى الرحيل ، وسيمعن ويمعن ،
حتى يجد سرادقه ، وما هو بذى أمهة أو سناء —
وما هناك سوى الصلب والحديد إلا القليل ،
والفارس الكريم لا يملك المال يستأجر به صانع السلاح
كى يعنى له بسلاحه ؛

فبساعدين مفتولين ، إلى الكتفين عاريتين ،
انكب يصلح بالطرقة والمسلح
زردها سوف يراه الغد وهو يرتديه
إجلالا « لسنن چون » ولحبوبته الحسناء .

قال الرسول ، وأحنى له الفارس رأسه وركبته ،
« هذا ما تقول سيدتى : هى أميرة بنفنت عالية المقام ،

وأنت وضيع كأُضع الفرسان ؛
من يتسلق مثل هذه الشجرة العالية ،
أو يثب فوق مثل هذا الحاجز يفصل ما بينها وبينك ،
ينبغي أن يخاطر بعمل جليل
حتى يرى أطاعه الناس جميعاً
تؤيدها الفروسية العليا .

وقال الحاجب ، والفارس خافض الرأس واليدين ،
« ولذا هذا ما تقول سيدتى :
ألق عنك السلاح الكريم الذى ترتدى ،
والبس هذا العشب من رداؤها بديلاً عنه ،
واستعض بثوبها الخيطى زرد الحديد ،
واخرج بهذا الزى إلى فزع السجال .
وقاتل كما ألفت حيث تجرى أكثر الدماء ،
وعد بالشرف أو البث مع الموقى . »

ثم بدا على الفارس فى حياه الجزع ،
وما لعب فى صدره القلق ،
والعشب استلم ، وباجلال ثم : —
« بارك الله فى ذا الزمن ، وبارك الله فى ذا الرسول !
ما أراى إن صدعت بأمر سيدتى العالى إلا عظيم الشرف ؛
قل لسيدتى إنى بهذا اللباس العزيز
لن أضن بشجاعى على خير الأبطال المسلحين ؛
ولكنى إن حيت ، وأجدت القتال ،

فعليها تدور الدائرة وتؤدي الاختبار . «
وهنا ، كرام الرجال ، ينتهى من أنشودة الثوب الدامى نصفها الأول .

فقال الملك : « لقد غيرت لنا وزن النشيد فى البيت الأخير يا عزيزى بلندل ونحن غافلون ! » .

فقال بلندل : « حقاً مولاي ، فلقد نقلت الأبيات عن الإيطالية ، وكنت سمعتها من رجل هرم يضرب على القيثارة لاقيته فى قبرص ، ولما كنت لا أجد من الوقت ما يكفى لنقلها نقلاً صحيحاً ، أو لحفظها عن ظهر قلب ، فإني أكتفى بأن أسد ما فى الموسيقى والنظم من عجز بداهة على قدر ما أستطيع ، كما ترى أهل الريف وهم يصلحون بالحطب السياج على عجل » .

فقال الملك : « كلا وربى ، إني لأحب هذه الأبيات الطويلة ذات الرنين ، وأرى أنها أكثر ائتلافاً مع نغم الموسيقى من الأبيات القصيرة » .

فأجابه بلندل قائلاً : « لنا فى كليهما حرية الوزن كما تعرف جلالتك جيداً » .
فقال رتشارد : « أجل إنهما لكذلك يا بلندل ، ولكنى أظن رغم هذا أن المنظر — إذا كان فيه احتمال القتال — يتسق خيراً تساق مع البحر الطويل والأبيات الرنانة التى لها جرس كإطلاق الفرسان ؛ أما الوزن الآخر فليس إلا كسير خيول الأناس ليناً وانحرافاً » .

فرد عليه بلندل وقال : « لتكن إرادة جلالتك » وشرع يقدم للنشيد من جديد .

وقال الملك : « أجل ، ولكن هلا أرهفت خيالك أولاً بقدح من نبيذ (كيوس) ؛ أصغ إلى ، إني أريدك أن تطرح عنك هذه القيود الجديدة التى كبلت بها نفسك ، وهى انتهاؤك بقواف متشابهة محكمة ، فما هى إلا قيود لخيالك المتدفق تجعلك أشبه برجل يرقص فى الأصفاة » .

فقال بلندل : « إن الأصفاة تيسر على الأقل نزعها » ، وشرع يجيل أصابعه ثانية بين الأوتار كأن العزف أحب إليه من النقد .

وواصل الملك كلامه وقال : « لَمْ تَكْبَلْ نَفْسَكَ بِهَا يَا رَجُلٌ ؟ لَمْ تَرَى
بَنُيُوعًا فِي سِوَارٍ مِنْ حَدِيدٍ ؟ إِنْى لَأَعْجَبُ لَكَ كَيْفَ تَقَدَّمْتُ ، وَإِنْى عَلَى يَقِينٍ أَنِّى
مَا كُنْتُ بِمُسْتَطِيعٍ أَنْ أُنْشِدَ بَيْتًا وَاحِدًا فِي هَذَا الْبَحْرِ الْمَقِيدِ » .

فَحَسِرَ بَلَنْدَلُ بَصْرَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِأَوْتَارِ قِيثَارَتِهِ كَيْ يَخْفَى بِسَمَةِ ارْتَسَمَتْ عَلَى طَلْعَتِهِ
رَغْمًا عَنْهُ ، وَلَكِنْهَا لَمْ تَغِبْ عَنْ عَيْنِ رَتْشَارْدِ .

فَقَالَ : « أَقْسَمُ يَا بَلَنْدَلُ أَنَّكَ لَتَضْحَكُ مِنِّى ، وَحَقًّا إِنَّ كُلَّ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ
أُسْتَاذٌ — وَهُوَ لَمْ يَزَلْ تَلْمِيزًا — لَقَمِينَ بِالسَّخَرِيَّةِ . وَلَكِنَّا نَحْنُ الْمُلُوكُ نَكْتَسِبُ
حَسَنَ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ ، وَهِيَ عَادَةٌ ذَمِيمَةٌ . هِيا ، وَشَنَفْ آذَانَنَا بِغَنَائِكَ يَا عَزِيزِى
بَلَنْدَلُ ، وَغَنَّا كَمَا شِئْتُ ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا نَقْتَرِحُ ، وَإِنْ يَكُنْ لَا بَدَ لَنَا مِنَ التَّعْلِيقِ » .
فَعَاوَدَ بَلَنْدَلُ الْغَنَاءَ ، وَلَمَّا كَانَ يَأْلَفُ ارْتِجَالَ النِّشِيدِ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْجِزْ عَنْ أَنْ
يَنْصَاعَ لَهَا أَشَارَ بِهِ الْمَلِكُ ، وَرَبَّمَا سَرَهُ أَنْ يَبِينَ السَّهُولَةَ الَّتِى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتِفِ بِهَا
الْقَصِيدُ مِنْ جَدِيدٍ حَتَّى وَهُوَ يَلْقِيهِ .

الشوب الدامى

النصف الثانى

شهد صباح العمد الجميلُ جليلُ الفعال —
فكان اكتساب للشرف ، وكان ضياع للمنازل ،
وكان ضرب بالسيوف ، وكان قرع بالعصى ،
وأحرز الظافرون مجداً ، وفاز بالقبور المنهزم .
كم من فارس استبسل وأجاد القتال ،
ولكن واحداً من بين أقرانه برز وبرع ،
وذلك من لم يكن على جسمه وصدرة درع
سوى قميص فتاة ترتديه حين تأوى إلى الفراش .

وكان من أصابه بمر الجراح وراى الكلوم ،
وأشفق لحاله الآخرون فكروا راجعين ،
وقالوا : « إنها يمين الشرف أقسمها ،
ومن النذالة أن تقتله وهو يبر باليمين . »
ثم من أجله أوقف الأمير النزال
ورمى بحارمه ، ونفخوا فى البوق بالسلم مؤذنين ،
وكان للقضاة الحكم ، وعلى المبارين التسليم ؛
وكان الفارس ، وترسه القميص ، فى الحلبة المجلى .

ودنت ساعة المأدبة واحتشد الجميع ،
وأمام الأميرة الحسناء انحنى الوصيف خاشعاً ،
وأسلمها قميصاً تعافه العيون
مزقته السيوف ، ووخزته الرماح ، وكله خروق وكله ثقوب ،
مهلهلا مشققاً ، بالدماء ملطخاً ،
عليه زبد الخيول وأثر الوحل والأديم ،
لو لمسته السيدة بطرف خنصرها
ما وقع الطرف على مكان نقي لم يلوّث .

« سيدى سير توماس كنت
إلى أميرة بنقت الحسناء يرد هذا الشعار ؛
من يصعد على الشجر ينل حقا منه الثمر ؛
من يثب فوق الحواجز ينجح فيما سعى ؛
استهدفت حياى لأشد المخاطر فنلت الجزاء ،
والآن على سيدتى بيان الولاء .
من تحفز الفرسان لمثل هذا الخطر ،

تقر لهم بخالص الفعال أمام الشمس .

يقول سيدى : « إني أرد القميص الذى ارتديت ،
وإلى الأميرة أطلب ارتدائه بدورها ،
وليعل فى عينها قدره لها به من خروق ،
فعار إن لم يلوث أو يصطبغ قرمزا ولو بخثر الدماء . »
فاحمرت الأميرة خجلا ،
ولثمت الثوب وقد تلتخ بالدماء ،
وعلى شفيتها وإلى صدرها ضمته .
إذهب وقل لفارسى الأمين لتظهرن الدولة والكنيسة
إن كنتُ أقدرُ أو لا أقدر ما على هذا القميص من دماء .

وحان الحين للنبلأ أن يسيروا
فى موكب موقر إلى القس والقداس .
وسارت فى المقدمة الأميرة فى بساط الرحمة والأرجوان ،
وفوقها تلفعت برداء الليل الملتخ بالدماء ؛
بل وفى الردهة حيث التأم الجمع للغداء ،
وعلى ركبتها جثت لأبيها وقدمت النبيذ ،
وفوق كل غالى الثياب وثمان الجواهر
لبست ذاك الوشاح المعيب المخضب بالدماء .

وحقا لقد همس للسيدات كرام الرجال ،
وبالإيماء والبسات وغمزات العيون أجاب السيدات ؛
وأطرق الأمير غضبا وخزيا ،

ثم التفت إلى ابنته أخيراً وكلهما مقطب الجبين :
« الآن وقد صدرت عنك الحماقة والذنوب ،
فلتكفري بيدك عما أُرقت من دماء ؛
ولتندمان كلاكما على القحة أشد الندم ،
وتهيان من بنقنت الجميلة شريدين » .

وفي الردهة وقف توماس البدين ،
منهوكاً مخذولاً ولكن قلبه جسور مقدم ،
وبأعلى صوته صاح : « إن ما أُرقت من دماء في سبيل ابنتك »
قذفت به راغباً ، كما يلفظ الوعاء النبيذ ؛
ولئن عانت من قبلي عقوبة أو عدلاً ،
فتثق أنى لأنجيها من العناء والعار ،
ولن تأبه بالإمارة أو ريعها إلا قليلاً ،
فلسوف أنادين بها في انجلترا أميرة كنت ! » .

فسرت بين الحاضرين دمدمة الاستحسان ، متابعين في ذلك رتشارد نفسه
الذى أخذ يكيل لمنشده المحبوب الثناء كيلاً ، واختتم بتقديم خاتم عظيم القيمة إليه ،
وسارعت الملكة إلى التعطف على هذا المغنى العزيز بسوار نفيس ، وتبع كثير من
النبلاء الحاضرين هذه السابقة الملكية .

وقال الملك : « هل باتت ابنة عمنا أديث لا تستسيغ نغم القيثارة الذى عشقته
يوماً ؟ »

فأجابت أديث قائلة : « إنها تشكر بلندل على أغنيته ، وتضاعف الشكر لرقعة
قريبها الذى أشار بها . »

وقال الملك : « إنك لغاضبة يا ابنة عمى ، غاضبة لأنك سمعت بامرأة أشد
منك عناداً ، ولكنك لن تفلتي منى — سوف أسير معك بضع خطوات نحو

مبيتك من سرادق الملكة — ينبغي أن تتشاور معاً قبل أن يشحب ظلام الليل ويسطع نور النهار » .

وكانت الملكة ووصيفاتها إذ ذاك قد نهضن على أقدامهن ، وانسحب الضيوف الآخرون من فسطاط الملك ، وكان ينتظر برنجاريا خارج السرادق رتل من الناس يحملون المشاعل الوهاجة ، وحرس من رماة السهام ، وسرعان ما كانت في طريقها إلى بيتها ؛ وسار رتشارد إلى جوار قريبته كما اقترح وأكرهها على أن تقبل ذراعه متكأ لها حتى يستطيعا أن يتحادثا دون أن يسمعهما أحد .

وقال رتشارد : « أى جواب إذن أرد به على السلطان النبيل ؟ إن الملوك والأمراء ينصرفون عني يا أدith ؛ وهذا النزاع الجديد قد باعدهم عني ثانية ، إني قد أستطيع أن أقوم ببعض الواجب نحو القبر المقدس بالاتفاق إن لم يكن بالظفر ؛ وتتوقف — واحسرتاه ! — فرصة قيامي بهذا على امرأة ؛ والله خير لى أن أنازل بحربة واحدة عشرة من خيرة الرماحين في العالم المسيحي من أن أجادل امرأة عنيدة لا تعرف صالح نفسها . أى جواب يا ابنة العم أرد به على السلطان ؟ ينبغي أن يكون الجواب حاسماً » .

فقالت أدith : « قل له إن أفقر بنات بلانتاجنت خير لها أن تتزوج من البؤس والشقاء من أن تقترن بالشرك والكفران » .

فقال الملك « أو (بالرق) يا أدith ، والله ما أظن إلا أن هذا أقرب إلى ذهنك » . فأجابت أدith قائلة : « ليس هذا مجال الشك الذى تشير إليه بهذه الغلظة ؛ إن استرقاق الجسم قد يدعو إلى الإشفاق ، ولكن استرقاق الروح يستثير التحقير والازدراء ؛ عار عليك يا ملك انجلترا الطروبة ! لقد استعبدت فارساً جسماً وروحاً ، وكان يوماً يكاد لا يقل عنك صيتاً وذكراً » .

فرد عليها الملك وقال : « هلا ينبغي لى أن أمنع قريبتي عن شرب السم ، فألوث الإناء الذى يحتويه ، إن لم أر وسيلة أخرى تقززها من الشراب القاتل ؟ »

فأجابت أدِيث وقالت : « إنما هو أنت الذى تدفع بى إلى شرب السم لأنه يقدم إلىَّ فى كأس من الذهب » .

وقال رتشارد : « أى أدِيث ، إنى لا أستطيع أن أقسرك على البت قسراً ، ولكن حذار من إغلاق الباب الذى تفتحه السماء ؛ إن ناسك عين جدة ، الذى يعتبره البابا وتعتبره المجامع رسولا ، قد استطلع النجم ، ورأى أن قرانك سوف يصلح ما بينى وبين خصم قوى ، وأن زوجك سوف يكون مسيحيا ، ولذا فالأمل قوى فى أن زواجك من السلطان سوف يؤدى إلى اعتناقه المسيحية واللاتيان بأبناء إسماعيل إلى حظيرة الكنيسة . هيا ، هيا ، إنما ينبغى أن تقدمى بعض الفداء ، ولا تقفى فى سبيل مثل هذا المطمح السعيد » .

فقلت أدِيث : « قد يضحى الرجال بالأكباش والماعز ، لا بالشرف والضمير . وقد نما إلىَّ أن الأعراب ما دخلوا أسبانيا إلا عن سبيل عار فتاة مسيحية ؛ وليس عار الأخرى بالسبيل التى يرجى منها إخراجهم من فلسطين » .

فقال الملك : « هل ترين من العار أن تبينى عاهلة ؟ »

« إنما عار وخزى أن ننتهك حرمة السر المسيحى المقدس بأن ندخل فيه مشركاً لا يرتبط به ؛ وأقول إنه عار وشنار أن أبيت — راضية — وأنا سليلة أميرة مسيحية ، على رأس حريم من الإماء المشركات » .

فسكت الملك قليلاً ثم قال : « إذن ينبغى لى يا قريبتى أن لا أشتبك معك فى الجدل ، وإن كنت أظن أن اعتمادك على كان ينبغى أن يملى عليك الطاعة أكثر من ذلك » .

فأجابت أدِيث قائلة : « مولاي ، إن جلالتك قد ورثت بحق كل ما كان لبيت بلانتاجنت من ثروة وجاه وملك ، فلا تضنن على قريبتك المسكينة بنصيب زهيد من عزهم وفخارهم » .

فأجابها الملك وقال : « أقسم أيتها المرأة لقد أنزلتنى من عليائى بهذه الكلمة ! إذن فلنتصافح وليقبل أحدهما الآخر ؛ سوف أبعث بجوابك قريباً إلى صلاح الدين .

ولكن بعد هذا كله ، ألم يكن خيراً يا ابنة العم أن تعلق جوابك حتى تريه ؟
فإن الرجال يقولون عنه إنه فائق الملاحظة والظرف » .
فقالت أدith : « ليست هناك يا مولاي فرصة للقائنا » .

وقال الملك : « وحق القديس جورج إن اللقاء لا بد منه ، فإن صلاح الدين
لا مرء في أنه سوف يعطينا ميداناً طلقاً نقوم فيه بهذه المعركة الجديدة ، معركة
العلم ، وسوف يشهدها بنفسه ، وإن برنجاريا لتتحرق شوقاً لرؤياها ؛ وأقسم
أنكن ، رفيقاتها ووصيفاتها ، سوف لا تتخلف منكن ريشة — أنت في
مقدمتهن جميعاً يا ابنة العم الحسنة ؛ ولكن دعينا من هذا وهيا بنا ، لقد بلغنا
السرادق وينبغي أن نفترق ، بل وأن نفترق على غير عدا — كلا بل يجب أن
تؤيدي يا أدith ، يا ذات الحسن ، مودتنا بشفتيك وبكلى يديك — إنه من حق
كذلك أن أقبل أتباعي من ذوات الحسن » .

وعانقها بإقبال ومحبة ، وعاد خلال المعسكر والقمر استطع ، وهو يهمهم لنفسه
بضع فقرات مما يذكر من أنشودة بلندل .

ولما بلغ السرادق خف إلى إنشاء رسائله إلى صلاح الدين ، وأسألهما إلى النوبي ،
وأمره أن يرسل عند منبثق النهار عائداً إلى السلطان .

الفصل السابع والعشرون

طرق التكبير منا الآذان —
والتكبير ما يطلقه الأعراب على نداء الهجوم ،
حينما يهللون بصوت عال
يدعون الله أن ينصرهم —
حصار دمشق

وفي صباح اليوم التالى دعا فيليب ملك فرنسا رتشارد إلى لقائه ، ولما التقيا
أبلغ فيليب رتشارد بعد دياجة طويلة من التقدير السامى لأخيه ملك إنجلترا ،
وفى عبارة غاية فى الرقة ، ولكنها جد صريحة لا يخطئ معناها السامع ، أبلغه
بعزمه المؤكد على عودته إلى أوروبا ، وإلى شؤون مملكته ، لأنه يؤس كل اليأس
من النجاح فى الغاية مما شرعوا فيه بعد ما تضععت قواهم ودب النزاع بين
صفوفهم ، وعارضه رتشارد ولكن دون جدوى ؛ ولما انتهيا من المقابلة ، تلقى
رتشارد بغير دهشة إخطاراً من دوق النمسا وكثير غيره من الأمراء ، يعلنون فيه
عزماً كعزم فيليب ، وبعبارة ليس فيها شيء من التهوين ، وقد عزوا ارتدادهم عن
قضية الصليب ، إلى أطماع رتشارد المفرطة وسيطرته وتحكمه ؛ فضاغ بعد هذا كل
رجاء فى متابعة القتال مع الأمل فى الفوز بالنصر آخر الأمر ، وتحذر الدمع المرير
من رتشارد على خيبة آماله فى الظفر والمجد ، ولكنه تعزى قليلا حينما ذكر أن
الفشل يرجع بعضه إلى الزايا التى منحها خصومه بسجيته المتعجلة وقلة رويته .

فقال لدى ثو : وهو فى مرارة غضبه وحنقه : « إنهم ما كانوا ليجسروا على
هجران أبى هكذا ، وما كان العالم المسيحى يصدق أنهم يلفظون هذا القذف فى
وجه ملك حكيم مثله ؛ أما الآن — وما أشد غفائى ! — فإننى لم أيسر لهم الحجة
لهجرانى فحسب ، بل لقد أعطيتهم كذلك سبباً لا سناد الملامة على هذا الشقاق إلى
نقائضى وعيوبى » .

وكانت هذه الخواطر شديدة الإيلام على نفس الملك حتى أن دى ثو استبشر حينما وصل من صلاح الدين سفير حول تفكيره إلى مجرى آخر .
هذا الرسول الجديد كان أميراً له لدى السلطان احترام كبير ، واسمه عبد الله الحاج ، وهو ينتسب إلى أسرة كريمة ، وكان يلبس عمامة كبيرة خضراء إشارة إلى نسبه ، وقد أدى الحج إلى مكة ثلاث مرات فاتصف (بالحاج) ، ولكن عبد الله — رغم هذه المظاهر التي تدل على قداسته — كان في نظر الأعراب نديماً يحب القصص المرح ، وينزع عن نفسه الرزانة إلى حد يجترع معه كأس الخمر — وهو يطفح بشراً — إذا ما تخفى تخفياً يكفل له كتمان الفضيحة ؛ وكان إلى ذلك سياسياً أفاد صلاح الدين من كفاءة في مفاوضات عدة مع الأمراء المسيحيين ، وبخاصة مع رتشارد الذي كان يعرف (الحاج) معرفة شخصية ويستظرفه ، وما إن علم رتشارد من رسول السلطان بإذعانه عن طيب خاطر لتقديم ميدان للنزال على أرض محايدة ، ولقيادته كل من أراد أن يشهد المبارزة آمناً إلى هناك ، مقدماً نفسه ضماناً لصدقه ، حتى امتلأ بالحياة ، ونسى آماله المحطمة ، وإذنان العصبة المسيحية بالانحلال ، واسترسل في البحث الممتع الذي يسبق النزال في ميدان المبارزة .

وُضرب المكان الذي يعرف (بدرة الصحراء) ملتحق للنضال ، لأنه يكاد يتوسط بين معسكر المسيحيين ومعسكر الأعراب ، واتفق على أن يظهر كزاد منتسرا المتهم ومؤيداه أرشدوق النمسا وكبير رجال المعبه هناك في اليوم الذي حدد للمبارزة ، ومعهم مائة من الأتباع المسلحين ليس غير ، وأن يحضر رتشارد ملك إنجلترا وأخوه سولزبرى الذي يؤيد الاتهام ومعهما هذا العدد عينه من الرجال لحماية بطل الملك ، وأن يأق السلطان ومعه حرس من خمسمائة من خيار الأتباع ، وهي فرقة لا ترجح — رغم عديدها — المائتي مسيحي من رماة الرماح ؛ أما ذوو المكانة من الرجال الذين يختارهم أى الفريقين للدعوة لمشاهدة النزال ، فكان عليهم ألا يصطحبوا سلاحاً غير سيوفهم ، وأن يأتوا بغير دروع للدفاع ؛ وتعهد السلطان بإعداد

الأماكن وشهى الطعام من كل لون لكل من يحضر هذا الحفل المهيّب ؛ وقد عبر فى رسائله بكل رقة عن السرور الذى يرتقبه من الأمل فى مقابلة الملك رتشارد مقابلة شخصية سلمية ، وعن رغبته الشديدة فى أن يجعل استقباله لائقاً بقدر ما يستطيع .

وبعد ما تم التمهيد ، وعلم بذلك التهم وأعوانه ، دخل عبد الله الحاج فى مقابلة خاصة استمع فيها لأغنى بلندل وانشرح لها صدره ؛ وقد أخفى عن الأبصار أول الأمر عمامته الخضراء بكل عناية ، واستبدلها بتقية إغريقية ، ثم رد على موسيقى النشيد النورماندية بأغنية شراب فارسية ، واجترع كأساً من نبيذ قبرص حتى ثمالها كى ثبت أن فعالة تتفق ومبادئه ؛ وفى اليوم التالى ظهر بمظهر الرصانة والصحو كأنه « مرجلب » الذى لم يشرب سوى الماء ، وانحنى بجبينه إلى الأرض لدى موطنى قديمى صلاح الدين وسرد للسلطان بياناً عن سفارته .

وفى اليوم الذى كان يسبق اليوم المحدد للنزال فصل كتراد وصحابه عند مطلع النهار يقصدون المكان المعين ، وترك رتشارد المعسكر فى ذات الوقت ولنفس الغرض ، ولكنه سلك فى رحيله طريقاً أخرى كما اتفق من قبل ، وهى حيلة رؤيت ضرورتها لمنع إمكان شوب النزاع بين أتباعهم المسلحين .

ولم يكن الملك الصالح نفسه على أهبة للقتال مع أى كان ؛ وما كان ليزيد من سروره وتطلعه إلى المبارزة الدامية المستقتلة فى ساحة النزال إلا أن يكون بشخصه الملكى أحد المتبارزين ؛ واسترد بعض رضا النفس ثانية ، وهذأت تأثرته حتى نحو كتراد منتسراً ، وسار يترنح يميناً ويساراً ، خفيف السلاح ، نفيس اللباس ، منشرحاً كالعريس ليلة زفافه ، إلى جوار محفة الملكة برنجاريا ، مشيراً لها إلى المناظر العديدة التى كانا يتخللانهما ، ومُدخلاً بالقصص والغناء بعض البهجة على صدر القفر المجذب القاحل ؛ وكانت الطريق التى سلكت الملكة من قبل فى حجبها إلى عين جدة على الجانب الآخر من سلسلة الجبال ، فكان السيدات غريبات على هذا الجانب البادى من الصحراء ؛ وكانت برنجاريا تعلم ميل زوجها حق العلم ،

«وتحاول أن تظهر حبها لما كان يسره من قول أو غناء ، إلا أنها — رغم ذلك — لم يسمعها إلا أن تسترسل في بعض مخاوف نسوية ، حينما ألفت نفسها في قفر بلقع مع قليل من الخفراء كانوا يبدون كذرة متحركة على صدر السهل ، وحينما أدركت كذلك أنهم على مقربة من معسكر صلاح الدين ، وأن هذا الوثني قد تبلغ به الخيانة أن ينتهز هذه الفرصة فيبعث بجيش قوى من فرسانه خفاف الحركة يباغتهم ويسحقهم في لحظة واحدة ؛ ولكنها ما إن ألمعت إلى رتشارد بهذه الريب حتى درأها غاضباً مزدرياً وقال : « إنه لشر من نكران الجليل أن نرتاب في صدق نية السلطان الكريم . »

ولكن هذه المخاوف والشكوك عادت أكثر من مرة لا إلى عقل الملكة الميوب وحده ، ولكن إلى نفس أدith بلانتاجنت كذلك ، وهي أشد ثباتاً وأكثر صراحة ، ولم تبلغ بها الثقة في إخلاص المسلمين مبلغاً تطمئن معه إلى هذا الحد ، إن هي باتت في قبضتهم ؛ ولو كان ما حوالها من أرض يباب يردد صدى النداء « بالله » على حين غرة ، ثم تنقض عليهم عصاة من فرسان العرب كما تنقض النسر على الفريسة ، لكانت دهشتها من ذلك أقل من رعبها بكثير ؛ ولم تقتر هذه الشكوك حينما أقبل المساء ، ورأوا فارساً عربياً — يتميز بعلمته ورمحه الطويل — يحوم على حافة جبل ناثى كالصقر يحلق في الهواء ، وقد انطلق في الحال عند ما ظهر الملك وأتباعه انطلاق الطائر حينما يشق الريح ويختفي وراء الأفق .

فقال الملك رتشارد : « لا بد وأن نكون قد اقتربنا من المكان ، وذلك الفارس أحد طلائع صلاح الدين — يخيّل لى أنى أسمع أصوات الأبواق والصنوج المغربية ؛ رتبوا صفوفكم يا أحباء قلبي ، واصطفوا حول السيدات واثبتوا ثبات الجنود . » وفي خلال كلامه خف كل فارس وتابع ونبال على عجل إلى مكانه المعين ، وساروا في صفوف متلاصقة أشد التلاصق حتى بدا عيديهم قليلاً ، وحقاً إن لم يسر بينهم الخوف ، فقد تملكهم الجزع وحب التطلع وهم يتسمعون منصتين

إلى أنغام الموسيقى المغربية وهي تصدح ، وتبلغهم الحين بعد الآخر واضحة من الجهة التي اختفى فيها الخيال العربي .

وقال دى قو همساً : « أما كان خير لنا يا مولاي أن نبعث برسول إلى قمة هذه الراية الرملية ؟ أم هل تريدني أن أسبق إلى الأمام ؟ يخيّل لي من كل هذا الضجيج وذاك الطنين أنه إن لم يكن هناك ما يربو على خمسمائة رجل وراء الكشبان الرملية ، فلا بد وأن يكون نصف حاشية السلطان من الطبالين واللاعبين بالصنوج — هل لي أن أسبق ؟ » .

وشد البارون على جواده بزمامه ، وأوشك أن يحفزه بمهمازه ، لولا أن صاح به الملك « كلا ، لو أعطيتُ ملك الدنيا ؛ إن مثل هذا الحذر يدل على الريّة ولن يحول دون انقضاضهم علينا ، وهو أمر لا أخشاه » .

وتقدم الجمع بعد هذا في نظام محكم متقاربين ، حتى تخطوا الكشبان الرملية المنخفضة ، وباتوا على مرأى من المكان المقصود ، فإذا بانتظارهم مشهد رائع جليل ، ولكنه يثير الرعب في النفوس .

كانت (درة الصحراء) إلى عهد قريب عينا منعزلة لا يميزها وسط القفار سوى عدد من أشجار النخيل المتباعدة ، ولكنها الآن محط لخيام عديدة مضروبة ، وعليها أعلام مزركشة وزينات من الذهب تتألق تألقاً شديداً وتعكس ألواناً من الألوان الزاهية ، والشمس تسطع عليها وهي ماثلة للغروب . وكانت السراقات الضخمة مغطاة بأزهي الألوان ، من قرمزي إلى أصفر فاقع ، إلى أزرق شاحب ، وغير ذلك من الأصباغ ذات الرونق والسناء ، وأعلى عمدتها — أو قوائم الخيام — كانت محلاة برمان من الذهب ، وأعلام صغيرة من الحرير ؛ ولكن إلى هذه السراقات المتميزة كان هناك ، على ما رأى توماس دى قو ، عدد كبير من خيام العرب المألوفة السوداء ، تكفى — على ظنه — لإيواء جيش من خمسة آلاف رجل على الطريقة الشرقية ؛ وكان هناك عدد من الأعراب والكرد يتناسب واتساع الخيم . يتجمعون على عجل ، وكل منهم يقود جواده بيده ، ويصحب

حشدهم فخيخ يكاد يصم الآذان ، يصدر عن آلاتهم الصخابة التي كانوا يضربون عليها موسيقاهم العسكرية ، والتي أشعلت في العرب طوال العصور حماس الحرب والقتال .

وسرعان ما تجمعوا أمام خيامهم في حشد مضطرب شديد الزحام من الفرسان المترجلين ، وما إن أشير إليهم بصيحة عالية تملو رنين الموسيقى ، حتى خف كل فارس إلى ظهر جواده ، وثار النقع سحبا حينما قاموا بهذه الحركة العسكرية ، فاخفى عن ناظر رتشارد وأتباعه المعسكر والنخيل وحافة الجبل البعيدة ، كما اخفى الجند الذين أثاروا سحب التراب بحركتهم المبالغتة ؛ وارتفع الغبار فوق رؤوسهم ، واتخذ أشكالا عجبية من عمد ملتوية وقباب ومآذن ، وارتفعت صيحة عالية أخرى منبعثة عن صدر هذا الهيكل المنشأ من سحب التراب ، وكانت هذه الصيحة إشارة للفرسان بأن يتقدموا ؛ وقد فعلوا ، راكضين بأقصى سرعة . وكلما ساروا إلى الأمام اصطفوا محيطين بالمقدمة والجناحين والمؤخرة من حراس رتشارد القليلين ، وقد باتوا محاصرين ، ويكادون يختنقون بسحب التراب الكثيفة التي تغشتهم من كل جانب ، والتي كانت تتبين من خلالها حيناً وتختفي حيناً آخر جسوم الأعراب الكالحة ، ووجوههم البربرية ، وهم يلوحون برماحهم ، ويهزون بها في كل متجه مهللين هاتفين ، ولا يمسكون بزمام خيولهم إلا غراراً ، وذلك حينما يبيتون على قيد رمح من المسيحيين ؛ بينما كانت مؤخرتهم تخطر على رؤوس الفريقين وابلا من السهام ، وقد أصاب أحدها الحفة التي كانت تجلس فيها الملكة ، فعلا صياحها واهمر جبين رتشارد في لمح البصر .

فصاح مذعوراً : « وحق القديس چورچ ليكون لنا مع هذه الطغمة من الكفار شأن ! » .

أما أدith التي كانت محفها على كثر ، فقد أطلت برأسها ، وأمسكت بإحدى يديها نبلة وصاحت : « أي رتشارد المليك ، حذار مما أنت فاعل ! أنظر ، إن هذه السهام بغير رؤوس ! » .

فصاح بها رتشارد : « ما أنبلك وأحكمك من امرأة ! والله إنك لتخجليننا جميعاً بسرعة خاطرك ونفاذ بصرك » — وصاح بأتباعه : « لا تتحركوا يا أعزاء قلبي من الإنجليز ، إن سهومهم ليس لها رؤوس ، وإن رماحهم كذلك تنقصها أطراف الحديد . إنما جاءونا مرجين ترحيباً وحشياً على طريقهم البربرية ، ولكنهم رغم هذا — لا مرء — يتهجون إذا رأوا مرتاعين أو مضطربين ؛ سيروا إلى الأمام بتؤدة وثبات » .

فسارت الكتيبة الصغيرة قُدماً ، يصحبها الأعراب من كل جانب ، وهم يصيحون صياحاً نافذاً أجش ؛ وحمة القسي يعرضون حذقهم وخفهم فيرمون بسهامهم على قيد شعرة من رؤوس المسيحيين دون أن يصيبوهم بأذى ، والرماحون يتقارعون بغلظة بأسلحتهم الكليية ، حتى كثر منهم من فقد سرجه وكاد يفقد حياته في هذا اللعب الهمجي ؛ وقد أرادوا بهذا كله إلى التعبير عن ترحابهم ، ولكن ظاهر الأمر كان مريباً في أعين أبناء أوروبا .

وما إن بلغوا منتصف الطريق نحو المعسكر ، والملك رتشارد وأتباعه يؤلفون النواة التي تجمع حولها هذا العدد الصخاب من الخيالة ، مهللين هاتفين ، ومناوشين ومهطعين ، وهم على صورة من الاضطراب لا يحيط بها وصف ، حتى انبعثت صيحة عالية أخرى ، كر لسمعها الجنود المحتلون ، الذين كانوا بالمقدمة وعند الجناحين من الكتيبة الأوروبية الصغيرة ، وألفوا من أنفسهم صفا طويلاً عريضاً ، وساروا في مؤخرة عسكر رتشارد ، وهم أكثر نظاماً وأزعم صمتاً ؛ وبدأ التراب الآن ينقشع أمامهم حيناً تقدم للقائم خلال ذلك الحجاب القاتم جماعة من الفرسان يختلفون عنهم هيئة ويفوقونهم نظاماً ، مسلحين إلى الأطراف بأسلحة الدفاع والهجوم ، يليق بهم أن يكونوا حراساً لأكثر ملوك الشرق صلفاً وكبراً ؛ وهذه الفرقة الفاخرة كانت تتألف من خمسمائة رجل ، وكل جواد من جيادهم يليق فداء لرجل شريف ؛ والركبان رقيق من أهل جورجيا أو چراكسة في ريعان الشباب ، وخوذاتهم وقمصانهم المصنوعة من الزرد كلها من حلق الحديد ، شديدة البريق ،

تتألق كالفضة ، ونطّقهم مجدولة بالحرير والذهب ، وعمائمهم الغالية مرصعة بالريش والجواهر ، وسيوفهم وخناجرهم من الصلب المحلى بالفضة ، مزينة بالذهب والآلى على مقابضها وأغمدتها .

تقدم هؤلاء الجند ذوو الأزياء الفاخرة على أنغام الموسيقى العسكرية ، ولما التقوا بفرقة المسيحيين فتحو صفوفهم يمينا ويسارا ، وأدخلوهم بينهم ، واتخذ رتشارد الآن مكانة في طليعة جنده ، وهو يعلم أن صلاح الدين نفسه يدنو . ولم يمض زمن طويل حتى أقبل السلطان وسط حرسه ، وكأنه بملاحه وهيئته رجل كتبت الطبيعة على جبينه (هذا ملك) ، وأحاط به خدمه من الضباط وأولئك الزوج الدميمين الذين يخفرون الحريم في الشرق ، والذين زاد قبح أشكالهم ربعا نفاسة ملبسهم . وصلاح الدين بعمامته الناصعة البياض ، وصداره وسراويله الشرقية الفضفاضة ، ونطاقه الحريري القرمزى ، دون أية زينة أخرى ، ربما كان أكثر من حرسه سداجة في لباسه ؛ ولكنك إن دنوت منه وأمعنت فيه ، رأيت في عمامته تلك الجوهرة التي لا تقدر ، والتي سماها الشعراء (بحر النور) ؛ واللؤلؤة المنقوشة باسمه ، والتي كان يلبسها في خاتمه ، ربما كانت تساوى في قيمتها كل ما بالتاج الإنجليزى من جواهر ، والياقوت الذى ينتهى به مقبض سيفه لا يقل عنها في قيمتها كثيرا ؛ وفوق ذلك كان السلطان يلبس نوعا من القناع يتصل بعمامته ، ويحجب عن الأنظار جانبا من ملاحه النبيلة ، وذلك إما وقاية له من التراب الذى يشبه في جوار البحر الميت أدق الرمال ، أو ربما كان ضربا من الكبرياء الشرقى ؛ وكان يمتطى حصانا عربيا ناصع البياض ، يحمله وكأنه يحس ويفخر براكبه النبيل .

ولم تكن هناك حاجة إلى مقدمة جديدة ، فلقد نزل الملكان الشهبان — وحقا لقد كانا كذلك — عن ظهري جواديهما توا ، ووقف الجند ، وسكتت الموسيقى بغتة ، وتقدما للقاء في صمت رهيب ، وبعد ما انحنى كل منهما مجاملة تعانقا كأخوين وندين ؛ ولم تعد الأبهة والمظهر لدى أيهما لتجتذب النظر ، إذ لم ير

أحد شيئاً غير رتشارد وصلاح الدين ، ولما ير أحدهما غير الآخر ، ولكن النظرة التي كان يرمق بها رتشارد صلاح الدين كانت أكثر إمعانا وتطلعا من نظرات السلطان التي صوبها نحوه ؛ وكان السلطان كذلك أول من شق ما كان يسود من سكون .

وقال : « إن صلاح الدين يرحب بالملك رتشارد كما يرحب بالماء لهذه الصحراء ! وإني على يقين من أنه لا يرتاب في هذا العدد العديد من الجنود ، فإذا استثنيت العبيد المسلحين من حاشيتي ، فإن أولئك الذين يحيطونك بنظرات من العجب والترحاب هم جميعاً — حتى أكثرهم خضوعاً — من النبلاء ذوى المسكنة في القبائل الألف التي تتبعني ؛ إذ من ذا الذي يكون له حق المثول ويلبث في بيته ، والأمير القادم رتشارد ، وهو الذي يخاف اسمه — حتى فوق رمال اليمن — تدلل المرضعة الوليد ويخضع العربي جواده الجموح ! »

فأجاب رتشارد وقال : « وكل هؤلاء نبلاء من الأعراب ؟ » وتلفت حواليه ، ووقع بصره على جسم خشن ، ورجال متلفعين بالثياب ، اسودت من حرارة الشمس ملامحهم ، وأسنانهم بيضاء كالعاج ، وعيونهم السود يتألق فيها بريق نافذ غير طبيعي تحت ظلال عمامتهم ، ولباسهم على الجملة ساذج بل وضع .

فقال السلطان : « أجل إن لهم لهذه المرتبة ، وهم وإن يكونوا عديدين إلا أنهم يخضعون لشروط المعاهدة ، ولا يحملون سلاحا غير السيوف — وحتى حديد رماحهم فد خلفوه وراءهم » .

فتمتم دى فو بالإنجليزية قائلا : « إني أخشى أن يكونوا قد خلفوه حيث يتيسر لهم إن أرادوه سريعا — إني أقر بأنهم مجلس من الشيوخ جليل ، وربما ضاقت بهم قاعة وستمنستر » .

وقال رتشارد : « صه يا دى فو — إني أمرك بالصمت » ثم قال : « أيها السلطان ، إنك والشك لا توجدان على أرض واحدة » وأشار إلى المحفات وقال : « ألا ترى أنني كذلك قد أتيت معي ببعض الأبطال ، ولكنهم مسلحين ؛ ولربما

كان في ذلك إخلال بالاتفاق ؛ ولكن العيون النجل ، والملاحم الفاتنة ، أسلحة لا نستطيع أن نخلفها وراءنا » .

فالتفت السلطان نحو المحفات ، وطأطأ رأسه إجلالاً كأنه يولى وجهه شطر مكة ، وثم الرمال إشارة على الاحترام والتبجيل .

وقال رتشارد : « كلا ، إنهن يا أخى لا يخشين لقاء أقرب من هذا . هلا ركبت صوب محفاتها ، وسترفع الستر بعد زمن وجيز ؟ » .

فقال صلاح الدين : « حرام على هذا ! وليس للعربي أن ينظر إلى النساء ، وعار على السيدات النبيلات أن يبدن وجوههن بغير قناع » .

فأجاب رتشارد : « إذن لتراهن فى خلوة يا أخى المليك » .

فأجابه صلاح الدين محزوناً وقال : « لم أراهن ؟ لقد كانت رسالتك الأخيرة لآمالى التى أشدت كالماء للنار ، فما لى بعد هذا أشعل لهيباً قد يحرق قلبى ولا يدخل السرور على نفسى ؟ — ولكن هلا سار أخى إلى الفسطاط الذى أعده له خادمه ؟ إن عبدى الأسود الخاص قد تلقى الأمر للقاء الأميرات — وسوف يستقبل الضباط من حاشيتى تابعيك ، وسأقف بنفسى على خدمة رتشارد المليك » .

وعلى إثر هذا شق طريقه إلى سرادق نخم أعد به كل طريف من ترف الملوك ، وكان دى فو حاضراً فأزال عباءة الركوب الطويلة التى كان يلبسها رتشارد ، ووقف الملك أمام صلاح الدين فى لباسه الضيق الذى أبان عن متانة قوته وجمال اتساق جسمه ، وهو يباين كل التباين الثياب الفضفاضة التى كانت تستر جسم الملك الشرقى النحيل ؛ وكان أشد ما استرعى انتباه الملك العربى سيف رتشارد الطويل ذو المقبضين ، وظبانه العريضة المستقيمة التى يمتد طولها الفارط من كتف حامله إلى عقبه .

فقال السلطان : « والله لولا أنى رأيت هذا المهند يتألق فى طليعة المعركة كسيف عزرائيل لما كدت أصدق أن ذراعاً بشرية تستطيع أن تهز به ، وهل لى أن ألتبس رؤية الملك رتشارد وهو يضرب به ضربة واحدة سلمية لمحض امتحان قوته ؟ » .

فأجابه رتشارد : « لك هذا منى راغباً أيها السلطان النبيل » ؛ وتلفت حواليه يبحث عن شيء يختبر به قوته ، فوقعت عينه على صولجان من الصلب يمسك به أحد الواقفين ، له مقبض كذلك من الصلب ، قطره نحو بوصة ونصف البوصة ، فأخذه ووضعه على كتلة من الخشب .

وأدى بدى ثو جزعه على شرف سيده أن يهمس بالإنجليزية قائلاً : « وحق العذراء البتول ، حذار مولاي مما أنت مقدم عليه ! إنك لم تسترد بعد كامل قواك . لا تشمت فيك هذا الكافر » .

فقال رتشارد وقد ثبت في مكانه ورنأ حواليه بنظرة حادة : « أنصت أيها الغافل ، أفتظن أنى أحبط في حضرته ؟ » .

وأمسك مهنده العريض البراق بكليتي يديه ، ورفعها عالياً إلى كتفه اليسرى ، وأداره حول رأسه ، وهوى بقوة كأنه قوة آلة مروعة ، فتدحرج القضيب الصلب فوق الأديم وقد قصمه نصفين كما يتر الحاطب الشجيرة بفأسه .

فأخذ السلطان القضيب الصلب الذى انكسر شطرين ، وفحصه بدقة وإمعان ، وقال : « والله إنها لضربة عجبية ! » ، وكانت ظبابة السيف من اللين بحيث لم يبد عليها أقل إشارة إلى تأثرها بالعمل الجليل الذى أنجزته ؛ ثم تناول يد الملك وحدث في حجمها وقواها العضلية التى بدت عليها ، وضحك حينما وضعها بجانب يده الضامرة الهزيلة التى لا تدانها قوة ولا عصباً .

وقال دى ثو بالإنجليزية : « أجل ، انظر وأمعن فى النظر ، إن أصابعك التى تشبه أصابع القرد لن تستطيع أن تقوم بمثل هذا العمل الباهر بسيفك هذا الرقيق المموه بالذهب » .

فقال رتشارد : « انزم الصمت يا دى ثو ، أقسم بالعذراء إنه قد يدرك أو يتخرص بما تعنى — وإنى أرجوك أن لا تكون فظاً كذلك » .

وحقا لقد أسرع السلطان بقوله : « إنى أريد أن أحاول أمراً ، ورغم أن الضعيف ليس له أن يظهر ضعفه أمام القوى ، إلا أن لكل بلد ما ألف من مران ،

وقد يكون هذا جديداً على الملك رتشارد . وبعد ما أتم حديثه رفع عن الأديم وسادة من الحرير والزغب ، ووضعها مستقيمة على أحد أطرافها ، وقال للملك رتشارد : « هل تستطيع بسلاحك يا أخى أن تقصم هذه الوسادة ؟ » .

فأجابه الملك : « كلا ، وايم الحق ، وما على الأرض سيف — حتى ولا حسام الملك أرثر — يستطيع أن يقطع شيئاً لا يثبت لوقع الضربة الراسخة » .

فقال صلاح الدين : « إذن فانظر إلى » وشمر عن ساعده ، فبدت منه ذراع نحيلة ، هزيلة حقاً ، ولكنها من أثر المران تصلبت وباتت كتلة ليس بها غير العظام والعضلات والأعصاب ؛ ثم جرد سيفه الأحذب من غمده ، وهو نصل منحني ضيق ليس له بريق سيوف الفرنجة ، وإنما لونه أزرق قاتم ، عليه عشرة ملايين من الخطوط المتوية ، مما يدل على أن صانعه أحى المعدن بالنار وطرقه بكل عناية ؛ ووقف السلطان مرتكراً بثقله على قدمه اليسرى ، وقد قدمها إلى الأمام قليلاً ، وهز بسلاحه وظاهره الضعف إذا قيس بمهند رتشارد ، وارتن السلطان قليلاً كأنه يريد أن يتثبت من هدفه ، ثم خطا إلى الأمام بغتة وجذب الأحذب فوق الوسادة مطبقاً شفرته عليها بمحذق وبقليل من الجهد ، حتى لكان الوسادة قد انقصمت من تلقائها شطرين ولم يميزها العنف والقوة .

فانطلق دى فو إلى الأمام ، واختطف نصف الوسادة التي انقصمت كأنه يريد أن يتثبت من صدق ما وقع ، وقال : « إن هذه إلا حيلة مشعوذ ، وإن في هذا سحراً » . ويظهر أن السلطان قد أدرك قوله ، لأنه أزال ذلك الضرب من اللثام الذي كان يتلثم به حتى آتئذ ، ونزعه عن وجهه ، وعلقه بطرف سيفه ، ومد حسامه في الجو مستعرض الشفرتين ، وجذبه بغتة من خلال اللثام رغم تعلقه بالطبأة مرسلاً غير موثوق ، فمزق اللثام كذلك نصفين ، وتطاير في ناحيتين مختلفتين في الفسقاط ، مبيناً كذلك عن لين السلاح وحدته الفائقة ، ومهارة حامله مهارة رائعة .

وقال رتشارد : « والآن وايم الحق يا أخى إنك في حيل السيف لا تبارى ، وإنك لجد خطر لمن يلاقيك ! ولكنى مازلت رغم هذا أثق بعض الثقة في الضربة

الإنجليزية القاصمة ، فإن ما لم نستطعه بالدهاء ندبره بالقوة ، وعلى ذلك فخفا إنك في ثلم الجروح لحاذق حذق حكيمى النطاسى فى ضمدها ؛ إنى أعتقد أنى سوف أرى الطبيب العالم — إن على له لشكراً جزيلاً ، وقد أتيت له بهدية صغيرة .

وبينما هو يتكلم ، استبدل صلاح الدين عمامته بتقية تترية ، وما إن فعل ذلك حتى فغردى ثو فى الحال فسه العريض وعينيه الكبيرتين المستديرتين ، وحلق رتشارد بما لا يقل عن ذلك دهشة ، بينما أخذ السلطان يتكلم بصوت رزين متغير ويقول : « يقول الشاعر ما معناه : إن المريض ما دام عليلاً يعرف طبيبه بخطاه ، ولكنه إن عوفى لا يعرف منه حتى وجهه حينما ينظر إليه » .

فصاح رتشارد : « إنها لمعجزة ! — إنها لمعجزة ! »

وقال توماس دى ثو : « معجزة من فعل محمد ولا مرء » .

وقال رتشارد : « كيف لى أن أفتقد حكيمى النطاسى لمجرد غياب تقيته وثوبه ، ثم أجده ثانية فى شخص أخى الملك صلاح الدين ! » .

فأجابه السلطان : « هذه حال الدنيا فى كثير من الأحيان ؛ إن الثياب البالية لا تنم عن الدرويش فى كل حين » .

فقال رتشارد : « وإذن لقد كنت الوسيط فى نجاة فارس النمر من الموت ، وبمحيلتك كانت عودته إلى المعسكر متنكراً ؟ » .

قال صلاح الدين : « أجل ، لقد كان ذلك ؛ وقد علمنى طبي أن جراح شرفه الدامى ، إن لم تلتئم ، فإن أيام حياته سوف لا تطول ؛ ولقد كان كشف تنكره أيسر مما توقعت لنجاح تنكرى » .

فقال الملك رتشارد : « إن حادثاً قد وقع حدا بى أول الأمر إلى أن أدرك أن بشرته كانت ملونة بلون مصطنع (وربما يشير بهذا إلى الظرف الذى دفعه إلى أن يطبق شفتيه على جرح النبوى المزعوم) ، وما إن أدركت هذه الإشارة حتى أصبح كشف الأمر سهلاً ميسوراً ، فإن هيئته وجسمه لا يعينان عن الذكر ، وإنى على ثقة من أنه سوف يتقدم للنزال فى الغد » .

فقال السلطان : « إنه على تمام الأبهة وعلى أمل عظيم ، فلقد أعددت بالسلح والحصان لأنى أحسن به الظن مما رأيت وأنا متخف فى مختلف الأزياء » .

فقال رتشارد : « وهل يعرف هو الآن لمن هو مدين ؟ » .

فأجاب العربى : « أجل فلقد اضطررت إلى الاعتراف له بشخصى حينما كشفت له عن غرضى » .

فقال ملك انجلترا : « وهل أقر لك بشىء ما ؟ »

فأجاب السلطان : « لم يقر بشىء صراحا ، ولكن من كثير مما دار بيننا ، أدركت أن حبه معقود بفتاة من بيت كريم أرفع من أن ينتهى وإياها إلى السعادة والرفاهية » .

فقال رتشارد : « وهل تعلم أن حبه هذا الوقح الجرى يتعارض ورغبتك ؟ »

فقال صلاح الدين : « قد يبلغ بى الظن إلى هذا الحد ؛ ولكن حبه قد ظهر إلى حيز الوجود قبل أن تنشأ فى الرغبة — وينبغى أن أقول إن حبه أبقى على الزمن من حبى ، وإن شرفى لا يسمح لى بأن أنتقم لخيبتى ممن لم تكن له يد فيها ، ولئن كانت هذه الكريمة النسب تحبه أكثر مما يحبنى فمن ذا الذى يقول إنها لم تنصف فارساً من دينها كله شرف ونبلى ؟ » .

فقال رتشارد شامخاً بأنفه : « ولكنه من ذرية أوضع من أن تحتلط بدم

بلانتاجنت » .

فأجابه السلطان : « ربما كانت هذه مبادئكم فى بلاد الفرنجة ، أما نحن فشعراؤنا من أهل الشرق يقولون بأن الحادى المقدام جدير بتقبيل ثغر الملكة الحسنة ، أما الأمير النذل فليس قيمنا بأن يحبى أهذاب ثيابها — ولكنى أستأذك أخى النبيل فى أن أفارقك الآن ، كى أستقبل دوق النمسا وذلك الفارس النصرانى ، وهما أقل منك حقاً بالإكرام ، ولكننا ينبغى لنا أن نحسن لقاءهم ، لا إجلالاً لهم ، ولكن احتفاظاً بشرفى — ولقد قال فى ذلك الحكيم لقمان : (إن الطعام الذى تقدمه للغريب

لا يضيع ، فإن اشتد به جسمه وقوى ، ارتفع اسمك غرة وشهرة » .

ثم فصل الملك العربي عن سراق الملك رتشارد ، وبعد أن أوماً إليه بالإشارة لا بالكلام عن المكان الذى ضرب به سراق الملكة ووصيفاتها ، ذهب للقضاء مريزمنتسرا وحاشيته الذين أعد لهم السلطان كذلك أما كن يستقرون فيها ، توازى ما أعد لغيرها أمة وعظمة ، ولكن بقلب أقل ترحيباً . وقدّم الطعام الوفير على الطريقة الشرقية وعلى النمط الغربى لضيوف صلاح الدين من الملوك والأمراء ، كل فى سراقه الخاص ؛ وكان السلطان شديد التنبه لعادات زأريه وأذواقهم ، فأوقف رقيقاً من اليونان يقدمون لهم كؤوس الخمر ، وهى حرام على المسلمين ، وقبل أن يفرغ رتشارد من طعامه دخل (عبد الله) الذى كان قد حمل رسالة صلاح الدين إلى معسكر المسيحيين ، ومعه خطة الطقوس والرسوم التى سوف تتبع فى اليوم الذى يلى يوم النزال ؛ وكان رتشارد يعرف هوى صاحبه القديم ، فدعاه لأن يشاركه فى قدح من نبيذ (شيراز) ، ولكن (عبد الله) أوماً إليه — وعلى وجهه سيما الحزن والأسى — بأن إنكار الذات فى الظرف الراهن أمر يتعلق بحياته ، لأن صلاح الدين — رغم تسامحه فى كثير من الشؤون — كان يرى شريعة النبي وينفذها بالعقوبة القاسية .

فقال رتشارد : « إذن إن كان لا يجب الخمر — وهى ذلك الشراب الذى يخفف عن قلب الإنسان — فإن اعتناق المسيحية لا أمل فيه ، ولسوف تذهبن نبوءة كاهن عين جدة المجنون أدراج الرياح » .

ثم شرع الملك يعد أدوات المبارزة ، واستغرق فى ذلك وقتاً طويلاً ، إذ كان لزماً عليه أن يتشاور فى بعض الأمور مع الفريق المنازل ومع السلطان .

وأخيراً تم بينهم الاتفاق فى كل شئ ، وسووا ما بينهم فى ميثاق بالفرنسية والعربية ، وقع عليه صلاح الدين حكم فى ميدان القتال ، ورتشارد وليوبولد كضامنين

للمتبارزين ؛ ودخل دى ثو و(عبدالله) يستأذن من الملك رتشارد بالانصراف نهائيا ذلك المساء .

وقال دى ثو : « إن الفارس الكريم الذى سوف يشترك فى أنزال غداً يرجو أن يعرف إن كان يجوز له هذه الليلة أن يقدم ولاءه لمتبوعه المليك ؟ » .

فقال الملك باسمًا : « وهل رأيته يادى ثو ؟ وهل عرفت فيه صديقاً قديماً ؟ » .

فأجابه دى ثو « أقسم بسيدة (لازكست) إن بهذه البلاد من المفاجآت

والتغيرات الكثيرة ما يضطرب له عقلى الضعيف . والله ما كدت أن أعرف السر

كنت الاسكتلندى حتى جاءنى كلبه الصالح ، الذى لبث تحت رعايتى زمناً قصيراً ،

وتمسح بى ؛ وحتى حينئذ ما عرفت الكلب إلا باتساع صدره واستدارة قدمه

وأسلوب نباحه ، فلقد كان الكلب المسكين مصطبغاً بالألوان كماهرات البندقية » .

فقال الملك : « إنك فى معرفة الحيوان أحق منك فى معرفة الرجال يادى ثو » .

فقال دى ثو : « لا أنكر أنى كثيراً ما ألفتهم أكثر الفريقين أمانة

وإخلاصاً ، وفوق ذلك فإن جلالتك قد يسرك أحياناً أن تدعونى بالوحش ، وفضلاً

عن هذا فإنى أخدم الأسد الذى يعترف له الرجال جميعاً بأنه ملك الوحوش » .

فقال الملك : « أقسم بالقديس جورج إنك حقاً هنا قد كسرت رحلك على

جيبى (أى غلبتنى) ، لقد كنت أبداً أقول إن لديك شيئاً من الفطنة يادى ثو .

ولكن ينبغى للمرء أن يضربك بالمطرقة قبل أن يتطاير منها الشرر ، أما هذا

الترس ... قل لى هل الفارس الكريم كامل التسليح والعدة ؟ » .

فأجابه دى ثو : « أجل ، مولاي ، وإنه لكامل النبل كذلك ؛ إنى أعرف

الدرقة جيداً ، إنها تلك التى قدمها إلى جلالتك رسول البندقية قبل مرضك بقليل

نظير خمسمائة بيزنطة » .

« ويقيناً لقد باعها السلطان المشرك ورجح فيها بضع دنانير وتسلم الثمن فوراً ؛

والله إن أهل البندقية هؤلاء ليبعين القبر المقدس ذاته ! » .

فقال دى ثو « إن الدرقة لن تحمل فى أمر أنبل من هذا » .

وقال الملك : « والفضل في هذا لنبل العربي لا لجشع البندق » .
فقال دى ثو وهو قلق : « إني لأرجو الله أن تكون جلالتك أشد حذراً ،
وها نحن وقد هجرنا أحلافنا لإساءة لحقت بهذا أو بذاك ؛ إنا لا أمل لنا في
النجاح برا ، وإذا اشتبكنا مع الجمهورية البرية البحرية فسوف نفقد سبيل
التراجع بجرأ » .

فأجاب رتشارد جازعاً وقال : « سوف أحذر ، ولكن لا تقف منى موقف
المعلم بعد هذا ، وإنما قل لى هل لدى الفارس قسيس ؟ فإن هذا الأمر يهمنى » .
فأجاب دى ثو قائلاً : « أجل ، وذلك هو ناسك عين جدة الذى قام له بهذه
الخدمة من قبل وهو يتأهب للموت ، وهو يقف بجانبه في هذا الظرف ، وقد أتت
به إلى هنا شهرة المبارزة » .

فقال رتشارد : « نعم الخبر ، والآن ماذا يطلب الفارس ؟ قل له إن رتشارد
سوف يقابله بعد ما يقوم بواجبه بجانب (درة الصحراء) تكفيراً عن إثمه بجانب
جبل القديس جورج ؛ وإذا ما صهرت بالمسكر فقل للملكة إني سوف أزور
سرادقها ، وقل لبلندل أن يلقانى هناك » .

وفصل دى ثو ، وبعد نصف ساعة تلفع رتشارد بعباءته ، وأخذ بيده حسامه ،
وسار في طريقه إلى سرادق الملكة ، ومر به كثير من الأعراب ، ولكنهم كانوا
دائماً ينصرفون عنه بوجوههم ، ويعقدون بالأديم أبصارهم ؛ ومع ذلك فقد استطاع
أن يرى أنهم جميعاً كانوا يتبعونه بالنظر متطلعين ، بعد ما ينأى عنهم ؛ وقد حدا به
هذا إلى الظن حقاً بأن شخصه كان معروفاً لهم ، ولكنهم تحاشوا أن يبدو
عليهم أنهم يراقبون ملكاً أراد أن يتنكر ، إما لأمر من صلاح الدين أو
لأدابهم الشرقية .

ولما بلغ الملك سرادق الملكة ، ألغاه مخفوراً بأولئك الضباط الأشقياء الذين
توقفهم الغيرة الشرقية على حراسة الحرم ، وكان بلندل يسير لدى المدخل ، ويتغنى
بين الفينة والأخرى بأسلوب يجعل هؤلاء الإفريقيين يبرزون أسنانهم العاجية ،

ويقومون بحركاتهم الغريبة مهللين بأصواتهم المجلجلة العجيبة » .

فقال الملك : « ماذا تريد من هذا القطيع من الماشية السوداء يا بلندل ؟ ولماذا لا تدخل السرادق ؟ » .

فأجابه بلندل وقال : « لأن صناعتى لا تغنينى عن رأسى ولا عن أصابعى ، وهؤلاء المغاربة السود الأمناء هددونى بتقطيعى إرباً إرباً إن أنا تقدمت إلى الأمام . »
فقال الملك : « إذن فلتدخل معى وسوف آكون لك حارساً » .

ثم نكس هؤلاء السود حراهم وسيوفهم إجلالا للملك رتشارد ، وطأطأوا رؤوسهم كأنهم لا يليق بهم أن ينظروا إليه . وفى داخل السرادق ألقى الملك توماس دى فو قائماً على خدمة الملكة ؛ وبينما برنجاريا ترحب ببلندل ، انتحى رتشارد وقريبتة الحسناء ناحية ، وأخذ يحادثها سرا فترة من الزمن .
وقال لها همساً « أو ما زلنا بعد هذا خصوماً يا أديث الحسناء ؟ »

فقالت أديث بصوت خافت لا يعارض الموسيقى : « كلا ياسيدى ، إن أحداً لن يسهه أن يحمل فى نفسه العداوة للملك رتشارد ، وهو يتعطف علينا بالكرم والنبل ، وهما من شيمته حقاً ، كما أنه رجل شهم كريم » .
وما إن فرغت من حديثها حتى مدت يدها إليه ، فثمها الملك إيماء إلى التثام القلوب ثم قال :

« إنك تحسبين يا ابنة عمى الحسناء أنى كنت أتكلف الغضب فى هذا الأمر ؛ كلا ، لقد خدعتك نفسك ؛ إن العقوبة التى وقعت على هذا الفارس كانت عادلة ، ومهما بلغ به الإغراء يا ابنة عم الفاتنة فلقد خدعنا فيما وكلنا إليه من ثقة ؛ ولكن سرورى كسرورك عظيم بأن الغد سوف يهبى له الفرصة ليكسب المعركة ويرد العار — الذى التصق به زمناً — إلى السارق والخائن الحق . كلا ! إن المستقبل قد يعذل رتشارد على تهوره وحمقه ، ولكنهم سوف يقولون إنه فى حكمه كان يعذل حين تجب العدالة ، ويرحم حينما يجد إلى الرحمة سبيلاً » .

فقالت أديث : « لا تسبح بحمد نفسك يا ابن عمى ، فلربما رأوا في عدالتك القسوة ، وفي رحمتك الهوى » .

فقال لها الملك : « وأنت لا تفخرى بنفسك ، كأن فارسك الذى لما يمتشق سلاحه قد أخذ ينزعه بعد الظفر والانتصار — إن كثراد منتسرا معروف بمهارته في الضرب بالرمح ، فإذا لو خسر الأسكتلندى في النزال ؟ »

فأجابت أديث مؤكدة مثبتة وقالت : « هذا محال ! لقد شهدت بعيني رأسى كثراد هذا وهو يرتعد ويتغير لونه كاللص الدنيء . إنه آثم — وامتحانه بالمبارزة احتكام إلى عدالة السماء — لو كان لى أنا نفسى أن أنزله في مثل هذا الأمر لنازلته بغير وجل » .

فقال الملك : « وحق القداس إنى لأظنك تستطيعين ذلك أيتها المرأة ، ثم توقعين به الهزيمة ؟ فما تنفس من أبناء بلانتاجنت من هو أصدق منك قولاً » .
وسكت قليلاً ثم قال في نغمة الجد الصارم : « ولكنى أوصيك أن تذكرى أبداً ما يجب لكرم منبتك » .

فقالت أديث : « وماذا تعنى بهذا النصح الذى تنصحنى به في هذه اللحظة جادا ؟ هل أنا من خفة الطبع بحيث أنسى اسمى — وحالى ؟ »

فأجابها الملك قائلاً : « سوف أكلّمك صريحاً يا أديث ، وكلما يكلم الصديق الصديق — ما شأن هذا الفارس بك لو أنه خرج من هذه المبارزة ظافراً ؟ »
فاشتد احمرار أديث خجلاً وغضباً وقالت : « شأنه بى ؟ ماذا عساه أن يكون لى أكثر من فارس كريم ، قمين بما قد توليه الملكة برنجاريا من رضا وعطف ، لو أنه اختارها سيدة له بدلاً من انتقائه من هى أقل منها قدراً ؟ » ثم قالت وهى تفخر : « إن أدنى فارس قد يكرّس نفسه لخدمة العاهلة ، ويكفيه منها عظمتها جزاءً » .

فقال الملك : « ولكنه قد قام بخدمتك وعانى من أجلك كثيراً » .
فأجابه أديث بقولها : « ولقد جازيته على خدماته شرفاً وثناءً ، وعلى آلامه

دموعاً وبكاءً ؛ فلئن كان يطمح إلى غير هذا من ثواب فمن الحكمة أن يعقد حبه بفتاة من مرتبته » .

فقال لها الملك رتشارد : « إنك إذن لا تلبسين قميص الليل الدامى من أجله ؟ » فأجابته أديث قائلة : « كلا ، وما كان لى أن أطلب إليه أن يستهدف بحياته للخطر بعمل فيه من الجنون أكثر مما فيه من الشرف » .

فقال الملك : « هكذا أبدأً تتكلم العذارى ؛ وإذا ما تقدم العشيق المحبوب يطلب يد فتاته تنهدت وقالت له إن نجمها يحكم بغير هذا » .

فأجابت أديث عزيزة النفس وقالت : « إن جلالتك الآن تهددنى للمرة الثانية بتأثير طالى ؛ صدقنى ، مولائى ، إنه مهما يكن من سلطان النجوم ، فإن قريبتك المسكينة لن تقترن بكافر أو مغامر مجهول — إسمح لى أن أصنى إلى موسيقى بلندل ، لأن نغم تخديرك الملكى لا يشنف الآذان » .

ولم يحدث بقية المساء ما يستحق الذكر .

الفصل الثامن والعشرون

هل سمعت ضجيج المعركة وضوضاءها
حينما يتكسر النصال على النصال ، ويلتقى بالجواد الجواد ؟
جراى

ورؤى نظراً لحرارة الجو أن تتم المبارزة الحاسمة التى بعثت على اجتماع هذا الحشد من الأمم العديدة عند (درة الصحراء) بعد مشرق الشمس بساعة ، وكانت أرض النزال الفسيحة التى تم إعدادها تحت إشراف فارس النمر تضم مساحة من الرمل الصلب ، طولها مائة وعشرون ذراعاً وعرضها أربعون ، وكانت تمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب حتى تهيئ للفريقين الارتفاع بإشراق الشمس على السواء ، وأقيم الكرسي الملكي لصالح الدين فى الجهة الغربية من الحظيرة فى قلب المكان ، حيث كان ينتظر من المتبارزين أن يلتقيا فى منتصف العراك ، وأقيم تجاه هذا رواق من حجرات مغلقة أنشئ بحيث تستطيع السيدات اللائى أقيم لايؤاھن أن يرين القتال دون أن يتعرضن للنظر ، وفى نهايتى أرض النزال أقيمت الحواجز التى يمكن فتحها أو إغلاقها حسبما يريد المرء ، وأقيمت كذلك العروش ، ولكن لما رأى الأرشدوق أن عرشه أسفل من عرش رتشارد أبى أن يشغله ؛ أما قلب الأسد الذى كان على أهبة لأن يسلم بالكثير حتى لا تقف الرسوم فى سبيل النزال فقد رضى لساعته أن يبق الكفيلان — كما كان يطلق عليهما — على ظهري جواديهما أثناء القتال ؛ وفى طرف من أطراف الميدان وقف أتباع رتشارد تقابلهم حبة كتراد ؛ وحول العرش الذى أعد للسلطان اصطف حرسه الفاخر من أهل جورجيا ، وشغل بقية الساحة النظارة من المسيحيين والمسلمين . وقبل منبثق النهار بوقت طويل أحاط بساحة النزال عدد من الأعراب أكثر مما رأى رتشارد فى المساء السالف ، ولما أشرقت فوق الصحراء من قرص الشمس البهى خيوط الشعاع الأولى ، قام السلطان نفسه ينادى : « حى على الصلاة ،

حي على الصلاة ! » بصوته الجمهوري ، فأجابه الآخرون الذين تخول لهم مرتبتهم وتدفعهم حماسهم إلى النداء مؤذنين ، وكان مشهداً رائعاً أن تراهم جميعاً وقد خروا على الأرض سجداً يكررون دعواتهم مولين شطر مكة ، ولكنهم ما إن نهضوا من السجود حتى بدت أشعة الشمس — وسرعان ما اشتد اتقادها — وكأنها تؤيد ما زعم اللورد جلزلاند في الليلة السابقة ، فلقد انعكس ضياؤها من رؤوس الحراب العديدة ؛ ولا مرية في أن رماح الأمس الجرداء لم تعد كما كانت بغير سنان ، فأشار دى فو لسيده إلى هذا ، وأجابه الملك جازعاً إنه يثق كل الثقة في إخلاص السلطان ونزاهته ، ولئن كان دى فو يرتاع لجسمه الضخم فلينسحب .

وسرعان ما علا بعد هذا صوت الدق على المزاهر ، وما إن طرق هزيمها أسمع الفرسان حتى نزلوا جميعاً عن ظهور خيولهم ، واستلقوا على وجوههم كأنهم يصلون الصبح ثانية ، وإنما كان ذلك تهيئة الفرصة للملكة وأديث ووصيفاتها كي يخرجن من السرادق إلى الرواق الذي أعد لهن ؛ وقد خفرن خمسون حارساً من سراي صلاح الدين شاهري السلاح ، وقد أمروا أن يمزقوا إرباً إرباً كل من يجرؤ — أميراً كان أو حقيراً — على النظر إلى السيدات وهن سائرات ، أو يحاول أن يرفع رأسه ، حتى يعلن سكوت الموسيقى للرجال جميعاً أنهم قد أُوين إلى رواقهن حيث لا تراهن العيون المتطلعة .

هذه الرعاية الشرقية لاحترام الجنس اللطيف رعاية لا يتصورها العقل ، حدث بالملكة برنجاريا أن تنفوه ببعض النقد والقدح الشديد في صلاح الدين وبلده ، ولكن عرينهن — كما أطلقت على الرواق الملكة الحسنة — كان مغلقاً في أمن ، ووقف على حراسته أتباعهن السود ، فاضطرت إلى القناعة بأن ترى وتناست إلى حين حبها لأن ترى ، وهو إلى نفسها أشهى .

وحينئذ ذهب كفيلا البطلين — كما يحتم عليهما الواجب — ليطمئنا على تمام تسليح رجلهما واستعدادهما للنزال ؛ ولم يسارع أرشدوق النمسا إلى تأدية هذا الجانب من طقوس الحفل إذ أنه كان قد أدمن في شراب نبيذ شيراز في الليلة

السالفة إيماناً شديداً لم يألفه ، ولكن كبير رجال المعبد ، وقد كان أكثر منه اهتماماً بنتيجة النزال ، بكر إلى خيمة كثراد منتسرا ، ولشد ما كانت دهشته حينما أنكر عليه الأتباع الدخول .

فقال لهم كبير رجال المعبد وقد اشتد به الحنق : « ألا تعرفوني أيها الأوغاد ؟ » . فأجاب خادم كثراد وقال : « إنا نعرفك أيها الرجل الشجاع المبجل ، ولكن حتى أنت لا يجوز لك الدخول الآن — إن المركز قد أوشك أن يقر بما في نفسه » .

فصاح رجل المعبد في نغم اختلط فيه الذعر بالدهشة والازدراء وقال : « كيف يقر بما في نفسه ؟ ولن ؟ ناشدتك الله إلا خبرتموني » .

فقال الخادم : « لقد أمرني سيدي أن أكتُم السر » ؛ وما إن سمع كبير رجال المعبد هذا حتى دفعه وخلفه وراءه ودخل الفسطاط عنوة .

فألقي مركيز منتسرا جائئاً لدى قدمي ناسك عين جدة وهو يوشك أن يعترف . فقال كبير رجال المعبد : « ما ذا تعنى بهذا أيها المركز ، هيا وانهض واستح وإلا فإن كان لا بد لك من الاعتراف ، فهأنذا » .

فأجاب كثراد بوجه شاحب وصوت متهدج وقال : « لقد اعترفت لك كثيراً قبل الآن ، فناشدتك الله أيها الرئيس الأعظم أن تعزب ، ودعني أكشف عن مكنون نفسي لهذا الرجل الطاهر » .

فأجابه رئيس الفرسان وقال : « فيم هو أظهر مني ؟ أيها الناسك ، أيها المجنون — قل لي إن كنت تجسر على القول ، فيم أنت تفضلني ؟ » .

فأجابه الناسك قائلاً : « أيها الرجل الوقح الدنيء ، أعلم أني كالنافذة الشبكية ، ينفذ النور إلا أنه يخلو لصلح الآخرين وليس لي — واحسرتاه — فيه خير ، وما أنت إلا كالعمامة الصلبة لا تتلقى لنفسها النور ولا تبلغه غيرها » .

فقال كبير رجال المعبد : « لا تهذر لي بهذا ، إن المركز لن يعترف هذا الصباح إلا إن كان الاعتراف لي لأنني لن أفارق جانبه » .

فقال الناسك لكزاد : « هل هذه مشيئتك ؟ ولا تظن أنى سوف أصدع بأمر هذا الرجل المتكبر إن كنت ما زلت ترغب فى معونتي » .
فقال كزاد مترددا : « ياويلتى ! ماذا تريدنى أن أقول ؟ — استودعتك الله الآن ، فسوف نتحدث فى هذا الشأن بعد حين » .
فصاح الناسك : « قاتل الله التسويف ! إنه يقتل النفس ! — وداعا أيها الرجل التعس — وداعا ، لا إلى حين ، ولكن إلى أن يلتقى كلانا حينما كان » ثم التفت إلى كبير رجال المعبد وقال : « أما أنت (فلترجف) ! » .
فأجابه صاحب المعبد مزدريا وقال : « (أرجف !) والله إن أردتُ هذا ما استطعته » .

ولكن الناسك كان قد فصل عن الفسباط فلم يستمع إلى جوابه .
وقال الرئيس الأعظم : « تعال ! إلى هذا الترس على عجل ؛ وما دمت تريد أن تؤدى هذا العمل الطائش فاستمع إلىّ ؛ أظننى أعرف أكثر مواطن الضعف فى نفسك عن ظهر قلب ، وإذن فلنقض الطرف عن التفصيل فقد يطول ، ولنبدأ بالغفران ؛ لا طائل من سرد الآثام الدنسة ونحن نقدم على إزالتها من أيدينا » .
فقال كزاد : « إنك تعرف من أنت ، فمن الكفر بالله أن تتحدث عن مغفرة الآخرين » .

فقال صاحب المعبد : « إن هذا لا يتفق ونص الكتاب يا سيدى المركز ؛ إنك أكثر وسوسة من الأرثوذكس ؛ إن غفران القس اللئيم له من الأثر كما لو كان قديساً — وإلا فاللهم ارحم التائب المسكين ! من هذا الجريح الذى يسأل إن كان الجراح الذى يضمده جراحه طاهر اليدين ؟ — تعال وهيا بنا إلى هذا المعبث » .
فقال كزاد : « كلا ، والله لخير لى أن أموت بغير اعتراف من أن أهزأ بالسر المقدس » .

فقال صاحب المعبد : « تعال أيها المركز النبيل ، استنهض شجاعتك ، ولا تقل بهذا القول ، إنك سوف تقف بعد ساعة ظافراً فى ساحة النزال ، أو

تعترف وأنت في خوذتك كما يعترف الفارس المقدام .
فأجاب كنراد قائلاً : « يا للويل أيها الرئيس الأعظم ؛ إن كل شيء في هذا الشأن كان مشئوماً ، وما اكتشف الكلب بغريزته عن الأمر هذا الكشف العجيب — وإعادة الفارس الاسكتلندي إلى الحياة ، وجميئه إلى ساحة النزال كالطيف — ما هذا إلا من علامة الشر » .

فقال صاحب المعبد : « ما هذا الهراء ! لقد رأيته وأنت تصوب رمحك نحوه جسوراً وأنما تلهوون ، وقد تعادلتما في الظفر — فاحسب أنك في مباراة ، ومن ذا الذي يقف في ميدان الطعان خيراً من وقفك ؟ تعالوا أيها الحشم وخدام السلاح ؛ إن سيدكم ينبغي أن يتأهب لميدان القتال » .

فدخل الخدم على إثر ذلك وشرعوا في تسليح المراكز .

وقال كنراد : « كيف جو الصباح في الخارج ! » .

فأجابه أحد الخدم قائلاً : « لقد أشرقت الشمس معتمة » .

فقال كنراد : « ها أنت ذا ترى أيها الرئيس الأعظم أن لا شيء يبسم لي » .

فأجابه صاحب المعبد وقال : « لسوف يكون قتالك أكثر جرأة يا بني ،

واحمد الله الذي خفف من حدة شمس فلسطين كي توائم ما أنت مقبل عليه » .

وهكذا كان يمزح الرئيس الأعظم ، ولكن نكاته فقدت تأثيرها على عقل

المركز المضطرب ، ورغم أنه حاول أن يظهر بالابتهاج ، إلا أن صاحب المعبد قد

أدرك كآبته .

ففكر في نفسه : « إن هذا النذل سوف يخسر المعركة لمحض وهنه ، وخور

قلبه الذي يسميه رقة الضمير . كان ينبغي لي أنا — وأنا لا يهزني خيال ولا طيرة ،

ثابت في مرماي ثبوت الصخر — أن أقاتل في المعركة بنفسى ؛ وددت والله لو

أن الاسكتلندي ضربه الضربة القاضية وقضى عليه في حينه ؛ فما بعد فوزه بالنصر

ما هو خير من هذا ، ولكن مهما يكن من شيء ، فينبغي أن لا يكون له قس

غيري يعترف له ، فإن إثمي شديد الاشتباك بإثمه ، وقد يقر بذنبي في إثر ذنبه » .

وبينا هذه الخواطر تلعب برأسه ، كان يواصل معونة المركز على التسليح وهو صامت .

وأخيراً حانت الساعة ونفخ في الأبواق ، ونزل الفارسان في ساحة النزال راكبين مسلحين إلى الأطراف ، وكانا على ظهري جواديهما أشبه برجلين أوشكا أن يشتبكا في معركة في سبيل شرف أمة بأسرها ، ورفعا خوذتيهما وطوفا بالميدان ثلاثاً عرضاً للناظرين ، وكان كلاهما جميل الحيا ، ولكن الاسكتلندي كانت على جبينه مسحة من ثقة الرجولة — أمل مشرق تكاد تبتهج له النفس ؛ بينما كانت تخيم على جبين كزاد سحابة من اليأس المشئوم ، رغم أن كبرياءه وتكلفه قد أعادا إليه كثيراً من شجاعته الطبيعية ، وحتى جواده كان يسير على صوت البوق وهو أقل نشوة وسروراً من الحصان العربي النبيل الذي كان يمتطي صهوته السر كنت ؛ وهز المحدث برأسه حينما رأى أن المدعى يطوف بميدان النزال مع مسير الشمس — أي من اليمين إلى اليسار — بينما كان المتهم يدور الدائرة نفسها ولكن من اليسار إلى اليمين ؛ وهو مسير مشئوم في عقيدة كثير من البلدان .

وأقيم تحت الرواق الذي تشغله الملكة مباشرة محراب مؤقت ، وقف الناسك إلى جانبه في زى طائفته كقس من كرمل ، وكان بين الحاضرين كذلك غيره من رجال الكنيسة ؛ وإلى هذا المحراب سيق المدعى والمتهم كلاهما ، متتابعين ، يتقدم كلا منهما كفيله . ولما بلغا المحراب ترجلا ، وأقر كل منهما بعدالة قضيته ، وأقسم بأصحاب الإنجيل يمينا مغلظة ، ودعا ربه أن يصيب من النجاح بمقدار ما في قسمه من حق أو باطل ، وأقسما كذلك أنهما أتيا للقتال في لباس الفروسية وبالأسلحة المعتادة ، وأنكر كل منهما استخدام الرق والتمايم والحيل السحرية لاستمالة النصر إلى جانبه ؛ ونطق المدعى اليمين بصوت ثابت مسترجل ، وطلعت عليها سيما الجرأة والبهجة ؛ ولما فرغا من هذه الطقوس ، تطلع الفارس الاسكتلندي إلى الرواق ، وطأ برأسه نحو الأرض إجلالا لذلك الجمال المستتر الذي كان محتجبا في الداخل ، ثم وثب وهو مثقل بالسلاح على ظهر جواده دون أن يستخدم الركاب ، واستحث

الحصان على أن يسير به تارة عن يمين وطوراً عن شمال ، حتى يبلغ به موقفه في الطرف الشرقى من الميدان ؛ وتقدم كثراد كذلك نحو المحراب وفيه من الإقدام الكفاية ، ولكن صوته وهو يقسم اليمين كان أجوف كأنه يسيخ في خوذته ، ودعا الله أن يحكم بالنصر للقضية العادلة بشفتين أخذتا تشجبان وهما تلفظان بهذه السخرية الكافرة ؛ ولما أن عطف على جواده يركبه ، دنا منه الرئيس الأعظم واقترب كأنه يريد أن يصلح شيئاً في وضع درعه وهمس في أذنه : « ما أُنْذَكَ وما أغفلَكَ ! استجمع حواسك وأدلى هذه المبارزة بشجاعة ، وإلا فوالله لو نجوت منه لما نجوت منى ! » .

وربما كان في النغمة القاسية التي همس بها الرئيس في أذن المركز تمة اضطراب أعصابه ، إذ أنه زل وهو يمتطي الحصان . وحقا لقد أعاد قدميه إلى الثبوت ، ووثب على ظهر الجواد برشاقتة المعهودة ، وأبدى حذقه في ركوب الخيل وهو يتخذ مكانه أمام للمدعى ، إلا أن الزلة لم تغب عن أعين أولئك الذين وقفوا يترقبون الطيرة التي قد تتكهن بقضاء ذلك اليوم .

ودعا القساوسة ربهم خاشعين أن يحصص الحق في النزاع ، ثم فصلوا عن الميدان ؛ ونفخ في بوق المهاجم عالياً ، ونادى مناد مدجج بالسلاح في الطرف الشرقى من الحلبة وقال : « هنا يقف فارس كريم ، هو السر كُنْث الاسكتلندى ، بطل نائب عن الملك العظيم رتشارد ملك انجلترا ، الذي يتهم كثراد مركيز منتسرا بالخيانة الشنعاء ويجرح عزته . »

ولما ذكر النداء « كُنْث الاسكتلندى » فأعلن بذلك اسم البطل وصفته — وما كانت العامة تعرفهما حتى ذاك — انبعث عن أتباع الملك رتشارد هتاف عال مرح ، وما كادوا يطيقون سماع جواب المتهم رغم الأوامر المتكررة بالترام الصمت ؛ أما المتهم فقد أعلن بطبيعة الحال براءته وتقدم للقتال ؛ ثم دنا أتباع المتبارزين وقدم كل فريق لسيدة درعه ورمحه ، معينا إياه على تعليق الدرع بركبته بحيث تبقى كلتا يديه طليقتين ، إحداها لتمسك بالزمام ، والأخرى لتضرب بالرمح .

وكان يظهر على درع الاسكتلندي « النمر » شعاره القديم ، مزيد عليه طوق وسلسلة محطمة إشارة إلى أسره في الأيام الأخيرة ؛ أما درع المركز فكان يحمل صورة جبل صخرى ناثى إيماء إلى لقبه [منت = جبل ، سرا = ناثى] ، وهز كل منهما برمحه فوق رأسه كأنه يريد أن يتثبت من وزن السلاح الضخم وصلابته ، ثم أقره في غمده ثانية ، وتراجع الكفيلان والمنادون والأتباع بعدئذ إلى الحواجز ، وجلس المتضاربان متقابلين وجهاً لوجه برماح منكسة وخوذات مسترخية ، وجسداهما مستتران كل التستر ، حتى لقد كانا إلى تماثيل من الحديد المسبوك أقرب منهما إلى مخلوقين من اللحم والدم ، وساد بين الحشد صمت الانتظار — وغلظت أنفاس الرجال ، وباتت أرواحهم وكأنها في عيونهم جاثمة ، ولم يعل صوت غير نفخ الجوادين الكريمين بالنخيرين ونبشهما بالحوافر ، وقد أحس الجوادان بما أوشك أن يقع ، فكانا على قلق لأن يندفعا إلى العراك ؛ ووقفوا كذلك نحواً من ثلاث دقائق إلى أن صدرت عن صلاح الدين إشارة ما ، فشق الهواء مئين الآلات بجلبتها النحاسية ، وحفز كل بطل حصانه بالهماز وأرعى الزمام ، وعدا الجوادان عدوا سريعاً ، والتقى الفارسان وسط الميدان يهزان الأرض كالرعد القاصف ؛ وما كان في الظفر رية — كلا ، ولم يكن ثمة لحظة من شك ، فلقد كان يبدو على كتراد حقاً أنه مقاتل مدرب ، إذ أنه ضرب خصمه ضربة الفارس وسط درعه ، وهو يحمل رمحه مستقيماً مسدداً ، حتى لقد سقط الرمح محطماً من رأسه الصلب إلى طرف القفاز ؛ وكر حصان السر كنهت متراجماً ذراعين أو ثلاث ، وسقط على عجزه ، ولكن راكبه خف إلى إنهاضه بيده وعنانه ؛ أما كتراد فنزل ولم ينهض ، لأن السر كنهت طعنه برمحه فاخترق الدرع ثم زرداً مموهاً من صلب « ميلان » ثم ستره من حلق الحديد تحت الزرد ، وجرحه في صدره جرحاً بليغاً ، ثم رفعه عن ظهر جواده تاركاً قناة الرمح في الجرح راسخة ؛ وحينئذ احتشد حول الجريح الكفيلان والمنادون وصلاح الدين نفسه بعد أن نزل عن عرشه ؛ أما السر كنهت فقد جرد سيفه ، قبل أن يدرك أن خصمه قد بات عاجزاً كل العجز ، وأمره

حينئذ أن يقر بإثمه ، فرفع الرجل الجريح خوذته على عجل ، وحدّق ببصره في السماء وأجاب : « ماذا تريد مني أكثر من ذلك ؟ لقد حكم الله بالعدل — أنا آثم ؛ ولكن بالمعسكر من هم شر مني خيانة — آتوني بالقس إشفافاً على روحي ! » .

وعادت إليه الحياة وهو ينبس بهذه الكلمات .

فقال الملك رتشارد لصلاح الدين : « بالتميمة — بذلك العلاج الناجع ، يا أخي المليك ! » .

فأجاب السلطان قائلاً : « إنما أخلقُ بالخائن أن يُجذب من عقبه ويُبعد عن الميدان إلى المقصلة ، لا أن ينتفع بمزاياها » . ثم قال بعد ما حدق ببصره في الرجل الجريح : « وإن في نظرتي لمثل هذا القضاء ، لأن جرمه قد يشفى ، ولكن عزرائيل قد ختم على جبين اللثيم » .

فقال رتشارد : « ورغم هذا ، فإني أتوسل إليك أن تقوم له بما تستطيع ، حتى يتسع له الوقت للاعتراف على الأقل ؛ لا تقتل فيه الروح والجسد ! إن نصف ساعة من الزمن قد تعادل حياة أكبر البطارقة سنًا عشرة آلاف مرة » .

فقال صلاح الدين : « سأطيع إرادة أخي المليك . أيها العبيد ، احملوا هذا الرجل الجريح إلى سرادقنا » .

وكان صاحب المعبد حتى آثذ واقفًا مكتئبًا ينظر في صمت فقال : « لا تفعلوا ذلك ، إني ودوق النمسا الملوكي لا نقبل أن يأخذ العرب هذا الأمير المسيحي التمس ، ويختبروا فيه تمامهم ؛ نحن المتكفلين به نطلب إيداعه تحت رعايتنا » .

فقال رتشارد : « أي أنكما تأبيان هذه الوسيلة بعينها التي تقدم لشفائه ؟ » .

فقال الرئيس الأعظم وقد استجمع نفسه : « كلا ، ليس الأمر كذلك . إذا كان السلطان يستخدم أدوية شرعية فإنه يستطيع أن يعنى بالريض في خيمتي » .

فقال رتشارد للسلطان : « أتوسل إليك يا أخي الكريم أن تفعل ذلك ، وإن

يكن الإذن قد صدر بفظاظة وخشونة — والآن هلم بنا إلى عمل أجل من هذا —

انفخوا في الأبواق — واهتفوا يا أبناء الإنجليز — إجلالا لبطل انجلترا ! » .

فدقت الطبول ونفخ في الأبواق ، وضربت الصنوج في الحال ، وعلت الأصوات بالهتاف المتواصل ، وهو طريقة التهليل الانجليزية التي ألفوها دهوراً ، وذلك وسط صياح الأعراب المججل الذي لا يسير على ترتيب ، كما ترن أنغام الأرغن وسط عويل العواصف ، وأخيراً ساد الصمت بين الحاشدين .

وواصل قلب الأسد حديثه وقال : « أى فارس النمر الشجاع ، لقد بينت لنا أن الأتيوبي قد يبدل جلدأ غير جلده ، والنمر الأرقط سمات غير سماته ، وذلك رغم أن الكهنة لا يعرفون من المستحيلات إلا ما جاء في الكتاب المقدس ، ولكنى أريد أن أحدثك حديثاً آخر حينما أسير بك إلى حضرة السيدات وهن خير حكم وخير من يجازى أعمال الفروسية » .

فانحنى فارس النمر انحناء القبول .

« وأنت أيها الأمير صلاح الدين سوف تمثل لديهن كذلك ، وإنى أؤكد لك أن ملكتنا لن تحسب أنها على الرحب إلا إذا تهيأت لها الفرصة لتشكر مضيفها الملك لاستقبالها هذا الاستقبال الفاخر » .

فطأطأ صلاح الدين رأسه برشاقة ولكنه رفض الدعوة .

وقال : « إنما يجب أن أعنى بالرجل الجريح ، إن الطبيب لا يترك مريضه إلا كما يترك البطل ساحة الوغى ، حتى وإن دُعى إلى مخدع كخداع الفردوس . وفوق هذا ، أيها الملك رتشارد ، لتعلمن أن دم الشرق لا يتدفق هادئاً في حضرة الجمال كدم أبناء بلادكم ، ولقد قيل : (إن عيني المرأة كطبأة السيف ، فمن ذا الذي يستطيع أن يحرق فيهما ؟) . من أراد أن لا يحترق ، فليتنجب أن يسير على النار الحامية . إن عقلاء الرجال لا ينشرون الكتان أمام الهيبة المتقد ، ويقول الحكماء : « من أضع كنزاً ، فليس من الحكمة أن يتطلع إلى الخلف كي يملأ منه ناظره » .

ونعتقد أن رتشارد قدر هذه الدوافع الرقيقة التي انبعثت عن خلق يختلف عن خلقه ، ولم يلح في مطلبه بعد ذلك .

وهم السلطان بالرحيل وهو يقول : « أُملى أن تقبلوا جميعاً دعوتي إياكم إلى الطعام في منتصف النهار تحت الخيمة السوداء المصنوعة من جلد الجمل ، وهي خيمة زعيم من زعماء كردستان » .

وأذيعت هذه الدعوة بين المسيحيين ، وشملت كل من كانت له من المكانة ما يكفيهِ لأن يجلس على مائدة أعدت للأمراء .

وقال رتشارد : « أنصتوا ! إن المزاهر تعلن أن ملكتنا ووصيفاتها خارجات من رواقهن ؛ وانظر إلى العائم ترها وقد غاصت في الأرض كأن ملكاً من ملائكة الهلاك قد ضرب فوقها ؛ لقد انكبوا جميعاً على وجوههم كأن نظرة واحدة من عين العربي تطفيء بريق خدود السيدات ! هيا بنا إلى السرادق ، وسيروا برجلنا الظافر إلى هناك منتصرا — والله إنني لأشفق على هذا السلطان النبيل الذي لا يعرف عن الحب إلا كما يعرف من هم أدناً منه طبعاً ! » .

وضرب (بلندل) على قيثارته أعلى أنغامها ترحيباً بمقدم الظافر إلى سرادق الملكة برنجاريا ، وقد دخل مستنداً يميناً ويساراً على ضامنيه رتشارد وتوماس لنجسورد ، ثم جثا خاشعاً أمام الملكة ، ولكن أكثر من نصف الولاء كان موجهاً في صمت إلى أديث التي كانت تجلس إلى يمينها .

وظفحت نفس الملك بشراً ، وأراد أن يقوم بتقاليد الفروسية فقال : « جردوه عن سلاحه ، سيداتي ، وليشرف الجملُ الشهامة ! انزعى عنه مهمازيه يا برنجاريا ؛ إنك ملكة ، ولكنك تدينين له بكل شارة من شارات الرضا بوسمك أن تمنحها إياه . حلّ رباط خوذته يا أديث — حلّ يدك حتى وإن كنت أشد ذرية بلانتاجنت كبراً ، وكان هو أققر فارس على وجه البسيطة ! » .

وصدع السيدتان بالأمر الملكي — وشرعت برنجاريا تعمل بمشاربة واهتمام ، حريصة على أن تشبع رغبات زوجها ، وأديث تنتابها حمرة الحياء حيناً والشحوب المتزايد حيناً آخر ، وهي تفك بتؤدة واضطراب — يعاونها لنجسورد — الروابط التي كانت توثق الخوذة بالزرد .

ولما نزع الخوذة عن السركنث بدت للعيان طلعته ، ووجهه ينبض بالجهد الذى بذل حديثاً ، كما ينبض — بما لا يقل عن ذلك شدة — بالعاطفة الثائرة فى نفسه إذ ذاك ، فقال رتشارد : « ماذا تنتظرون من وراء هذا الرداء الحديدى ؟ ماذا ترون فيه أيها الشجعان وأيتها الحسان ؟ » ثم قال : « هل هو يشبه العبد الأتيوبى ، أم هل يبدى وجه مغامر مجهول غير ذائع الصيت ؟ كلا ومهندى الكريم ! — هنا نهاية تنكره على ضروبه المختلفة ، لقد جثا أمامك وما تعرفين عنه غير فضله ، ولينهض كذلك مميزاً بكرم أرومته وبحسن طالعه ، لينهض الفارس الجرىء (كنث) باسم (دافيد إيرل هنتنجدن) أمير اسكتلندا الملكى ! » .

فساد بين الجميع العجب والدهشة ، وسقطت من يد أدith الخوذة التى أمسكت بها منذ حين .

وقال الملك : « أجل ، سادتى ، إنه لكذلك . إنكم تعرفون كيف أن أسكتلندا قد خدعتنا حينما ارتأت أن تبعث إلينا بهذا (الايرل) الجسور يصعبه جماعة من الشجعان من خيار أبنائها ونبلائهم ليعاونوا جيوشنا فى هذه الحملة على فلسطين ، ثم أخلت بوعدها ؛ ولكن هذا الشاب النبيل ، الذى كان على الصليبيين الاسكتلنديين أن يسيروا تحت لوائه ، أدرك أن من فحش العار أن يمسك سلاحه عن الحرب المقدسة ، فانضم إلينا فى صقلية ومعه ثلة صغيرة من الأتباع الغيورين المخلصين ، انضم إليها الكثير من مواطنيه ، الذين كانوا يجهلون مرتبة قائدهم ؛ وقد حصد الموت كل من يثق فيهم الأمير الملكى سوى سوى تابع واحد مسن ، فى وقت كادسره المحتبى فى طي الكتمان أن يدفعنى إلى أن أقطع — فى شخص مغامر أسكتلندى — أملاً من أنبل آمال أوروبا . لم أكن تذكر مرتبتك يا هنتنجدن النبيل ، وأنت محفوف بخطر أحكامى العاجلة الشديدة الانفعال ؟ هل كنت تحسب رتشارد بمستطيع أن يسىء استخدام ماله من فضل على وريث ملك كثير ما ألفاه معادياً له ! » .

فأجاب (إيرل هنتنجدن) وقال : « إني لم أصمك بهذا العسف أيها الملك رتشارد ، ولكنني لم أطق أن أقر بأن أمير اسكتلندا كي أنجو بحياتي — وقد استهدفت للخطر لتقصيري في واجب في الولاء — وفوق ذلك فإني كنت قد أقسمت أن أبقى مرتبتي مجهولة حتى تنتهي الحرب الصليبية ، وما ذكرتها إلا وأنا أتأهب للموت وأعترف لهذا الناسك الواقف هناك » .

فقال رتشارد : « إذن فلقد كانت معرفة هذا السر هي التي حدث بالرجل الكريم أن يتعجلني في الرجوع عن حكمي الشديد الذي حكمت ؟ ما كان أجدره أن يقول لي إن هذا الفارس الكريم لو سقط من جراء حكمي لوددت فيما بعد لو أن الحادث لم يقع حتى وإن كلفني ذلك شلواً من أشلائي — شلواً ! كلا بل لوددت أن لم يقع حتى وإن كلفني حياتي — مادام العالم لا بد قائل إن رتشارد قد أساء إلى مآل وريث اسكتلندا — وقد وثق الرجل في كرمه » .

فقالت الملكة رنجاريا : « ومع ذلك فهل لنا أن نعرف من جلالتك بأية صدفه عجبية سعيدة انحل هذا اللغز بعد لأي ؟ » .

فقال الملك : « وردت إلينا الرسائل من إنجلترا ، وعلمنا منها من خلال ما حملت من أبناء أخرى غير سارة أن ملك اسكتلندا قد ألقى القبض على ثلاثة أو أربعة من نبلائنا وهم يحجون إلى القديس « ننيان » ، وذريعتهم في ذلك أن وريثه الذي ظن الناس أنه يقاتل في صفوف الفرسان التيوتون ضد المنافقين في « بروسه » هو في الحقيقة في معسكرنا وتحت سلطاننا ؛ ولذا فقد رأى وليم أن يقبض على هؤلاء النبلاء رهناً لسلامته ، فرمى لي هذا الحادث الشعاع الأول على مرتبة فارس النمر الحق ، وأيد شكوكي دى فو ، الذي عاد من عسقلان ومعه خادم إيرل هنتنجدن الأوحده ، وهو رقيق صلب الرأي ، سار مع دى فو ثلاثين ميلاً كي يفشوا له سرّاً كان ينبغي له أن ييوح لي به » .

فقال لورد جلزلاند : « التمسوا المَعذرة « لستروخان » العجوز ، فلقد علمته التجارب أن قلبي أشد ليناً من قلوب بلانتاجنت » .

فصاح به رتشارد : « قلبك لين ؛ كيف هذا وأنت سلعة من الصلب العتيق ،
أو حجر من صوان (كمبرلاند) ! » . ثم التفت إلى ابنة عمه وتكلم بأسلوب
صعد منه الدم في وجنتيها ، وقال : « إنما نحن ، يا أديث ، أبناء بلانتاجنت ، الذين
نفخر بالقلوب اللينة الحساسة ؛ هات يدك يا ابنة عمي الحسنة ، وأعطني يدك
يا أمير أسكتلندا » .

فتراجعت أديث وجاهدت أن تحفّ اضطرابها ، وهي تزعم أنها تحاول المزاح
بسلامة طوية قريبها المليك ، وقالت : « أفلح عن هذا مولاي ؛ ألا تذكر أن يدي
قد كتب عليها أن تهدي صلاح الدين المسلم العربي — وكل جيوشه من ذوى
العمائم — إلى الدين المسيحي ؟ » .

فاجابها رتشارد قائلاً : « أجل ، ولكن ربح التنبؤ قد انقلبت ، وهي الآن
تهب من ركن آخر » .

فتقدم الناسك وقال : « لا تسخر وإلا اشتد إثمك ؛ إن ملائكة السماء
لا تكتب غير الحق في سجلها المنير ؛ إنما هو بصر الإنسان الذى بلغ به الوهن
أن لا يقرأ ما سطوروا صواباً ؛ اعلم أنى حينما هجع صلاح الدين العربى وكنت في
مغارتى ، طالعت النجم وعلمت أن تحت سقيفتى أميراً ، هو عدو رتشارد الطبيعى ،
وأن حياة أديث بلانتاجنت معقودة بحياته ، فما كان لى أن أشك في أن ذلك هو
صلاح الدين الذى كنت بمكاته عليا ، لأنه كثيراً ما أتى لزيارتى بالكهف يحادثنى
في دورات الأجسام السماوية ؛ ثم هدتنى بعد ذلك أنوار الكون إلى أن الأمير ،
زوج أديث بلانتاجنت ، سوف يكون مسيحياً ، وأنا في تأويل النجوم ضعيف
ساذج ، فاستنبطت إذ ذاك اعتناق السلطان النبيل للمسيحية ، وهو رجل كثيراً
ما مالت به صفاته الكريمة نحو الحق . إن إحساسى بضعفى قد أذلّ أنقى
إلى الرغام ، ولكنى في الرغام وجدت راحة الضمير ! إنى لم أصب مطالعة أقدار
الآخرين — ومن يدرينى لعلى كنت أخطئ حساب نجمى أنا نفسى ؟ إن الله
لا يريدنا أن نسطو على حقوق الملائكة أو نستطلع أسرار الخفية . إنما واجبنا أن

ننتظر يوم الدين ساهرين خاشعين يعمر قلوبنا الخوف والأمل . لقد أتيت إلى هنا رسولا متقشفاً ، ونبياً شامخاً ، أجيد — حسب ظني — إرشاد الأمراء ، وقد وهبني الله قوى غير طبيعية ، وأثقلني بحمل حسبت أن لا يطيقه غير عاتق ، ولكن موافقي قد تقطعت ! فلأعودن من هنا متواضعاً في جهالتي ، نادماً ، ولكنني لست قانطاً بغير أمل .

وبعد ما أتم هذا الحديث انسحب من الجمع ؛ ويسجل التاريخ أن نوبات الجنون قل أن عاودته من منذ ذلك الحين ، وأن كفارته باتت من الضرب الخفيف ، مصحوبة بأمل في المستقبل خير من أمله السالف ؛ وكان لديه من الاعتداد بالرأي — حتى في جنونه — الشيء الكثير ، حتى إنه لما أيقن أنه كان يرحب بنبوءة لا أساس لها — بل ويبشر بها بحماسة شديدة — كان لذلك على نفسه أثر كأثر الدم يغيض من جسم الإنسان فيلطف من حرارة الذهن ويخفف عنها .

ولا حاجة بنا إلى أن نتبع بالبيان المفصل مؤتمرات السراشق الملوكي ، أو أن نعرف هل « داويد إيرل هنتنجدن » كان في حضرة أدith بلاتاجنت صامتاً صمته حينما كانت مضطراً إلى العمل وهو متنكر في شخص مغامر مجهول لا اسم له ؛ ويجوز لنا أن نعتقد صواباً أنه كان في هذا المقام يعبر بالحماسة اللاتئة عن عاطفته التي كثيراً ما تعسر عليه من قبل أن يلبسها ثوب الكلام .

واقتربت الظهيرة ، ولبث صلاح الدين ينتظر أمراء العالم المسيحي في خيمة لا تختلف كثيراً عن الخيام المألوفة بين عامة الكرد والعرب ، اللهم إلا في ضخامة حجمها ؛ ومع ذلك فقد أعدت تحت طرفها الأسود الفسيح مائدة على أنحر طراز في الشرق ، ومُدت على بُسْط من أنفاس الأنواع ، نثرت عليها الوسائد للزائرين ؛ ولكننا لانستطيع أن نقف بالقاري ونصف له صحائف الذهب والفضة — والتفويف الفاخر بالنقوش العربية — وشمالات الكشمير — وحرير الهند ، التي كانت منشورة هناك بكل جلالها وجمالها ؛ كما أنا لا نستطيع ألبتة أن نتحدث عن أصناف الحلوى العديدة ، والطعام المحفوف بالأرز الملون على أشكال عدة ، وكل ما لد وطاب

من غير ذلك من ألوان الطهى الشرقى ، من خراف مشوية بأسرها ، وصيد وطيخ وطهى بالأرز واللحم والتوابل ، مكدساً فى أوان من ذهب ومن فضة وخزف ، ومختلطاً بأقداح من حلو الشراب المبرد بالثلج والجليد من كهوف جبل لبنان ؛ وكان على رأس المائدة كدس عظيم من الوسائد كأنه أعد لصاحب الوليمة ، ولمن يدعوه من أصحاب المقام الرفيع لأن يتخذوا مكانهم فى ذلك الموضع المميز ؛ وكم من راية وعلم ، وكم من شارة من شارات الظفر فى الحروب وقهر الممالك والدول كانت ترفرف فوق الخيمة فى كل ناحية ، وبخاصة فوق هذا المقعد الرفيع الشأن . ولكن بين هذا كله ، وفوق هذا كله ، كان هناك رمح طويل يتعلق به كفن ، هو علم الموت ، وقد كتبت عليه هذه العبارة القوية : « صلاح الدين ملك الملوك — صلاح الدين قاهر القاهرة — صلاح الدين يجب أن يموت » ووسط هذا الإعداد ، وقف العبيد — الذين أعدوا ألوان الطعام — برؤوس منكسة وسواعد مطبوقة ، صامتين لا حراك بهم كأنهم تماثيل للذكرى ، أو شخوص آلية تنتظر مسّ الفنان لتتحرك .

وكان السلطان يعتقد — كغيره — فى الكثير من خرافات زمانه ، فوقف — وهو ينتظر اقتراب زائريه الأمراء — يستطلع بروج السماء ويديه كتاب مسطور بعث به إليه ناسك عين جدة حينما فصل عن المعسكر .

وتتم لنفسه قائلاً : « ما أعجب هذا العلم وما أغمضه ! إنه يزعم أنه يكشف عن المستقبل الحجاب ، ولكنه يُضِلُّ أولئك الذين يتظاهرون بإرشادهم ، ويُظلم المنظر الذى يزعم إضاءته ! من ذا الذى كان لا يقول أنى كنت ألد خصوم رتشارد وأشدهم عليه خطراً ، وأن عداوته سوف تنتهى بالزواج من قريته ؟ ولكن الآن يظهر أن اقتران ذلك (الإيرل) الشهم بالسيدة ، سوف يودى إلى الصداقة بين رتشارد واسكتلندا ، وهى بلد أشد منى عداوة وخطراً ، فهى كالقط الوحشى فى الغرفة يُخشى بأسه أكثر من الليث فى الصحراء النائبة ... » ، ثم وسوس لنفسه قائلاً : « ولكن النجم كان يشير إلى أن هذا الزوج سوف يكون مسيحياً

وسكت قليلا وكرر الكلمة وقال : « أجل ، مسيحيا ؛ ولقد بعث ذلك في المنجم
التهوس المجنون الأمل في احتمال ارتدادى عن دينى ! ولكن ما كان هذا
ليخدعنى أنا ، أنا ذلك التابع المخلص للنبي » ، ثم رعى بالمكتوب تحت أكداس
الوسائد وقال : « البث هنا أيها المكتوب الخفى الغامض ، ما أعجب ما نبأت به ،
وما أشده على النفوس وقعا ، ما دمت — حتى إن صدقت فيما جاء بك — لن
تصيب من يحاول حل رموز معانيك إلا بكل أثر من آثار الباطل — ماذا
يقصد هذا القادم ؟ » .

وقد وجه عبارته الأخيرة هذه إلى القزم نكتبانس الذى اندفع إلى داخل
الخيمة وهو يرتعد اضطرابا ، وكل لحظة من ملاحظه العجيبة ، التى لا نسق فيها ،
قد التوت فزعا ورعبا ، حتى صار شديد القبح ، فارط الكآبة — وفه فاجر ،
وعينه مملقتان ، ويداه ممدودتان ذعرآ ، وأصابه ممسوخة مجمدة .

فقال السلطان عابسا : « ما وراءك ؟ » .

فأجابه القزم متأوها وقال : « خذ هذه » .

فقال صلاح الدين : « ماذا تقول ؟ » .

فأجابه هذا المخلوق المذعور قائلا : « خذ هذه » ، وربما كان لا يدرك أنه
إنما يكرر اللفظ بعينه .

فقال العاهل : « عنى ، إن أعصابى الآن لا تحمل الهزل » .

فقال القزم : « وما أنا الآن بهازل ، إلا إن كان هزلى يعاون فطنتى على
كسب القوت ، وأنا ذلك اليأس البائس ! استمع إلى ، واصغ لى أيها السلطان
الأعظم ! » .

فقال صلاح الدين : « إن كان لديك مظلمة عادلة تشكوها — جادا كنت أم
هازلا — فلك الحق فى بثها إلى أذنى ملك ؛ تراجع معى إلى هنا » وسار به إلى
الفسطاط الداخلى .

ومهما يكن الأمر الذى تباحثا فيه ، فلقد ارفض اجتماعهما على عجل حينما

نمت إليهما أصوات الأبواق التي أعلنت مقدم الأمراء المسيحيين العديدين ، الذين رحب بهم صلاح الدين إلى فسطاطه بملاطفة ملكية تليق بمكانتهم ومكانته ؛ ولكنه حيا (إيرل هنتنجدن) الشاب تحية خاصة وأسرف له في التهنئة بالأمانى التي أحرزها ، والتي تقف في سبيل آماله السالفة وتخيّم عليها .

وقال السلطان : « ولكن لا تحسبن أيها الشاب النبيل أن أمير اسكتلندا أكثر قبولا لدى صلاح الدين من (كنث) لدى (الضريم) حينما التقيا في الصحراء ، أو من الأتيوبي المنكود لدى الحكيم (أدنبك) ؛ إن طبيعته سمحة مقدامة — كطبيعتك — لها قيمة مستقلة عن الحسب والنسب ، كما أن هذا الشراب البارد الذى أقدم إليك الآن لذيذ المذاق من قدح الخزف كما هو من كأس الذهب » .

فأجابه (إيرل هنتنجدن) بما يليق ، واعترف شاكرًا بالخدمات العديدة التي أداها له السلطان الكريم ، ولكنه لما تناول كأس الشراب السائغ التي قدم إليه السلطان ، وهم بأن يشرب نخبه ، لم يسعه إلا أن يقول مبتسما : « إن الفارس الشجاع (الضريم) لم يعرف كيف يتكون الجليد ، ولكن السلطان السخى يبرد رحيقه بالثلج » .

فقال السلطان : « أفتريد أن يكون العربى أو الكردى عاقلا كالحكيم ؟ من يعمل متنكرا ينبغي له أن يوفق بين ما فى قلبه من هوى وما فى عقله من علم ، وبين الزى الذى يرتدى ؛ لقد أردت أن أعرف ماذا يصنع الفارس الفرنجى الجسور الخالص الطوية فى الجدل مع زعيم من الزعماء ، كما كان يدل ظاهرى ؛ وقد أثرت الشك فى صدق حقيقة ذائعة معروفة ، كي أعرف بأى الحجج أنت تؤيد مزاعمك » . وبينما هما يتجادلان سمع أرشودوق النمسا — وكان قريبا منهما — ذكر الشراب السائغ المثلج ، فدهش لذلك ، وتناول الكأس المترعة مغتبطا مقبلا وإيرل هنتنجدن يوشك أن يردّها إلى مكانها .

وبعد ما احتسى جرعة كبيرة ، ضاعفت من لذة مذاقها حرارة الجو والحمى التي عقت دعارة اليوم السابق ، صاح قائلا : « ما ألذها ؟ » وتهجد وهو يناول

الكأس رئيس رجال المعبد الأعظم ، وأشار صلاح الدين إلى القزم ، فتقدم وقال بصوت أجش : « خذ هذه » ، ففزع صاحب المعبد ، كالحصان يرى ليثاً تحت شجيرة على جانب الطريق ، ولكن سرعان ما تاب إلى ثباته ، وربما أراد أن يخفى اضطرابه فرفع كأس إلى شفتيه — ولكنهما لم يمسا حافة كأس ، وجرد صلاح الدين سيفه عن غمده وسله كما يُسل البرق من السحاب ، وهز به في الهواء — ثم تطوح رأس الرئيس الأعظم إلى أقصى الخيمة ، بينما بقي الجذع مكانه لحظة ، والكأس ما تزال مثبتة في قبضته ، ثم سقطت كأس ، واختلط الشراب بالدماء التي كانت تتدفق من العروق .

فعم الصياح بالخيانة والغدر ، وتقهقر مذعوراً دوق النمسا ، وكان صلاح الدين يقف على مقربة منه ، والسيف في يده يقطر دماً ، وكأن الدوق كان يخشى أن تدور عليه الدائرة ، ووضع رتشارد والآخرون أيديهم على سيوفهم .

وقال السلطان مطمئناً كأن لم يحدث شيء : « لا تخف شيئاً يا دوق النمسا النبيل ، ولا تغضب يا ملك الإنجليز مما شهدت ؛ ما لتكرار الخيانة منه ، ولا من أجل المؤامرة التي دبر للقضاء على حياة الملك رتشارد — كما يقر بذلك خادمه الخاص — ولا لأنه طاردني وأمير اسكتلندا في الصحراء ، وما أبقى لنا من سبيل للنجاة بحياتنا إلا خفة جوادينا — ولا لأنه حث (المارونيين) على مهاجمتنا في هذا الظرف عينه ، لولا أني أتيت عفواً بكثير من الأعراب حتى ماتت الحيلة في مهداها — ما من إحدى هذه الجرائم ولا من أجلها جميعاً ترونها هناك مجندلا ، وإن تكن كل واحدة منها تستحق هذا القضاء — وإنما لأنه منذ أقل من نصف ساعة — قبل أن يفسد علينا حفلنا بمقدمه كما تسمم السموم الجو — طعن بخنجره زميله وصاحبه كنزاد منتسرا خشية أن يعترف بالمؤامرات التي اشتغل بها معاً » .

فصاح رتشارد . « كيف هذا ! أفقتل كنزاد ؟ — ويبد الرئيس الأعظم ، وليه وصديقه ! أيها السلطان النبيل ، إنني لا أشك فيما تقول ، ولكن هذا الخبر يجب إثباته ، وإلا . . . » .

فقال صلاح الدين وقد أشار إلى القزم المذعور : « هنالك يقف الشاهد والدليل ، إن الله الذى يرسل الجبابرة كى تضىء بالليل ، يستطيع أن يكشف عن خفى الجرائم بأحقر الوسائل وأدناها » .

ثم أخذ السلطان يقص قصة القزم ومؤداها ما يلي : — اشتد بنكتبانس حب الاستطلاع الطائش أو — كما أقر تنويرها — فكر فى النهب والاختلاس ، فقتل إلى خيمة كنراد بعد أن هجرها أتباعه ، وقد خلف بعضهم المعسكر ليحملوا خبر انكساره إلى أخيه ، وأخذ بعضهم الآخر يفتنم ما أعد صلاح الدين للقصف والمرح ؛ واستغرق الرجل الجريح فى النوم تحت تأثير تميمة صلاح الدين العجيبة ، فسنحت للقزم الفرصة أن يتجسس كما يشاء ، حتى سمع خطى ثقيلة فارتاع واختفى ، وتوارى خلف ستار بحيث يستطيع أن يرقب حركات الرئيس الأعظم ويتسمع إلى كلماته ، وقد دخل الرئيس وأسدل غطاء السرادق خلفه بحرص وحذر ، فهبت من النوم فريسته ، ويظهر أن الرجل ارتاب فى الحال فى أغراض صاحبه القديم ، فسأله وفى صوته نغمة الذعر لماذا جاء يزعمه ؟

فأجابه الرئيس الأعظم قائلاً : « جئت لتعترف لى وأتجيك » .

ولم يذكر القزم الخائف من حديثهم بعد هذا كثيراً ، سوى أن كنراد توسل إلى الرئيس الأعظم ألا يقضى على رجل جريح ، وأن صاحب المعبد طعنه فى قلبه بخنجر تركى وقال له : « خذ هذه » وهما كلمتان أخذتا بعد هذا مدة تتتابان الخيال المرتاع ، خيال الشاهد المتوارى .

ثم قال صلاح الدين : « ولقد أمرت بفحص الجثة ، وتحققت من صدق القصة ؛ وجعلت هذا المخلوق البائس ، الذى بعثه الله ليكشف عن الجريمة ، يكرر فى حضرتكم الكلمات التى لفظها القاتل ، ولقد شهدت بأنفسكم الأثر الذى تركت على فؤاده » .

وسكت السلطان قليلاً ثم شق ملك أنجلترا الصمت السائد وقال :
« إن كان هذا صدقاً — وهو ما لا أشك فيه — فلقد شهدنا عملاً جليلاً من

أعمال العدل ، وإن يكن إلى الموت لا إلى الحياة ، ولكن لم كان ذلك في هذا الحفل ولم كان بيدك ؟ » .

فقال صلاح الدين : « كنت رسمت لنفسى خطة أخرى ، ولكن لو أننى ما سارعت إلى قتله لا نقلبت نهايته كل منقلب ، لأنى لو كنت سمحت له بارتشاف كآسى — كما أوشك أن يفعل — فكيف كان يسعنى ، دون أن أصم نفسى بوصمة الخيانة للضيف في إقرائه ، أن أنزل به الموت الذى يستحق ؟ لو أنه قتل أبى ثم شاركنى بعد ذلك في طعامى وشرابى ، ما كان لى أن أؤذى شعرة من شعرات رأسه ، ولكن دعونا منه — ولنبعد من بيننا جثته وذكره » .

فنقلت جثته ومحيت علامات القتل أو ووريت بمحق وعلى عجل ، مما كان يدل على أن أمثال هذا الحادث كانت مألوقة معهودة ، حتى أن أعوان صلاح الدين والضباط من حاشيته لم يصعق منهم أحد .

ولكن الأمراء المسيحيين أحسوا بأن المنظر الذى شهدوا كان شديد الوقع على نفوسهم ، وقد اتخذوا مقاعدهم فى المأدبة نزولا عند دعوة السلطان ومجاملته لهم ، إلا أن ذلك قد تم فى صمت الشك والدهشة ؛ ولم تعل على كل أسباب الريبة والارتباك نفس غير نفس رتشارد وحده ، ومع ذلك فقد بدا عليه كأن خاطراً طرأ له يجب أن يسوقه فى أسلوب مقبول شديد الإيحاء على قدر ما يستطيع ، وأخيراً احتسى قدحاً كبيراً من النبيذ حتى ثمالته ، ووجه الخطاب إلى السلطان ، وأراد أن يعرف إن كان حقاً أن (إيرل هنتنجدن) قد تشرف بمنزلته .

فأجاب صلاح الدين باسماً وقال : إنه امتحن حصانه وسلاحه مع وريث اسكتلندا ، كما يفعل الفرسان عادة فيما بينهم حينما يلاقى فى الصحراء بعضهم بعضاً ؛ ثم قال متواضعاً إن الضراب لم يكن حاسماً قاطعاً ، إلا أنه من ناحية ليس لديه سبب قوى يحمله على أن يفخر بنفسه فى هذا الحادث ؛ وأنكر الاسكتلندى من ناحية أخرى هذا الفضل الذى نسب إليه ، وأراد أن يعزوه إلى السلطان .

فقال رتشارد : « حسبك ما نلت من شرف في هذا النزال ، وإنى لأحسدك على هذا أكثر مما أحسدك على بسمات أدبى بلاتاجنت ، وإن كان أحد الأمرين يكفى جزاء على جهد يوم دام — ولكن ماذا أنتم قائلون أيها الأمراء الأشراف ؛ هل يليق بملقة ملكية من الفرسان كهذه أن تنفض دون أن تعمل شيئاً لمستقبل الأيام تتحدث به ؟ ما نبذ خائن ، وما قتله ، لهذه الجماعة الشريفة النبيلة الحاشدة في هذا المكان ، والتي ينبغي أن لا تتفرق دون أن تشهد شيئاً جديراً باعتبارها ؟ ماذا تقول أيها السلطان المليك — ماذا لو فصلنا الآن أمام هذه الجماعة الطيبة في الإشكال الذى طال عليه النزاع ، إشكال هذه الأرض ، أرض فلسطين ، فنختم في الحال هذه الحروب الشاقة ؟ ها هي ذى الرحبة على استعداد ، ولن يطمح الإسلام إلى بطل خير منك ، ولسوف أرمين بقفازى نيابة عن العالم المسيحى ، إلا إن تقدم من هو أجدر منى ، وفي محبة الشرف نعتك عرا كافاصلا لحيازة بيت المقدس » .

وساد صمت عميق ارتقاباً لجواب السلطان ، وعلت الحمرة الشديدة جبينه وخديه ، وظن الكثير من الحاضرين أنه تردد في قبول المبارزة ، وأخيراً قال : « إن أنا قتلت في سبيل المدينة المقدسة ، في وجه من نراه من الوثنيين وعبداء الأخشاب والحجارة والتماثيل المنحوتة — وإنى على يقين من أن الله سوف يشد أزرى — ولئن سقطت تحت حسام الملك رتشارد ، فإنى لن أنتقل إلى الفردوس بميتة أشرف من هذه ، ولكن الله قد أعطى بيت المقدس للمسلمين المؤمنين ؛ وإنه لن الكفر برب النبي أن أسوق إلى المخاطر — رهنا بقوتى وحذق — ما أملك مطمئناً بتفوق جيوشى » .

فقال رتشارد بنعمة من يطلب الرضا من صديق حميم : « إن لم يكن من أجل بيت المقدس ، إذن فلتبارز حبا للشرف ثلاث مرات على الأقل برماح مسنونة » .

فايتسم صلاح الدين قليلاً لهذا الشغف القوى بالنزال عند قلب الأسد وقال :

« وحتى هذا ليس لى شرعا أن أفعله ؛ إن السيد يضع الراعى على رأس القطيع ، لا من أجل الراعى ، ولكن من أجل الغنم ؛ لو كان لى ابن يحمل الصولجان بعد سقوطى لكنت لى الحرية — كما أن لى الإرادة — فى مجابهة هذا النزال الجرىء ، ولكن لقد جاء فى إنجيلكم ذاته أنه إذا ضرب الراعى تشتت الرعية » .

فالتفت رتشارد إلى (إيرل هنتنجدن) ونهده وقال : « لقد فزت بكل توفيق ، والله إنى لأعطى خير سنى حياى لنصف ساعة بجوار (درة الصحراء) ! » .

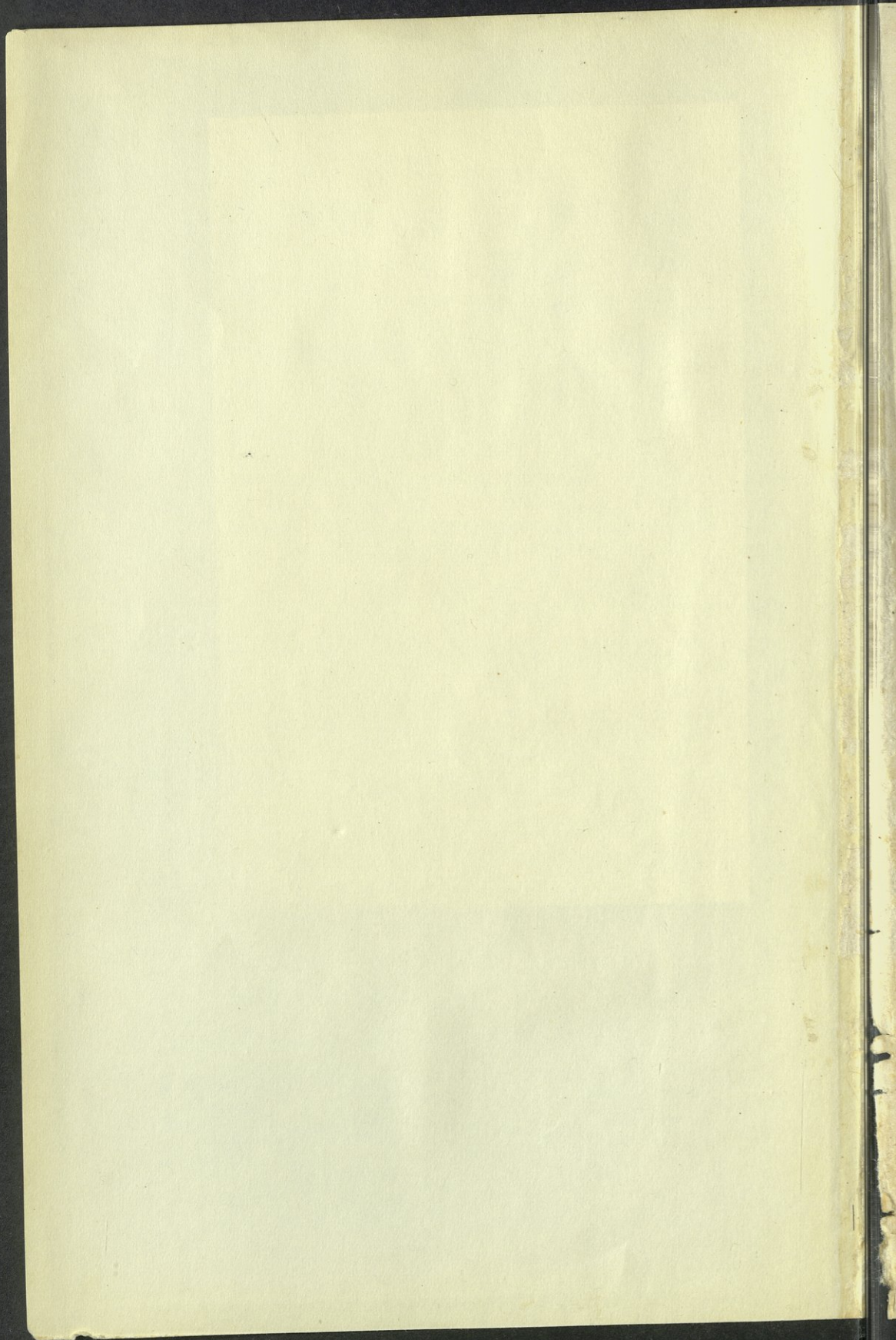
وحرك فرط الفروسية فى رتشارد نفوس الحافلين ، ولما نهض أخيراً للرحيل تقدم صلاح الدين ، وأمسك قلب الأسد من يده .

وقال : « أى ملك انجلترا النبيل ، إنا نفترق الآن على غير لقاء ، وإنى أعرف جيداً — كما تعرف أنت — أن عصابتك قد تفككت عراها ولن تلتئم ، وأن جيوش بلدك قليل عديدها ، ولا تتمكنك من مواصلة ما شرعت فيه ؛ إنى لا أستطيع أن أسلم لك بيت المقدس هذا الذى تتحرق شوقاً إلى حيازته ، فهو لنا — كما هو لكم — بلد مقدس ، ولكن أية شروط أخرى يطلب رتشارد إلى صلاح الدين أسلم لك فيها راغباً كما تتدفق المياه من تلك العين ؛ أجل ، ولسوف يهب صلاح الدين كما تهب العين ، بغير مواربة ، حتى وإن وقف رتشارد فى الصحراء ، وما يتبعه غير اثنين من رماة السهام ! » .

وشهد اليوم الثانى عودة رتشارد إلى معسكره ، وبعد فترة وجيزة تزوج (إيرل هنتنجدن) الشاب من (أديث بلاتاجنت) ، وبعث السلطان (بالطلمس) الشهير هدية بمناسبة القران ؛ ولقد تم به شفاء الكثيرين فى أوروبا ، غير أنه لم ينبج فى أيهم ، ولم يشتهر أمره ، نجاحه وشهرته فيما أنجز صلاح الدين ؛ وهو ما يزال على قيد البقاء ، فلقد ورثه (إيرل هنتنجدن) فارساً شجاعاً من أبناء اسكتلندا ، هو (السر سيمن لى) ، وما تزال أسرته العريقة ، صاحبة الشرف

الرفيع ، تحتفظ به ، ورغم أن الحجارة المسحورة قد بُيِذت من علم الصيدلة الحديث ، إلا أن فضائل هذا الطلسم ما زالت تستخدم في إيقاف الدم ، وفي حالات الجنون الكلي .

١٨٢ / وهنا تنتهى قصتنا ، إذ أن الشروط التى كف من أجلها رتشارد عن غزواته مبسوبة فى كل كتاب من كتب التاريخ عن ذلك العهد .



DATE DUE

19 APR 1949

33
Circulation DE

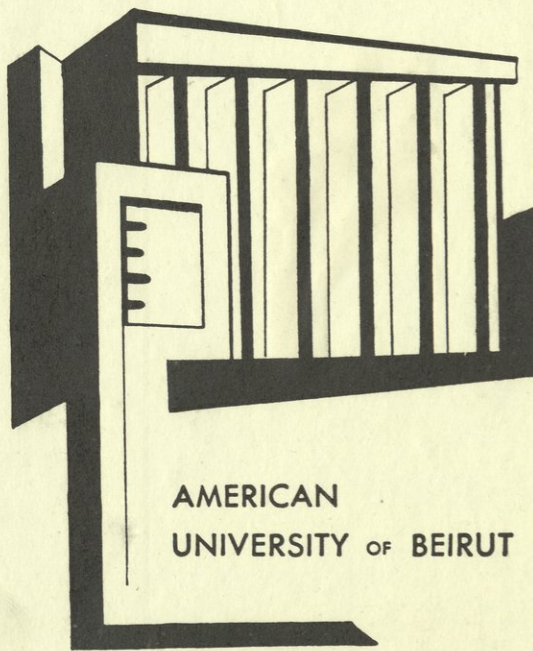
823:Sc43tA:c.1

سكوت، السير وولتر
الطلسم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031359



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

